هدية قرص C.D. - المحاضرات الإذاعية كاملة

لطائف التفسير

من

سورة يوسف

الدكتور
فؤاد العريض

نحن نقص عليك أحسن القصص

دار المعرفة
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمدُ لله الذي شاءَ أنْ يكونَ القرآنُ العظيم هدىً للعالمين إلى يومِ الدين. . . وأَشهدُ أَن لا إله إلا الله الواحدُ الفردُ الصمد، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه إلى العالَمين، عليه أفضلُ الصلاةُ وأتَمُّ التسليم، وعلى آله وصحبه أجمعين ومَنْ تبعه بإحسانٍ إلى يومِ الدين. . .

وبعد، وبالله التوفيق، فإنَّ لنا في قصص القرآنِ الكريم عظةً وعِبرة، ما أنزلَ الله تعالى شيئاً منها عَبَثاً، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً. بل لا تَزالُ الأجيال تقرأ كتاب الله تعالى، وتكتشِفُ فيه مَن الكُنوزِ بلا حدود، تأكيداً بأنه مُعجزةُ الله تعالى الخالدة. مِصداقاً لقولِ الرسولِ الكريمِ فيما رَواهُ عَنْهُ الإمامُ أحمدُ في مسنَدِه: أنه قال: «**أتاني جبريلُ عليه السلامُ فقال: يا محمد: إنَّ أُمتَك مختلفةٌ بعدَك. قال: فقلتُ له: فأينَ المخرجُ يا جبريل؟**، **فقال: كتابُ الله تعالى به يَقْصِمُ الله كلَّ جَبّار، مَنِ اعتصَم به نَجا. ومن ترَكَه هلَك** - مرتين - **قولٌ فصْل وليس بالهَزْل. لا تخْتَلِقُهُ الألْسُن، ولا تفْنَى أعاجِيبُه فيه نبأ ما كان قبلَكُم، وفصْلُ ما بَيْنَكُم، وخبرُ ما هو كائنٌ بعدَكُم**». صدقَ رسول الله.

ولقد تأمَّلْتُ في سورةِ يوسفَ عليه السلام، فوَجَدْتُ أنها حَوَتْ فيما حوتْ جماع عِلْم النَّفْسِ الإسلاميِّ الإنسانيِّ بأكْمَلِهِ، وما ترَكَتْ صغيرةً ولا كبيرةً، في هذا العلم، إلا أتت على ذِكْرِه، بل إنَّ قواعدَ عِلْمِ النفسِ التي وضَعَها العلماءُ الغربيون بعدَ جُهدٍ وبَحْثٍ، قاصرةٌ قُصوراً شديداً عن بلوغِ قواعدِ علمِ النفسِ في هذه السورة.

فإذا بها تضم كل معالم المشاعر والإنفعالات، والدوافع والغرائز، والضوابط

والحدود، وتقلبات أحوال النفس من حب وكره، وشغف وكيد، وشوق وفقد، وترقب وأمل، ويأس وقنوط، وعزيمة، واندفاع، وأسى وأسف، وندم واستغفار. . .

وكنت قبل ذلك قد التزمت مع إذاعة القرآن الكريم من لبنان التابعة لدار الفتوى في الجمهورية اللبنانية بإعداد وتقديم برنامج «**لطائف التفسير**»، والغاية منه تقريب فهم آيات القرآن الكريم من أذهان الناس، ومحاولة الوقوف عند جمالية آي الذكر الحكيم، وإشراك الناس في تذوق هذه الجمالية وصولاً إلى جعلهم يعيدون القرآن الكريم إلى حياتهم ويصلون ما انقطع من صلة بينهم وبينه.

وإذا بي أسير مع سورة يوسف بصورة منهجية تسلسلية، آية آية، نتوقف متأملين هذه الكنوز العظيمة التي حوتها ونجول مع أحداثها، ومنها نأخذ معالم هذا العلم الضخم الذي ينظم منهج سلوكنا في حياتنا الدنيا ومنه يتحدد مصيرنا في حياتنا الأخرى.

ثم أني رأيت، طمعاً في تعميم الإفادة أن أخرج هذه الحلقات في كتاب سميته «**لطائف التفسير من سورة يوسف**»، يمكن للمرء أن يعود إليه متعلماً ثم معلماً، فيعم بذلك الفضل والأجر.

ثم بدا لي، وأنا أعيد قراءة النص، أن أضيف إلى أصل الكتاب، هوامش تحت عنوان: مواطن الاسترشاد بالآية في الحياة اليومية، والهدف منها جعل آيات القرآن الكريم حاضرة في أذهان الناس متداولة بينهم في معاشهم وتقلبهم مع الحياة يتعلمونها ويهذبون بها ألفاظهم، ويعلمونها أبناءهم من بعدهم، فيكونون بذلك خير سلف لخير خلف.

وحيث أني أطمح إلى توسعة دائرة الإفادة من هذا الجهد إلى أوسع مدى، ولما كانت المادة الأساسية محفوظة بصيغتها الصوتية فلقد آثرت أن أرفق بكل نسخة من الكتاب نسخة كاملة من التسجيل الصوتي على قرص مدمج، فيمكن بذلك لمن لا يستطيع القراءة أن يستمع إلى المادة الصوتية كما أذيعت في إذاعة القرآن الكريم من لبنان.

ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم في إنجاح خروج هذا الكتاب إلى النور، وأخصّ بالشكر على وجه الخصوص، الأخت الحاجة هند عجوز، التي واكبت حلقات لطائف التفسير، خطوة خطوة، مبدية كل الإخلاص والتفاني لإخراجها إذاعياً في أبهى حلة، واضعة كل خبرتها الإذاعية وحصافتها اللغوية، وحسها الأدبي في تصرف النص، وكانت تضحي من ثمين وقتها، ما أعجز عن وصفه، وعن شكرها عليه.

وأخص بالشكر أيضاً أصحاب الفضيلة الشيخ إبراهيم البرهوي، والشيخ أحمد دندن، والشيخ جهاد الأمير، والأستاذ زياد دندن، والسادة: مالك التنير، ورامز بكداش وحسام الحسامي وخضر قاسم

ولكل منهم فضل في إتمام هذا العمل، أسأل الله تعالى لهم الأجر العميم، وأن يجعل جزاءهم في ميزان حسناتهم يوم الدين

فلئن وفقت فيما أصبو إليه، فذاك من فضل الله تعالى وكرمه علي، ولئن أخطأت أو تجاوزت، فذاك مني أسأل الله تعالى أن يغفره لي، فما أنا إلا إنسان يصيب ويخطىء.

وإذا ما فتح الله تعالى على غيري ما لم أصل إليه في تأملي لهذه الآيات، فحبذا لو تكرم علينا بهذا الفتح، عسانا نثبته بديلاً عما وصلت إليه.

اللهم إني أسألك سؤال الفقير إلى عفوك ورحمتك ورضاك، أن تتقبل مني عملي خالصاً لوجهك الكريم، وتريني الحق حقاً وترزقني اتباعه، وتريني الباطل باطلاً وترزقني اجتنابه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

خادم علوم القرآن الكريم

فؤاد العريس

٢/ ذي الحجة/١٤٢٤هـ

٢٥/ كانون الثاني/٢٠٠٤م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١]

تبدأ الآيةُ الأولى أخي المؤمن، بقولِه تعالى: ﴿الر﴾ وهي من فواتح السُورِ، وهي من معجزاتِ القرآنِ الكريم. ولقد توقَّفَ السادةُ العلماءُ عندَ فواتحِ السورِ وقوفاً طويلاً لا نقِفُه هنا. وإنما نَخْتَار من أقوالِهم أنها إيذانٌ لفُصَحَاء العربِ وأُدَبَائِهم، أنَّ هذا القرآن مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ الله تعالى. وأنَّ فيه تحدياً كبيراً لهم، أنْ يأتوا بمِثله، وهم في واجهةِ الناسِ السائرينَ خلْفَهم. المنتظرين لإمكاناتِهِمْ الأدبيةِ في المجيء بمثْله، ولقد ساهمَ المتصدُّون منهم في إحقاق الحقِ دون إرادة منهم بإعلانِ عَجْزِهم وفشَلِهم، فاستيقنَ العامةُ بأنَّ هذا القرآن هو حقاً منْ عندِ الله تعالى. اللطيفةُ الجميلة في قولِه تعالى: ﴿الر﴾ أنها تضع المستمِع للقرآن الكريمِ في حالةِ إنصاتٍ، لأنها أتَتْ بجديدٍ غريبٍ ما اعتادتِ الآذانُ سماعَهُ في بدايةِ الأحاديث، وفيها تحضيرٌ نفسي له، دَأَبَ أهلُ الاختصاصِ في أيامِنا على اعتمادِه كوسيلةٍ للفتِ الأنظار، ما توافَقوا على تسميتِه بالمؤثراتِ العامة. كالمؤثرات الضَوْئيّة. أو المؤثرات الصَوْتِية. وهنا، ولله تعالى المثلُ الأعلى، نُسَمِّيها بالمؤثراتِ النفسية.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿تلكَ آياتُ الكتاب المبين﴾.

في هذا الشَطْرِ من الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ﴿تلك آيات﴾ فمِنَ المعروفِ في اللغةِ، أنَّ «هذه» تُسْتَعْمَلُ للإشارةِ إلى القريب. بينما ﴿تلك﴾ تُستعملُ للبعيد، إلا أنه في مضمارِ البلاغةِ، يُمْكِن الإشارةُ إلى القريبِ باستعمالِ أدواتِ البعيدِ، للتعبيرِ عن بعدِ المرتبةِ في الكمالِ وعُلُوِّ الشأن.

اللطيفة الثانية: تظهَرُ في الأسلوبِ اللُّغويِّ الذي نَزَلَتْ به هذه الآية، مقارنةً معَ الظرفِ المكانيّ والزمنّي الذي نَزَلَتْ به السورة، فقد نَزَلَتْ سورة يوسف الهادئة الهانِئة، ذاتُ الأسلوبِ القَصَصِي، في الفترةِ المَكيَّةِ مِنَ الدعوة، فترةِ المصاعبِ والمشاقّ. والتضييقِ والاضطهاد، والملاحقةِ والتعذيب، في عامٍ هو أصعبُ الأعوامِ على رسول الله ﷺ ألاً وهو عامُ الحُزْن. عامٌ فَقَدَ فيه عَمّه أبَا طالب وزَوْجَتهُ السيدة خديجة. وكانتِ السورُ تنْزِلُ على رسول الله ﷺ ذات وقعٍ عنيفٍ على الكُفّار، جَزْلَى زاجِرَة، صورٌ قصيرةٌ بآياتٍ قصيرة، حتى القِصصُ فيها قصيرة. ذاتُ وتيرةٍ سريعةٍ مُتَلاحِقَة، وإذا بسورةِ يوسف، تُفْتَتَحُ بآيةٍ واسعةٍ شاملة، هادئةٍ مُطْمَئِنة، تَبْعَثُ الطُمأْنينَة في النفوس، فيها إشاراتٌ خفيةٌ للرسولِ والمؤمنين معه، بأنَّ الطُمأْنينَة قادِمة، وها نحن نَقرأها اليوم، فيُخَيَّلُ إلينا، وكأنها سورةٌ مَدَنيّة. الأُسلوبُ فيها يقاربُ أسلوبَ السُّورِ المَدَنِيّة، وما كانَ الرسولُ ولا المؤمنون معه يومها، قد عاشُوا الفترة المدَنِيّة، وتلك واحدةٌ من صورِ الإعجازِ في القرآنِ الكريم، وبذلك نفْهَمُ جيداً معنى قوله تعالى: ﴿تلكَ آياتُ الكتابِ المبين﴾، أي إنَّ القرآن كُلّه مِنْ عند الله تعالى، سواءٌ أنزلَه في الفترةِ المكيَّةِ، أو في الفترةِ المدنيّة، ومَنْ كان عنده شك، فليقرأ سورة يوسف، وليَنْظُرْ في توقيتِ نُزولِها، فسيتيقن أنَّ الكتاب واحد، وأنَّ مَنْ أَنْزَلَهُ هو أدْرَى بمآل الدعوةِ ومصيرِها، فكانَ هذا البرهان الساطع.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿إنا أنزلْناه قُرآناً عربياً لعلكم تَعْقِلُون ﴿٢﴾﴾[١].

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في دقةِ الوصْفِ الإلهيِّ للقرآن. فبالمقارنَةِ معَ الآيةِ السابقة، حيث يصِفُه الله تعالى بأنه كتابٌ مبين، أي أنه يُكْتَبُ في الصحائفِ، فيَتِمُّ حِفْظُه في هذه الصورة. تأْتي الآيةُ التي نحنُ بصددها فيصفه الله تعالى، بأنه قرآن، أي يَحْفَظُهُ الناسُ في أذهانِهم، ويقرأونه بألسنتهم، وتلك صورةٌ أُخرى مِنْ صورِ الحفْظ، ولم يعرفِ الناسُ في العصورِ السالفةِ غير هاتين الصورتينِ مِنَ الحفظ، ثم فتَح الله تعالى على الإنسانِ أبوابَ العِلْم، فإذا به يتَدَرّج في أساليبِ الحفِظِ إلى صورٍ جديدة، منها الأشرطةُ المُسَجَّلَةُ المُمَغنَطَة، السَمْعِيّةُ والمَرئِية، وها هو اليومَ، يَحْفَظُ القرآن الكريمَ على الأقراصِ المُدَمّجة، وفي صحائفِ الأقراصِ الصُلْبة، في بطونِ الحواسيب، وما فعَله إلا ليؤَكِّدَ خلودَ قولِ الله تعالى: ﴿إنا نحنُ نَزَّلنا الذِكْرَ وإنّا له لحافظون﴾[٢].

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿إنّا أنزَلْنَاهُ﴾ ونَلْحَظُ هنا أنها إحدى الصِيغِ التي أرادَها الله تعالى للتعبير عن حالِ وصولِ القرآن إلى الناس، ولقد تعدَّدَتِ الصيغُ في القرآن الكريم، فالله تعالى يقول: ﴿نزَل﴾، ﴿وأنزل﴾ ﴿ونزّلْناه﴾، ﴿ونزَّلَه﴾، ﴿وأنْزَلَ﴾، ﴿ونُزّل﴾، ﴿وأنْزَلنا﴾، ولكلٍ من هذه الصيغِ مدلولاتُها ودِقتها، فسبحان الله العظيم، تعالى شَأنه وجَلَّتْ قدرتُه فيما أنْزَل.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿قرآناً عربياً لعلكم تعقِلُون ﴿٢﴾﴾[٣].

لقد نزلتِ السورةُ في قريشٍ في مكة، مَعْقلِ العربيةِ، ومُلْتقَى فُصَحاءِ

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٢].
(٢) [سورة الحجر، الآية: ٩].
(٣) [سورة يوسف، الآية: ٢].

العرب، وجهابذةِ اللغة، أصحاب الفصاحةِ والبلاغةِ والبَيان، الذين يرْقُبُون كلام الخُطباءِ والمتكلِّمين، ويُصَنِّفُونهم ويَنْتَقِدُونهم. لقد جاءَهُمْ رجلٌ أُمِّيٌّ بكلامٍ عربي مبين، ثم أعْلَمَهم بأنه مِنْ عند الله تعالى. وتحدَّاهُم أنْ يأتُوا بمِثْلِه فما استَطاعُوا، ثم تحدَّاهُمْ بأَنْ يأتوا ببعضٍ من مِثْلِه، فما استَطَاعُوا. ثم تحَدَّاهُمْ أنْ يَأتوا بسورةٍ واحدةٍ مِنْ مِثْلِه، فما استطاعوا، فزُلْزِلُوا في أمتنِ ما يَمْلِكون، وبذلك نفْهَمُ معنى قولِه تعالى: ﴿**إنّا أنزلْناه قُرآناً عربياً لعلَّكُمْ تعقلون**﴾.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**نحن نقُصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليك هذا القرآن وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِه لمن الغافلين ﴿٣﴾**﴾[(١)].

وفي هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ﴿**نحن نَقُصُّ عليك**﴾.

وحين يأْتي الخِطابُ منَ الله تعالى بصيغةِ الجَمْع، فإنّ ذلك يتَّفِقُ معَ المرادِ مِنْ لفت أسماعِ الناسِ إلى أهميّةِ الموضوع المُثارِ، ما يُضْفِي رَهْبةً عاليةً تَحْمِلُ المستمِعَ على الإنْصات.

وفي اختلافِ الصيغِ دِقّةٌ مُتناهية: فإنْ المُتَتَبِّع لآياتِ الكتابِ. يجدُ أنَّ الله تعالى حين يُنْزِلُ آيةً في معنى العقيدةِ والتوحيد، يُنْزِلُها بصيغةِ المفرد، كقولِه تعالى: ﴿**إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبُدْني**﴾[(٢)] أو كقولِه تعالى: ﴿**يا موسى إني أنا الله رَبُّ العالمين**﴾[(٣)].

أما حينَ تأتي الآية في غير مَعْنَى التوحيد، فنراها بصيغةِ الجَمْع، كقولِه تعالى: ﴿**ولا تقتُلوا أولادَكُمْ مِنْ إملاق نحن نَرزُقُكم وإيَّاهم**﴾[(٤)] أو كقولِه

---

(١) [سورة يوسف، الآية:٣].
(٢) [سورة طه، الآية: ١٤].
(٣) [سورة القصص ، الآية: ٣٠].
(٤) [سورة الأنعام، الآية: ١٥١].

تعالى: ﴿**نحن أعلمُ بما يستمعون به إذْ يستمعونَ إليك**﴾[١].

فانْظُرْ أخي المؤمن، إلى دقةِ القرآنِ في إيراد الصيغ.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿**نحن نَقُصُّ عليك ﴿٣﴾**﴾.

وكلمةُ «**عليك**» ليستْ لازمةً لتمَامِ المعنى، إلا أنها تَحْمِلُ الكثير من المعاني.. فلقدِ اختصَّ الله تعالى نبيه الكريم بالذكر، زيادةً في التشريفِ والتكريم، لإراحةِ نفسِهِ، وإذهابِ حُزْنه، وهو في لحظات نُزولِ السورةِ الكريمةِ في حالٍ من الحُزْنِ شديدة، ويصِلُ بنا التأمُّلُ إلى فَهْمٍ أعْمَقَ في مواقيتِ نزولِ القرآنِ وأسبابِهِ: فنحن نعلم أنّ القرآن الكريم نَزَلَ إلى السماءِ الدنيا جملةً واحدة، ثم أمرَ الله تعالى جبريلَ عليه السلام، بإنزالِهِ على قَلْبِ الرسولِ الكريم تَترا، بأوقاتٍ محدودةٍ، تتّفِقُ معَ مُسْتَلْزَمَاتِ نُزُولها، متوافقةً معَ الأحداثِ التي ستَجْرِي، فسبحان الله العظيم القائلِ في كتابهِ الكريم: ﴿**وإنْ مِنْ شيء إلا عندَنا خزائِنُه وما نُنَزِّلُه إلا بقَدَرٍ مَعْلُوم**﴾[٢].

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**نحن نقُصُّ عليك أحسَنَ القَصص**﴾.
فالله تعالى وصَفَ سُورةَ يُوسُفَ في احتوائِها لقِصّتِه، بأنها أحسنُ القَصَص. وحين يقولُ الله تعالى عنها ذلك. وهو الذي خَلَقَ العَقْل وخَوّلَهُ سرْدَ القِصَص، وأعطاهُ مبادىءَ عِلْمِ القَصَص، وجَعَلَ مِنَ القَصَص إحدى مُمَيّزات الإنسان في استرجَاعِ الأحداث وتقويم التصرُّفاتِ واستخلاصِ العبر، فإنْ ذلكَ يعْنِي بأنّ الله تعالى، أوْصَلَها إلى مرتبةِ الكَمال وجعلَ فيها كل المُقوّماتِ التي تُبْنَى عليها القِصَص، من حيثُ الموضوعُ، والزمانُ والمكانُ وتسَلْسُلُ الأحداث، وإبرازُ تَقَلُّباتِ أحوالِ النفسِ الإنسانية، وتكيفُ الأسلوبِ معَ الوقائعِ، وكيفيةُ الانتقالِ

(١) [سورة الإسراء، الآية: ٤٧]

(٢) [سورة الحجر، الآية: ٢١].

مِنْ حَدَثٍ إلى آخر، واستعمالُ أعْلَى أوْجُهِ البلاغةِ والبيانِ، وأوْدَعَ فيها عِلْماً كاملاً، لم يَسْتَخْلِصِ الإنسانُ حتى الآن كُلَّ كُنوزِه. ولا عجب. فالجواب يأتي عَنْ مصْدرِه مُباشرةً، في تَمامِ الآيةِ بقولِه تعالى: **﴿بما أوْحَيْنا إليكَ هذا القرآن﴾**.

اللطيفة الرابعة: في قولِه تعالى: **﴿وإن كُنت مِنْ قبلِه لِمَن الغافلين﴾**.

في هذا الشطرِ الأخيرِ مِنَ الآية، تأكيدُ التثبيتِ بأنّ هذا القرآن هو من عند الله تعالى، وذلك مِنْ وَجْهينِ اثنين:

الأول: أنَّ الرسول ﷺ كان أُمياً لا يَعْرِفُ القراءة والكِتابة، ولم يقرأ قِصَص الأوّلين، وقد حاولَ اليهودُ وهم أهلُ كتاب، أنْ يَمْتَحِنُوه فسألوهُ عَنْ قصةِ يُوسف، وهم يَعْرِفونها. فأنزلَ الله تعالى هذه الآية: **﴿نحن نقُصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوْحَيْنا إليك هذا القرآن وإنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِه لِمَنْ الغافلين﴾** ثم تَلَتْها مباشرةً آياتُ قصّة يوسفَ عليه السلام.

الثاني: أنَّه لو كان الرسولُ عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم، هو الذي يتقوّل القرآن وينسُبُه إلى الله تعالى، لتخيّرَ لنفسه الألفاظ، وما نسَبَ إلى نفْسِه الغَفْلَة، علماً بأنّه المقصودُ مِنْ قولِه تعالى: **﴿وإنْ كُنتَ مِنْ قبله لمن الغافلين﴾**، أي غيرَ عالمٍ بقصةِ يوسفَ عليه السلام، وأنّى لك أنْ تَعْرِفَ ولَمْ تجتمعْ لديكَ مُقَوّماتُ المعرفةِ، من قراءةٍ وكتابة، والأمثلةُ على ذلك في القرآن الكريم كثيرة، كقولِه تعالى: **﴿وما كُنت لديهم إذ يُلْقُونَ أقْلامَهُمْ أيُّهُمْ يَكْفُلُ مريم وما كُنْت لديهم إذْ يَخْتَصِمون﴾**[١].

* * *

(١) [سورة آل عمران، الآية: ٤٤].

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - لتثبيت بشرية الأنبياء والمرسلين في حال حصول نقاش مع أهل الكتاب، وذلك لسوق الدليل على أن صفة البشرية لا تنتقص من مكانة أنبياء الله تعالى ورسله، بل تشرفهم، ويمكنك ذكر هذه الآية: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾

٢- للتدليل على أن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى، فتذكر هذه الآية، شارحاً أنه لو كان من عند الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان ذكرها.

ثم يقول الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٢]

نبدأ أخي المؤمن معَ هذه الآيةِ بقصةِ يوسفَ عليه السلام، في افتتاحٍ مباشِرٍ مُوجَز، يضَعُ القواعدَ للمحورِ الأولِ في القِصة، بموجِبِ حوارٍ يدورُ بين يوسفَ عليه السلام، وأبيهِ يعقوبَ عليه السلام، وكلاهما مِمَّن اصطفى الله تعالى مِنْ ذُريةِ إبراهيمَ عليه السلام، وكلاهما مَنْ وَهَبَ الله تعالى منَ الصفات العُلى، بينَ بني البشر. فحريٌ بنا أنْ نستَمِعَ مُنصِتينَ إلى ما جاءَ في الحوارِ بينهما.

تبدأ الآيةُ بقولِه تعالى: **﴿إذْ قالَ يوسفُ لأبيهِ يا أبَتِ إني رأيتُ﴾**.

لقد وضَعَتْنا الآية مُبَاشَرَةً في مشْهَدِ الحوارِ الذي نفْهَمُ منه كلَّ ما يَنْبغي فَهْمُه لمتابعةِ الأحداث:

فيوسفُ عليه السلام، قد التجأ إلى أبيه النبيِّ يعقوبَ عليه السلام، ليُبْلِغه ما رأى في المنام، طالباً منه المساعدةَ في تأْوِيلِ ما غُمّ عليه مِنَ الرؤيا.

ويعقوبُ عليه السلام، كان قد مَنَّ الله تعالى عليه مِنْ قَبْلُ بفضلِ تعبيرِ الرُّؤيا. ثم أكرمَ ابنَه يوسفَ عليه السلامُ من بعدِه بهذا الفضل، والذي سيكونُ أحَد المعالِم الرئيسية في بُروزِ شخصية يوسفَ عليه السلام.

ونجدُ أنَّ موضوعَ الرؤيا، هو محورٌ أساسيٌ في قصةِ يوسفَ، والأحداثُ الجسام التي حصَلَتْ في زمنه، دارَتْ حولَ الرُّؤَى وتفسيرِها. كما أننا نجدُ أنّ صِحّة تفسِيرِها، أثَّرَتْ بصورةٍ بالغةٍ في استدراكِ نتائج أحداثٍ وقعت بعدَ حُصولِها..

ونجدُ أنّ الفصلَ الأولَ مِنْ قصةِ يوسف، يبدأ مِنْ داخلِ أُسرتِه، في طبيعة العلاقةِ التي تحكُم إخوتِه معَه: وذلك بورود الرَّقْم الثابت في الرُّؤْيا، والذي يدُورُ حولَ عددِ إخوتِه وأُمهِ وأبيه، الذين لم يَظْهَرُوا في الرُّؤْيا بصورتِهم العاديةِ التي يعْرِفُها يوسف، وإلا لانتَفَى أحَدُ عناصِر الرؤيا، ألا وهو التورية، ووجوبُ اللجوء إلى العارفِ بالرُّؤى للتفسير.

وفي هذا الشطرِ من الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ﴿**إذْ قالَ يوسفُ لأبيه**﴾ فبدأتِ الصِيغةُ بكلمةِ إذ، وهو ما لم نَعْتَد عليه في كلامنا في بَدْءِ السرد، وهي في موْضع نصْبٍ على الظرف، أي اذْكُر لهم يا محمدُ حينَ قالَ يوسفُ لأبيه.

اللطيفة الثانية: في قولِه: ﴿**يا أبتِ**﴾، والأصلُ أنْ يُقالَ: يا أبي، والتاء في الأصل للتأنيث، إلا أنه في النداءِ خاصةً، يُمْكِنُ قَلْبُ الياءِ تاءً لإضفاء الجماليَّةِ على الوقعِ الموسيقي في الأُذُن، ومَنْعاً مِنْ حُصولِ التَكْرَارِ بعدَ كلمةِ أبيه، وترتاحُ الأُذُنُ لسماعِ قولِه تعالى: ﴿**إذْ قالَ يوسفُ لأبيهِ يا أبتِ**﴾.

ونتوقَّفُ هنا قليلاً عند مسألةِ الرؤيا، وتوقيتِ بدء حُصولِها عندَ البشَر: فيوسفُ عليه السلام، حين رأى تلك الرُّؤيا العظيمة، كان حَدَثاً يافعاً في الثانية عشْرَة مِنْ عُمرِه، وقد دَلّ العِلْمُ الحديثُ أنّ الأطفالَ يبدؤونَ بتكوينِ الأحلامِ منذُ سِنِ السادسة، إلا أنه يَنْبَغِي التفريقُ بينَ أصنافٍ مختلفةٍ منَ الرُّؤَى التي تشْتَرِكُ جميعُها في خاصِّيةِ عدمِ انبثاقِها من الواقع الحسيِّ الملموس:

فهناك أضْغَاثُ الأحلام: وهي ما اصطلحَ الناسُ على تسميتِه بالكوابيسِ، أي الأحلامِ المزعجة، التي يَرى فيها النائمُ ما لا يَرْغَبُ برؤيتِه، ويستفيقُ مُنْزعِجاً مرعوباً.. وتلكَ من وساوِس الشيطانِ الرجيم..

وهناك الأحلامُ التي تَتَكَوَّنُ نتيجةَ تفاعُلِ وقْع الأحداثِ في الذهنِ التي تَجمَّعَتْ في مخازنِ الذاكرة، على مَرِّ الأيام، وقد تَحْمِلُ معنًى مُعَيَّناً، وقد تكونُ بدونِ أيِّ معنى، وغالباً ما تُنْسَى قبلَ طلوعِ الصباح.

وهناكَ ما يُسَمَّى بأحلامِ اليقظة.. وهي نتيجةُ نسيجٍ من الأفكارِ، تَتَرابطُ في الذِهنِ، حالَ الاسترخاءِ وقتَ الصَّحُو. تكونُ مُوَجَّهةً غالباً بفكرةٍ أساسيةٍ يُطْلِقُها الحَالِم، ويَتْرُكُ لها العِنَان..

وهناكَ الرؤيا، وهي ذلك الشعورُ بحدثٍ مترابطِ الأركان، واضحِ المَعالِم، متكاملِ العناصِر، يَحْمِلُ معنًى ومغزى، يُشيرُ إلى واقعةٍ مُعَيَّنةٍ تلميحاً لا تصْرِيحاً. وينبغي حَمْلُه على مَحْمَلِ الجد، فإذا حصلتِ الرُؤيا معَ مَنْ عُرِفَ بالصّلاحِ والتُّقى، فهي إشاراتٌ بوجوبِ ترَقُّبِ حَدَثٍ مُعَيَّن، ويُعادُ إلى أهلِ

العلم لتأويلِ هذه الرؤيا. وهناك الوحي، وهو ما يَنْزِلُ به الأمينُ جبريلُ عليه السلام، على الأَنبياءِ والرسل، الذين اصطْفَاهُمُ الله تعالَى من صفوةِ البَشرِيّةِ لخيرِها وصلاحِها، والذي بموجبهِ وصلَ إلينا القرآنُ الكريم، هدىً وبُشْرَى وشريعةً ونبراسا، وتلكَ أرقى صُورِ الخطابِ الربانيِّ إلى عبادِه في حياتِهم الدُّنيا.

ولقد أجمعَ العلماءُ المفسرون أنّ رُؤيا الأنبياءِ منَ الوحي.

ثم يقولُ الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: **﴿إني رَأَيتُ أحدَ عشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهُمْ لي ساجدين﴾**.

في هذا الشطر منَ الآية لطائف عدة:

اللطيفة الأولى: في دقةِ التعبيرِ، الدالةِ على نَباهةِ يوسفَ عليه السلام. ففي مثل عُمْرِه، يصْعُبُ علَى الطفلِ العادِيّ الذي يَرى كواكبَ ونجوماً، حتى في اليَقَظَة، أنْ يُحْصِيَ عَدَدَها، ويفرق بينَها.

وها نحن نُدرِك منذُ الآية الأُولى في القِصة، أنّ رُؤيَا يوسفَ عليه السلام، ما هي إلا بإعلامٍ ووحيٍ منَ الله تعالى له، وما الإحصاءُ الصحيحُ للعددِ، إلا بتوجيهٍ ربّانِيّ لإكمالِه صفاتهِ العُليا.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿رأيتُهم﴾** قد يَظُنُّ المستمِعُ أنّ في الآيةِ تكراراً لفعلِ رأيتُ. والحقيقة أنّ **﴿رأيتُهم﴾** الثانية، تأْتي بصيغةِ كلامٍ مُستَأنفٍ على تقديرِ سؤالٍ وقعَ هذا الكلامُ جَواباً له، وفي هذا استباقٌ من يوسفَ عليه السلام، لسؤالِ أبيه له عن حالِ الرُّؤيا، وتلك التفاتَةٌ جميلةٌ في كمالِ إضفاءِ صفةِ الدقةِ على وصفِ يوسفَ لرؤياه.

اللطيفة الثالثة: في تساؤلنا: كيفَ للكواكبَ المستديرةِ كالكرات، أنْ تسْجُد؟ وليسَ لنا أنْ نَذْهَبَ بعقولِنا القاصرةِ إلى القِياس الماديّ، ونحنُ نقفُ

عندَ حدودِ الإعلامِ الرباني، فلقد أَلْقَى الله تعالى في قلبِ يوسفَ عليه السلام، أنَّ هذه الكواكبَ تُذْعِنُ له بالرُّضوخ.

اللطيفة الرابعة: في تأمُّلنا لهذا الشطْر من الآية، نقف عندَ كلمةِ ﴿لي﴾ في قولِه تعالى: ﴿لي ساجدين﴾.

وفي هذا أيضاً، مَعْلَمٌ منْ معَالِم شخصيةِ يوسفَ عليه السلام، التي نَتعرَّفُ إليها تِباعاً في السورةِ الكريمة: أنْ نَرى الكواكبَ بهذه الدقة، والتدقيقُ في الوصفِ والتعدادُ أمرٌ غيرُ عادي، ثم أن نَراها تسْجُدُ ونحن لا نعْهَدُ بها السجود أمرُ أكْثرُ غرابة، وقد لا نَجْرؤُ على ذِكرِه، أمَّا أنْ نقول: إنّ الكواكبَ العظيمة، التي سَجَدَتْ، قد سَجَدَتْ للطِّفلِ اليافع، وأنْ يقولَ في نفسِه أنها قد سجَدَتْ له، فهذا يَحتاجُ إلى طاقةٍ عاليةٍ جداً، وثقةٍ كبيرةٍ في النفسِ أعْلَى، وقابليةٍ على المواجهةِ نادرة، سنَراها إنْ شاءَ الله تعالى، فيما سيلي مِنْ سيرتِه.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب أخذ رأي الكبير، وخصوصاً الوالد، لإيضاح ما غم على الفرد منا من أحداث، وذلك بضرب مثل يوسف عليه السلام ولجوئه إلى أبيه لتفسير رؤياه.

٢ - للتفصيل في الوصف حال شرح حدث معين للآخرين، فلئن أُخذ على المتحدث تفصيله، فله أن يسترشد بوصف يوسف عليه السلام كامل المشهد مفصلاً، مع واقع الإيجاز الحاصل عموماً في القرآن الكريم، فيذكر الآية.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣]

تبدأ الآيةُ أخي المؤمن في جوابِ نبيِّ الله يَعْقوب عليه السلام، تعليقاً على ما كَلَّمَهُ به ابنُه يُوسف عليه السلامُ من أمرِ رُؤْياهُ فيقول:

﴿قالَ يا بُنَيّ لا تقْصُص رُؤْياكَ على إخوتِك فيكيدوا لكَ كَيْداً﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيَة، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في التلميحِ دونَ التصريح بحالِ العلاقةِ الأُسْرَيّة التي تسودُ بينَ يوسفَ عليه السلام وإخوتِه، فنعلَمُ مباشَرةً أنّ إخوة يوسفَ لا يُكِنُّون لأخِيهم المشاعرَ نفسَها التي يُكِنُّها الوالدُ له: فهم يَحْسدونَه رُغْمَ أنه صغيرٌ فيهم، ولا يُغبِطُونَه النِعْمة، ولا يَرْجُونَ له العُلو، فلجأ إلى حمايتِه بوضعِهِ قواعدَ عامةً في طُرقِ التعاملِ فيما بينَهم. هذا الأمر، يقُودُنا مباشرةً إلى دراسةٍ معمقةٍ لمراتبِ النفوسِ في تعامُلِها معَ الآخَرين:

ففي حالِ يعقوبَ عليهِ السلام، نجدُ تجسيدَ شخصيةِ الأبِ الذي يَحْمِي الضَّعيفَ مِنْ أبنائه مِنْ سَطْوةِ الأقوياءِ فيهم، ويَتْبَع هذا التصَرُّفُ مِنْ مصدرِ مَحبَّتِه لهم جميعاً، وما مَنعُهُ الأذى عن الضعيف إلا تعبيرٌ عن محبّتِهِ الجميع، وهذا ما قد يغُمُّ على الأبناء الأقوياءِ فهمُه، فيُمْعِنُون في الكيدِ للضعيف.

وفي حالِ يوسفَ عليه السلام، فهو لا يزَال في وضعٍ لا يَسْمَحُ له بالدفاعِ

عَنْ نفْسِه، ولا حتى بتأويلِ رُؤْيَاه، ولا حتى بمعرفةِ مشاعر إخوتِه نَحْوَه، فنجدُ فيه تجسيدَ شخصيةِ البَراءَةِ المُطْلقة، الضعيفة الهشَّةِ التي لا تقوى للأحداثِ دَفْعاً، المتروكةِ لرحمةِ الله تعالى وقضائه، وهي شخصيةٌ كثيرةُ التَكْرَارِ في كل المجتمعات، يَجدُها الشيطانُ فريسةً سهلةً يُغْرِي عليها أتباعَه، فيحصُلُ بذلك بينَ الناسِ ظُلْمٌ كَبير.

وفي حالِ إخوةِ يوسف العشرة الذين يَكْبُرونه نجدُ شخصيةَ الإنسانِ الذي تَرَكَ لنفسِه هَواها، ولم يُجرِ عليها ضوابطَ الاجتماعِ الحميدة، واستمعَ لنَزْغِ الشيطانِ الذي يُزيِّنُ له السَّوء، فيُقدِمُ على أَعمالٍ تضُرُّ بالآخرينَ، لا يَرْضَاها لنفسِه ويَرْضَاهَا لهم. مِنْ هنا، نَفْهَمُ قولَه تعالى: ﴿**فيكيدوا لكَ كيدا**﴾.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿**يا بُنَيّ لا تقْصُصْ رُؤْياك على إخوتِك**﴾ إشارةٌ جميلةٌ إلى علوِ مناقِب يعقوبَ عليه السلام: ففي جوابه تعبيرٌ عن سُرْعَةِ بدِيهةٍ نافذةٍ في تأوِيل الرُّؤيا. فهو لم يُجِبْ يوسفَ في تأْوِيله لرُؤياه، بل التفت مباشرةً، إلى نتائج فَهْمِ التأويل، فحذَّر ابنَهُ منْ إخبارِ إخوتِه برُؤْياه، وهو ما يُسَمَّى بالوصولِ إلى النتائجِ بسرعة..

وفي جوابه إخبارٌ غيرُ مباشرٍ عن معرفةٍ عميقةٍ بمشاعر أبنائه فيما بينهم، ولكنه إقرارٌ في الوقتِ عيْنِه، بعدمِ قُدرتِه على تغيير هذا الواقع، الأمرُ الذي يَضَعُنَا أمامَ قاعدةٍ من قواعد علم النفس، مُفادُها: ليسَ كلُّ ما نُرغبُ به في أولادِنا حاصل، الموجب يقتضي حسنَ التربية، ثم بعدَ ذلك دعاء الله تعالى بالصَّلاح.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**قال يا بُنَيّ**﴾، لغويةٌ هذه المرة: ففي كلمةِ «**بُنَيّ**»، إعمالٌ لُغَوِيٌّ مُرَكَّب، فكلمة بنيّ أصلُها بَنَو دخلَ عليها التصغير، فصارَتْ بُنَيْوٌ، ثم قُلِبتِ الواوُ ياءً فصارَتْ بُنَيٌّ بياءَين. ثم أُضيفتْ إليها ياءُ التخصيص، فصارَتْ بُنَيِّي بثلاث ياءات، ثم أُدْغِمَتْ فصارَتْ بُنَيّ. وهي ذاتُ

وقْعِ حنونٍ مُحَبّبٍ في النّفس، تُفرِحُ القَلب في أُسلوبِ التّخاطُب الرفيع.

ثم يقولَ الله تعالى: ﴿**إنّ الشيطانَ للإنسانِ عدوٌ مبين**﴾ وتلكَ قاعدة مُطلَقَةٌ لا تَحْمِلُ استثناءات، ولا يجبُ أنْ تغْفَل عن ذهنِ أيٍّ منا. قد قالَها الله تعالى لآدم عليه السلام، مِنْ قَبْلُ حين كانَ في الجنة، وما استَثْنَى منها نبيٌ ولا رسولٌ قوْمَه، ولا خَلا منها كتابٌ مُرْسَلٌ أو صحيفةٌ مُنْزَلَة، فما بالُ الناسِ لا يُلْقُونَ إليها بالاً، ويَقَعُون في حبائِله آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار؟

ولا يفُوتُنا أنْ نقِفَ متأمِّلينَ مُعْتَبرينَ لما تضمّنته الآية الكريمةُ منْ قواعد نفيسة في علم النفس نُلَخّصها بالتالي:

أولاً: تحاسُدُ الأشقاءِ واقعٌ موجود، علينا التنبُّه إليه كآباءٍ، مَنْعاً مِنَ استشرائه بينَهم بوجودنا، وتفَجُّره مِنْ بَعْدِنا.

ثانياً: لا تقُم بأفعالٍ تُذَكّي نارَ الغيرةِ بينَ أبنائك، بل عليكَ أنْ تُقْسِطَ بينَهم، فلا تَكُن سبباً في تَبَاغُضِهم.

ثالثاً: رُغم مَعْرِفَتِكَ باستيلاء الشيطانِ على تصرفات بعضِ أبنائك حيالَ بعضِهم، عايِشهُمْ بحبٍ وحنانٍ، عسى الله تعالى أَنْ يَهْدِيَ قلوبهم.

رابعاً: لا تُظْهر النِّعمة أمامَ مَنْ تَخْشَى غائِلته كيداً وحسَداً، بل أظْهِرْها أمامَ مَنْ تَتوسّمُ به الغِبطة لك بها، تعميماً للخير.

خامساً: ليس مِنَ الغيبةِ أنْ تُحذِّرَ أخاكَ مِمّنْ تخَافُهُ عليه، شرْطَ أنْ تكونَ صادق النية، خاليَ الغَرض، مُتحقّقاً مِنَ الخطرِ الذي قَدْ يُصِيبه.

سادساً: إلجأ إلى مَنْ تَتوسَّمُ فيه الخير لك، للنُّصح والمشُورة.. ولا تتفَرّدْ بالاجتهادِ في حلِ ما استعْصَى عليك، فما غُمّ عليكَ انْجَلَى عند غيرك.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجود واقع التحاسد بين الأخوة حتى بوجود والدهم ووجوب الإعتراف به والتنبه إليه.

٢ - للدلالة على وجوب اعتماد أسلوب الحكمة والحنكة في التعامل مع الأبناء، والتعرف إلى معالم شخصيتهم وفصل منازعاتهم.

٣ - للدلالة على عداوة الشيطان للإنسان، القائمة المستمرة إلى يوم الدين بلا هوادة ودون توقف.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤]

تبدأ الآية أخي المؤمن، بتَعْدَادِ فضلِ الله تعالى على يوسفَ عليه السلام، وما أعدّ الله تعالى له منَ الرِفعةِ والسُؤدد، أجرى الله تعالى العِلْمَ بها على لسانِ نبيِّه يعقوبَ عليه السلام، حين كان يوسفُ لا يزالُ يافعاً حدَثا، وفي ظروفٍ يُخْشَى عليه فيها المخاطر، وظاهرُ الحالِ يتَّجه بيوسفَ نحوَ اللا أمان، منْ حسَد إخوتهِ مجتمعينَ عليه، فإذا بهذه الكراماتِ منَ الله تعالى، تُردُهُ منْ ثلاثةِ محاور:

المحور الأول: في قوله تعالى: **﴿وكذلك يَجْتَبيك ربُك﴾**

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: حصولُ التأكيدِ بالأمانِ اللاحقِ في بدء الآيةِ بكلمةِ

﴿وكذلك﴾، فهي تحملُ ضِمناً كلاماً لم نَسْمَعْهُ مِنْ تطمين يعقوبَ عليه السلام، بأنَّ ما سيحصلُ مع يُوسفَ، ليس إلا أحداثاً عابراتٍ وأنه في حِمى الله تعالى..

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿**يَجْتَبِيكَ ربُّك**﴾ وهي الإشارةُ الأُولى في تفضيلِ يوسفَ على العالَمينَ في عصرِه كما فضَّلَ آباءه من قبلُ إبراهيمَ وإسحاق ويعقوب وهذه الكرامة بالغةُ الأهمية، إذ إنها ذاتُ مدلولاتٍ واسعة:

- فهي تفيدُ بأنَّ الله تعالى، قد تعَهَّدَ حِفْظَهُ منْ كلِّ المكارِه التي سيَتَعَرَّضُ لها، مهما عظُمَتْ، وهي التي غُمَّتْ عليه لعدمِ عِلْمِهِ بالغيب، إلا فيما كشف الله تعالى له..

- وهي تُفيدُ بأنّ الله تعالى قد قَرَّبَهُ منه، ليجعَلَهُ منْ خلاصة أصفياء البَشَر، فيودِعَ فيه من الصفاتِ التي يُحبُّها الله تعالى له، منَ الصدقِ والأمانةِ والقوةِ، والمَنَعةِ والإخلاص والصلاحِ والتقوى، وبُعد النظرِ وفصاحَةِ اللسانِ وحُسْنِ التَدَبُّر.

- وهي تفيدُ بأنّ الله تعالى يُحيطُهُ بالمحبةِ الخالصة، فيكونُ أهلاً للنبوةِ اللاحقة، وأنَّ الله تعالى سيُعطيه الوسائلَ الخاصة التي تُمَكِّنُهُ مِنْ إتمامِ مُهِمَّتِهِ.

المحور الثاني: في قولِه تعالى: ﴿**ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديث**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ﴿**ويُعَلِّمُك**﴾ وما أجْمَلَها مِنْ كرامةٍ أغْدَقَ بها الله تعالى على يوسفَ عليه السلام، أنْ تَكَفَّلَ بتعليمِه. فهو لم يُحِلْهُ إلى أبوابِ التعلُّم التي يَعْرِفُها البشر، ولم يَجْعَلْ له مُعَلِّماً مخصوصاً يُعَلِّمُه، بل شاءَ الله تعالى أَنْ يُلْقِي في قلبِه منَ العلومِ الإلهيةِ الخالصةِ التي لا طَريقَ للشيطانِ إليها، وتلك عِصْمةٌ جوهريةٌ في نوعيةِ العلومِ التي اختَصَّهُ بها، فما حدَثَ يوماً أنْ أخطأ في استعمالِ العلمِ الذي أعطاه الله تعالى.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿ويُعَلِّمُكَ منْ تأويلِ الأحاديث﴾، وحين يَخُصُّ الله تعالى نوعاً منَ العلومِ بالذكْر، ويجعلُ تعليمَها لنبيهِ الكريمِ أحَد معالِم فضْلِه عليه، فإننا نفْهَمُ بأنها مِيزةٌ عظيمة، تُوازِي مُعجزاتِ الرُسُلِ..

ولنتوقَّفْ قليلاً عندَ مدلولاتِ تعليمِ تأْويلِ الأحاديث:

فالرُّؤَى لغةٌ خاصةٌ غامِضة، ما ألِفَ الناسُ فِقْهَهَا، إذ إنها تخرجُ عن ضوابطِ اللُّغاتِ المَحكِيَّةِ أو المكتوبة، وتكونُ لا إرادية، يتَلَقّى الرّائي خلالَ نومِه معلومةً تكونُ مُشَوّشَةً، أو صعبةَ الربطِ بواقعه المُعاش. إلا أنها لا تخْرُجُ عَنْ مجموعِ المُكْتَسبات لديه، من حيثُ فَهْمُ المصطلحات الواردةِ فيها، وإنْ كانَتْ غيرَ مُترابطة.

وينبغي للمتصدِّي لتأويلِ الأحاديث، أنْ تتوفَّرَ فيه شروطٌ جمَّة، صعبةٌ ومعقدة، منها ما هو مُكتسبٌ بالتعلُّم، ومنها ما هو مِنْ صفاتِ شخصيته، ومنها ما هو مِنَّةٌ وتمْييزٌ ربانيٌّ عَنْ أقرانِه منَ البشر:

➢أمَّا التعلُّم، فهو يَقْتَضِي معرفةً عميقةً بمعاني الأشياءِ ومبانيها ومدلولاتها ومرونة الربطِ فيما بينها، وسعةَ اطلاعٍ، وثقافةً عالية، وإلماماً بمُجْرياتِ الأحداثِ وتطوراتِها، ودرايةً في علومِ الاجتماعِ والتاريخِ والفَلَك، وعلومِ الطبيعةِ والحيوان..

➢وأمَّا الصِفاتُ الشخصيةُ، فأوَّلُها الصِدقُ والإخلاصُ والصَلاحُ والتُّقَى، ومراقبةُ الله تعالى في السر والعلن، ومحاسبةُ النفسِ الدائمة، وإرادةُ الخيرِ، وعدمُ إفشاءِ الأسرارِ، وعدمُ استخدامِ المعلومةِ المعطاةِ فيما يضُرُّ مَنْ أعطاها، وأنْ يتمتَّع بشخصيةٍ قويةٍ، تحمِلُ طالِبَ التأويل على الثقة به، وأنْ يكونَ واضح الرؤية، واضح المنْطِق بعيداً عن الغموضِ، بعيداً عن الكِبْر، غيرَ جشِعٍ ولا بخيل، زاهداً بما في أيدي الناس، قريباً منَ الله تعالى، يرجو رَحمته.

➢وأمَّا ما هو مِنَّةٌ وتمييزٌ رباني، فهذه صفةٌ لا يد للبشرِ فيها، يتفضَّل بها الله تعالى على بعض عبادِه، فهي من نوعِ الموهبةِ في حقِ الناس العاديين، وهي مِنْ نوع المعجزة، في حق الأنبياء والرسل، يعصمهم الله تعالى بها مِنْ وساوسِ الشيطان. فلا تتداخَل معَ الاجتهاد الصحيحِ في التأويل.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأْويلِ الأحاديث**﴾ فلم يقُل الله تعالى من تأويلِ الرُّؤى، ولا منْ تأْويلِ الأحلام، والناسُ في أيامِنا يُحِبُّونَ عبارةَ الأحلام. فجاءَتْ عبارةُ الأحاديثِ في هذه الآية، لتحمل مدلولاتٍ واسعة:

فهي أولاً، تُطْلَق على الرُّؤى، وهذا هو المقصِدُ الأوّلُ من معانيها، في الآيةِ الكريمة، لورودِها مباشَرَةً بعدَ رؤْيا يوسفَ عليه السلام.

وهي تُطْلَقُ على مجملِ الكلام، فتكونُ جمعاً لكلمةِ «**الحديث**».

المحور الثالث: في قولِه تعالى: ﴿**ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليكَ وعلى آلِ يعقوب**﴾.

وفي هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ﴿**ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليك**﴾. وهذه أعلى درجاتِ إكرامِ الخالقِ سبحانَه وتَعالى لعبدٍ مِنْ عبادِه، بأَنْ يُتِمَّ نِعْمَته عليه، وأيُّ نِعمةٍ تُوازِي إتمامَ النِعمةِ عليه؟ فهو بهذا في صونٍ ورعاية، وهناءٍ وطُمأْنينةِ بال، وحفظٍ كاملٍ من وسَاوُسِ الشيطانِ ودهائه ومَكائِده، وحفظٍ منَ المكارِه والمهالِك.

ومن أوْجهِ النعمِ العُليا عليه:

➢عدمُ الانقِياد لما يَنْقَادُ إليه الناسُ منَ السقَطَات والهَفَوات بالجوارحِ واللسان، فلا يجِدُ الشيطانُ إليه سبيلا..

➢ومنها إلقاءُ السّكينةِ في قَلْبِه، فلا يَخَافُ منْ شيء، ولا يَخافُ على شيء، مُفَوّضاً أمرَهُ إلى الله تعالى، متوكلاً عليه.

➢ومنها تمييزُه بجِماعِ العِلْمِ الذي يَحتاجُ إليه في عصْرِه، وحِفْظُ هذا العِلمِ منْ تَدَاخُلِ الشيطانِ فيه. فلا يُخَرِّبُه عليه، ولا يَسْتَعْمِلُه فيما لا يُرْضِي الله تعالى، ولا تأْخُذُه العِزَّةُ فيقول: إنما حَصّلْته أنا بنفْسِي، ولا يقولُ إنما أُوتيتُه على علم عِنْدي.

➢ومنها الحصولُ على رضى الله تعالى، وتلك هي ذُروةُ إتمامِ النِّعمةِ الكُبرى. ما أنعم الله تعالى بها على عبدٍ إلا نجا.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿**ويتِمُّ نِعمتَه عليكَ وعلى آلِ يعقوب**﴾.
وفي هذا الشطرِ منَ الآية، إعلامٌ غيبيّ قد يُذْهشُ له المستمع: فها نحن في أولِ السورة، وفي بدايةِ القِصّة، وهي تدورُ حولَ ما سيُحِلُّ بيوسفَ عليه السلام من جراءِ تآمرِ إخوتهِ به، فإذا بمشاعِرِنا تحتشدُ ضِدّهُم، ويَحْصُلُ في نفوسِنا نفورٌ منهم، وممّا يعتزمُونَ فِعْلَه، فإذا بالآيةِ الكريمةِ، حتى قبلَ أنْ نصِلَ إلى سماعِ ما سيَبْدُرُ فِيهِم، تُعْلِمُنَا بأنّ الله تَعالى سيتِمُّ نِعْمَتَهُ على آلِ يعقوبَ أيضاً. ومَنْ هُمْ آلُ يعقوب؟ ما هُمْ بالنتيجةِ، سِوى يوسف وإخوتِه بالدرجة الأولى.

وهذا الاستباقُ نستَخْلِصُ منه العِبَر التالية:

أوّلاً: أنه يُفَسِّرُ لنا قَبولَ يعقوبَ عليه السلام، تصَرُّفَ أبنائِه العشرةِ حِيالَ يوسفَ وأخيه، وصَبْرَهُ على أذاهم لهما.

ثانياً: أنه يَمْنَعُ يوسفَ من أنْ يَكْرَهَ إخوتَه، وقد جاءَ الإعلامُ بأنهم سيصطلحون.

ثالثاً: أنّ العبرةَ في الأُمورِ بخواتِيمها، وأنّ العبرةَ في الصلاحِ هو أَنْ يكونَ آخرَ الأعمال، وإن العبرةَ بالنَجاةِ أنْ يكونَ الإيمانُ آخرَ أعمالِ العبدِ في دنياه.

رابعاً: يجبُ عدمُ اليأسِ مِنْ صلاحِ إنسانٍ مَهْمَا اشتَدّ أذاهُ وقَسا قلبُه، فَرُبَّ فاسِقٍ عائثٍ في الأرض فساداً تحَوَّلَ إلى الإيمانِ والصلاح بمشيئةِ الله تعالى له ذلك.

ثم تنتهي الآيةُ الكريمةُ بقولِه تعالى: ﴿**كما أتمَّها على أَبويك من قبلُ إبراهيمَ وإسحاقَ إنَّ ربكَ عليمٌ حكيم**﴾.

وبهذا الشطرِ منَ الآية، يكتملُ شَرَفُ الإلحاقِ بالمُصْطَفَيْنَ منَ الإنسانية، بأَنْ رَفَعَهُ الله تعالى إلى مَرْتَبةٍ عظيمةٍ جداً، وما وُرُودُ اسمِ إبراهيمَ عليه السلام، إلا دلالةٌ على إتمامِ فضلِ الله تعالى على يوسفَ عليه السلام. فإبراهيمُ هو خليلُ الرحمن، وهو الجدُ الأوّلُ ليوسف. فتلكَ أُمةٌ بعضُها مِنْ بعض، ذُريةٌ مؤمنةٌ صادقة. صَدَقَتِ الله ما وعَدَته، فرفَعَها واصْطَفَاها. ومِنْ ذُريةِ إبراهيمَ عليه السلام، خرَجَ سيدُ الأنام، رسولُ الإنسانيةِ جمعاء، محمدٌ عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم، جَمَعَنا الله تعالى بهم جميعاً آمين.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن علامات رضى الله تعالى تأتي من محاور متفرقة، وكلما ازدادت هذه المحاور، كانت علامات الرضى أوثق. ونضرب المثل بيوسف عليه السلام وقد أكرمه الله تعالى بمحاور ثلاث: الحفظ والصون، الإصطفاء والتمييز بأحد العلوم، وإتمام النعمة ونذكر الآية الكريمة.

٢ - للدلالة على أن الجد وإن علا فهو يسمى أيضاً أب ونذكر قول الله تعالى: كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق.

ثم يقول الله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥]

إذا تأمّلنا، أخي المؤمن، في هذه الآية، بعدَما تأمّلنا الآياتِ السابقة، نجدْ أنَّ قِصّة يوسفَ عليه السلام تبدأ في الحقيقة مِنْ هنا، وما الوقائعُ التي عَلِمْنَاهَا في بَدْءِ السورة، إلا تحضيراً وتعريفاً بأشخاصِ القصةِ ورجالاتها، ومواقِعهم وعلاقتِهم فيما بينهم، والجوِ العامِّ الذي كان يسودُ بينَهم، ومعرفةِ المكانةِ التي حصَلَ عليها يوسفُ عليه السلام، وما سيكونُ له مِنْ مَلَكاتٍ ومَواهِب سيستغمِلُها في سياق القِصة، ولا بد لنا قَبْل المضِيِّ في تأمُّلِ الآياتِ الكريمةِ مِنَ الوقوفِ عندَ مُلاحظاتٍ هامة، تَدورُ حَوْلَ سُورةِ يوسف.

الملاحظة الأولى: أنَّ قِصّة يوسفَ عليه السلام، لم تُذْكَرْ في القرآنِ الكريم إلا مرةً واحدة، وبالتفصيل الكامل، وأُفرِدَت لها سورةٌ كاملةٌ طويلة، لم نَجِدْ فيها موضوعاً آخرَ غيرها، بخلافِ السورِ الباقية، وبخلافِ قصَصِ الأنبياءِ والرُّسُلِ الآخرين، الذين توزّعَتْ قِصَصُهم في سورٍ متعَدِّدة.

الملاحظة الثانية: أنها سورةٌ مَكِّيَّة، رُغْمَ أنه يَغْلِبُ عليها الأسلوبُ الهادىء المُحَلِّلُ لأحوالِ الناسِ ونفسياتهم. وهذا الأُسلوبَ نراهُ غالباً في السورِ المدنية، أمّا السورُ المكية، فيَغْلِبُ عليها طابعُ الآياتِ القصيرةِ، والسورِ القصيرةِ ذاتِ الوقْعِ الشديدِ، والوتيرةِ العاليةِ الزاجرة. حتّى قِصَصُ الأنبياءِ الواردةُ في السورِ المكيّة، تتميّزُ بالآياتِ القصيرةِ المتسارعة.

الملاحظة الثالثة: أنّ مضمونَ السورةِ يتناوَلُ إخباراً غيبياً وبتفصيلٍ مُذْهِش،

عنْ أحداثٍ حصَلَتْ في زمنٍ بعيدٍ جداً عنْ زَمنِ السَرد، وفي بيئةٍ مختلفةٍ ومكانٍ بعيدٍ جداً، تُسرَدُ على قومٍ لم تَدْخُلْ هذه القِصةُ في ثرْوتِهم الأدبيةِ المتناقلةِ عَبْرَ العصور، ولم يُوجَدْ فيهم مَنْ يَرْوي لهم قَصَصاً مُشَابِهاً.

ومِنْ أجلِ فَهْمِ سببِ نزولِ هذه السورة، في هذا التوقيت، نعودُ إلى ظروفِ حياةِ الرسولِ الكريمِ قبلَ نُزولِها مباشرة:

فهو في مكةَ المكرمة، يدعو الناسَ إلى الإيمانِ فيُعْرِضون، يَدْعُوهم إلى الهُدى فيُؤذونَه، يُضيِّقون عليه الحِصار، يمنعونَهُ منَ الناسِ ومِنَ النُّصْرة، وإذا بالأحزانِ تَتوالَى عليه، فيموت عَمُّهُ أبو طالب، وتموتُ زوجُه خديجةُ بنتُ خويلد، عليها رضوانُ الله تعالى، وتشْتَدُّ الأَزمةُ بتعذيبِ أَصحابِه المؤمنينَ برسالتِه، وتصلُ أصداءُ الدعوةِ واضطهادُها إلى القُرى والمدنِ المحيطة، ويعلمُ اليهودُ في المدينة المنورةِ بخبرِ الرسالة، فيُرْسِلُونَ إلى أهلِ مكة أَنْ سَلُوهُ عن رجلٍ منَ الأنبياءِ كان بالشام، أُخرِجَ ابْنُه إلى مصر، فبَكَى عليه حتى عَمِي؟ في محاولةٍ لتسْفِيه أقوالِه، يقيناً منهم بعدم عِلْمِه بخَبَرِه.

في هذه الظروفِ الشديدةِ القَسْوَة، شاءَ الله عزّ وجَلّ أَنْ يُلْقي السكينة في قَلْبِ رسُولِه الكريم، فأنزلَ سورةَ يُوسف، وفيها عزاءٌ وسلوى وتثبيتٌ، وسنجدُ حلاوةَ ما فيها معَ تأَمُّلِ الآياتِ التي ستلي منَ السورة، لكننا نقِفُ الآنَ معَ معنى قولِه تعالى في الآية موضوعِ تأمُّلِنا اليوم: **﴿لقد كان في يوسفَ وإخوتِه آياتٌ للسائلين﴾**.

والسائلون كُثُرٌ:

فهناك السائلون في زمنِ الرسولِ الكريمِ محمدٍ عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم، الذين أَتَوْا ليمتَحِنُوه ويتَحَقَّقُوا صِدْقَه، بأنْ سألُوهُ سُؤالاً صَعْباً مُعْجِزاً، لا يقْدِرُ إنسانٌ في بيئتِه وموقعِه وأُمِّيته أنْ يُجيبَ عنه، فإذا بالإجابةِ لا تكونُ

عادية، ولا تكونُ مُقْتَضَبةً، ولا تكونُ مُتَعثِّرَةً مُتَلَعثمة، ولا تكونُ غامضةً على طريقةِ الكَهنةِ والأحبار، بل تكونُ آياتٍ بيناتٍ مُفصّلات. فيها الوضوحُ والجلاءُ، والجمالُ البياني، والإعجازُ اللُّغوي، ومُتْعةُ السرْد، وبلاغةُ القَصَص، وتَثبيتُ الموقف، ودَحْضُ المزاعمِ والافتراءَات.

وهناك السائلونَ الذين أتَوا بعدَ زمنِ الرسولِ الكريم محمدٍ ﷺ، الذين جاؤوا ليقارِنوا النُّصوصَ ويتحرُّوا الفُرج، متسلّحينَ بنُصوصِ العهد القديم، فإذا بهم يُذْهَشُونَ من صلابَةِ مَتْنِ القِصةِ القرآنية، وضَعْفِ وتفَكُّكِ القِصَصِ التي عبَثَتْ بها أيدي البشر، في النصوصِ الأُخرى، وقد خَرَجَ فيهم مُنْصِفون، فاعترفوا بأَنّ القِصَة في القرآن أوْضَحُ وأمتنُ وأصدقُ ممّا سواها، مِصداقاً لقولِه تعالى: **﴿ومَنْ أصْدَقُ منَ الله قيلا﴾**[١]، وقولِه تعالى: **﴿إنّا نحنُ نَزّلْنا الذِكْرَ وإنّا له لحافِظُون﴾**[٢].

وهناكَ السائلونَ المُحْدَثون، المتبحّرون في عُلومِ النفسِ الإنسانيةِ الذينَ أتَوْا ليضَعُوا قواعدَ علْمِ النفسِ الإنساني، فانطلقوا مُتخبِّطينَ متعثِّرينَ، يضعونَ النظرياتِ والاحتمالات، ويعتمدونَ قواعدَ ويفرِضُونها على الناس، ثم لا يَلْبَثُون أنْ يَنْقُضُوها، إذْ يتبينون عدمَ صلاحِها، ولو أنهم تأمّلُوا سورةَ يوسفَ عليه السلام، لوَجَدُوا فيها جِماعَ عِلْمِ النفسِ بكاملِه، ما عرَفُوه وما اسْتُغْلِقَ عليهم، وهذا فهمٌ آخرُ لمعنى قولِه تعالى: **﴿لقد كانَ في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين﴾**.

(١) [سورة النساء، الآية: ١٢٢].

(٢) [سورة الحجر، الآية: ٩].

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية

١ - للدلالة على حصول تواطؤ بين الأخوة وتألب بعضهم على بعض وهذا كثير الحدوث، فذكر الآية في موضع الحديث عن هذا التألب يؤكد على هذا الطبع من طبائع النفس البشرية.

٢ - للدلالة على أن اللسان يفضح ما تضمر الأنفس من مشاعر وذلك حين قالوا: «ليوسف وأخوه»، مع أنهم كلهم أخوة.

ثم يقول الله تعالى:

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦]

إنَّ تأمُّلَنا لهذه الآيةِ أخي المؤمن، يقودُنا لمعرفةِ خَلْفِيَّةِ علاقةِ الإخوةِ فيما بينهم، مما سيُوضِحُ لنا فَهْمَ موقفِ إِخوةِ يوسفَ منه: فبعد أن أنجب يعقوبُ عليه السلامُ أولادَه العشَرة، الذين يكْبُرون يوسف، تزوَّجَ من امرأةٍ أنجبت له يوسفَ وأخاه الأصغر. لكنّ أمهما ما لبثت أن توفيت.

فأصبحَ يوسفُ وأخوه يتيمي الأُم وهما لا يَزالانِ طِفلين صغيرين، فما كان من يعقوبَ إلا أنْ سَعَى لتعويضِهما فَقْدَ حَنانِ الأُم بالعطفِ عليها والذَوْدِ عنهما، وتلك واحدةٌ مِنَ الخِصالِ الحميدةِ التي ينبغي أنْ تكون مثلاً يُحتذَى بين الناس، بوجوبِ نُصْرَةِ الضعيفِ وأخذِ الحقِ له حتى يَقْوَى، ويُصْبِح قادراً على حِفْظِ حَقِّه بنفسِه.

هذا الواقعُ لم يَفْهَمْهُ إخوةُ يوسفَ جيداً، بلِ اعتبروه تمييزاً له عنهم،

وصاروا يُحصُون على أبيهم مواقِفَهُ منهم، ويقارِنونَ حِرْصَهُ على يوسفَ وأَخيه، ورعايتَه الدائمةَ لهما، بمعاملةٍ عاديةٍ، يُقابلهم بها.

وفي غالبِ الأحيان، يمرُّ بناءُ الموقف من شخصٍ ما، بمراحِلَ عدة:

المرحلة الأولى: مرحلةُ التأمُّلِ والنظر، فيتمُّ تسجيلُ التَصَرُّفِ في طياتِ الذاكرةِ دونَ أنْ يُفْصَحَ عنه إلى العلن.

ثم تبدأُ مرحلةُ التجميعِ للمواقفِ المخْتَزَنة، وتنسيقُها وترتيبُها، للوصولِ إلى خُلاصةٍ تدْفَعُ إلى بناءِ فكرةٍ مُعَيَّنةٍ عَنْ خَلْفِيَّةِ التصرفات.

ثم تَصِلُ إلى مرحلةِ الترقُّبِ للتصرُّفاتِ اللاحقة، وما إذا كانتْ سَتحْصُلُ في اتجاهِ الفكرة ذاتها التي تمّ التوصُّلُ إليها سابقاً.

وعند حصول اليقين، يبدأُ الفِكْرُ الخاصُّ بالتدخُّلِ في حَبْكِ النَّسِيج حَوْلَ تمتينِ النتائِج، وإضافةِ معانٍ جديدةٍ يسْتَمِدُّها صاحبُ الفِكرةِ منْ خيالِه، ويَدخُل عليها الشيطانُ بوَسَاوُسِه بقوة، عندها يبدأُ الإفصاحُ عن الفكرةِ إلى العَلَن، إمّا أذيةً قولية، أو أذِيَّةً فِعلية.

لقد وصَل إخوةُ يوسفَ إلى هذه المرحلة، فأفْصَحُوا بقولِهم: **﴿ليُوسُف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عُصْبة إنّ أبانا لفي ضَلالٍ مبين﴾**.

وفي الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: **﴿إذْ قالُوا لَيُوسُف وأَخوه أحبُّ إلى أبينا مِنّا﴾** وهنا نَجدُ رُغْمَ تحامُلهم على يُوسف، إشارةً إلى حُبِّ أبيهم لهم، لكنَّ مَأخَذَهُمْ هو على المُفاضَلة. وهم بذلك لا يخْرُجونَ عن طاعةِ أبيهم، ولا يُعلنون العِصيانَ له، بل يقِفُونَ في مآخِذِهم عند حُدودِ العلاقةِ معَ يوسفَ عليه السلام، وفي هذا أدبٌ صاغَتْهُ العبارةُ الجميلة: **﴿أحبُّ إلى أبينا مِنّا﴾**.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿ونَحنُ عُصْبة﴾** وهنا دلالةٌ على غِنى اللُّغةِ العربيةِ بالمعاني والمباني. فإلى جانبِ الأرقامِ التي تعْرِفُها كلُّ اللغات، تنفَردُ العربيةُ بتعابيرَ خاصةٍ بعددِ الأشخاص في المجموعة. فنجدُ مثلاً كلمةَ نفَرٍ للتعبيرِ عنِ العددِ حتى الثلاثة، ونجدُ كلمةَ رَهْطٍ للتعبيرِ عن العددِ حتى تسعة ونجدُ كلمةَ عُصبةٍ للتعبيرِ عن العددِ عشَرَة وما فَوْق، وتلك مِيزةٌ لا نَجِدُها في أيةِ لغةٍ أُخرى، ومقتضيات التعبيرِ الأدبيِّ تَحتاجُ إلى مثلِ هذه المعاني، فانْظُرْ أخي المؤمن إلى جمال اللغةِ العربية، واعْمَلْ على تدَبُّرِه.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿إنّ أبانا لفي ضلالٍ مبين﴾**.

هنا أيضاً اللطيفةُ لغوية: فإنّ كلمةَ ضلال، تُستعملُ على معانٍ مختلفة، وبمستوياتٍ مختلفة، بحسب توجُّه النصِ الذي احْتَواها.

فلقد تحْمِلُ معنًى شديداً جداً، إلا وهو الكُفرُ والعياذُ بالله، كمثل قولِه تعالى في سورة الرعد: **﴿وما دعاءُ الكافِرين إلا في ضلال﴾**[١] أو كقولِه تعالى في سورة الزُّمر: **﴿فويلٌ للقاسية قلوبُهم مِنْ ذِكْرِ الله. أولئك في ضلالٍ مبين﴾**[٢].

ولقد تَحْمِلُ معنًى أقلَّ شدَّة، ألا وهو عدمُ معرفةِ الطريقِ الصحيحِ، كمِثلِ قولِه تعالى في سورةِ يوسف: **﴿وقال نِسوةٌ في المدينةِ امرأة العزيزِ تُراوِدُ فتاها عنْ نفسِه قَدْ شَغَفَها حُباً إنّا لنراها في ضلالٍ مبين﴾**[٣].

ولقد تَحْمِلُ معنًى أقلَّ شِدّةً أيضاً، وهو عدمُ اختيار الأنسبِ معَ صحةِ

(١) [سورة الرعد، الآية: ١٤].

(٢) [سورة الزمر، الآية: ٢٢].

(٣) [سورة يوسف، الآية: ٣٠].

العمل وهذا المعنى هو المقصودُ في هذه الآية. حين قالُوا عن أبيهم: ﴿**إنّ أبانا لفي ضلالٍ مُبين**﴾.

ولقد تَحْمِلُ أخيراً معنًى غيرَ مَذْمُوم، كمثلِ قولِه تعالى في سورةِ البقرة: ﴿**أنْ تَضِلّ إحداهُما فتُذَكِّرَ إحداهما الأُخرى**﴾[1]، أي: أنْ يُصيبَها السهو أوِ الخطأ.

ولا يَفُوتُنا أنْ نتأمّلَ في الآيةِ الكريمةِ، لنستخلصَ منها العبرَ النفسية التالية:

أولاً: رُغْمَ اجتهادِ الآباءِ في التربيةِ الصالحةِ لأبنائهم، إلا أنه مِنَ الممكنِ أنْ يَخرج منهم منْ تَغْلِبُ عليه الشِّدّة، ويجبُ الاستمرارُ في الإصلاحِ.

ثانياً: ليس كلُّ ما يُعَبِّرُ عنه الأبناءُ في الظاهر أمام آبائِهم، هو ما يُضْمِرونَ من حقيقةِ مشاعرِهم، وعلى الآباءِ أنْ يَقْرأُوا في الأعْمالِ لا في الأقوال.

ثالثاً: ليسَ كلّ ما تكَاثَرَ الناسُ على اعتبارِه صحيحاً، هو الصحيح، فلقدِ اجتمعَ عشرَةٌ منْ أبناءِ يعقوبَ عليه السلام، على فكرةٍ خاطئة، وهم يَظُنُّونَ فيها الصّواب. فالعبرة في تحكيمِ الشرعِ والعقلِ والمنطِق في الحكمِ على الأُمورِ، لا على حَمَاسِ العامةِ واندفاعِهم.

رابعاً: يجبُ عَدَمُ التسرُّعِ في الحكمِ على الأُمور لأول سبب عارض، بل يجبُ أخذُ الاحتمالات الأُخرى بعين الاعتبار وتفحُّصُ الاحتمالات المعاكسةِ التي قد تكون أصوبَ قبلَ اتخاذِ القرارات، وغالباً ما يَكْمنُ الشيطانُ خَلْفَ التسرُّعِ في الأمور.

---

(١) [سورة البقرة، الآية: ٢٨٢].

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الأبناء قد يأتمرون بوالديهم، رغم اهتمام الوالدين بحسن التربية وظنهم أنهم قد أدوا ما عليهم، وذلك لحث الناس على أن يكونوا أكثر قرباً من أبنائهم.

٢ - لإعادة استعمال كلمة عصبة في الحياة اليومية للإشارة إلى المجموعة من الأشخاص التي يزيد عددها عن عشرة.

ثم يقول الله تعالى على لسان أخوة يوسف:

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧]

وكنا قد علمنا فيما سَبَقَ من الآيات، كيفَ أنَّ إخوةَ يوسفَ قد ظَنُّوا من محبةِ يعقوبَ عليه السلامُ لابنيه الصغيرين، يوسفَ وبنيامين، إيثاراً منه لهما عليهم. وكيفَ أنهم بدأوا يأتمِرون بهما، وتلك كانتِ الأحداث التمهيدية للقِصة. وها نحن ذا نجدُ أنفسَنا مباشرةً في صُلْبِ الأحداثِ التقريرية، في قَفْزٍ بديعٍ فوقَ التفاصيل، لتتصَاعَد وتيرةُ الوَقائعِ، وترتفعَ حرارتُها، ما يشدُّنا إلى خُطورةِ الحوارِ الذي يَجْري بينَ إخوةِ يوسف، فإذا بنا نستمعُ إلى الشطْرِ الأوَّلِ من الآيةِ بقولِ أحدِهم: ﴿**اقتلوا يوسف**﴾.

ولنا وقفةٌ عندَ هاتين الكلمتين، لما تَحْمِلانِ من مَدلولاتٍ نفسيةٍ عميقة:

فهذا أولاً، اقتراحٌ خطيرٌ جداً بقتل نفسٍ بريئةٍ بغير نفس، ما كانَ لمقترحِه

أنْ يقولَ به، لولا غَلَبَةُ الشيطانِ عليه في هذه اللحظة، وهو يُعَبِّرُ عن أمورٍ عديدة، تفاعَلَتْ فيما بينها، وأنتجَتْ هذا الاقتراح.

فهو يُعَبِّرُ عنْ شِدّةِ الكُرهِ والغَيظِ التي أعمتِ القُلُوب والأبصار، وحَجَبَتْ معاني الحُبِّ والوِدادِ عنِ البصائر، فكَمْ مِنَ المواقف التي يقِفُها الإنسانُ متأثراً بما حلَّ بإنسانٍ آخرَ تَرْبِطُهُ به روابطُ الصّداقة، كأنْ يقعَ في مأزِقٍ مالي، أو عارضٍ صِحي، أو أنْ يراهُ يتألّم، فإما أنْ يُسْعِفَهُ بما أُوتيَ مِنْ قُدُرات، وإما في أقَلِّ تقدير، أنْ يشْعُرَ بالأسى في داخلِه لما أصَابَه. فكيفَ إذا كانَ المتألِّمُ أو المُصابُ أخاهُ. الألَمُ أكْبَرُ وأشَدُّ، إلا أنّ تصاعُدَ الكُرْهِ والحسَدِ بتضعيفِ عالٍ، معَ وَسْوَسَةٍ كثيفةٍ منَ الشيطان، حجبتْ كلّ مشاعِرِ الأُخُوّة والحُبِّ الأخوي.

وهو يُعَبِّرُ عنِ استهانةٍ بالروحِ البشَرِيّة. وإدراكُ قيمةِ الروحِ البشرية، يَنْبُعُ من فهمِنا للأهميَّةِ القُصْوَى لهذه الروح، عندَ الله تعالى. ومن ذلك، ما نقرأ في سورةِ المائدة قول الله تعالى: **﴿أنه مَنْ قتَلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأَرض فكأنما قتلَ الناس جميعا ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً﴾**[١].

فتلكَ كبيرة منْ أعظمِ الكبائرِ وأشدِّها، وما وصولُ أحدِهم إلى هذا الاقتراح، إلا دليلَ غلبةِ الشيطانِ الكاملةِ عليه في هذه اللحظة.

ويَبْلُغُ القُبحُ في هذا الاقتراحِ مداه، حينَ نُمْعِنُ النظرَ في موضوعِه: فموضوعُه الأخ وليس شخصاً غريباً، وهذه هي الإشارةُ القرآنيةُ الأُولى لملاحظةٍ أساسيةٍ في عِلْمِ النفس: أنَّ وَسْوَسَةَ الشيطانِ هي أشَدُّ ضراوةً، وأغْلَى في حقِّ الإخوة، مما هي في حق الآخرين، وهي حقيقةٌ واقعة نلْمَسُها في حياتِنا اليومية: فكم عديدةٌ هي العداواتُ بين الإخوة وحتى بين الأشقاء!! وحين تقع، فهي أشدُّ فتكاً وأبلغُ إيذاءاً، تجُرُّ الويلاتِ على العائلات، جيلاً بعدَ جيل،

---

(١) [سورة المائدة، الآية: ٣٢].

وينبغي أنْ يُشارَ بالبَنَانِ دائماً، إلى هذه الأُمور، عندَ تربيةِ الأولاد. فما أمكنَ التحذيرُ منه عندَ الصِغر، يُمكِنُ تجنُّبُ وقوعِه حالَ الكِبَر.

أمَّا القمة في قُبحِ الاقتراح، فنُذْرِكُها حينَ نَعْلَمُ أنَّ مَنْ يأتَمِرُونَ به، يُريدُون قَتْلَه، هو طِفلٌ صغير، لم يَبلُغ أَشَدَّه بعد، لا يقْدِرُ عن نفسه دفاعاً، ولم يَجْتَرِحْ عملاً يُوجِبُ القِصاص، ولا عُرِفَ عنه سوءَ الخُلُق. ولا هو بالعالةِ عليهم. فإنّ النفوسَ لتُصابُ بالحزنِ حين تعْلَمُ عن موتِ طفلٍ بسببِ مرضٍ أو حادث، فكيفَ إذا عَلِمَتْ أنَّ شخصاً عاقلاً بالغاً متمكّناً، قصد قتْلَ طفلٍ عَنْ سابقِ تصَوُّرٍ وتصميم؟ إنها لجريمةٌ بشعة، ولا يزالُ الإنسانُ حتى يومِنا هذا، في جُنوحٍ شرِّيرٍ عن إنسانيته، تحتَ تأثيرِ وسْوَسَةِ الشيطانِ له، يُقْدِمُ على قتلِ الأطفالِ في مشارِقِ الأرضِ ومغارِبها، ومَنْ فرَّ مِنْ عدالةِ الإنسان، فلا مَفَرَّ له يومَ الدينِ مِنْ عدالةِ الله تعالى.

﴿اقْتُلوا يوسفَ أوِ اطْرَحُوهُ أرضاً﴾.

في هذا الشَطْرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في الصيغة التي وَرَدَتْ على لسانِ صاحبِ الاقتراح: فهو لم يقُلْ: سأقْتُلُ يوسف، أو فلْنَقْتُلْ يوسف، بل قال: أُقتلُوا يوسف، فهو أولاً، أحالَ اقتراحَهُ على المجموعة، ثم تنصَّل مِنْ ذِكْرِ نفسِه معهم، لشِدَّةِ الاقتراحِ وجسامته.

اللطيفة الثانية: في التدرجِ التخفيفيِّ في الأفكارِ، للتخلُّصِ من يوسفَ عليه السلام: فحين قَدَّمَ اقتراحَ القتل، سارَعَ إلى نفيه باقتراحٍ أقلَّ فظاعةً حين قال: أوِ اطْرَحُوهُ أرضا، أي أَلْقُوهُ بعيداً عنِ الأرضِ التي هو فيها، دونَ أنْ تَقْتُلُوه، وفي هذا الاقتراح، احتمالُ القبولِ أكْثَر لدى الإخوةِ المجتمعينَ للتآمر.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**أو اطْرَحُوهُ أرضاً**﴾ ففي انتقاءِ الصِيَغ، تلميحٌ مُبَطَّنٌ لدرجةِ الحُبِّ أو الكُرهِ الذي نعاينه، لشخصٍ ما. فحين تنقُلُ شخصاً ما بسيارتك، وتُريدُ إيصالَهُ إلى مكانٍ معين، يُمْكِنُكَ أنْ تقول: يُسْعِدُني أنْ أوصِلَ جَنابَكُمْ إلى المكانِ الفلاني، أو أنْ تقول: أضَعُكَ في المكانِ الفلاني، أو أن تقول: أطْرَحُكَ في أرضِ كذا، وهذا بعضٌ مِنْ مَعالِم غِنى اللغةِ العربيةِ في تعبيرِها عنِ المشاعرِ بالألفاظِ المجرّدة

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**يَخْلُ لكم وجْه أبيكم، وتَكُونوا منْ بَعْدِه قوماً صالحين**﴾.

في هذا الشَطْرِ الأخير من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في عبارةِ ﴿**يَخلُ لكم وجهُ أبيكم**﴾، كِنايةٌ تلويحيةٌ عَنْ خُلوصِ المحبة، وكأنّ وُجودَ يوسف عليه السلام، يقِفُ حائلاً بينَ وَجهِ أبيهم وبينَ رُؤيتِهِ لهم، وتلكَ بلاغةٌ عاليةٌ لافتةٌ في الآياتِ الكريمة، التي ذَكَرْنا سابقاً أنها نَزَلَتْ في الحِقْبةِ المكية.

اللطيفة الثانية: في قولِهم: ﴿**وتَكُونُوا منْ بَعْدِه قوماً صالحين**﴾ وتلك منْ أُمنياتِ الشيطانِ التي يَعِدُ بها الناسَ، ليكونوا له تَبَعاً، ويُقْدِمُوا على المعصية، وما فتىء الشيطانُ يُكَرِّرُ الحِيلة ذاتَها معَ الإنسانِ على مرِّ العُصور، إلى يومِنا هذا، بدعوى الصَّلاحِ بعدَ ارتكابِ الجُرْمِ، تشجيعاً له على ارتكابِهِ، وما نزَلَتِ الآياتُ إلا تعليماً وتنبيهاً، والفَطِنُ منْ أخذ منها العِبَر.

ونتوقَّفُ أخي المؤمن، عندَ الحقائقِ النفسيةِ التي نَسْتَخْلِصُها منَ الآيةِ الكريمة، ونُلَخِّصُها بالتالي:

أولاً: لا تَدَعْ رَغبتَكَ في الوصولِ إلى غاياتٍ مشروعة، تُعْمِي بصيرتَك، فتَلْتمِسْ ذلك بوسائلَ غيرِ مشروعة..

ثانياً: منْ أشدِّ الأخطارِ على النفس الإنسانية، الاستهانةُ بالأَعمالِ القبيحةِ عندَ تغْلِيفِها بالأُمنياتِ الحسنة..

ثالثاً: إنّ التصدِّي للمشكلةِ الأساسيةِ، يَحْجُبُ المشكلةَ الفرعية، فيتمُّ تَجَاوُزُها وتستفيدُ منَ الإهمالِ بعدمِ حصول الأذِيَّةِ لها. وهذا هو حالُ بِنْيَامِين، شقيقِ يوسفَ الأصغر، فعلى الرُّغْم من أَنه مُشْتَرِكٌ مَعَ يوسَف في نظرِ الإخوةِ في حَجْبِ محبةِ الأَبِ لهم، إلا أَنهم تجاهَلُوه، بَلْ تَجاوَزُوهُ في تآمرِهم، بتركيزِهم على يوسفَ ومصيره.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على خطورة اقتراب الشيطان الرجيم في وساوسه من الإنسان، إذ قد يصل به بسرعة إلى التفكير بقتل أقرب الناس منه، وذلك للتحذير من مغبة الوقوع في حبائله.

٢ - إستعمال عبارة: يخلو لك وجه فلان، للدلالة على حمله على الإهتمام بك.

٣ - للرد على من يقول أنه سيكون رجلاً صالحاً بعد فعل عمل قبيح يعتزم فعله، وذلك بتحذيره بأن إخوة يوسف قد سبقوه إلى هذا التفكير المتحرف الذي ما انفك الشيطان يستعمله لدفع الناس إلى ارتكاب الذنوب والآثام.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٨]

تبدأُ الآيةُ أخي المؤمن، باستكمالِ الحديثِ الذي كانَ قد بدأَهُ إخوةُ يوسفَ وهُمْ يأتمِرُون به. فبعدَ أنْ تقدَّمَ أحدُهم باقتراحِ خطيرٍ جداً، يتمثّلُ بقتل يوسف عليه السلام، ثم إعلانِ التوبةِ بعدَه، إذا بأحدِ الإخوةِ يتقدَّمُ باقتراحِ آخَر، أوّلَ ما فيه، وأهَمُّ ما فيه قولُه: **﴿لا تقْتُلُوا يوسف﴾**.

يقولُ الله تعالى: **﴿قال قائلٌ منهم لا تقْتُلُوا يوسف﴾**.

في هذا الشَطْرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: **﴿قال قائلٌ منهم﴾**، وفي هذه الصيغةِ جماليةٌ لغوية، تتمثلُ في انتخابِ أفضلِ أسلوبِ لُغَوي، بأفضلِ الكلماتِ فيما يتناسَبُ مَعَ موضوعِ الكلام. فالكلامُ هنا سَرْدٌ لواقعةٍ تَتَواصَلُ فصولاً معَ الآيات، في حديثٍ بينَ عدة أشخاص. والصِيغُ المطروحةُ عديدة، كأنْ تقول: قالَ أحدُهم، أو قالَ كبيرُهم، أو قالَ فلانٌ منهم. أمّا أنْ تقول: قال قائلٌ منهم، فإنْ الوَقْعَ في الأُذُنِ أرَقّ، والقبول في النفوسِ أوْفَق، والتناسُقَ مُحَقّق.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿قال قائلٌ منهم﴾**، إشارةٌ أخرى إلى الإعجازِ القرآني وتفَوُّقِه على كلامِ البشر. فلو أنّ الرسولَ عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم، كان يأتي بهذا الكلامِ من عنده، لكان اجتهَد على ما فُطِرَتْ عليه النفسَ البشريةُ في خصَائِصها وسُلوكِها، في تحديدِ الأشخاصِ بدقّة، كأن يقول:

قالَ روبيل، أو قال يَهُوذا. لكنه ما هو إلا مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّه. وشاء الله تعالى أن لا يَذْكُر اسمَ القائل عُلُوّاً عَنْ منهجِ الناسِ في السردِ والكلام. فبلَّغَ الرسولُ الكريمُ ما جاءَهُ مِنْ رَبِّهِ بالحرف، وما أقامَ للناسِ، فيما سيقولون فيه، بالا.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: لا تَقْتُلُوا يوسف. ففي ظاهرِ السِياقِ لا حاجةَ إلى ذِكْرِ اسمِ يوسفَ لاكتمالِ المعنى، وقد ذُكِرَ اسْمُه في الآيةِ السابقة إلا أنَّ إعادة ذِكرِ اسْمِه يحملُ فوائدَ عدة:

الأُولى: لُغوية، في انشراح الصدرِ بعد انقباضِه مما ورَدَ في الآيةِ السابقة، على الوقع ذاته فبعدَ أنْ سَمِعْنَا: ﴿**اقْتُلُوا يوسفَ**﴾، نسْمعُ مباشرةً: ﴿**لا تقْتُلُوا يوسف**﴾.

الثانيةُ: معنوية، فإنّ تَكْرَارَ ذِكْرِ اسْمِ يوسفَ، أمَامَ الإخوة، يَحْمِلُهم على استذكارِ كُلِّ ما يَحْمِلُه الاسمُ منَ النواحي الإيجابيةِ في نفوسِهم حيالَه، وقدِ التصقَ اسْمُه في أذهانِهم بمُوَاصَفاتِه، أنه: أخوهم، وصغيرٌ فيهم.

الثالثةُ: رمزية، فكما أننا لاحَظْنا أنّ المتكلِّمَ الأوّل في الآيةِ السابقة، أبعدَ عن نفسِه شخصياً، مسألة قَتْلِ يوسف، أو الاشتراكِ القَوْلِيِّ في قَوْلِه: ﴿**اقْتُلُوا يوسف**﴾، فها هُو ذَا الأخُ الثاني، الذي يَنْتَهجُ المنهجَ ذاتَهُ في إبعادِ نفسِه قولياً، عنِ الاشتراكِ في التفكيرِ في قتلِ يوسفَ عليه السلام، فقال: ﴿**لا تقْتُلُوا يوسف**﴾.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وألْقُوهُ في غَيَابةِ الجُبّ﴾.

في هذا الشطْرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في جمالِ الوصفِ القرآنّي ودقَّته، فمِنَ المعروفِ في اللغة إنَّ الجُبّ يَخْتَلِفُ عنِ البئرِ في مُواصَفاتِه: ذاكَ أنّ البِئرَ هي الحُفرةُ في الأرضِ التي تضُمُّ في قَعْرِها ماءً متصلاً بِيَنْبُوعٍ يُؤَمِّنُ استمرارَ تَدَفُّقِ الماءِ، أو بشريانٍ مائي يجْرِي تَحتَ سَطْحِ الأرض، وقد أَقَام الناسُ على حَوَافِّ هذه الحفرة، بناءً محيطاً بها، منعاً منَ اندراسِها.

أمّا الجُبُّ، فهي الحفرةُ في الأرضِ التي يتّصلُ قعرُها بالماء، ولكنْ لا حَواف لها عندَ السطح، فهي الركِيّةُ التي لم تُطْوَ، وسُمِّيَتْ جُبّاً لأنها قُطِعَتْ منَ الأَرضِ قَطْعاً.

أمّا غيابَةُ الجُبّ، فهي ما غَابَ عَنْ سَطحِ الأرضِ داخَل الجُبِّ، ولكنه ارتفع عَنْ سَطْحِ الماءِ، ولم يَغِبْ فيه.

فإذا بِدِقّةِ الوصفِ القرآني، تُصَوِّرُ لنا واقعَ الخُطّةِ بكامِلها، بكلمتين اثنين: غيابَةِ الجُبّ. فإذا بنا نَفْهَم.

إنَّ المقترح أَرَادَ التخلُّصَ منْ يوسفَ دونَ أنْ يتِمَّ قَتْلُهُ بصورةٍ مباشرة، بأنْ يُقْصَى عَنْ أبيه، وأن لا يَذهَبوا به بعيداً جداً لمشقّةِ ذلكَ عليهم، ولا يتركوه في مكانٍ قريبٍ يُمَكِّنُهُ مِنَ العودةِ إلى أبيه، ولا يتركوه في الفلاةِ في مكانٍ مكشوف. فإذا به يقْتَرِحُ إلقاءَهُ في البئر.

إلا أنه خشِيَ أنْ يقول: أَلْقوهُ في البئر: فيَغْرَق، فإذا به يتَحَرّى الدِّقّةَ في مَوْضِعِ إلقائِه، فيقول: **﴿أَلْقُوهُ في غَيَابَةِ الجُبّ﴾** ما يَضْمَنُ عدمَ قَتْلِهِ مُباشَرَة.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وألْقُوهُ في غيابَةِ الجُبّ﴾** في تأمُّلنا لهذا المَخْرَجِ الذي خرَجَ به القائلُ للتخلُّصِ مِنْ يوسف.

فبعدَ أنْ توافَقَ الجميع على إلغاء يوسفَ منْ حياةِ أبيهم، وحياتِهم، وبعدَ أنْ طُرِح اقتراحُ قَتْلِ يوسفَ قتلاً مُباشراً، ثم أُقْصِيَ لفظاعتِه، جاءَ اقتراحُ إلقاء يوسف في الجُبِّ كمخرجٍ يُهَدِّىءُ ضمائِرَهُم، ويشُدُّ مِنْ عَزيمتِهِم في الإقدامِ على فَعْلَتِهم. علماً بأنَّ هذا المخرَج لا يضْمَنُ سلامةَ يُوسُفَ باليقينِ القَطْعِيِّ. فإنَّ مُرُور السَّيارَةِ وَقْتَ وجُودِ يُوسُفَ في البئر، هو أمرٌ احتمالي، ولَئِنْ طَالَ مكوثة قَبْلَ مرورِ القوافلِ لقضَى جوعاً، أَوْ بَرْداً، أو فريسة السِّباعِ أو الهَوَامّ.

لكنّه في عُرْفِهم، لا يكونون هُم الذين قتلُوه، وهذا ما هَدَّأ بالهَم، وكَم مِنَ الجَرائِم والآثام تُرْتَكَبُ في هذه الدنيا، بصورةٍ غير مباشرةٍ، بعدَ أنْ يصِلَ مُرْتَكِبُها إلى قناعةِ عدمِ إقدامِه مُباشَرَةً على الفعل. وذاكَ بابٌ مِنْ أبوابِ غوايةِ الشيطانِ للعباد.

ثم تنتهي الآيةُ بقولِه تعالى: ﴿يلْتَقِطْهُ بعضُ السيّارةِ إنْ كُنتم فاعلين﴾.

وفي هذا الشطرِ الأخير من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: لُغوية، في توافُقِ لفظ الالتقاطِ مَعَ ما سَبَقَها في نصِّ الآية، فحين قالَ القائلُ ألْقُوه، أتى المعنى المنشودُ ليُعَبِّرَ عَمَّا في نفسِ القائلِ مِنَ الرغبةِ في التخلُّصِ من يوسف، وكانَ بإمكانِه أنْ يقولَ: أنزِلُوه، أوْ ضَعوه، أو أوْصِلُوه، أو أرِيحوه، وكلُّ لفظٍ يُخْفِي شعوراً خَلْفَه.

وكانَ بإمكانِ اللفظِ الآخر، أنْ يَكونَ مُغايراً لكلمةِ يَلْتَقِطْه، كأنْ يقول: يُنقِذْه، أو يأْخُذْه، أوْ يُخرِجُه، فإذا بكلمةِ يَلْتَقِطه، تأْتي في أدْنى المعاني، كمثلِ التقاطِ الأشياءِ الجامدة، التي لا رُوح فيها، دلالةً على صغر سِنِّ يوسف، وهذه

منْ ملاحظاتِ غنى اللغة العربيةِ بالمعاني، فضلاً عنِ المباني.

اللطيفة الثانية: في أنّ قولَه ﴿**يلتَقِطْه بعضُ السيارة**﴾ هو حدثٌ احتماليٌ غيرُ يقينيٍّ في حقِّه. والحقيقةُ أنّ هذه الفكرة، هي إلهامُ منَ الله تعالى، لأنَّ ما قالُوه حصَل. لكنْ بفارقِ أنَّ الحصُولَ هو قضاءٌ يقينيٌّ منَ الله تعالى، وأنّ الفكرة في عُرفِهم احتمالٌ قد يقَعُ وقَدْ لا يقَع. وتلك مشيئة الله تعالى، لإنقاذِ يوسفَ، وتفضيله عليهم.

ولله تعالى في اصطفائه لعبادِه وإنقاذِهم ممّا يُحاكُ لهم، قضاءٌ قد يختلفُ منْ إنسانٍ لآخر، فحين أرادَ قومُ إبراهيمَ عليه السلام حَرْقَه في النار، شاءَتْ قدرةُ الله تعالى العلية، أَنْ تنفُذَ الفِكرةُ مِنْ ذِهْنِ القائل، إلى عامةِ الناس، ثم قاموا بتنفيذِها عملياً، فأحضروا الحَطَبَ وأشعَلُوا النارَ وألْقَوْا فيها إبراهيمَ عليه السلام، وقَضَى الله تعالى أَنْ لا تَمسَّ النارُ إبراهيمَ، لتكونَ معجزةً وموعظةً وتكريماً له.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**إنْ كُنتم فاعلين**﴾ وفي هذا القول، نوعٌ منْ أساليبِ الإقناع، يَكْتَمِلُ المعنى بدونِه، إلاّ أنّ إردافَهُ، فيه تشجيعٌ على اعتمادِ فكرتِه، وتحليله هو التالي: إنْ كُنتم جادِّينَ في التخلُّصِ من يوسف، فلا تتقدموا باقتراحاتٍ قد تُحجِمونَ عَنْ تنفيذِها، كأَنْ تقتلوه بل خُذوا باقتراحِي الذي فيه إراحةٌ لضمائِركم، كما أنّ فيه ضمانَ تنفيذِ عَزْمِكُم. وقد عُرِفَ أُسلوبَ التحدِّي بينَ الناس، لدفعِ المتردِّدينَ للإقدامِ على تنفيذِ ما يَخافُون.

ولقد تأَمَّلَ أحدُ التابعين هذه الآية، ودُهِشَ لما فيها مِنْ غنىً في المعاني فقال: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم: مِنْ قطيعةِ الرّحِم، وعُقوقِ الوالد، وقِلَّةِ الرأفةِ بالصغيرِ الضرعْ، الذي لا ذَنْبَ له، وبالكبيرِ الفاني ذِي الحقّ والحُرمةِ والفضْل، وخطره عندَ الله، معَ حقّ الوالدِ على ولدِه فيفرِّقُونَ بينَ الأبِ وحبيبِه على كِبَرِ سنِه، ورِقّةِ عَظْمِه.

ولا يفوتُنا أخي المؤمن، أنْ نُورِدَ التحليلَ النفسي الذي تُزَوِّدُنا به الآية الكريمةُ، نُلَخِّصُه بالتالي:

أولاً: إنَّ من بعضِ أساليبِ الإقناع، عدَم مُجَابَهَةِ المحاورِ مباشرةً بتسْفيهِ قولِه، بل بتقديمِ اقتراحٍ على اقتراح، ثم دعمِه بالتحدي.

ثانياً: إنّ اعتمادَ أساليبَ مُخَفَّفَةٍ في تنفيذِ الجرمِ، تُقَوِّي مَعنوياتِ المُجْرِم، وتساعِدُه على إتمامِ جُرْمِه.

ثالثاً: إنّ المقبل على ارتكابِ معصيةٍ، لا يُفَكِّرُ كثيراً في التفاصيل، إذْ إنَّ كثْرَة التفكيرِ فيها، قد يردَعُه عنِ ارتكابِ جُرْمِه، وهنا يَتدخَّلُ الشيطانُ بوسوسته، لكي لا يُفَكِّرَ في التفاصيل.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - لاستعمال عبارة: قال قائل منهم، رغبة في نقل معلومة ذكرها شخص دون الحاجة إلى ذكر اسمه أو صفته لما فيها من جمالية لغوية.

٢ - للدلالة على استبدال شر بشر آخر، وكثيراً ما تحصل أحداث بين الناس، فيعتزم أحدهم الأضرار بخصمه، ثم يأتيه من يذكي أوار غضبه فيقترح عليه نوعاً آخر من الأضرار، فيمكن إسترشاد بهذه الآية لمنع حصول أي أضرار على الأطلاق.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٩]

ينتقلُ بنا السياقُ أخي المؤمن، مباشرةً إلى مشهدٍ آخرَ مِنَ القِصةِ، دون الإطالةِ في السرد فإذا بنا معَ يعقوبَ عليه السلام، وقد وقَفَ أبناؤه المُؤتمِرون بأخِيهم يوسفَ عليه السلام، لتنفيذ خُطةٍ مُحكَمةٍ تَوَافقُوا عليها، شَهِدْنا النّقاطَ الرئيسية منها في الآياتِ السابقة، فإذا بنا معَ هذه النّقْلَةِ السريعة، يشْتَدُّ انتباهُنا للمتابعة، إذ إنّ صلةَ الوصْلِ بين الآيةِ السابقةِ والآية الحالية، موضوعِ تأمُّلِنا، هي نحن، بما أعطانا الله تعالى مِنْ نعمةِ العقلِ، مستخدمينَ بعضَ خصائصه، ألا وهو الرّبْطُ بينَ الأحداثِ بصورةٍ بديهيةٍ تلْقائيّة، وهذه المرونةُ الذهنيةُ هي إحدى النّعَمِ الكُبرى التي اختصّ الله تعالى الإنسانَ بها، ولولاهما لكانَتِ البشريةُ إلى الآن في حالٍ من الجمودِ والبلادةِ لا تُحْسَدُ عليها.

تُبدأ الآيةُ: ﴿**قالوا يا أبانا مَالك لا تأمنا على يُوسف**﴾

في هذا الشطرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في هذا الأُسلوبِ الجديد، الذي نتعَرَّفُ إليه باستماعِنا لطريقةِ المخاطبةِ التي اعتمَدَها المُحَدِّث، لكي يصلَ في النهايةِ إلى مُبْتَغاه. فهو لم يَطْلُبْ مباشرةً أخذَ يوسف، ولم يَقُلْ لأبيه إنه سيأخذُ يوسف معه غداً، بَلْ لم يُبادرْ بأي طلب، بلْ أرَادَ أنْ يضعَ أباهُ في وضعٍ نفسيٍ يتوافَقُ معَ فكرةِ عدمِ إعطاءِ يوسفَ حقوقَه الطبيعية، في ظلِ الطفولةِ التي يَحْيا، وكأنّ الأبَ العطوفَ الحنونَ المُحِبّ لولدِه، مُقَصِّرٌ في حقِه.. ولكي يكونَ للكلامِ وقْعٌ أغلَى في النفس، يستعمِلُ معَ الفكرةِ المؤنِّبَةِ أسلوبَ الاستفهامِ الإنكاري، فإذا به يقول: ﴿**يا أبانا مالَكَ لا تأمنا على يُوسف**﴾

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿**قالوا يا أبانا مَالك لا تأمنا على يوسف**﴾ هي في فَهمِنا للمؤثِّراتِ النفسيةِ التي يَعْتَمِدُها الناس في الوصولِ إلى مآربهم. والمبدأ فيها هو التالي: جابِه مُحَدِّثَك بأمورٍ ضَخْمةٍ كبيرة، تملأُ عليه حالَه،

وتضَعُهُ في حالٍ نفسيةٍ صعبة، يَبْحَثُ مَعَهَا عَنْ حلولٍ كبيرةٍ لمشاكل كبيرة. ثم قدِّمْ مَطْلَبَك الذي ترْغَبُ في الحصولِ عليه، فتُهَوِّنْ عليه التلبية.

إنَّ هذا المبدأ هو القائمُ حالياً في حوارِ الأقوياءِ معَ الضُّعفاءِ، وهو المبدأ الذي يعتمِدُه اليهودُ في كلِّ بقاعِ الأرض، والذي بموجِبهِ جَنَدُوا كُلَّ القُوى لمصْلَحتِهِم، ولا يزَالون.

اللطيفة الثالثة: في هذا الشطر من الآية إجتماعيةٌ أسْرِيّة: فقد يستَغْرِبُ الواحدُ مِنّا أن يحصُلَ ضِمنَ العائلةِ الواحدةِ أنْ يَمْنَعَ رجلٌ أبناءَه منَ الاستفرادِ بأخِيهم، وأنْ يتِمّ حِفْظُهُ وصَوْنُه ومُراقبتُه بصورةٍ دائمةٍ ليلَ نهار، مما قد يُوجِدُ ثُغرةً في إعطاءِ هذا الطفلِ حُقوقَه في اللّعبِ والترويح. والجوابُ على هذا، يَكْمُنُ في الخُصوصيةِ التي شاءَها الله تعالى ليعقوبَ عليه السلام: فهو رجلٌ مِمن اصْطَفَى الله تعالى منَ الأنبياء، وهو يسيرُ بهدْيٍ منَ الله تعالى، وما حِفْظُه ليوسفَ بهذا الأسلوب، إلا لعلمٍ اختصَّهُ الله تعالى به، فعَمِلَ بموجبِه مجتهداً، ولأنّ قضاءَ الله تعالى واقعٌ لا محَال، فها هي ذِي ظروفُ وقوعِ القضاءِ تتكاملُ دُونَ انتباهِ الفاعلين، والله تعالى يُعطي ما يشاءُ لمنْ يشاءُ بمِقْدار، وإنّا لنبتسمُ حين نَرى اجتهادَ إخوةَ يوسفَ في تدبيرِ المكائد وإعمالِ الفِكر، وشَحْذِ الهمم في التحايلِ والاحتيال، والله تعالى مِنْ وَرَائِهم محيط.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وإنّا له لناصحون﴾.

هنا يبدأ أولُ لفظٍ عملِي، في التجسيدِ الماديِّ للتخلُّصِ من يوسفَ عليه السلام، ألا وهو الكَذِب. وأصلُ الخُطةِ قائمٌ على الكَذِب، إذ إنّ المكيدَة تحتاجُ كَذِبا: إمّا أنْ يكونَ بسيطاً، في حالِ سهولةِ التنفيذ، وإمّا أنْ يكونَ مُعَقّداً مُرَكّباً، يقتضي درجاتٍ متعاقبةً منَ الكذب، معَ اعتمادِ وسائِله.

والوسائلُ على أنواع:

فهناك: وسائلُ الإقناعِ الكلامية، بأنْ يعتمدَ المتحدِّثُ أُسلوبَ التسلْسُلِ المنطقيِّ في السرد. معتمِداً على وقائعَ وظروفٍ وأحداثٍ تتصلُ اتصالاً مباشِراً مع الحدث..

وهناك: التلطُّفُ في الحديث، للإيحاءِ بالصِدق، ولأخذِ الثقة، وهو عاملٌ ضروريٌ لحصُولِ القَبولِ لدى الطَّرَفِ الآخر.

وهناك: المنهجيةُ المتماسكة، والتقدُّمُ بالبراهين، إما القولية، وإما الفِعلية، في مرحلةٍ مِنْ مرَاحِلِ الإقناع. وتكرارُ ذلك، بهدفِ ترسيخ جوِّ الثقةِ وتدعيمِه في نفس المُحدَّث.

وهناك: رَبْطُ الأقوالِ بالأفعال، والقيامُ بأعمالٍ مادية، إما تمهيديةً لتوثيق الإقناع. وإمّا عملانيَّة لإثباتِ الجدِّيَّةِ في التنفيذ. على الأقل، في المرحلةِ الأُولى منَ التنفيذ، حتى الاستيلاءِ الكامل على الثقة.

وفي قولِهم: وإنا له لنَاصِحون. جزءٌ منْ تنفيذِ الخُطةِ، بالكذبِ على أبيهم أنهم يريدونَ له الخير والنُّصح. وهم يُظهِرُون خلافَ ما يُضمِرون، وقولُهم هذا اعتراضِيٌ في وسَطِ الخُطّة، في ظاهرِ الحال، لا ضرورةَ له، إلا أنه عنصرٌ أساسيٌ من عناصرِ الإقناعِ المطلوبة.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**أرسِلْه معَنا غداً يرتَعْ ويَلْعَبْ وإنّا له لحافظون**﴾

في هذه الآيَة لِطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِهم: ﴿**أرسِلْه مَعَنا غداً يرتعْ ويلْعَبْ**﴾.

فبعدَ أنْ حَضَّروا لمطْلَبهم بوضع أبيهم في حالِ ارتقابٍ معَ عُنوانٍ واسعٍ غامضٍ، يتَناوَلُ كلّ مَصالِحِ يوسفَ وحقوقِه، إذا بهم يَطْلُبونَ مَطْلَباً بَسيطاً غَلّفوهُ

بأمرٍ مُحبّبٍ، زيادةً في الإقناعِ، فأشاروا إلى مسألتينِ اثنتين:

الأُولى: أنْ يكونَ له مجالٌ لإطلاقِ رغبتِه في الحصولِ على ما يشاءُ من طَعامٍ وشرابٍ في جوٍ منَ الانشراحِ والحُبور، وفي الفَلاةِ حيثُ ترتاحُ الجَوارِحُ مِنْ أثرِ التقييدِ في الموقعِ الواحد..

الثانية: أنْ يُطْلِقَ قُواهُ البدنية، ويتركَ لها مجالَ التمرينِ..

فلا تنشَطُ العضَلاتُ ولا يَشْتَدُّ العودُ إلا في الجري.

اللطيفة الثانية: في قولهم: ﴿**غداً**﴾ هنا أيضاً، نجدُ أنّ التورية تلْعَبُ دورها في الخُطةِ المعتَمدة، لإقناع الأب بإرسالِ ابنِه معهم. فلو قالوا أرْسِلْه معنا الآن. لتوجّس خيفة، وتصاعَدَتْ شكوكه، فإذا بهم يطْلُبُونَ أخَاهم على التراخي: أرْسِلْه معَنا غداً. وَهُمْ في نُفوسِهم يتَمَّنونَ لو يأْخذونَه في الحال. ولكنهم لا يُريدونَ أَنْ يتركوا أية ثُغرةٍ في خُطّتِهم تفتحُ مجالاً للشّكِّ في صِدْقِ نواياهم.

اللطيفة الثالثة: في قولِهم، ﴿**وإنّا له لحافظون**﴾. فالعبارةُ هنا، تأْتي بتناسُقٍ لُغويٍ. جميل، معَ العبارةِ في الآيةِ السابقة: ﴿**وإنّا له لناصحون**﴾ فضلاً عَنْ كونِها تأتي تثبيتاً لكذبِهم، وقد أضْمَرُوا له عدمَ الحِفْظ، وقد أعدَّ الله تعالى له كاملَ الحِفْظ، ويمكرُون ويمكرُ الله، فالله خيرُ حافظاً وهو أرحمُ الراحمين.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية

١ - للتنبيه حال حصول محاولة إقناع مغلفة بوسائل إحتيالية يكون ظاهر القول فيها جيداً مفيداً فيما يخفي باطنه الكيد والإحتيال.

٢ - استعمال عبارة «يرتع ويلعب» للدلالة على مجمل أحوال لهو الأطفال، وهي ذات وقع جميل في الأذن

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٠]

نصلُ معَ هاتين الآيتين أخي المؤمن، إلى المشهدِ الثاني من الحوارِ الذي يَجْري بينَ يعقوبَ عليه السلام، وبينَ أبنائه، الذين يجهدونَ في إقناعه بتسليمِهم يوسفَ عليه السلام، وقد أظهروا له خلافَ ما يُضمِرون، فكانَ في جوابِه لهم إرساءٌ لقاعدتينِ مِنْ قواعدِ علمِ النفس. نستَخْلِصُهما على هَامِش القِصة، لِنَضُمّها إلى الكمِ الضخمِ من القواعدِ التي تزْخَرُ بها السورة.

يقولُ الله تعالى: **﴿قال إني ليَحزُنَني أنْ تذهبوا به﴾**.

في هذا الشطْرِ من الآيةِ، لطائف عدة:

اللطيفة الأولى: أنها الإشارةُ الماديةُ الأولى الصريحةُ التي يَذْكُرُ فيها يعقوبُ عليه السلام، شِدَّةَ مَحَبَّتِه ليوسف عليه السلام، وهي عينُ المسألةِ التي ائتمَرُوا لأجْلِها، وكأنها الإشارةُ المادّيةُ الدامغةُ التي تَدْفَعهُم دَفْعاً لتنفيذِ ما اعتزموا، مِنَ التخَلُّصِ من يوسفَ عليه السلام. وكثيرةٌ هي الوقائعُ التي تحْصُلُ في حياتنا الدنيا، التي تُطابقُ هذه الواقعةَ. ومُفَادُها: أنّ حدثاً مُعَيّناً بسيطاً يُضَافُ إلى احتقانٍ شديدٍ سبقه، يُؤدِّي إلى دَفْعٍ مُؤَكّد، لتنفيذِ خُطةٍ غير مؤكّدةِ التنفيذ، قَبْلَ حصولِ هذا الحَدَث. والأمثلةُ في التاريخِ الحديثِ كثيرة: كمَثَلِ السّبَبِ البسيطِ المُباشِرِ الذي أدّى إلى اندلاعِ الحربِ العالميةِ الأُولى، أو الحادثةِ البسيطة، التي حصَلَتْ للسيدة المسلمة، على أيدي الروم، والتي أدّتْ إلى فتح عمّورية، وغيرِها كثير.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿قال إني ليَحْزُنني﴾**.

ونتوقّفُ هنا قليلاً، عند مسألةِ الحُزْن: فالحزنُ شُعورٌ داخليٌ بالانزعاجِ، يُصيبُ النفسَ الإنسانية، عندما تَتعرَّضُ لما لا يُرضيها، وهي بعضٌ مِنْ معالم النفسِ البشرية، التي شاءَها الله تعالى لعبادِه في الحياةِ الدنيا. ولا يوجدُ إنسانٌ على ظهرِ الأرض، لم يُعاين الحُزْن، وهو وإنْ كانَ غيرَ مرغوب، فإن وجودَه ضروريّ لتَفَهُّم معنَى الحبورِ والسعادة، لوجوبِ وجود الأضدادِ للمفاضلة، ولتهذيبِ النفسِ، وحَمْلِها على تجاوُزِ المشاقِّ والصِّعابِ، لإبعادِ الحُزْن، ولارتباطِه بمفهومِ الحسَن والسيء، وحضِّ الإنسانِ على القيام بالأفعالِ الصالحة، دَفْعاً للشعورِ بالحزن.

وإذا كان الحزنُ طبيعياً بمقدار وبمعزل عن نبي الله يعقوب عليه السلام فإنه قد يتحوّلُ إلى مَعْلَم مرضِي فيما لو تفاقم واستفْحَل، وإذا ما صارَ مُلازِماً للإنسان: ومِنَ الأمراضِ النفسية المستعصيةِ الكثيرةِ الانتشارِ في أيامِنا الحالية، ذاكَ المرض الذي توافَقَ العلماءُ على تسميته: الميلانكوليا، وأبرزُ سماتِهِ طُغيانُ الشعور بالحُزنِ على الإنسان، حتى السَوْدَاويّةِ المُطْلَقة، وصولاً إلى التفكير بالانتحار. وهذه مُعْضِلةٌ كبيرةٌ، ينبغي التنبُّهُ إليها باكراً، وعلاجُها يَحتاجُ إلى شيءٍ مِنَ الدواءِ، وكثيرٍ مِنَ الإيمان والثقةِ بالله تعالى، والفَهْمِ الصحيح لمعنى الوجودِ على وَجْهِ الأرض، وصحةِ التوكُّل وتَفَهُّم مَعْنَاهُ الفَهمَ الصحيح.

وبالعودة إلى سورة يوسف:

فما قول يعقوب عليه السلامُ في الآيةِ الكريمة: **﴿إنه ليَحْزُنني﴾**، إلا إشارةٌ إلى هذا الشعورِ الإنساني، الذي قَدْ يَنْجُمُ عَنْ فَقْدِ عزيزٍ، أو بعادِ حبيب، أو خسارةٍ في المال، أو فَوْتِ فُرْصَة، أو رسوبٍ في امتحان، أو ضياعِ مَنْصِب، أو حصولِ نائبة، وبالإجمال كلُّ ما يُخالِفُ النفسَ فيما تهْوَاه، وإذا جَاءَتِ الإشارةُ في الآيةِ الكريمةِ إلى الحزن، فعلينا أنْ نقِفَ عِنْدَها. ونعلمُ أنَّ الله تعالى، إذ

أوجدَ لنا هذا الشعور، لكي نرتَقِي في الطاعةِ والعبادة. نَبَّهَنا إلى مخاطرِ الاستسلام له، وهذا ما سنراهُ في اللاحقِ منَ الآيات.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿أنْ تَذْهَبُوا به﴾**.

فإذا تأمَّلْنا سُؤَالَهم في الآيةِ السابقة، حين قالوا: **﴿أرسِلْه معنا غداً﴾**، ثم سَمِعْنا جوابَه في هذه الآية، قولُه: **﴿أنْ تذهبوا به﴾**، نُدْرِكُ أنّ هُناكَ لغتين منَ التخاطُبِ على وتيرتين مختلفتين جداً، بل متناقضتين:

فلقد اعتمد الأبناءُ صيغة اللِين والإقناع، حين استعملوا كلمة: **﴿أرْسِلْه﴾**. وهي تحملُ في طيَّاتها معاني الولايةِ على الطفل، ومعاني الرجاء والاستعطاف. ومعاني الخضوعِ والتلطُّف. وذلك بهدف الوصولِ إلى أخْذِ يوسفَ معهم.

أما يعقوبُ عليه السلام، فقد استعمل صِيغةً مختلفةً تماماً، وهو يقولُ لهم: **﴿أنْ تذْهَبُوا به﴾**، وكأنه يقول: أنْ تنتزِعُوه منِّي انتزاعاً، وهذه الصيغةُ تحملُ في طياتِها معاني انعدامِ الثقة، ومعاني الفقدِ والرفضِ، ومعاني الشكّ بصحةِ دَعْوَاهُم. فانظُرْ أخي المؤمن، وتأمَّلْ دِقّةَ تعابير القرآن.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿وأخافُ أنْ يأكُلَهُ الذِئبُ وأنتم عنه غافِلون﴾**.

في هذا الشطرِ من الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قول يعقوبَ عليه السلام: **﴿وأخافُ﴾**.

فبعدَ أنْ تطرَّقَ إلى مَفْهُومِ الحزن، أشارَ مباشرةً إلى العنصرِ الآخرِ منْ عناصر أحوالِ النفسِ الإنسانيةِ في الآية، ألا وهو عنصرُ الخَوْف. وبمعزل عن نبي الله يعقوب عليه السلام نتحدث عن الخوف: هو شعورٌ باللاطمأنينة، ينْتَابُ الإنسان عندَ تعرُّضِهِ لخطرٍ مُحْدقٍ أو مُحْتمل. أو عندَ حُصولِ الكوارثِ

والزَلازل، أو عندَ مواجهةِ العدوِ في الحروب، أو عِنْدَ اضطراب المُقَوِّماتِ الطبيعية الهادئةِ للحياة.

وقد غرَسَ الله تعالى الشعورَ بالخَوْفِ في نفوسِ العباد، كعاملٍ منْ عواملِ حفظِ الحياة. وعِظةً وتَذْكِرةً، وحضاً على اجتناب ما نَهى عنه الله تعالى، بعدما عَلِمُوا بالعِقاب. ولولا الشعورُ بالخوف، لهلَكَ أكْثرُ الناس استهانَةً بالمخاطرِ، وجَهْلاً بالنَوازِل، ولولا الخوفُ منَ النار، لعاثَ الإنسانُ في الأرض فساداً وإهلاكاً. فتلكَ رحمةٌ نحْمَدُ الله تعالى عليها.

وكما الحزنُ، فإنّ الخوفَ طبيعيٌ بمقدار، فإذا ما زادَ عنْ مِقدارِه تحوَّلَ إلى حالةٍ مرضيةٍ خطيرةٍ جداً، يَصْعُبُ علاجُها، وتتشعَّبُ أعراضُها، تقومُ أساساً على أوهامٍ وَوَساوِسَ لا تَلِيقُ بالعاقل. يُصبحُ المريضُ فيها أسيراً مُكبّلاً، يعيشُ في عالمٍ هوائي خيالي، يَغْلِبُ عليه الخوفُ في كل حالِه، ويتحوَّلُ الخوفُ إلى رُعْبٍ في أحوالٍ مَخصوصة، قدْ تكُونُ بمناسبةٍ مادِّيَّةٍ، أو بفعلِ تطوُّرِ الفِكْرِ لديه، إلى حَدِّ الجمود والتقوقع، مع أعراضٍ جسمانيةٍ، كضيقِ النَّفسِ، وازديادِ النبْض، والشعورِ بالاختناقِ وتنميل الأطراف، وتلاشي القُوَى.

وهذه الحالُ تحتاجُ إلى معالجةٍ أعمقَ وأدَقّ مِنْ مشكلةِ الحزن، بما فيها العلاجُ الدوائي، والعلاجُ النفسي، وإصلاحُ العلاقةِ مع الله تعالى، حتى الوصولِ إلى الشعورِ برضى الله تعالى، عَنْ صلاحِ النيةِ، وصلاحِ العمل.. نسألُ الله تعالى العفو والعافيةَ والمعافاةَ الدائمة، والحفظَ والصَوْنَ آمين.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وأخافُ أنْ يأْكُلَهُ الذئب﴾** ولقد يُصيبنا العَجب، حين لا نسْمعُ منْ يعقوبَ عليه السلام، إلا احتمالاً واحداً في نوعِ الأذِيّةِ التي قد يتعرَّضُ لها يوسفُ عليه السلام، والمخاطرُ عديدةٌ متنوعةٌ في العراء، كمِثلِ السَّقوطِ منْ عُلو، أو الضَياع، أو أنْ يُخْطَفَ مِنْ قِبلِ مجهولين. وهو الحسنُ الوجه، الصَبوحُ الخِلْقة.

لقد أجرى الله تعالى على لسان يعقوب هذا الكلام لأمر شاءه الله تعالى، تحضيراً لطمأنته عن حال يوسف لاحقاً ذاك أن لاحق قولهم بأنه أكله الذئب إشارةٌ ضمنيةٌ أنه لم يأكلْه، وهو ما ستراه فيما بعد إن شاء الله.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿وأنتم عنه غافلون﴾**.

لقد سَمِعْنا في الآيةِ السابقة، كيف أنّ إخوة يوسف قالوا لأبيهم: **﴿وإنا له لناصحون﴾** ثم قالوا: **﴿وإنا له لحافظون﴾**، فإذا به يُجيبهم في هذه الآية: **﴿وأنتم عنه غافلون﴾**.

وبذلك نجِدُ استمرارَ تبايُنِ الصِّيغِ وإيحاءاتهما، بينَ توَجُّهِ مضمونِ كلام إخوةِ يوسفَ في كلامِهم بالإغراءِ واللين، وتوجُّهِ مضمونِ كلامِ يعقوبَ عليه السلام، في ردِّه بالشَكِّ والتحفُّظ.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قالوا لئِنْ أكَلَهُ الذِّئبُ ونَحنُ عُصْبةٌ إنّا إذاً لخاسرون﴾**

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: هي في مُلاحظتنا أنهم تجاهَلُوا الإجابة عن الشِقِّ الأولِ في كلامِ أبيهم، حينَ قال: **﴿إني ليَحزُنُني أنْ تَذْهَبوا به﴾** والواقعُ أنهم لا يَمْلِكُونَ جواباً، ذاكَ أنّ الإئتمارَ كُلَّه حاصلٌ بسببِ حُبِّ يعقوب ليوسف، وأيُّ جوابٍ منهم يكونُ إدانةً لهم، وهم يجْهَدُونَ بكلّ وسائِلهم في إقناعِ يعقوبَ لتسليم يوسف عليه السلام، فإذا بهم يغْرَقُونَ في كَذِبِهِمُ الذي يَزْدَادُ تعقيداً مع كُلِّ مرحلةٍ مِنْ مراحلِ الحوار: فيقْبَلُون مُسبقاً أنْ يقالَ عنهم: إنهم خاسرون وهُمْ يتأكّدون باليقينِ القَطْعِيِّ أنه سيُقال عنهم ذلك، لعِلَّةِ ما اعتزمُوه، بل يقْبَلُونَ بالصَّغَار مع ما قدْ يَتَضمَّنُ ذلك مِنْ آثارٍ ومُضاعَفاتٍ على وضْعِهم مِنْ إذلال.

اللطيفة الثانية: في تصاعُدِ الموقفِ حتى الذُّروة، وقد قارَبَ الحديثُ مع

أبيهم على الانتهاء، وهم يرغبونَ في الوصولِ إلى النتيجةِ المنشودة، فإذا بهم يزمُونَ بثقلِهم في الإقناع، ويضَعُونَ كرامتَهم وعِزَّتَهُمْ وقُوَّتهم في الميزان، ويَقْبَلُون التحدِّي الصارخَ، ويَخْلُصونَ في النتيجةِ إلى القول: ﴿**ونحن عُصبةٌ إنّا إذاً لخاسرون**﴾.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِ الحالِ التي وصَلُوا إليها وقت الاحتقانِ الشديد عندَ الإلحاح في الطّلب، لنَسْتَخْلِصَ منها العِبرةَ النفسيةَ التالية: إنها تغشى العيون والبصائر عندما نجِدُّ في طلب أمرٍ ويعسر علينا الوصولُ إليه، ونصبح في موقعِ ضَعفٍ يسْهُلُ علينا معَه التنازُلُ عَنْ أشياءَ يَعِزُّ علينا التنازُلُ عنها في الأحوالِ العادية.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - لتفحص صدق المخاطب وذلك بإيراد معلومة لم تكن في أساس خطابه، فإذا تلقفها ونسج على منوالها، فتلك إشارة يفهم منها حرصه على الإقناع للوصول إلى مبتغاه، مما يستوجب الحيطة والحذر معه.

٢ - للدلالة على وجوب مناقشة صاحب الطلب في مطلبه حتى وإن كان من أقرب المقربين، وعدم التسليم الطوعي الفوري لمطلبه.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١١]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى مشْهدٍ جديدٍ منْ مشاهدِ قِصّةِ يوسفَ

عليه السلام، بَعْدَما أَرْخَتِ الآية السابقةُ السِتارَ على مشْهَد الحِوارِ الذي جَرَى بينَ يعقوبَ عليه السلام، وأبنائِه المُؤتمِرينَ بأخيهم يوسف، يُريدون التخلُّصَ منه، وقد استعملوا كلّ وسائِلِ الترغِيب والإقناع، وما وفَّرُوا الكَذِبَ والتحدِّي، وقَبِلُوا على أنفسِهم الذُّلَّ والصَّغَار حتى يسْلُخُوه عَنْ أبيه. ويَنْتَهي المشهدُ دونَ أنْ نسْتَبينَ حصِيلةَ الحوار، وها هي ذِي الآيةُ موضوع التأملِ اليوم، تأتينا بما غُمَّ علينا، وتَحْمِلُنا إلى موقعٍ جديدٍ، ومنحىً جديدٍ في حياةِ يوسفَ عليه السلام، ومشيئةُ الله تعالى نَافِذَةٌ في كُلِّ حركةٍ أو سَكَنَة، لكنَّ أكْثَر الناسِ لا يَعْلَمُون.

يقولُ الله تعالى: **﴿فلمّا ذَهَبُوا به وأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوه في غَيابةِ الجُبِّ﴾**

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: **﴿فلمّا ذَهَبُوا به﴾** هذه الكلماتُ الوجيزة تقول أشياءَ كثيرة:

فنعرِفُ أولاً أنّ يعقوبَ عليه السلام، نزَلَ عندَ إلحاحِهم وسلّمَهُمْ يوسف، ويقولُ المفسرون: إنه أخَذَ عليهم المواثيق الغَليظة بالاهتمامِ به، فأظهروا له مَحَبَّتهُم ليوسف، وحَمَلُوه على أعناقِهم يتَنَاوَبُونَهُ، ما داموا تحتَ أنظارِ أبيهم، فلمّا ابتعدوا أعْمَلُوا فيه لَمْزاً وشَدّاً وضَرْباً، تشَفِّياً وحِقْداً.

ونعرفُ أنّ يوسفَ في حالِه هذه، مغلوبٌ على أمرِه؛ يكْفِي أنْ نتأمَّلُ الصيغةَ في قولِه تعالى: **﴿فلمّا ذَهَبُوا به﴾**، حتى نُدْرِكَ أنهم لم يَذْهَبُوا معه، ولم يصْطَحِبُوه، ولم يُرافِقُوه، بل أَخَذُوه أخْذاً قسرِيّاً، بَعْدَ جهودٍ كثيفة، وكَذِبٍ كثير.

ونَعْرِفُ أنّ علينا أنْ نَنْتَظِر حَدَثاً بعدَ الذّهابِ به، لِوُرودِ الآيةِ بصيغةِ تعليق الذّهابِ على نتيجةٍ لاحقة. مما يشُدُّ المستمع لمتابعةِ أحداثِ المشهد.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿**وأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوه في غيابَةِ الجُبّ**﴾: لقد اقْتَرَح أحدُهم في بدايةِ السُّورة، أَنْ يتَخَلَّصُوا منه، بأَنْ يضَعُوهُ في غيابَةِ الجب، يَلْتَقِطَه بعض السيارة. ولم نسْمَعْ جوابَهم على اقتراحِه، ثم دَارَتْ أحداثُ القِصَّة، حتى حصَلَ لهم ما أَرَادُوا منْ أخذِ يوسفَ مِنْ أبيه، وها نحنُ الآنَ نَعْلَمُ أَنَّهم وافقوه على اقتراحِه، ليستْ موافقةَ أكثريةٍ، بلْ موافقةُ إجماع: عشَرَة إخوةٍ يُجْمِعون على إلقاء أخيهم في الجُبِّ ليتَخَلَّصُوا منه. إنها الغرابةُ في الإجماع، وما كانَ ليَحْصُلَ لولا اشتدادُ كُرْهِهِم ليوسف، وغَلَبَةُ الشيطانِ عليهم، وهذه الواقعةُ تُنبِّهُنا إلى أَن احتمال الإجماعِ على الشرِّ وارد، وأنّ الظنَّ الحسن في زُمْرَةٍ منَ العُصاةِ إنْ كثرُوا، ليس واقعياً في أغلبِ الأحيان، مما يؤيِّدُ المبدأَ القائل: المجتمعون على الحقّ بعضُهم يُقَوِّي بعضاً، ويُصَوِّبُ قناتهم. والمجتمعون على الباطل، بَعْضُهم يمحو لمحاتِ الصَّواب من بعض، ويطْمِسُ على قلوبهم.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**أَنْ يَجْعَلُوه في غيابَةِ الجُب**﴾: الله تعالى هو الذي يُخاطِبنا في هذه الآية، مُخْبِراً عَنْ قرارِ إخوةِ يوسف. ولو عُدْنا إلى الآية العاشرةِ من السُّورة، لَسَمِعْنَا أحدَ المؤتمرين يقول: ﴿**وأَلْقُوهُ في غيابةِ الجب**﴾ فانظرْ أخي المؤمن إلى اختلاف الصِّيغ: الأخُ الحاقد، يستَعْمِلُ عبارة أَلْقُوه تعبيراً عمّا في نفسِه مِنَ الكُره ليوسف، والله تعالى يقولَ عن الفعل نفسه: أنْ يَجْعَلُوه، إعلاماً لنا عَنْ حُبِّه ليوسفَ، وتلكَ دقّةٌ فريدةٌ في تعابير القرآنِ الكريم، أنّى لنا أنْ نُدَانِيها.

اللطيفة الرابعة: في هذا الشطرِ منَ الآية، تُنبِّهُنا إلى حالِ يوسفَ عليه السلام، حين إنزالِهِ في الجُبّ، حيثُ الرُّطُوبةُ والوَحْشَةُ، والوَحْدَةُ والهَوام، والانقطاعُ عن الدنيا، حيثُ هو من الموتِ أقرب، وحيث يتضَاعَفُ الشعورُ بالخوفِ لدى الطِّفْلِ الصغير: إنّ الطِّفَل الصغير لو وُضِعَ في قَصْرٍ مُذَهَّبٍ مُدَفَّأً

مُنَارٍ، ونُسِيَ وحيداً، لأصَابَهُ الهَلَعُ، فكيفَ إذا وُضِعَ في جُبٍّ ضيّقٍ باردٍ مُظْلِمٍ عميقٍ مُوْحشٍ؟

لم يَكْفِهِمْ هذا، بَلْ نَزَعُوا عنه قَمِيْصه، وأنْزَلُوه عارياً، لِيَزْدَاد شقَاؤه شقاءً، بلا شَفَقَةٍ ولا رَحْمَة، وذلك لضروراتِ اكتمالِ عناصرِ كذبِهم على ما سنَرَاهُ لاحِقاً، فأيُّ إنسانٍ في مثل عُمْرِ يوسفَ عليه السلام، وفي مثلِ الوضعِ الذي تُرِكَ فيه، تَبْقَى لديه رباطَةُ جأشٍ، وأملٌ في الخَلاص، وسَكِينَةٌ في القلب؟

الجوابُ يأتِينا مُبَاشَرة:

يقولُ الله تعالى: ﴿وأوْحَينَا إليه لتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمْرِهم هذا وهُمْ لا يشْعُرون﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في إلقاء السكينةِ في قَلْبِ يوسفَ عليه السلام، في أدَقِّ المواقفِ وأصْعَبِها، وذلك بإعطائه الإشارةَ بأنّ الله تعالَى معه. هنا يتبَدَّلُ الموقفُ تماماً: فلم يَعُدْ يوسفُ ذلكَ القَلِقَ الخائفَ الوَجلَ الذي يتحَكّمُ بمصيره أولئك الذين أصابَهُمْ الجهَل والغُرور، الناظرون إليه عندَ فُوهَةِ البئرِ بصَلَفٍ وشماتَة؛ بل هو المُطْمئنُّ في حِمَى الرحمن مثلُهُ في ذلكَ كمَثَلِ إبراهيمَ عليه السلام؛ ساعة أُلْقِيَ في النارِ المتأجِّجَة، ومَثَلُهُ في ذلكَ كمَثَلِ رسولِ الله محمدٍ عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليمُ في الغار، يومَ الهجرة، وقد كادَ المشركون يطالونَه، فأنزلَ الله تعالى سَكِينَتَهُ على قَلْبِه، وأيّدَهُ بنصرٍ منه.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿وأوْحَينَا إليه﴾.

إنه التلقينُ والتعليمُ الرّبّاني يبْدأُ بالوصول إليه عن طريق الإلهامِ ولا عِبرَة لِهَوْلِ الموقفِ الذي هو فيه، فما هذا إلا حساب العِبادِ في تقديرِهم لأحوالِ دُنياهُم، والله تعالى مُتِمُّ أمرِه ومُمْضٍ لِحُكْمِه.

ومِنْ قولِ الله تعالى: ﴿**وأوحينا إليه**﴾، نَعْلَمُ أنَّ يوسفَ عليه السلام، وصَلَتْهُ الإشاراتُ التالية:

فهو إعلامٌ مِنَ الله تعالى باستمرارِ الحياةِ عنده، رُغْمَ كُلِّ الظواهر المحيطة التي تُشيرُ إلى قُرْبِ انتهائها.

وهو تطمين بأنه سيخرجُ منَ المحنةِ سريعاً.

وهو إيذانٌ منَ الله تعالى، بأنه الآن بدأ مُهِمّتَهُ السامية في الحياةِ الدنيا، على نهج الأنبياء والمرسلينَ المصْطَفَيْنَ الأخيار، للإصلاح في الأرض.

وهو ارتفاعٌ سريعٌ به عَنْ واقِعه المُعاش، منْ بيئته الصغيرةِ المتمثلة باحتضانِ أبيه له، وحسَد إخوته وبُغْضِهم إلى عَالَم واسعٍ جداً، عالمٍ نُوراني من الرعايةِ الإلهية، والارتفاع فوقَ الهُموم البسيطة الصغيرة، إلى همومِ البشر عامة: وحَمْلِ رايةِ إصلاحِ الناس كافة: هو الانعتاقُ منَ الاهتمامِ الضيِّقِ بشَخْصِه، إلى الاهتمامِ بنجاة الأُمم كافة؛ وما تِلك بالمهمةِ السَهْلَة، ولا يقْدِرُ عليها إلا من اصطفى الله تعالى.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**لتُنَبِّئَنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**﴾. إعلامٌ غيبي من الله تعالى ليوسف عليه السلام، زاخرٌ بالمعاني، غنيٌّ بالإشارات، تستوقفنا فنفهم منها ما يلي:

➤لقد أعلمَ الله تعالى نبيَّهُ أنه سيعودُ ليلتقي بإخوتهِ لاحقاً، ممّا يشيرُ إلى أن دورة الحياة مهما ذَهَبَتْ به بعيداً، فإنه سيلتئِمُ شَمْلُ عائلتِه من جديد، مما يُهَدِّىء نفسَه، وهو في أشدِّ أوقات مِحْنَته.

➤وفيه إعلامٌ بأنه حينَ يجتمعُ بهم مجدداً، يكونُ قدْ مَرَّ وقتٌ طويل، تتغيَّرُ خِلالَهُ ملامِحه، فيكون قد أصبح رجلاً، يعرفُهم ولا يعْرِفُونَه، يختارُ هو الوقتَ والمناسبة لتعريفِهم بنفسِه.

➢وفيه إعلامٌ بأنه حينَ يجتمعُ بهم مجدداً، تكون له الغَلَبة في الموقِف، فيكونُ هو الطرف القَوِيّ، ويكونونَ هُم في مَوْقِع الضَّعْف، ونستشعرُ الإمدادَ بالقوةِ مِنْ قولِه تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾، ففيها التوكيدُ على حصولِ اللقاء، وفيها التوكيدُ على العُلُوّ ساعةَ اللقاء.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على إمكانية إجماع مجموعة كاملة على الباطل، بعضها يقوي بعضاً حتى تعزم على تنفيذ ما أجمعت عليه وتقوم فعلاً بتنفيذه.

٢ - للدلالة على اجتماع الرحمة الإلهية بعباده مع حال الإحصار الظاهري الذي يلاقونه وقت الشدة، تطميناً للناس بأن الله تعالى معهم حتى وإن اشتدت عليهم الأزمات.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٢]

تنقلُنا هاتانِ الآيتانِ، أخي المؤمن، مُجَدَّداً إلى مشهدٍ آخرَ من مشاهدِ قصةِ يوسفَ عليه السلام، دونَ أنْ تنتهي الآياتُ السابقاتُ بتفصيلٍ لما حَدَثَ بعدَ إجماع الإخوةِ على إلقاء يوسفَ في غيابَةِ الجُبّ. وقد عهدْنَا هذا الأسلوبَ في الانتقالِ مِنْ مشهدٍ إلى آخر، في الآياتِ السابقة، مما يتركُ للمستمعِ حيِّزاً في التفاعُلِ الإيجابي معَ أحداثِ القصة، فلا يكون مجالٌ لِلْمَلَلِ من السردِ الطويل، ولا تراخٍ مِنْ أثرِ التبسيط. وذاك هو المحركُ لمتابعةِ سيرِ أحداثِ القِصة معَ المشاركةِ الشخصية.

يقولُ الله تعالى: ﴿وجاؤوا أباهم عِشَاءً يَبْكُون﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في التوقيت الزمني، في قولِه تعالى: ﴿عِشاء﴾ تدليلٌ على إحكامِهم خُطة إبلاغِهمُ الخبر الصاعق على والدِهم. وللكَذِبِ عناصرُ مركَّبةٌ نذكّر منها:

أولاً: تحضيرُ الجوِّ الملائم الذي يتماشَى مع إطلاقِ الكَذِبِ ليكون أقربَ إلى التصديق.

ثانياً: إنتقاءُ الوقتِ الملائمِ الذي يُساعِدُ على تغطيةِ أحوالِ الكَذِب.

ثالثاً: القيامُ بأفعالٍ تحضيريةٍ تُهَيِّىء المتلقي لوقع الخبرِ عليه.

رابعاً: التنفيذُ القوليُّ، وذلك بسَرْدِ الخبر.

خامساً: التدليلُ على صحةِ القولِ الكَذِبِ بأفعَالٍ حسيةٍ وأدلّةٍ ملموسة.

ولقد عَمَدَ إخوةُ يوسفَ إلى الأخذِ بهذه العناصِر جميعاً:

فأقْبَلُوا على أبيهم مجتمعين. وهذا مِصْدَاق قولِه تعالى: ﴿وجاؤوا﴾ مما يُشْبِهُ التحضير، لنقلِ خبرٍ هامٍ يستلْزِمُ حضورَهم جميعاً.

ثم إنهم اختاروا وقْتَ العشاءِ، فيكونُ الظَلامُ قد ساد مما يُساعِدُهم على إخفاءِ تعابيرِ وجوهِهم، فلا تفْضَحُهُمْ فراسَةُ أَبيهم.

ثم إنهم جاؤُوا يَبْكُونَ، وهو العُنصرُ الثالثُ من عناصرِ اكتمالِ الكَذِب، وهم لغايةِ هذه اللحظة، لم يتَكَلّمُوا بكلمة، وما العناصرُ الثلاثةُ السابقةُ إلا حشداً للحالِ النفسيةِ لأبيهم، لِحَمْلِه على تصديقِ ما سيقُولون.

اللطيفة الثانية: في هذه الآية، في الوقوفِ عندَ كلمةِ ﴿يبكون﴾.

فالبكاءُ تعبيرٌ عَنْ حالةٍ نفسيةٍ يتواجَدُ فيها المرءُ، تجِدُ ترجَمتهَا إلى العَلَن، عَبْرَ ذَرْفِ الدموعِ من العيون، وتغيُّرٍ في تعابيرِ الوجه، نتيجة تقَلُّصٍ عضلِيٍّ مُصَاحِب، يُرافِقُها أحياناً، تُقْطَعُ في الزَّفير. ويكونُ البكاءُ غالباً للتعبيرِ عنِ الألَمِ أو الحزن، وأحياناً للتعبيرِ عنِ الفرح.

والبكاءُ على درجات:

فهناكَ البكاءُ الصامت: وهو الذي لا يُعَبَّرُ عنه إلا بذَرفِ الدموع، وغالباً ما يُعَبِّرُ عنْ ألمٍ دفينٍ لدى أصحابِ الشخصياتِ القوية.

وهناك البكاء المصحوبُ بالصوت: وهو أكثرُ أنواع البكاءِ شيوعاً، يتِمُّ خلالَه إعمالُ كُلِّ عناصرِ التعبيرِ بصورةٍ لا إرادية، من ذَرْفِ الدموع، إلى استثارة العَصَب الدِّماغِيِّ السابع إلى تحريكِ عضلاتِ الحِجابِ الحاجز، والقَصَباتِ الهوائية.

وهناك البكاءُ التنهيديُّ: الذي يَغْلِبُ عليه الانقباضُ العضَلِيُّ حالَ الزفير، وهو الأكثرُ ظُهوراً لدى الأطفال.

وهناك البكاءُ التعبيري: الذي يسْتَحْضِرُ مِنْ خلالِه المرءُ حالاً نفسيةً توْصِلُه في النهايةِ إلى إعمالِ دَوْرَةِ البكاءِ التقليدية، وذلك بطريقةِ الاستثارة الإرادِيَّةِ لوظيفةٍ لا إرادية.

وهناك النَّحيب: وهو البكاءُ الذي يَغْلِبُ عليه عُنْصر الصوت، فيَظْهَرُ إلى العلنِ بصورةِ أنينٍ أساساً، يصْحَبُه البكاء.

وهناكَ العويل: وهو خُروجٌ كاملٌ عنِ الطّور، معَ تنشيطٍ للجملِ العضلِيةِ الكُبرى، مِنْ يدينِ وذِراعينِ وساقين، وجهرٌ شديدٌ بالصوتِ .

وهناك البكاءُ الكاذِب: وهذا هو حالُ إخوةِ يوسفَ في الآيةِ الكريمة، والذي

يَهْدِفُ إلى مُحاولةِ إقناعِ المستمع أنه في حُزْنٍ ولوعة، ولقد يجتهدُ الباكي فتسعفه العينُ بالدمع. وقد لا تُسْعِفُه، فيجتهدُ بتعابيرِ الوجهِ، وما يتأتى معه مِنْ أصوات.

ولقد عَكَفَ العلماءُ على دراسةِ مسألةِ البكاء، واكتشفوا حديثاً جداً، أنّ شُعلة البكاءِ تنطَلِقُ إثْرَ إفرازِ مادةٍ في الجسمِ، تُسَمَّى اللاكريمالين، التي فيما لو حُقِنَتْ في دمِ إنسانٍ مُبْتَهجٍ، لصارَ في حالةِ بكاءٍ وذَرْفِ دُموع، فسبحان الله القائل: ﴿**وأنه هو أضحك وأبكى**﴾[1] صدق الله العظيم.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**قالُوا يا أبانا إنّا ذَهَبْنا نسْتَبِقُ وتركْنا يُوسفَ عندَ متاعِنا فأكَلَهُ الذِئب**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأولى: في جماليّةِ التعبيرِ القرآنيِّ، في تدرجِ وصْفِ إخوةِ يوسفَ لِقِصَّتِهِم التي نسجَها خَيالُهم، وقد جَعلُوها على ثلاث مراحل.

الأولى: في قولِهم: ﴿**إنا ذَهَبْنا نسْتَبِقُ**﴾، وقد كانَ وعدُهم لأبيهم أنهم لن يُفَرِّطُوا بيوسف، وأنهم أخذوه ليلعب معَهم ويرتع.

الثانية: في قولِهم: ﴿**وتركنا يوسفَ عندَ متاعِنا**﴾ وقد كانَ وعدُهم لأبيهم أنهم لن يتركوه ويذْهَبُوا، وأنهم له حافظون.

الثالثة: في قولِهم: ﴿**فأكَلَهُ الذِئب**﴾ وقد سبَقَ لهم واستهجنوا فرضية أكل الذئب له بقولِهم: ﴿**لئِنْ أكَلَهُ الذِئبُ ونحن عُصْبَةٌ إنّا إذاً لخاسرون**﴾.

فانْظُرْ أخي المؤمن، إلى دِقّةِ تعابيرِ القرآنِ في المقابلةِ بينَ الآيات، ولو تباعَدَتْ، وإلى التناسُقِ والتّناغُمِ فيما بينها.

---

(١) [سورة النجم، الآية: ٤٣].

اللطيفة الثانية: في الإيجازِ البيانيِّ في هذا الشطرِ منَ الآية، فهي على اقتضابها، تَخْتَصِرُ شرحاً وتفصيلاً يغْلُو عليه القرآن، ولو اجتهد أيُّ واحدٍ منا في إيصالِ هذه الفِكرة إلى أبي يوسفَ، ببضع كلماتٍ، لأعْسَرَ عليه ذلك، وهذا مِنْ إعجازِ القرآنِ في الإيجاز.

اللطيفة الثالثة: في التأمُّلِ في معنى الكلامِ المُسَاقِ على لسانِ إخوةِ يوسف، فليسَ فيه شيء مُشَرف، وينطبقُ عليه قولُ المثل: عُذرٌ أقبحُ منْ ذَنْب، فأيُّ عاقلٍ يقْطَعُ على نفسِه المواثيقَ بحفْظِ طِفْلٍ ضعيفٍ، ثم يتركُه بعدَ ذلك مباشرةً في فلاةٍ مُوْحِشَة، يَعْرِفُ أنَّ فيها الذئابَ والوحوشَ الكاسِرة، ويبتعدُ عنه ويتركُه دونَ حماية. النتيجةُ المباشِرةُ الأقربُ للحصولِ، هي أنْ تَفترسَهُ الوحوش، وهو ما تعَارَفَ عليه الناسُ بتسميةِ القتلِ غيرِ العَمْد، بسبب الإهمال. وقد اعترفوا بذلك بألسنتهم. فألصَقُوا بأنفسهم طائعين هذا الوصفَ الجنائي.

وإذا نَظَرْنا إلى واقعِ حالِهِمُ الذي يُحاوِلُون إخفاءَه: فهم ألْقَوْا أخَاهُمْ في الجُبِ، عسَى أنْ يَلْتَقِطَهُ بعضُ السيّارة، معَ احتمالِ عدمِ مرورِ السيارة، فيموتُ في البئر. فلئِنْ حصَل، فيكونُ الوصفُ الجِنائي: التسبب بالقتل غير المباشر، فنراهُمْ قد عَادُوا بعدَ كَذِبِهم ليصطفُّوا في ذات الطبقة من أصناف الجُرْم. فتأمَّلْ أخي المؤمن العِبرةَ فيمنِ انتهجَ الطُّرقَ الملتوية إلى أيةِ عثراتٍ تودي به.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**وما أنتَ بمؤمنٍ لنا ولو كُنّا صادقين**﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ من الآية، محاولةٌ أخيرةٌ منْ إخوةِ يوسف، لحملِ أبيهم على تصديقِ روايتهم، وهي تَنْدَرِجُ في إطارِ أساليبِ الإقناعِ غيرِ المباشرة، التي تُخاطِبُ اللاوَعْيَ في الإنسان، أكْثَر مِنْ مُخاطبةِ الوعي.

وتفصيلُها هو التالي:

يقومُ المُتَحَدِّثُ بسردِ الواقعة، وهي غريبةٌ صعبةُ التصديق، ثم يُعاجِلُ

المستمعَ قبلَ أنْ يتركَ له المجالَ بعرضِ أحداثِ الواقعةِ على ميزانِ التصديق الداخلي، بأنْ يقولَ له: صحيحٌ أنْ ما أعْرِضُهُ هو صعبُ التصديق، فترتاحُ نفسُ المستمعِ، إذْ إنّ التوجيه الخارجيَّ أسقَطَ عنها عِبءَ العرْضِ على الميزانِ الداخلي، وتستسلمُ لقيادةِ المخاطب في التوجيه، فيحصُلُ الاطمئنانُ الذي يفْتَحُ البابَ للتصديقِ دونَ المراقبة.

فلهذا قالوا: ﴿وما أنتَ بمؤمنٍ لنا ولو كُنّا صادقين﴾.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - لتنبيه الناس إلى أن ليس كل مشتكٍ باكٍ هو على حق، ووجوب التحقق من صدق دعواه.

٢ - للتنبه من أن سوق الأدلة للدلالة على الصدق ليست صنو الصدق دائماً بل أن كثرة سوق الأدلة ينبغي أن تحملنا أكثر على اليقظة والحذر.

٣ - للدلالة على أن سوق عبارات التطمين كقولهم: وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، ليست دليل صدق بقدر ما هي دليل محاولة إقناع مستترة.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٣]

نصلُ معاً أخي المؤمن إلى المشهدِ الأخير من هذا الفاصلِ في حياةِ يوسفَ عليه السلام. وقد أتمَّ إخوةُ يوسفَ ما تآمَرُوا عليه مِنْ إبعادِه عنْ أبيهِ يعقوب، وها هُمْ يَدْعَمُونَ الأقوالَ بالأفعال، للتدليلِ على صحةِ رِوَايَتِهم منْ أكْلِ الذِّئبِ

ليوسفَ عليه السلام، وذلك لقطعِ كلِّ أملٍ في نفسِ يعقوبَ عليه السلام، من عودةِ يوسُف عليه السلام.

يقولُ الله تعالى: ﴿وجاؤوا على قميصه بدمٍ كَذِبٍ﴾.

في هذا الشَّطْرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في افتتاحِ الآيةِ بكلمةِ **﴿وجاؤوا﴾** وفي هذا تناسُقٌ بديعٌ مع أُسلوبِ السَرْدِ، وخصوصاً في هذا الفاصل. فنجد في الآيةِ السابقةِ قولَ الله تعالى: **﴿وجاؤوا أباهُمْ عشاءً يَبْكُون﴾**، وسنَجِدُ أنّ الآيةَ اللاحقة تبدأ بكلمةِ: **﴿وجاءَتْ سيارةٌ﴾**(١). اللافِتُ أنّ القارىء يَمُرُّ على هذه الآياتِ، فيغْمُرُه الشعورُ بالسعادةِ، والحبور لهذا التَّناسُقِ البديعِ، والانسياب اللُّغويِّ المُعجِز..

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وجاؤوا على قميصِه بدمٍ كذب﴾** في الإيجاز اللُّغوي، عبْرَ إيرادِ المعلوماتِ تَتْرا دُونَ تَكْرارٍ في سياقِ السَّرْدِ، دُونَ الحاجةِ إلى ذِكْرِ هذه التفاصيلِ أولاً، عندَ القيامِ بها، لوجوبِ مُرُورِها لاحِقاً، وهي القِمّةُ في البَلاغةِ القَصصيّة.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿بدمٍ كذب﴾**، وهو ما يُسَمَّى في عِلْمِ البيانِ بالمبالغة، حيثُ استُبْدِلَت الصِّفَةُ بالمصدر، فنحنُ نقولُ عادةً دَمٌ كاذِب، أمّا قولُنا دَمٌ كَذِب، فكأنّنا نقولُ: هو الكَذِبُ بعَيْنِه. ولقد فتحَ الله تعالى على الإنسانِ في عصرِنا الحاليِّ، مِنْ أبوابِ العِلْمِ الشيءِ الكثير، وتضافَرَتِ التِّقْنِيّاتُ الحديثةُ في ميادِينِ العلومِ كافةً، لإعطاءِ المزيدِ منَ الوُضوح، فيما غُمّ على السّابقين. ولو عُرِضَت مسألة الدّمِ على قمِيصِ يوسفَ في يَوْمِنا الحاليِّ على المباحث الجِنائيّةِ، لأمكنها وبسرعة، أنْ تَجْزِمَ أنه ليس دَمَ إنسان، وتِلْكَ مشيئةُ

(١) [سورة يوسف، الآية: ١٩].

الله تعالى، بعدمِ الفَتْحِ والتِبيان عَنْ علومٍ في عصرٍ، وفَتْحِها في عصْرٍ آخر، مَعَ البقاءِ دائماً تحتَ سَقْفِ قاعدة: ﴿وما أوتيتُم منَ العِلْمِ إلا قليلا﴾(١).

وعَنْ قاعدةِ محدودية العلومِ البشرية، يتميَّزُ الرُسُلُ والأنبياءُ مِمَّن اصْطَفَى الله تعالى فيما شاءَ من الإعلامِ لهم. وفي مسألة الدَّمِ على قَميصِ يوسفَ عليه السلام. فلقد فتحَ الله تعالى على قَلْبِ يعقوبَ عليه السلام، وَوَقَر في قلبه أنّ الدَم ليسَ دَمَ يُوسُف، ولا حاجَة به إلى إثباتِ مادِّي، وستُرينا الآياتُ اللاحِقات صِحَّة هذا اليقين.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أنفُسُكُمْ أمراً﴾.

في هذا الشّطْر منَ الآية، لطيفتان اثنتان:

اللطيفة الأولى: بلاغِيّة: فالمقصودُ منْ جوابِ يعقوبَ عليه السلام، عدمُ تصدِيقه للروايةِ التي ساقُوها برُمَّتِها، فإذا به يتجاوَزُ كلَّ التفاصيل، ولا يُناقِشُ في الكَيْفِيّةِ والحَيثية، بل يرْفُضُها جُملةً واحدة، وفي الوقتِ عينه، فإن الحَدَث جَلَلٌ. والمسألة فائقة الأهمية، إلا أنه التثبيتُ الرّبّانيُّ لنبيِّه، وهي مِيزةٌ نادِرَةٌ بينَ البشر، قَلّما نجِدُها بهذا الوضوح.

اللطيفة الثانية: في جمالِ الأسلوبِ المُعْتَمد، فقد كانَ بإمكانِه أنْ يقولَ لهم: بَلْ كَذَبْتُم، إلا أنه تعالى عنِ اتِهامِهم المباشِر بالكَذِب، فإذا به يستَعْمِلُ أُسلوباً راقياً جداً، في الرَّدِّ عليهم فيقول: بل سوَّلَتْ لكُمْ أنْفُسُكُمْ أمراً. وفي هذا، تعليمٌ لنا في كيفيةِ إدارةِ حِوَاراتِنا فيما بينَنا..

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿فصبْرٌ جميلٌ والله المُستعانُ على ما تصِفُون﴾.

(١) [سورة الإسراء، الآية: ٨٥].

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأوْلى: في قولِه تعالى: ﴿**فصبرٌ جميلٌ**﴾.

فمع هذه الكلمة، نجِدُ أنّ الأسلوبَ القَصصيّ قد تبَدَّلَ كُلياً، فينتقلُ منْ وتيرةٍ عاليةٍ جداً، تتمثَّلُ بمجهودٍ كبيرٍ، بذَلَهُ الأبناءُ في تسويقِ روايتهم، وازديادِ التوتر، في انتظارِ رَدّةِ فِعْلِ أبيهم، إذا به يَنتقِلُ إلى وتيرةٍ منخفضةٍ جداً، معَ هُدوء العبارة، وتعبيرٍ عنِ التسْليمِ المُطْلَقِ لأمر الله تعالى.

لقد أيْقَنَ يعقوبُ عليه السلام، أنّ ابنَهُ يوسفَ، لم يأكُلْهُ الذِّئب، وقدْ يكونُ ذلك حافِزاً لدى الواحدِ منّا، فيما لو وُجِدَ في مثْلِ هذا الموقف، أنْ يستَعِرَ غضَباً، ويتوقَّد حنقاً وحقداً، ويُرْسِلَ العيونَ ويستعين بأصحابِ الخِبْرَة للتّحقُّق، ويطيل السؤال ويَطْلُب البراهين مع الاتجاهِ التِّلقائي لمعاقبةِ الأبناءِ بحسبِ النتيجةِ الحاصِلةِ، بغضِّ النَّظَرِ عنِ الأسبابِ والوقائع..

فما كانَ منه إلا أنْ قال: ﴿**فصبرٌ جميلٌ..**﴾

إنَّ يعقوبَ عليه السلام، إذْ أدْرَكَ أنّ ابنَهُ قد أُبْعِدَ عنه، وإذْ تيَقّنَ أنه لم يأكُلْهُ الذِئبُ، علِمَ أنَّ مشيئةَ الله تعالى نافِذَةٌ في خَلْقِه، فتَحَمَّلَ مرَارَةَ الفِراقِ وألم البعاد، ولجأ إلى الصبرِ فقال: صَبْرٌ جميل؛ وطَلَبُ هذا النوعِ منَ الصبر، طلبٌ كبيرٌ، لأنه منْ أصْعَبِ أنواعِ الصَّبْر:

فلقد يصْبِرُ الإنسانُ على ظُلْمٍ شخصي تعَرَّض له، أو على مَكْرُوهٍ لحِقَ به، أو على الوصولِ إلى مُبْتَغى طالَ أمدُه، أو على طَاعةٍ عاهَدَ الله تعالى عليها، ولكلٍّ منْ هذه الأنواعِ منَ الصبر، درجة..

أمّا أنْ تَعْرِفَ أنّ ابنَكَ الذي تُحِبُّه حُبّاً جَمّاً، وهو بَعْدُ صغير. بحاجةٍ إليك، قد أُبعِدَ عَنْكَ ظُلْماً، وأنْ تَعرِفَ أنه حيٌّ في مكانٍ تَجْهَلُهُ، ولا تَعْرِفُ شيئاً عن

مصيرِه، ثم تقول: سأصْبِرُ صَبْراً جميلاً، فإنه مِنْ أغلَى درجاتِ الصبر، وهذا الأَمرُ يحْتَاجُ العونَ مِنَ الله تعالى، فلهذا قالَ يعقوبُ عليه السلامُ مباشرة: والله المستعانُ على مَا تَصِفون.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿والله المُسْتَعانُ على ما تصِفُون﴾**.

إنّ في القرآنِ الكريمِ مصطلحاتٍ ثابتةً، نراهَا مبثوثةً في أرجاءِ هذا الكتابِ المُنْزَلِ منْ رَبِّ العالمين. ومِن بين هذه المُصْطَلحات، مُصْطَلح: ما يَصفون، أو ما تصِفُون. التي هي في الأصلِ كلمةٌ مُحايدَة، تنطبق على التعبيرِ عَنْ فكرةٍ مُعَيَّنةٍ، قد تكون صالحةً أوْ سيئة. إلا أنّ هذا التعبير، عندما يردُ في القرآن الكريم، فإنه دائماً، يأتي ترجمةً لأفعالٍ غير مرْضي عَنْها. لقد وَرَدَتْ هذه العبارةُ أرْبَع عشرة مرةً في القرآن الكريم، بصيغٍ مختلفة، وفي كلِّ مرةٍ يكونُ الموضوع هو الإشارةَ إلى كَذِبِ القائلينَ أو مجانبتهم الصَّواب. وهي إشاراتٌ نَلْتَقِطها مِنَ القرآن، لتؤكّد لنا قولَ رسول الله ﷺ: إنَّ هذا الدينَ متينٌ فأوغلوا فيه برفق.

اللطيفة الثالثة: إنَّ هذا الشَطْر منَ الآية، كانَ ولا يزالُ مصدرَ عزاءٍ وتسليةٍ لكثيرِ من الناسِ في مِحنِهم. ونسْتَذْكِرُ في هذا المجال، قول السيدة عائشة رضي الله عنها في معْرِض رَدِّها على حديث الإفْك: «**إني والله لقد عَلِمْتُ أنكم سمِعْتُم ما يتحدَّثُ به النّاس، ووَقَرَ في أنفُسِكم وصَدَّقْتُم به، ولَئِنْ قلتُ لكم إني بريئةٌ، والله يعلمُ إني لبريئةٌ، لا تُصدِّقوني بذلك، ولَئِن اعترفْتُ لكم بأمرٍ، والله يعلمُ أني بريئةٌ، لتُصَدِّقُنِّي**».

والله ما أجِدُ لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذْ قال: **﴿فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصِفون﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب عدم الإنفعال حال عدم تصديق رواية تروى لنا، وإنما يجب علينا أن نتروى ونفكر ملياً قبل اتخاذ القرار بكيفية التعامل معها

٢ - لاعتماد قول وسلوك يعقوب عليه السلام عند الملمات فنقول: صبر جميل والله المستعان. وهذه العبارات، تلقي السكينة في القلب والطمأنينة في النفس.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٤]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى مشهدٍ جديدٍ منْ مشاهِدِ قصةِ يوسفَ عليه السلام، إذْ ستنقطِعُ عنا منَ الآن، وحتى جُزْءٍ متقدمٍ مِنَ السورة، أخبارُ يعقوبَ عليه السلامُ وبنيه، لنتابعَ معاً، ما قدَّرَ الله تعالى ليوسف عليه السلام، بعد أنْ تركَهُ إخوتُه في غيابَةِ الجُب، وانصرفوا عنه غيرَ عابئين بمصيرِه.

وقبل أنْ نتأمَّلَ في المعاني والمباني الواردةِ في الآيةِ الكريمة، نُشيرُ إلى ملاحظةٍ فائقةِ الأهمية، في قوةِ الزّخْمِ في العباراتِ التي تقْتَضي مشاركةً ذِهنيةً إيجابيةً منَ القارىء والمستمع، لفهم المعنى الذي ترْمِي الآيةُ إلى إيصالِه إليه، وهذا الأُسلوبُ هو أفضلُ أساليبِ شدِّ الانتباه، دونَ الإطالةِ المُمِلّةِ منْ جِهَة، أو الإيجازِ الغَامِضِ المرهقِ منْ جهةٍ ثانية.

يقولُ الله تعالى: **﴿وجاءَتْ سيَّارةٌ فأرْسَلُوا وارِدَهُمْ فأدْلَى دَلْوَه﴾**

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا لجمالِ الصِياغةِ الأدبية، في وصفِ الوَقائع بتعابيرَ قليلة، ومعانٍ كبيرة. ففي جملةٍ واحدة، تمَّ عرْضُ ثلاثِ وقائعَ مختلفة. تَحْمِلُ خيالَنا بعيداً في تصوُرِ كُلِّ واقعةٍ على حدة، وتستَدْعِي استجلابَ كَمٍّ واسعٍ منَ الصُورِ منْ ذاكِرتِنا، وبسرعةٍ فائقةٍ، لمتابعةِ السِياقِ، خوفاً منْ شتاتِ الذِّهن. وهذا ما يُسَمَّى في عِلْمِ النَفْس: بقوةِ الجذبِ الذِّهني، أي السماحِ للمستمع بتكوين المشهدِ المتكاملِ بنفسِه، دونَ تعَبٍ أو إرهاق.

﴿وجاءَتْ سيَارَةٌ﴾ المشهدُ الأول: وما يَحْمِلُه منْ مجموعةٍ متكاملةٍ منَ البشرِ والدوابِ والبَضائع والحركةِ الكثيفة.

﴿فأرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ المشهدُ الثاني: لشخصٍ يَحْمِلُ مُهِمَّةً مُحَدَّدَةً وهامةً في آن: وجوبُ إحضارِ الماءِ، عَصَبِ الحياةِ في الصَحراء.

المشهدُ الثالث: ﴿فأدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي إنه وَجَدَ الماء، وبدأ يَعْمَلُ على استخراجِه.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وجاءَتْ سيَارَةٌ﴾**.

لقد بدأتِ الفكرةُ وانتهتْ بكلمتينِ اثنتين. وفي ظاهرِ الحال، فإن المعنى لم يَكْتَمِل؛ وفي واقعِ الحال، لقد اكتَمَل المعنى في تكريمٍ عظيمٍ ليوسفَ عليه السلام. فحينَ لم تَذْكُر الآيةُ إلى أينَ جاءَتِ السيارة. ونعرِفُ تلْقائياً، أنها جَاءَتْ إلى مكانِ وجودِ يوسفَ عليه السلام، فإنها بذلك جَعَلَتْ من يوسفَ محورَ حركةِ الآية، ولا حاجة إلى ذِكْرِ اسْمِه بعدَ ذلك. مثْلُها في ذلك، كقول الناس في أحاديثِهم: هلّ هِلالُه، دُون ذِكر رمضانَ على لسانِ أحدٍ منهم، لكنّهم كلُّهُمْ عرَفُوا أنه رمضان.

وهكذا، هذه العبارةُ في الآية.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**فأَرْسَلُوا وارِدَهم..**﴾

نُلاحِظُ هنا أنّ الآية بدأَتْ بصِيغةِ المُفرد، حينَ بدأتْ بقولِ الله تعالى: ﴿**وجاءَتْ سيّارة**﴾ ثم انتقلتْ مباشرةً إلى صيغةِ الجمعِ بقولِه تعالى: ﴿**فأَرْسَلُوا وارِدَهم**﴾ وفي هذا، تعبيرٌ عن تقريبِ المشهدِ منَ المستمعِ الذي انْطَلَقَ مِنْ مشهدٍ عامٍ بعيد، يتناوَلُ القَافِلَة بكامِلِها وهي تسير، إلى مشهدٍ خاصٍ في بحثِ تفصيلٍ هامٍ من تفاصيلَ تنقُّلِها، ألا وهو حاجتُها إلى ماء، فجاءَ التركيزُ على حركةِ أفرادِها، فإذا بها في ذِهْنِ المستمعِ تتحولُ مِنْ كُتلةٍ واحدةٍ، يَفْهَمُ تحرُّكَها بصيغةِ المفرد، إلى مجموعةِ أفرادٍ يصْعُبُ عليه فَهْمُ حركتِهم بصيغةِ المفرد، فكان الانتقالُ إلى صيغةِ الجمع.

فانْظُرْ أخي المؤمن، إلى دِقَّةِ تلازُمِ الوصفِ القرآنيِّ، معَ الصيغةِ المناسبةِ، وتَناسُقِها مع حاجةِ المستمعِ إلى صفاءِ الصورةِ التي تَتَشكَّلُ لديه عنِ الحدث.

اللطيفة الرابعة: في قولِه تعالى: ﴿**فأدْلَى دَلْوَه**﴾.

في هذه العبارة، تجانسٌ بَديع، يحملُ وقعاً في الأُذن، أجمل بكثيرٍ من قولِك: فأرسَلَ دَلْوَه، أو أنزَلَ دَلْوَه، فقالَ تعالى: ﴿**فأدْلَى دَلْوَه**﴾.

وفي اللغةِ العربيةِ جماليةٌ ونَغَم، فأنتَ تقول: «**أدْلى دَلْوَه ثم دَلاَّهُ**»، أي أنْزَلَ دَلْوَه، ثم استخرجَه بعدَ إنزالِه.

اللطيفة الخامسة: في هذا الشطرِ منَ الآية، في وقوفُنا عندَ هذا التدرُّج البديع في الاقترابِ من محورِ حركةِ الآية، أي يوسفَ عليه السلام. فتبدأ الآيَةُ أولاً مع مجيءِ القافلةِ إلى المنطقةِ التي أُلْقِيَ فيها يوسفَ عليه السلام، وهي منطقةٌ قفْرَةٌ وعِرَةٌ غيرُ مأهولة، فوجَّهها الله تعالى في هذا الوقتِ إلى هذا المكان، حيث حَطَّتْ رِحَالَها. ثم حصَلَ تصْوِيبُ الوِجهةِ باتجاهِ يوسفَ عليه

السلام، بدرجةٍ أرقى وأقربَ في إرسالِ مُتَعَهِّدِ جَلْبِ الماءِ في اتجاهِ البئر. ثم حصَلَ تصْوِيبُ الوِجْهةِ إلى عينِ الهدف، بأنْ أنْزَلَ الواردُ دَلْوَه، إلى حيثُ جَلَسَ يوسفُ عليه السلام، ينتظرُ رحمةَ الله تعالى.

والأمثلةُ في حياتِنا الدُّنيا كثيرةٌ متعددة، والتي تنْطَبِقُ عليها قاعدةُ إجراءِ مشيئةِ الله تعالى، وإمضاءِ إرادتِه فيما قدّرَ للعبادِ وقضى لهم في مجْرَياتِ أحداثِ حياتِهم. وقليلٌ منَ الناسِ مَنْ يُراقِبُ مسارَ الأحداثِ في حياته، وقليلٌ مِنَ الناسِ من يجِدُ تفسيراً لتسَلْسُلِ أحداثٍ نقَلَتْهُ مِنْ واقعٍ إلى واقع. قد يكونُ خيراً منه أو أسوأ منه. وما ذَاكَ إلا مصداقَ قولِه تعالى: **﴿وتلك الأيامُ نُداولُها بينَ الناس﴾**(١).

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قالَ يا بُشرىٰ هذا غلامٌ وأَسَرُّوهُ بضاعَة. والله عليمٌ بما يعملون﴾**.

في هذا الشَطْرِ الأخيرِ مِنَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في استمرارِ أُسلوبِ الزّخْمِ الواردِ في الآية، بتجاوُزِ بعضِ التفاصيلِ التي يقومُ المستمعُ باستيعابِها، بما حباهُ الله تعالى مِنْ نِعمةِ العقلِ والوَصْل، فَيَبْقَى بذلك على تواصُلِه معَ الآية. ومنها عدمُ ذِكْرِ حالِ الواردِ عندَ رَفْعِ الدّلْو: فإنْ يوسفَ عليه السلام، يزِنُ بالتأكيدِ أضعافَ وزنِ ماءِ الدلو، والمشاعرُ التي تُراوِدُ الواحدَ منا، حين يَنْتَظِرُ قُوّةَ جَذْبٍ مُعينة، وتأتيهِ قوة جذبٍ شديدةٌ جداً، تتراوَحُ بينَ الدّهْشَةِ والاستغراب إلى الخوفِ والهَلَع، حتى إذا ما بدا يوسف عليه السلام، انقلبت المشاعرُ إلى فرحٍ واستبشار.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وأَسَرُّوه بِضاعَة﴾**.

---

(١) [سورة آل عمران، الآية: ١٤٠]

ومن إعجاز القرآنِ الكريم، إيجازُه. فهاتانِ الكلمتانِ تُبْرزانِ نفسيةَ التُّجارِ أصحابِ القافلة، الذين ما كادَتْ أعينهُم تقعُ على يوسف، حتى وَجَدوا فيه متاعاً صالحاً للبيع. والانتفاعُ بالثمن هو أولُ وَجْهٍ من وُجوهِ الانتفاع، التي يُفَكِّرُ فيها التاجرُ عادة. ثم إنَّ حُبَّ الكَسْبِ المادي، دونَ التحرِّي إذا كانَ منَ الحلالِ أم مِن الحرام. كان شأن هؤلاء التجار. فإنهم لم يُبْدوا أية مُحاولةٍ لإعادتِه إلى وَلِيِّه، أو ذَوِيه.. بل وَجَدُوا فيهم مُنافِساً على هذا الكَسْبِ الذي أحرزُوه بوجهِ غير شرعي. وهم يعلمون في قرارة نفوسِهم، أنّ وليَّهُ سيَطْلبه، ولنْ يسكت على فِقْدِه، فأسَرُّوه - أي أخْفَوهُ - حتى لا يَراهُ أحدُ معارفه، فيستنقِذَهُ منهم، فيفوتُ عليهم كسبُهم، وأزمعوا على بَيْعه في سوقِ مصْر، حيث لا يَعْرِفُه أحد.

اللطيفة الثالثة: في هذا الشَطْرِ منَ الآية، في استخلاصِنا لمَعْلَم جديدٍ منْ معَالِم نبَاهَةِ يوسفَ عليه السلام: فهو في عمرٍ تابعَ معَه سيرَ الأحداث، ويَعْرِفُ تماماً مَنْ هُوَ، ومَنْ أبوه ومَنْ إخوتُه، وقد كانَ بإمكانِه أن يُسارع حين تخْلِيصِه مِنَ الجب، أنْ يَذْكُرَ لهم كُلّ هذه الحقائق. عسَى أنْ يجِدَ لديهم المعونة، فيُرْجِعوهُ إلى أبيه. ويستغربُ الواحدُ منا كيفَ أنه ارتَضَى أنْ يُساقَ للبيعِ في الأسواق. لكنّه التثبيتُ الإلهيُّ، وقد أيقنَ أنّ الله تعالى معه. وأنّه لن يتخلَّى عنه، وعَلِمَ أنَّ وصولَ القافلةِ واستخراجَهُ مِنَ البئر، إنْ إلا هي حكمةٌ ربانيةٌ قَدَّرها الله تعالى له، سيَجِدُ ترجَمَتَها في ما سيلي من الأيام، ويكفيه قولُ الله تعالى في الآياتِ السابقة: ﴿**وأوحينا إليه لتُنَبِّئَنَّهم بأمرِهم هذا وهم لا يشعرون**﴾.

ثم تنتهي الآيةُ بقولِ الله تعالى: ﴿**والله عليمٌ بما يَعْمَلُون**﴾.

* * *

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على تصرف التجار الذين لا يهمهم إلا الكسب المادي وكيف يتصرفون حال عثورهم على ما فيه منفعة لهم.

٢ - للدلالة اللغوية على جمالية ومتانة النص القرآني بذكر قوله تعالى: فجاءت سيارة فأرسلوا وردهم فأدنى دلوه.

٣ - للدلالة على أن الله تعالى يعلم كل ما يفعله الناس ويحاولون إخفاءه، وأنه تعالى مع علمه بعملهم يمهلهم إنفاذاً لمشيئته فيهم، فنستشهد بقوله تعالى: ﴿والله عليم بما يعملون﴾.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٥]

تنتقلُ بنا الآيةُ أخي المؤمن، إلى الفَصْل الثالثِ من قِصةِ يوسفَ عليه السلام، بعد أن استخرجَتْهُ القافلة منَ البئر، وسارَتْ به نَحو مِصْرَ. . وسنَلْحظ مباشرةً، أنّ أسلوبَ السرد، قد تغَيَّرَ كُلياً. فبعدَ أنْ كانَ جَزْلاً مُوْجَزاً مُتَسارِعاً، تتعَدَّدُ فيه الصُوَرُ وتتعاقَب، وتتجاوَزُ الآياتُ تفاصيلَ الأحداثِ، بانتقالِها مِنْ حدثٍ إلى آخر، فإذا بها منَ الآنَ فصاعداً. نجدُها هادئةً مُفصّلَة. ذاك أنّ الحياةَ العمليةَ ليوسفَ عليه السلام، قد بدأتِ الآن. ولا نقولُ بذلك: إنّ الصعوباتِ قد انتهت، بل لا يزالُ يَنْتظِرُه مِنْ تقاديرِ الله تعالى، ما كتبَهُ الله له، وسنجدُ تفصيلَ هذا في اللاحقِ منَ الآيات.

يقولُ الله تعالى: **﴿وشَرَوْهُ بثمنٍ بخسٍ دراهم مَعْدودة﴾**.

في هذا الشطرِ من الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿وشَرَوه﴾، وفي هذه الكلمة إبرازٌ لخصوصيةٍ في اللغةِ العربية، لا نَجِدُ لها مثيلاً في اللُّغاتِ الأُخرى: إنّ في اللغةِ العربيةِ كلماتٍ تَحْمِلُ في الوقْتِ ذاتِه، معانيَ الأضْدَاد، أي إنه يُمْكِنُك أَنْ تستعملَ الكلمةَ للإشارةِ في موضعٍ إلى مَعْنًى، ثم تَسْتَعْمِلُ الكلمةَ ذاتَها للإشارةِ في موضعٍ آخرَ إلى المعنى المعاكسِ للمعنى للأول.

ومنَ الأمثلةِ على هذه الكلمات، كلمةُ مَوْلَى. فإنه يُمْكِنُك أَنْ تقول: هذا مَوْلاي في موضعٍ، ويقعُ المعنى: هذا سيِّدي. ويُمكِنُك أَنْ تقول: هذا مولاي، في موضعٍ آخر، ويقعُ المعنى: هذا عَبْدِي أو خادِمي. كما أن في اللغةِ العربيةِ كلماتٍ متضادةً في المعنى مشتقةً من الجذرِ نفسه، ككلمتي: شرى واشترى. وفي الآيةِ: ﴿شَرَوْهُ﴾ جاءَتْ بمعنى بَاعُوه. ولو قلنا: اشتروه، لانقلبت إلى ضد المعنى نسُوقُ هذه اللطيفة. لنتطرَّقَ مِنْ خلالِها إلى مسألةٍ غايةٍ في الأهمية:

في زمنِ تراجُعِ العلمِ والعُلماء في حِقبةٍ خافِتَةٍ مِنْ تارِيخنا الإسلامي. انْبَرى المستشرقونَ الغُرباءُ عنِ اللغةِ العربية، وبهمّةٍ عالية، لدراسةِ التراث الإسلامي. وخاضُوا في كتاباتِ علماءِ المسلمين، وكثيراً ما كانَ خوضُهم عَنْ سوءِ نيةٍ، للطَّعْنِ والدّسِّ على هذا الدين، فإذا بهم يَخْلُصُونَ بنتائج خاطئةٍ، نتيجة جَهْلِهِمْ بخفايا اللُّغةِ العربية، وقَواعِدها المتينة.

المؤسف والخطر في آن، هو أنّ الكثيرَ منْ كتاباتهم أُعْتُمِدَتْ في مشارق الأرض ومَغارِبها كوثائقَ يُلْجَأُ إليها للتعرُّفِ والتعريفِ بدينِ الإسلام، وإنّ منْ مُوجِباتِ مُسْلمي هذا العصر، وقد فتَحَ الله تعالى عليهم بفتوحِ العلمِ الحديث، أَنْ يُحَقِّقُوا بهذه الكتابات، ويُصَحِّحُوا الخاطىء منها، ويَنْشُروها مُصحَّحَةً ليرفَعُوا الظُّلْمَ والحَيْفَ اللاحقَ بالإسلام، بفعلِ كتاباتِ المستشرقين.

اللطيفة الثانية: في هذا الشطرِ مِنَ الآية، بقولِ الله تعالى: ﴿**بثمنٍ بخس..**﴾ أي إنهم باعوه كعبدٍ في أسواقِ مصر، بثمنٍ أدنى مِنَ الثّمنِ المُتعَارِف عليه بينَ التُّجار، لمن هم في مثلِ سِنِّه، وجَمالِه، وبنيته.. بل أدْنَى بكثير، وهو ما استَحَقَّ صِفة: البَخْس. ولقد يأخُذنا التّساؤُلُ عنْ سِرِّ ذلك وعَنْ سرِ إيرادِ ذلك في الآيةِ، في سياقِ القِصة.

والجوابُ، أنّ الله تعالى أرادَ أنْ يُكْرِمَ يوسفَ عليه السلام، إكراماً عالياً جداً، فجعَلَه يمُرُّ بالصِّعابِ، الواحدةِ تلوَ الأُخرى، وفي كلِّ نوعٍ من الصعابِ أصعبُها. لقد بدأ ذلك بطريقةِ إقصائه عن أبيه، فلم يكتفِ إخوتُه بشدِّ وثاقِه مثلاً، وإبقائه على وَجْهِ الأرض، يراهُ كلُّ مارٍ في الجوار، بلِ اختاروا الخيارَ الأشَدّ، بإخفائِه عن وَجْهِ الأرض. وحِينَ بِيعَ في الأسواق، لم يُبَعْ بالسعرِ العادِيِّ المُتعارَفِ عليهِ بينَ الناس، بل بِيْعَ بأبْخَسِ الأثمان، ليصبحَ بعد ذلك، أغْنَى وأقوى رجلٍ على وجهِ الأرض في زَمَنِه، كما سنَرَى لاحقاً، ولو أنه بدأ حياتَه مُترفاً يتَدَرَّجُ في المناصبِ مدفوعاً لَما كانَ لما آلَ إليه مِنْ أهميةٍ بالغةٍ في التكريم.

يَصْدُقُ هذا، قولَ رسول الله ﷺ: «**إنّ مِنْ أشَدِّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الذين يَلُونَهُمْ ثم الذين يلُونَهُم، ثم الذين يلُونَهُمْ**». صَدَقَ رسولُ الله.

اللطيفة الثالثة: في هذا الشطرِ مِنَ الآية، في قولِه تعالى: ﴿**دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ**﴾ وفي ذلك مُبالغةٌ في إظهارِ جسامَةِ الجُرمِ المرتكَبِ في حَقِّ يُوسُفَ عليه السلام. وفي ذِكرِ الدّرَاهِم المعدودة، مشيئةٌ ربانيةٌ في التركيز على واقعةِ بَيْعِهِ في الأسواق، تمشِّياً معَ الأسلوبِ اللُّغويِّ المتعمّدِ في هذا المشهدِ الأوّلِ مِنَ الفصلِ الثالثِ مِنْ قِصّةِ يوسف. وفي اللغة، فإنه لا يزالُ يُعْتَبَرُ مَعْدوداً ما كانَ دونَ الأربعين، ويقولُ الإمامُ ابنُ عباسٍ رضِيَ الله تعالى عنهما في تفسيرِه لهذه الآية، إنّ يوسفَ عليه السلام، بِيعَ بعشرينَ دِرْهَماً، وحلةٍ ونَعْلَين، أي إنّ

ثَمَنَهُ لم يَبْلُغِ الدِّينار، فسبحانَ الله العظيمِ الذي جَعَلَ لنا في قَصَصِ الأوّلِين عِظةً وعِبْرَة.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وكانوا فيه مِنَ الزاهدين﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا مشْدُوهينَ مندهشين حولَ سرِّ زُهْدِهم في يوسفَ عليه السلام، وقد علِمْنا أنَّ فيه مِنَ الخِصَالِ ما يَحْمِلُ كُلَّ مُمْسِكٍ به على التّشَبُّثِ به: فهو الحَسَنُ الوجه، المتوقِّدُ الذكاء، المكتمِلُ البنِية، الهَيِّنُ اللَّين. الذي اختَصَّه الله تعالى برحمتِه، وكسَاهُ ثَوْبَ الإيمان، وفضائلَ الأخلاق، ولا يعْسُرُ على التُّجَارِ إدراكُ هذه الصِفاتِ فيه.

أمّا السَببُ، فيكْمنُ في أمورٍ عدة:

فهم لم يَدْفَعُوا ثَمَنَهُ أصلاً، وقد عَلِمْنَا أنه وقَرَ في صُدورِهم أنه عبْدٌ آبق.

وهم خافُوا إنْ هُمُ احتفظوا به، أنْ يأتيَ أصحابُه الأصليون، فيُطَالبوهُمْ به، زادَ في يقينهم صَمْتُ يوسفَ عليه السلام، وعدمُ تِبيان مكانَتِه..

وهم بحاجةٍ إلى المال، أي مالٍ كان، بصفتِهم تُجاراً، على قاعدةِ: تنزيلُ الأسعارِ عندَ الاضطرار..

إلا أنّ السببَ الأصح، هو أمرُ الله تعالى، بجعلِهم منَ الزاهدينَ فيه. لأنّ الله تعالى اصطفاهُ لمكانةٍ عالية، وما وُجُودُه بينَ أيديهم، إلا حلقةٌ من سلسلةِ طريقه نحو المجد..

اللطيفة الثانية: إنَّ اسم يوسفَ، لم يُذْكَرْ أبداً في هذه الآية، ولا في الآية التي سبَقَتْ، وكُنّا قد لَحَظْنا في تأمُّلِنا للآيةِ السابقةِ. أنَّ عَدَمَ ذِكْرِ اسْمِ يوسفَ،

هو تكريمٌ له، لأنه محورُ القِصَّة، ولا حاجةَ لِتَكْرارِ اسْمِه إلاّ لمقتضياتِ أُسلوبِ السردِ وجماليَّةِ العِبارة.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لما تُشيرُ إليه الآيةُ الكريمةُ مِنْ قاعدةٍ هامة، تُحرِّكُ العَجَلَة الاقتصادية بينَ الناس، على مَرِّ الزمان ألا وهي: زهدُ البعضِ بما في أيديهم، ورغبةُ البعضِ الآخرِ فيه، يُحرِّكُ الطَّرفين، فيحصُلُ البيعُ والشراء.

والمتعمِّقُ في مسألةِ البيعِ والشراء يجدُ أنّ السِلَعَ، عدا تقسيماتِها المتعددة، تُقْسَمُ إلى قسمين:

➢قسمٌ نجدُ للزهدِ فيه مكاناً: كمثل بيعِ العَقَار، أو بيعِ الإرث، أو بيع الأثاثِ الشخصي، أو السيارةِ الخاصة، أو ما شَابَه..

➢وقسمٌ لا نَجِدُ للزُّهدِ مكاناً فيه: كبيع الموادِّ الغذائية، أو التجارةِ العاديةِ بصورةٍ عامة..

ولا يفُوتُنا في نهايةِ تأمُّلنا لهذه الآيةِ الكريمة، أنْ نسْتَخْلِصَ قاعدةً مِنْ قواعِدِ علْمِ النفسِ الإنسانيّ، ومُفَادُها:

إنَّ العبرةَ هي بخواتيمِ الأُمور، لا ببداياتها. فلقد يبدو السعيُ في أولِه ضعيفاً غير مُشَجِّعٍ على المتابعة، لكنّ قوةَ الإرادةِ والإصرارَ على المتابعة، وصحةِ التوكُّلِ على الله تعالى، تَجْعَلُ المُمْكِنَ مُؤكّداً، والمستحيلُ مُحَقّقاً، فلا تَدعُوا للشيطانِ وَوَسَاوِسِه عليكم سبيلا.

* * *

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن المسائل لا تتم كما يظن الناس في رأيهم وحكمهم على الأمور إذ أن مواصفات يوسف عليه السلام تقتضي أن يكون ثمن بيعه عالياً جداً فباعوه بثمن بخس، وأنه يفترض بهم أن يكونوا متمسكين به، فإذا هم فيه من الزاهدين.

٢ - لاستعمال كلمةَ «شراه» في المعاملات، وهي كلمة ذات وقع جميل، وقد أوردها القرآن الكريم منتخباً إياها لوصف واقعة، وجميل منا أن نتأسى ونقتدي بعبارات القرآن الكريم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٦]

تُتابعُ الآيةُ الكريمةُ، أخي المؤمن، إعلامنا بما كانَ مِنْ يوسفَ عليه السلام، بعدَ أن انتقلَ إلى أرضٍ جديدةٍ لم يَعرِفْها قَبْلاً، ألا وهي مِصْر، عاصمةُ الحضارةِ في ذلكَ الزمان، وإليها تشْخَصُ أبصارُ كلِّ الناس، وقدِ انتظمتْ إليها خُطوطُ التجارة، فكانَتْ خزّانَ الأرضِ في الغِذاءِ والمؤَنِ. فإذا وصَلَ إليها يوسف، فقد وصَلَ إلى قَلْبِ المعمورةِ في عصْرِه، فلنتأمّلْ معاً ما جاءتْ به الآيةُ الكريمة.

يقولُ الله تعالى: **﴿وقال الذي اشترَاهُ مِنْ مِصْرَ لامرأتِه أكْرِمي مثْوَاه﴾**.

في هذا الشَطْرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في إغفالِ صفةِ الذي اشتراهُ، وسنَعْلَمُ لاحقاً أنه الوزيرُ الأوّلُ في مصْر، أي رئيسُ الوزراء، وهي صِفةٌ خَطيرة، كونُ الذي يشغلُ هذا المنصِب، هو الحَاكِم الفِعْلِيُ والمُتَصَرِّفُ الحقيقيُّ بأحوالِ الناس، وحينَ نَعْلَمُ أنَّ مصرَ هي أقْوَى بلدٍ في ذلكَ الزمان، فنحنُ نُدْرِكُ أنَّ يُوسفَ عليه السلام، أصبحَ في عُهْدَةِ أقوى بيتٍ في الدنيا. هكذا وبصورةٍ مفاجِئَة، ودُفعةً واحدة، إرتقى يوسفُ عليه السلامُ منَ الذُّلِّ والبُؤْس إلى الرخاءِ والرِّفاهِ والطُّمأنينة، وهذا الأمر، لا يحصُلُ بتدبيرِ عبدٍ، بل بمشيئةِ ربّ، سبحانَه وتعالى، إذا قضَى أمراً فإنما يقولُ له كُن فيكون.

وبالعودةِ إلى النصِّ اللغوي، نجدُ أنّ الآيةَ أغْفَلَتْ صِفة الذي اشترَى يوسفَ عليه السلام، وهذا أمرٌ مُسْتَغْرِبٌ في كلامِنا، نحن البشر، الذين نَجْتهدُ دائماً بالتعريفِ بصفةِ كبيرِ القوم مباشرةً، فيما لو تطَرّقْنا إلى الحديث عنه.. وهذا منَ الإعجازِ اللُّغويِّ في القرآن: تأكيداً على أنه ليسَ منْ كلامِ البشر، إذ إنه حتى واقعةُ الشراءِ تجاوزتْها الآيةُ، ولم تذْكُرْ صفةَ المُشتري حينَ الشراء.

اللطيفة الثانية: في استيعابنا للإشارات الضمنيةِ المريحة، التي نَلْمَسُها من بين كلماتِ الآية، تلميحاً لا تصْريحاً بتبدُّلِ الحالِ التي أصبحَ عليها يوسفُ عليه السلام. ومنها:

قولُه تعالى ﴿**وقال الذي اشترَاهُ مِنْ مِصْرَ**﴾ أي البلدِ الغَنيِّ المُترَف.

ومنها قولُه تعالى: ﴿**وقال الذي اشترَاهُ مِنْ مِصْرَ لامرأتِه أكْرِمي مثْواهُ**﴾ أي إنه وقَعَ موقِعاً حسَناً في قَلْبِ العزيز.

اللطيفة الثالثة: في قولِه ﴿**أكْرمي مثْوَاه**﴾ إستعارةٌ لغويةٌ جميلة. فبدل أنْ

يقول: أكْرمي يوسف. قال: أكرِمي المكانَ الذي سيكونُ فيه يوسف، وفي هذا وُدٌّ بالغٌ، واهتمامٌ زائد، ما اعتادَ الخَدَمُ عليه.

اللطيفة الرابعة: في تأمُّلِنا لحالِ العزيز، في مُعاملتِه ليوسفَ عليه السلام وهو حديثُ عَهْدٍ به. فَمِنَ المألوفِ عند أكابرِ القوم، عدمُ الاهتمامِ بتفاصيلِ الأمور، ومنها مجيءُ أو ذَهابُ أو تحرُّكُ وتَعْدادُ الخَدَم، وغالباً ما لا يَعْرِفُونَ مَنْ يَخْدمهم، ولا يَنْظُرُونَ حتى في وُجوهِهم، وإذا حصَلَ وأعارُوا المسألة اهتماماً وجيزاً، أوْكَلُوا أمرَ تَدَبُّرِ العبيدِ والخدمِ إلى حاشيتِهم غيرِ المُقَرَّبَة، كوكيلِ الخَدَم، أو مَنْ هو دُونَه، أما في هذا الموقفِ الفريد، فقد تَفَرَّغَ العزيزُ للنَّظَرِ في مسألةِ يوسفَ عليه السلام. وقد كانَ بالإمكانِ أنْ يُعْطِيَهُ لحظةً عابرة مِقدارَ حاجتِه إلى كلمةٍ تَخْرُجُ مِنْ فمِه إلى تابِعِه ليقولَ له: أدِّبْهُ، أوْ عَلِّمْه، أوْ درِّبْه، أو أزِلْ شَعَثه.

إلا أنه أَخَذَ به إلى خاصَّةِ بيتِه، إلى حيثُ يزِنُ كلامَه ويُوثِّقُه إلى امرأتِه التي يختَلِف الخِطابُ معَها اختلافاً شديداً، عَنْ خِطابِه للآخرين.. ويَطْلُبُ منها أَنْ تَهْتَمّ به اهتماماً خاصاً، مُسْتَعْمِلاً عباراتٍ لا تُقالُ إلا لذَوِي الأهمية.. أكْثرُ مِنْ ذاك: هو لم يطْلُبْ منها أنْ تسْتَعْمِلَهُ في خِدْمَتِها، أو أنْ تستفيدَ من وجودِه للعملِ الشاقِّ في مَنْزِلها، بل طلبَ منها أنْ تَرْفَع مِنْ شأنِه، وأنْ تُكْرِمَ مقَامَه، وأنْ تُعْلِيَ من منْزلتِه. إنه صعودٌ يُديرُ الرؤوسَ ويَجْلُبُ الدُّوَار.

ثم تتابعُ الآيةُ: **﴿عسى أنْ يَنْفَعَنا أو نتّخِذَهُ ولداً وكذلك مَكَّنّا ليوسفَ في الأرض﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تدَرُّجِ العزيزِ في نَظْرتِه إلى يوسفَ عليه السلام. وهو تدرّجٌ تصاعدي فقد بدأ أولاً عند اختيارِه ليوسفَ في السوقِ وشرائِه له، ثم انتقل

ثانياً إلى إبداءِ الاهتمامِ بهذا الغلامِ واختصاصِه لهُ بالعنايةِ والرِعاية، بأنْ أدْخَلَهُ بيتَه، ثم ازدادَ اهتمامُه به بأنْ عهِدَ إلى زوجتِه، لكي تُكْرِمَ مثْوَاه، ثم انتقلَ بعدَ ذلك إلى التصريح القوليِّ، بأنْ قالَ: ﴿عسَى أنْ ينفعَنا﴾ ثم بَلَغَ الذُرْوَة في التعلُّقِ به، بأنْ قال: ﴿أوْ نتخِذَهُ وَلَداً﴾.

اللطيفة الثانية: في قولِه: ﴿عسَى أنْ يَنْفَعَنا﴾.

ولقد تُصيبنا الدهشةُ حين نتساءَلُ: كيفَ لعزيزِ مصْرَ ومُتولِّي شؤونها، أنْ ينتفَع منْ هذا الغلام؟ أمن مالٍ يَجنِيه، وهو الذي يُوَزِّع المالَ على الناس. أمْ مِنْ جاه يُدْنيه؟ وهو الأقْرَبُ مِنَ الملِك؟ أم مِنْ خوفٍ على شيْبَةٍ عاثِرَة؟ وهو الذي تَتَداعَى الطَّبقاتُ العُلْيا في المجتمعِ لخِدْمَتِه، فكيفَ بعامَّةِ النَّاس؟

والحقيقةُ هي أنّ العزيزَ رأى ما لم يَرَهُ سِوَاهُ، لقد رأى في يوسفَ عليه السلام، نباهَةً وتوقُّداً، رأى فيه شيئاً يَخْتَلِفُ عن أتْرابِه، ولقد يعْسُرُ على المرءِ أحياناً أنْ يَصِفَ مدى التأثُّرِ الذي تَرَكَهُ الشّخْصُ الآخرُ في نفْسِه، وهو ما يُعْرَفُ في علمِ النفس، بقوةِ التأثير، حتى دونَ الاستعانَةِ بقوةِ المَنْطق ومَحَجَّةِ الكَلام، ونحن حتى هذه الآية، لم نسْمَع يوسفَ عليه السلام، قد نطَقَ بقولٍ ذي بال، ما خلا حِوارَه معَ أبيه يعقوبَ عليه السلام، حَوْلَ رُؤْياه.

وقوةُ التأثيرِ هذه، مِنَّةٌ ربّانيَّةٌ يختصُ بها الله تعالى مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِه، ليسَ فقط مَنْ صَلَحَ قَلْبُه وصَفَتْ سريرتُه، بل إننا نعْرِفُ منَ الناسِ من استغَلَّ هذه المِنّة، فأعْملَها في أبوابِ الشَرِّ، وما أمْثِلَةُ المشعوذينَ والدّجالِينَ ومُدَّعِي النبوةِ عَنّا ببعيدة.

اللطيفة الثالثة: في قولِه: ﴿أوْ نَتَخِذَهُ ولَدا..﴾

فإننا نَلْحَظُ في الصِيغةِ التي وَرَدَ فيها قولُه، محاولةً لإشراكِ زَوْجِهِ في تعلُّقِه بيوسف، وهو بذلك يُحاوِلُ الاطمئنانَ إلى ضمانِ اهتمامِ زوجتِه بتربيته. فلو

قالَ: لعَلَّهُ ينفعني أو أتخذَهُ ولدا، لما كانَ ضمن بذلك اندفاعاً لديها في حُسنِ التربية.. والقاعدةُ تقول: إحْذَرْ عملَ المدفوعِ، وارْتَحْ لعملِ المندفع..

اللطيفة الرابعة: في قولِ الله تعالى: **﴿وكذلك مَكّنا ليوسفَ في الأرض﴾**. فهي إشارةٌ مضيئةٌ تجعلُ الآيةَ آيةَ انتقالٍ كُبرى في حياةِ يوسفَ عليه السلام. فلقد بدأتْ بكلمةِ وكذلك، وهي مُقْحمةٌ للدِّلالةِ على تأكيدِ فخامةِ شأنِه، ثم أعْقبها فِعلُ التمكِين: **﴿وكذلك مكّنا﴾**. وهي كرامةٌ عُلْيا، حَملَتْ ليوسفَ عليه السلامُ الطُمأنينَة بأنّ الله تعالى معَهُ، حيثما كان، وفي أيِّ موقفٍ كان.

ثم تَنْتَهِي الآيةُ بقولِ الله تعالى: **﴿ولِنُعَلِّمَهُ من تأويلِ الأحاديث والله غالبٌ على أمرِه ولكنّ أكْثَر الناسِ لا يعلمون..﴾**

في هذا الشطرِ الأخيرِ من الآية، نتأمَّلُ اللطائفَ التالية:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: **﴿ولِنُعَلِّمَهُ مِنْ تأويلِ الأحاديث﴾** فنحن نَلْحَظُ أنها المرةُ الثانيةُ منذُ بدايةِ السورة، التي يَذْكُرُ فيها الله تعالى اختصاصَ يوسفَ عليه السلام، بخاصّيّة تأويلِ الأحاديث، وهي ستكونُ إحدى معالِم رسالتِه، علماً بأنه لم يستَعْمِلْها بعدُ، لأنه لم يحن الوقتُ بعدُ لاستعمالها.. وفي هذا تمهيدٌ جميلٌ للقارىء والمستمع في الأسلوبِ القصصيِّ، لكي يَرْتَقِبَ حَدَثاً خلالَ السِياقِ، يتعلّقُ بالرُؤَى.

الإشارةُ الأولى، كانتْ في قولِه تعالى في الآيةِ السادسة: **﴿ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديث ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليك﴾**.

اللطيفة الثانية: في الانتقالِ منَ الخاصِّ إلى العام، في إطلاقِ قاعدةٍ أبديةٍ تتناولُ صِفةً مِنْ صِفاتِ الله تعالى، وهي الغَلبة. فالله تعالى غَالبٌ في كلِّ زَمانٍ ومكان، وما شاءَ الله تعالى فهو كائنٌ لا مَحال. وجاءَتْ هذه العبارةُ في نِهايَةِ

الآية، لِتُذَكِّرَنا بأنَّ كُلَّ ما كانَ مِنْ شأنِ تَدَرُّجِ يوسفَ عليه السلام، وما كان مِنْ عزيزِ مصرَ في تصَرُّفِه معه، كلُّه كانَ بتقديرٍ منَ الله تعالى ليُتِمَّ أمْرَه. ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون.

ولا يفوتُنا في نهاية تأمُّلِنا لهذه الآية، أنْ نَسْتَخْلِصَ منها الإشاراتِ النفسيةَ التالية:

إنّ الفَراسَة أمرٌ مُؤكّدٌ في عِلْمِ النفس، مُفادُها إدراكُ الناظرِ قوةَ شخصيةِ المنظورِ إليه، واستشعارِه بتَميُّزِه عنِ الآخرين.

إنّ قوة التأثيرِ في الآخرين، هي مَعْلَمٌ مِنْ معَالِمِ الشخصيةِ عندَ بعضِ الناس، وهم يتَميَّزُونَ عَنْ أقرانِهم بما أُطْلِقَ عليه اليومَ مُصْطَلَحُ: الذّكاءِ العاطفي.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على مشيئة الله تعالى برفع من يشاء من عباده إلى أعلى مرتبة قد تخطر ببال. وذلك بقول: وكذلك مكنا ليوسف.

٢ - للدلالة بالآية عند حصول الصعوبات وتكاثر المرجفين الذين يسعون إلى حط المعنويات وتهبيط العزائم وذلك بقول: والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٧]

تنتقلُ بنا الآيةُ الكريمةُ، أخي المؤمن، إلى مرحلةٍ جديدةٍ من مَراحِلِ قِصةِ

يوسفَ عليه السلام، بعدَ أنِ اسْتَقر به المُقَامُ في قَصْرِ عزيزِ مِصْر، مَعَزَّزاً مُكرّماً، يَلْقَى العِنايةَ والرعِايةَ في أَرفعِ مُسْتَوِيَاتِها، ولم يُعْهَدْ إِليه أَداءُ عملٍ مِنْ أَعمالِ الخِدْمَة، بل عُهِدَ إِلى الآخرين خِدْمَتُه، وأَفْضلُ ما يُقَدَّمُ للطفلِ اليافع: التدريبُ والتعليم؛ ولقد سهِرَ العزيزُ وحَرَصَ حِرْصاً شديداً على الاعتناءِ بتدريبِهِ وتعليمِه، يُصدِّقُ ذلك قولُه في الآية السابقة: ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً**﴾.

وهذه ظروفٌ نادراً ما تَلْتَئِمُ في مصلحةِ طِفلٍ، يَحتاجُ إِلى رعايةٍ وعِناية:

فمِنْ نَاحيةٍ أُوْلى: تَوَفَرتِ المقوماتُ الماديةُ، بامتلاكِ العزيزِ مقاليدَ السُلْطَة التنفيذيةِ الفِعْلية، وسهولةِ تلبيةِ مطلبهِ في إِيجادِ أَفضلِ وسائل التربيةِ والتعليم.

ومِنْ ناحيةٍ ثانية: توفرتِ المُقَوِّمَاتُ المعنوية، برغبةِ العزيزِ في إِعطاءِ يوسفَ عليه السلام، أفضلَ ما عِنْدَه، وقد وَقَعَ في قلبهِ موقعاً حَسناً، واحَتلّ في نفسِه مكاناً عالياً.

ومن ناحيةٍ ثالثة: غيابُ المُنافِسِ ليوسفَ عليه السلام، إِذا إِنّ العزيزَ كانَ بلا أَولاد، مما مَكّنَ يوسفَ من الحصولِ على كلِّ الاهتمام.

ومن ناحيةٍ رابعة: قابليةُ يوسفَ عليه السلام، لتَلَقِّي التدريبِ والتعليم، وقد حَبَاهُ الله تعالى بالخصالِ العَاليةِ الرفيعة، كما أَعْلَمَنا الله تعالى في بدايةِ السورة، من أَولِ نَشأَةِ يوسفَ عليه السلام، إِذْ قال: ﴿**وكذلك يَجْتَبِيك ربُّكَ**﴾[١] وقولهُ تعالى: ﴿**ويُتِمُ نعمتَهُ عليك**﴾[٢].

وهكذا، تدرَّجَ يوسفُ عليه السلام، يَنْهَلُ من علومِ عَصْرِه ما ٱجْتَمَعَ منها، دونَ أَنْ يُعَكِّرَ صَفوَ تَحْصِيلهِ مُعَكِّر، ولقد شاءَ الله تعالى أَنْ تَمُرَّ هذه الحِقبةُ من حياتهِ دونَ

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٦].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ٦].

شوائب، لاستحالةِ اْجتماعِ التحصيلِ المتينِ مع المُكَدِّرَاتِ والمُنغَصّات إلى أنِ اْكتملتْ فترةُ البناء، بدأتْ بعدها المرحلةُ التالية، التي نَحنُ في صَدَدِها.

يقولُ الله تعالى: ﴿ولمّا بَلغَ أشُدّهُ آتيناهُ حُكماً وعِلماً﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ولّما بَلَغَ أشُدّه، إشارةٌ جميلةٌ إلى تقسيم مراحلِ الحياةِ عندَ الإنسان، فما قَبْلَ الوصولِ إلى هذه النُّقطة، يكونُ الإنسانُ في مرحلةِ صعودٍ وبناءٍ على كافةِ الصُّعُد: **فعلى الصعيدِ الجَسَدِي**: تُتَابعُ الخَلايا تكاثُرَها في تطورٍ عَدَدِيّ، يستمرُ في الازديادِ إلى أنْ تصلَ إلى الرقمِ الذي حُدِّد لها مُسَبّقاً في لوحةِ التحكُّمِ الموجودةِ في الصبغياتِ الوراثية داخل كلِّ خلية ولقد اْجتهدَ بعضُ العلماءِ فأَحْصَى مائةً وخمسةً وعشرين ألف مليار خلية والله تعالى أعلمُ بما خلقَ وأوْدَع.

سبحانَ الله! كيفَ لها أَنْ تحصيَ عَدَدَها، فتتوقّفَ عنِ التكاثرِ التَّصَاعُدِي، لتنتقلَ بعدَهُ إلى التكاثرِ الأُفقي، أي تُجَدِّدُ في الخلايا، مَعَ إبقاءِ الرقمِ ثابتاً؟

هُوَ الله الذي أَحْسنَ كُلّ شيءٍ خَلَقه. سبحانَ الله! **﴿أفي الله شَكٌ فاطرِ السماواتِ والأرض﴾**(١).

وعلى الصعيد الفِكري: تُتَابعُ خَلايا الدِماغ تَطُوَّرها الوظيفي، وذلك بِمَدِّ الجُسورِ فيما بينَها، وكُلّما كانَ عددُ الجسورِ أَكْبر، كلما كان النضوجُ الفِكرِيُّ أَعْلَى وأوْثَق.

وعلى الصعيدِ البدني: تُصبحُ القوةُ العضليةُ في ذُروةِ نَشَاطِها، فَتستفيدُ مِنْ تَدافُعِ الحركِات والرياضة، فتنمو الأَجزاءُ العضليةُ في أَماكنِ التحميل العالي مِنَ

---

(١) [سورة إبراهيم، الآية: ١٠].

الجسم، فيما تَبْقَى الأجزاءُ العضليةُ الأُخرى التي تؤدِّي مَهام مُحَدّوةَ، صغيرةً نحيلة، وهذه أيضاً دلالاتٌ دامغةٌ على حُبِّ الله تَعالى لخلقِه، بأَنْ أَوْجَدَ لهم في أجسامِهِم أَفْضَلَ تناسقٍ يَرْجونَه.

وعلى صعيدِ حِفْظِ النَّوْع: تَنْضج خَلايا التناسُل، وهي لم تَكُنْ قد نَضِجَتْ مِنْ قَبْلُ، رُغْمَ وُجودِها منذُ الوِلادة، منتظرةً دوَرها في هدوءٍ وسَكِينة، حتى إِذا ما وَصَل الجسمُ إِلى مَا أَسْمَاهُ الله تعالى بُلوغَ الأَشُدِّ، تَحركَتْ بانضباطٍ شديد، بموجَبِ برنامجٍ بديع، دونَ تَدافُعٍ أَوِ اختلاف، لتؤديَ مهمتها على أَكْملِ وَجْه.

فلا نَعْجَبُ بعدَ كلِّ هذا، حينَ نَجِدُ أنّ القرآنَ الكريمَ أَوْجَزَ كلّ هذا التطورِ في كلمتين آثنتين: ﴿**ولمّا بَلَغَ أَشُدّه**﴾.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿**آتيناهُ**﴾.

ولقد سبقتِ الإشارةُ في تأمُّلاتِنا السابقة، إلى أنّ الأُسلوبَ اللُّغوِيَّ في القرآنِ الكريم يتكلّمُ عن الذات الإلهيةِ بصيغةِ الجمعِ في بعض المواضع، وهو بهذا يُفيدُ التعظيم، إلا أنه حين يكونُ الموضوعُ يتناولُ العقيدةَ والتوحيد، فإنّ الله تعالى يتكلّمُ عن ذاتِه العليّة بصيغة المفرد، لخطورةِ المبحثِ، ولما لمسألةِ التوحيدِ من أَهميةٍ قُصْوَى في حياة الإِنسان، بل هي الفصلُ بين النّجاةِ والهَلاك. كمَثلِ قولهِ تعالى: ﴿**إنني أَنا الله لا إِلٰه إلا أَنا فاعْبُدْني وأَقم الصلاةَ لِذِكْرِي**﴾[(١)].

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً**﴾.

فإِننا نُدْرِكُ أَنّ الله تعالى إِذا آخْتَصّ عبداً مِنْ عِبادِه، بمِنّةٍ دونَ غيرِه، فإنّ هذه الصفة، تَفوقُ ما اجتمعَ عليه الناسُ منَ العلمِ والتعلّم المُتَعارَفِ بينَهم مِنْ علومِ الدنيا، دونَ أَنْ تُلْغِيهَا، وتُمَكِّنُ حامِلَها مِنْ إِفادةِ الناسِ إفادةً تفوقُ أَقرانَه الذينَ دَرَسُوا مِثْلَه علومَ الدنيا.

---

(١) [سورة طه، الآية: ١٤]

والمقصودُ في قولِه تعالى: ﴿آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً﴾، أنه أَعْطَى يوسفَ عليه السلامُ الحِكْمَةَ في القولِ والفِعل، فلا يقولُ إلا كلاماً طيباً، وكلاماً ذكياً، ويَزِنُ الأُمورَ بميزانٍ صائب، ولا يَلْغُو الشيطانُ في أفكارِه، ولا يَتْرُكُ لوسوستِه عليه سلطاناً، ويُصْلِحُ بينَ الناسِ فيما اخْتَلَفوا فيه، ويشيرُ إلى الأَصلحِ في أُمورِهم، ويُرْشِدُهم إلى ما يُفيدُهم، ولا يَضِنُّ على الأخرينَ بالمعرفة، ولا يَنْظُرُ إلى مصلحتِه الشخصيةِ في حُكْمِهِ على الأشياء، ويَرْقُبُ الله تعالى في كلِ حركةٍ أو سَكَنة، وبالإجمال، كل ما يرضاه الله تعالى مِنْ تصرفٍ وتَدَبُّر.

والمقصودُ مِنَ العلم، أنّ الله سبحانَه وتعالى اَخْتَصّ يوسفَ عليه السلامُ، بعلمٍ غيبي، سَنَعْرِفُ لاحقاً أَنه عِلْمُ تَأْويلِ الرُّؤى، وهو علمٌ أَرْفَعُ وأَرْقى مِنَ العلومِ التي تُدْرَسُ في الصحفِ والكُتب، ويَحتاجُ حكماً إلى قواعدَ ونُظُمٍ لا يُدْرِكُها كلُّ الناس، ولا تَحْصُلُ إلا بتأييدِ الله تعالى، وهذا ما سيكونُ المعلَمَ الرئيسيَ في رسالتِه، ما سَيَفْتَحُ له أَبواب المجدِ لاحقاً.

ثم تنتهي الآيةُ بقولِ الله تعالى: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾.

فإذا بنا نُلاحظ أنّ هذه الصِفَة سُتلازِمُ يوسفَ عليه السلام، منَ الآنَ فصاعداً، على مدارِ القِصةِ بكامِلِها، وستتكررُ في السورةِ في خمسةِ مواضعَ مختلفةٍ، في ظروفٍ مختلفة؛ وصَفهُ الله تعالى بها، ووصفَهُ مِنْ جَهْلِهِ بها، ووصفه إخوتُه بها، ووَصَفَ نفسَه بها، فإذا بها مِنْ أَجمل الصفات: أنْ يكوَن الإنسانُ مُحْسِناً، هو أَنْ يَرْقَى إلى درجةِ الإحسان. وكما نعلم، فإنّ الإحسانَ في الدينِ مرتبةٌ أَعلى منَ الإيمان، مِصْدَاقُ ذلك في حديثِ جبريَل عليه السلام إلى رسولِ الله ﷺ، حين سأله عن الإحسانِ فقال: «**أنْ تَعْبُدُ الله كأنك تراه، فإِنْ لم يَكُنْ تراهُ، فإنه يراك**».

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - حين يقوم الإنسان دائماً داعياً لغيره، وخصوصاً لولده، أن يهبه الله تعالى الحكمة والعلم الوفير، فله أن يستشهد بقوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾.

٢ - للدلالة على وجوب اقتران طلب العلم بطلب الحكمة فنذكر قول الله تعالى: ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٨]

نصلُ معاً أخي المؤمن، إلى فصل جديدٍ مِنْ فصولِ قصةِ يوسفَ عليه السلام، تبدأُ معه مراحلُ محنةٍ جديدةٍ قاسية، سَيُمرُّ به، وسنشهدها معاً.

وقبلَ أنْ نبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة، نُلاحِظُ أنّ هذه الآيات موضوعَ تأمُّلنا، تختلفُ في أُسلوبِها عمّا ٱعتَدْنَا عليه في السُّورِ الأُخرى منَ القرآنِ الكريم، حيثُ نَجِدُ أنّ طابعَ التفصيلِ في دخائلِ الحياةِ الاجتماعية، يَظْهَرُ واضحاً معَ كلِ مرحلةٍ منْ مَراحِلِ قصةِ يوسفَ عليه السلام. وهذا الأمرُ يَرْجِعُ إلى خصوصيةِ هذه السورة، وتوقيتِ نُزولِها والزّخمِ القَصصيِّ والنفسيِّ الواردِ فيها. وهي إنْ حصلتْ فُصولُها مَعَ يوسفَ عليه السلام، فإنّ حركةَ النفسِ الإنسانية، تَدورُ على محاورَ مُشَابِهَةٍ عندَ كلِّ الناسِ في تَقَاطُعِ دُروبِهم وَتَفاعُلِها فيما بينَهم، والمطلوبُ من كلِّ واحدٍ منا، أنْ يأْخُذَ العِبرةَ ويَقْتَدِيَ بالقُدْوَةِ الحسنة، في تَفاعُلِه مَعَ الأحداث وفي مَسْلَكِه الحياتي.

يقولُ الله تعالى: ﴿وراودَتْهُ التي هُوَ في بيتِها عَنْ نفسِه﴾.

في هذا الشَّطْرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قوةِ التصويرِ الأدبي، التي سَاقَتْها هذه الكلماتُ حَوْلَ الوضعِ النفسيِّ الذي تَحْيَاهُ ٱمرأَةُ العزيز.

فلقد علمنا أنّ العزيزَ دَفَعَ إليها بيوسفَ، وهو بعدُ حَدَثاً يافعاً، وطلبَ منها أنْ تَهْتَمّ بهِ وبتربيَتِهِ وتعليمهِ وتَنشِئَتِه، فإذا بها تَرى عَنْ كثبٍ ليس فقط جَمالَ وجههِ، وحُسْنَ شَبابهِ، بل عايَنت جمالَ نفسِه وأدبَه وأخلاقَه، وقد تَعَهّدَهُ الله تعالى بالحفظِ والصونِ، وأَوْدَعَ فيه من الخِصالِ التي تُهَيِّؤُهُ لكي يكونَ مِنَ المُصْطَفَينَ الأخيار، وهذه الصفاتُ لا يَدَ للإنسانِ فيها، ولا دَوْر للصّقْلِ والتهذيبِ فيها، بل هي تَنْطِقُ عَنْ نفسِها، وتَفْرِضُ وجودَهَا حتى على المُؤَدِّب وٱلمُهذِّب، فإذا بها تعيشُ صِراعاً داخلياً عنيفاً، بيَن مُهِمّتِها الأساسية التي عَهِدَ إليها العزيزُ بقولِه: ﴿عَسَى أنْ يَنفَعَنا أو نَتّخِذَهُ وَلداً﴾[1] وبين ما تشعرُ به مِنَ ٱنجذابٍ نحوَ يوسفَ عليه السلام، وكانتِ الحصيلةُ أَنْ غلبَ عليها دافعُ الانجذابِ، فإذا بها تُراوِدُهُ عَنْ نفسِه.

نَسْتَخلِصُ من هذه الآيةِ مباشرةً، قاعدة من قواعدِ علم النفس، وهي التالية: إنّ تَنازُعَ العواطفُ يَنْتَهِي حَتماً إلى غَلَبةِ إِحْدَاهَا عَلَى الأُخرى والغلبةُ تكونُ للعاطفةِ التي تَغذّتْ أَكْثَر، إما بطولِ اعتيادٍ، أو بعواملَ طارِئة.

اللطيفة الثانية: في ملاحظةِ عدمِ ذِكْرِ ٱسمِ ٱمرأةِ العزيز، ولا حتى صفتِها، ولا نجدُ في هذا الإغفالِ أَيَّ إبهام، بل هو سِياقُ القِصةِ الذي يُعْلِمَنا بها، وبالمقابل فقد جاءَ وَقْعُ كلماتِ الآيةِ في الأُذنِ إنسيابياً على وتيرةٍ هادئة، أَعْطَتِ الآيَةَ في مَبْنَاها مَوْقِعاً مُتوازِياً مَعَ ما يَحْمِلُه مِنْ معنى.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٢١].

اللطيفة الثالثة: في تأمُلِنا للمعاني الضِمنيةِ التي تَسوقُها الآيةُ في قولِ الله تعالى: ﴿**وراودَتْهُ التي هو في بيتِها**﴾، وهي إشارةٌ تُوصِلُنا إلى فَهْمِ مدى الإحراجِ الذي وَقَعَ فيه يوسفُ عليه السلام.

فهو لم يَذْهَبْ برجليهِ إلى مكانٍ فيه شُبْهَة، ولم يُسْتَدْرَجْ إلى مكانٍ بعيد، بل جاءَتْهُ المِحْنَةُ إلى مكانِ إقامتِه، وهو آخرُ مكانٍ يُمْكِنهُ اللجوءُ إليه.

والتي راودَتْه عَنْ نفسِه، هي سيدةُ القَصْر، وليستْ أيةَ سيدةٍ فيه، وهي التي في الأَصْل، تَضْبِطُ حركةَ كُلِّ العاملينَ فيه.

والتي رَاودَتْهُ عَنْ نفسِه، تَحْمِلُ صفةَ الإِمْرَةِ عليه، وفي ظَنِّها أنّ التراتبية تَفْرِضُ عليه الانصياعَ وعدَم الرفض.

ولو أَننا سَمِعْنا: وَراوَدَتْهُ آمراةُ العزيز عن نفسِه؛ لَما بَرَزتْ هذه الحقائقُ في الأذهانِ ساطعة، كما يُبْرِزُها قولُ الله تعالى: ﴿**وراودَتْه التي هو في بيتِها عن نفَسْهِ**﴾.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وغَلّقَتِ الأَبوابَ وقَالَتْ هَيتَ لك﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأولى: في دِقةِ التعبيرِ القرآنيِّ في كلمة: ﴿**وغَلّقَتْ**﴾، فجاءَتْ مُشَدَّدَةً، وهي أَكْثَرُ مِنْ مجردِ إغلاقِ باب بل هي إحكامُ إغلاقِ الأبوابِ، ولو قُلْنا: أَغلَقتِ الأبواب، لكانَ إغلاقاً عادياً، قد يُمَكِّنُ مَنْ هُوَ في الخارج، أنْ يَفتَحَهُ، أمّا في قولِه تعالى: ﴿**وغَلّقتِ الأَبواب**﴾، فإنّ الصُورةَ التي تَرْسُمُها الكلمة: إعمالُ الجُهْدِ في إحكامِ إغلاقِ الأبوابِ بحيث لا يُمْكِنُ لمن يُريدُ الدخولَ أن يدخل والحقيقةُ أَنّ هذا ما حصل، كما سنرى في لاحقِ الآياتِ فإنّ أحداً لم يستطعِ الدُّخولَ، ولا حتى العزيز الذي وَقَف عندَ البابِ مَحْصوراً خَلْفَه. فأنْظرْ أخي المؤمن، إلى دقةِ القرآنِ في الوصف.

اللطيفة الثانية: في قولِهِ تعالى: ﴿**وغَلّقَتِ الأَبواب**﴾، وهذه إِشارةٌ فائقةٌ إلى عَزْلِ الصوتِ إِضافةً إِلى عَزْلِ الرُّؤْية. فلو أنها أَغْلَقَتْ باباً واحداً، لحجَبتِ الرُّؤية، ولأَمْكَنَ للصوتِ أنْ يُسْمَعَ مِنْ خَلْفِ البابِ الواحدِ أمّا بتَعَدُّدِ الأَبوابِ التي تَفْصِلُ بينَها طبقاتُ الهواءِ، فإنّ العزلَ للصوتِ يكونُ كاملاً. وهذا هو المبدأُ المعتمدُ في أيامِنا الحاضرةِ، لعزلِ الصوت، فكانَتْ مِنَ النباهةِ بمكانٍ في ٱحتياطِها حتى مِنْ سَماعِ أَيِّ صوت.

اللطيفة الثالثة: في قولِ الله تعالى: ﴿**قالتْ هَيتَ لك**﴾.

هنا أيضاً، تَتَجَلّى قاعدةٌ أُخرى من قواعدِ عِلْمِ النفس. وهي: الطلبُ بالإِيماءِ. ومُفادُها: عدمُ التصريحِ المباشِرِ بالمَطْلَب، ولكنْ القيامَ بأَفعَالٍ أَو أَقوالٍ جانبية، تَحمِلُكَ على التحليلِ والتفكيرِ، وتُوصِلُكَ بالنتيجةِ إِلى فَهْمِ المرادِ بالاستنتاج. وهكذا، فحينَ أغلقتِ ٱمرأةُ العزيزِ الأبوابَ على مرأىً مِنْ يوسفَ عليه السلام، ثم ﴿**قالَتْ هَيتَ لك**﴾، فكأَنَّما أَرادتْ أنْ تقولَ له: أنتَ مَنْ يُريدُني، وقد تَهيَّأْتُ لك. فَفَطِنَ يوسفُ إِلى مرادِها سريعاً، وأجابَها مباشرةً: ﴿**معاذَ الله**﴾.

اللطيفة الرابعة: في تأَمُّلِنا لهذا التدرجِ في الوصف، الذي ساقَتْهُ الآيةُ الكريمةُ في الإِعدادِ المتقن الذي هَيّأَتْهُ ٱمرأةُ العزيز، للوصولِ إِلى مُبْتَغَاهَا.

فقد بدأَتْ بمُراوَدَتِه عن نفسِه، وهذا لا يُعتبرُ تصرفاً مَادِّياً مؤكّداً، ولا يأْخُذُه يوسفُ على مَحْمَلِ الجِدِّ، ثم تدّرَجْت بالتصرُّفِ الماديِّ بأنْ أَغلقتِ الأَبواب، ثم تَدَرّجَتْ إِلى التصرُّف القَوْلِيِّ، بأنْ تَكَلّمَتَ علناً.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**قال معاذَ الله إِنه رَبِّي أَحْسنَ مثواي إنه لا يُفلِحُ الظالمون**﴾.

وفي هذا الشطرِ الأخيرِ من الآية، نتعرّفُ إلى مَعالِمَ أُخرى في شَخصيةِ

يوسفَ عليه السلام. وهي معالمُ مُشَرِّفَةٍ، تَتَبَدّى لنا في سُرْعَةِ رَدِّ فِعْلِهِ، مُقَدِّماً طاعةَ الله تعالى، عن كلِ الاعتباراتِ الأخرى، فلقد تَجَاوَزَ كُلَّ المخاوفِ والحساباتِ والتوقُّعات، وأعلنَ بجزمٍ وقوة، أنّ ما تَطْلُبُهُ منه، مخالفٌ لأمر الله تعالى. فكانَ رفضُه جَازماً باتّاً، وكانَ رفضاً مُعلِّماً لنا كيفيةَ التصرُّفِ حِيالَ الدعوةِ إلى ما يُغْضِبُ الله تعالى.

وإذا ما تأمّلْنا بعمقٍ حالَ يوسفَ عليه السلام، في تلكَ اللحظات، نجد:

أنه في ظاهرِ الحال، محبوسٌ في غرفةٍ مغلقة، ويبدو وكأنه الطَّرَفُ الضعيفُ، فقد اشْتُرِيَ في صغرِه، ثم رُبِّيَ في بيتِ العزيز أحْسنَ تربية، وأُنْفِقَ عليه الكثير، بما يَسْتَوْجِبُ أنْ يتركَ لديه شعوراً بالامتنان، ثم إنه رُغْمَ تربيتهِ المُمَيّزة، لم يُرَقَّ إلى رتبةٍ أعلى من رتبةِ تلقيِّ الأوامرِ خصوصاً من سيدةِ القصر.

إلا أنه في الحقيقة، أعلى وأقوى من ذلكَ بكثير: فهو أولاً، ابنُ يعقوبَ نبيِّ الله عليه السلام، وهو يَعْرِفُ تماماً مَنْ هو، وهو الذي جاءتْه البَشائِرُ الربانيةُ بالحفظِ والصَّوْنِ، وهو الذي مَيَّزَهُ الله تعالى بالحكمةِ والعِلْم، وهو عبدُ الله الذي جَعَلَ رِضَى الله تعالى هَمَّهُ، فإذا كان يوسفُ عليه السلام، يَعيشُ في داخلِه هذه الأجواء، فأنّى لِمَا يَحْدُثُ أمامَه أَنْ يَجْتَذِبَهُ نَحوَ الأَسفل؟

وعلى الرُّغْمِ منَ الأَخطارِ التي قد يَتعرّضُ لها، فهو لم يَتردّدْ لحظةً واحدةً في جوابِهِ **﴿فقال معاذَ الله إنه رَبّي أَحْسن مَثواي إنه لا يُفلِحُ الظّالمون﴾**.

وفي هذا الشطرِ من الآية، توضيحٌ لما سَيرِدُ في اللاحقِ منَ الآيات.

ودحضٌ لما قد يُشْكِلُ على البعضِ في فَهْمِ هذا الحدث، وسنتطَرّقُ إليه لاحقاً إنْ شاءَ الله.

مواطن الاسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على خطر الإختلاط المحدق بالفتيان والفتيات وللرد على القائلين أن الإختلاط لا يؤدي إلى وقوع الفاحشة.

٢ - لتحفيز الشباب على تقوية وسائل المقاومة لأحوال الأغواء التي قد يتعرضون لها في مختلف مراحل حياتهم على متفرقات دروب حياتهم، خصوصاً في بلاد الغربة حيث الوحدة والوحشة والمغريات، وذلك بجعل عبارة «معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي» حاضرة دائماً في أذهانهم وعلى ألسنتهم، وتعميق فهمهم لمعناها، واستحضار ظروف ومعاني نِعم الله تعالى عليهم بصورة شخصية فردية.

٣ - لحث الشباب على عدم التواجد في مواقف محرجة لهم قد تؤدي بهم إما إلى الاتهام بالأغواء. كما حصل ليوسف عليه السلام وإما إلى الانجرار إلى الغواية بفعل ظروف عدم إحصانهم بالزواج.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٩]

تتوالَى، أخي المؤمن، أَحداثُ المشهدِ الثاني مِنَ الفصلِ الثالثِ مِنْ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، وقد رأَيْنا في تأمُّلِنا للآيةِ السابقة، كيفَ بدأَتْ عناصِرُ المِحنةِ الجديدة، تَتَكامَلُ، فإِذا بِنا مَعَ هذه الآية في ٱستعادةٍ للأحداثِ بتفصيلٍ أَكْبر، مِنْ زاويةٍ أُخرى، تمشِّياً مَعَ أسلوبِ السردِ الخاصِ بالسورة، المتميِّزِ عَنْ باقي السور، المتميز حتى في ظروفِ التنزيلِ القرآني.

يقولُ الله تعالى: ﴿ولقد هَمّتْ به﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في ابتداءِ الآية بحرفِ العطف، وسنجدُ أخي المؤمن، أنّ هذه الآية حوَتْ مِنْ دَقائِقِ اللُّغةِ العربية، ما يَنْبغي على المرءِ أنْ يُدْرِكَهُ تَمامَ الإِدراك، منعاً عليه مِنَ التباسِ المعنى.

فوجودُ حرفِ العطفِ في أولِ الآية، إعلامٌ بٱستمرارِ سَرْدِ الحدثِ ذاتِهِ الحاصلِ في الآيةِ السابقة، أي مُراوَدَةِ ٱمرأةِ العزيزِ يوسفَ عليه السلامَ عَنْ نَفْسَهِ، وتَدَرُّجِ المراودةِ بصورةِ تَصاعُدِيّة، كما رأَيْنا، من مجردِ التلميح، إلى مؤكّدِ التصريح وجاءَتْ هذه الآيةُ، بعَطْفِها على الآيةِ السابقة، لتوضحَ لنا أَنّ الحدثَ هو واحد، ولكن وردَ هنا بتفصيلٍ أكْثَرَ، حين أَشارتِ الآيةِ إلى أنها دَعَتْهُ إلى نَفْسِها.

أهميةُ هذا الفهم، تَتجلّى في مَنْعِ الذِهنِ مِنَ الوقوعِ في خطأ ٱحتسابِ التّسَلْسُلِ الزمنيِّ للأَحداث، وهو ما وَقَعَ فيه كثيرٌ مِمّنْ نَظَرَ في هاتين الآيتين، وسأُوجِزُ كيفَ يقَعُ الخطأ: نقرأُ في الآيةِ الأُولى، أَنَّ امرأَةَ العزيزِ راودَتْهُ عَنْ نفسِها، ثم أَغلقتِ الأَبواب، ثم قالتْ هَيْتَ لك، ثم أَجابَها مباشرةً: معاذَ الله. فإذا ما ٱنتقلَ القارىءُ إلى الآيةِ الثانية، خُيِّلَ إليه خطأً أَنَّ حدثاً جَديداً يحصُلُ، حينَ يقولُ الله عزّ وجل: ﴿**ولقد همّت به**﴾ والصحيحُ أَنّ الآيةَ الثانية، تفصّلُ الآيةَ الأُولى، لأنّ عَناصِرَ الحدثِ كانَتْ قد ٱكْتَمَلتْ عندَ قولِ يوسفَ عليه السلام: معاذَ الله، مُنْهِياً تطورَ الأَحداثِ مباشرةً، فلا يَصِحُ أَنْ نَظُنّ أَنّ حدثاً مماثلاً جديداً بدأ وإِنما يَصحُّ أَنْ نفهم أن تفصيلَ الحدثِ ذاتِه، حاصلٌ في الآيةِ موضوعِ تأمُّلِنا اليوم.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿**ولقد**﴾ ونحن نَعْلَمُ أَنّ وُرودَ هذا الحرفِ

قبل الفعل الماضي يُفيدُ التأكيدَ والتحقيق. فلقد شاءَ الله تعالى أَنْ تبدأَ الآيةُ بإِثباتِ حصولِ الهَمّ مِنْ جِهَةِ اْمرأةِ العزيز، بصورةٍ مُحقّقَةٍ مؤكّدة.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ تطوُّرِ الحالِ النفسيةِ عندَ امرأةِ العزيزِ، وقد عَلِمنا أَنها سيدةٌ ذاتُ شأنٍ في بلدٍ عظيم. وأَنها مَحطُّ أَنظارِ نساءِ البلدِ بأَسرهِنّ، وأَنّ كُلّ خُطوةٍ منها، محسوبةٌ عليها. إلا أَنَّ اْنبهارَها بجمالِ يوسفَ عليه السلام، ومُراقَبتَها لِصفاتِه العالية، واْنعدامَ الرّادعِ الدينيِّ والخُلُقيِّ، وكَثْرَة رُؤْيَتَها له، كلُّ هذه الأسباب، جَعَلَتْ عَاطِفَتَها تَتَضَخمُ إلى حَدِّ الأنفجار، فضربَتْ بكلِ المقاييسِ بعَرْضِ الحَائط، وفقدَتْ حُكْمَها على الأشياء، وعَمِيَت بَصِيرتُها، فلم تَعُدْ تَرى أَمامَها إِلا الاندفاعَ لتنفيذِ رَغَباتِها. وإذا كُنّا اليومَ ننظرُ في حالِها النفسية، نعرفُ أنّ هذه الحال، تَكَرّرَتْ وتَكَرّرُ ملايينَ المرات، على مَرِّ الزمانِ على الأجيالِ المتعاقبةِ مِنْ بني آدم. وقد فَتَحَ الله تعالى على الإِنسان، في عَصْرِنا مِنْ فُتوحِ العلمِ ما مَكّنَهُ مِنْ إدراكِ آليةِ تطورِ مُكَوِّناتِ الدم مِنْ إفرازاتِ الغُددِ الصَمّاء، وتحديدِ أنواعِ الهُرمونات، والموادِّ المُوجِّهة، لتهييجِ العواطفِ أَو تثبيطِها مِمّا يساعدُ الفردَ مِنّا على فَهْمِ تَطَوُّرِ الأحوالِ النفسيةِ فيه، ويساعدُ بالتالي على التَّحَكُّمِ في النزعاتِ والأهواء، وهو مبحثٌ هامٌ لا يَتّسعُ له مَقامُ تأَمُّلِنا في الآيةِ الكريمة، وإنما نُشيرُ إليه من بابِ سَدِّ الذرائعِ والتناصُحِ في الله، وإبعادِ غوايةِ الشيطانِ عَنْ عِبادِ الله.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿وهَمَّ بها لولا أنْ رأى بُرهانَ رَبِّه كذلكَ لِنَصْرِفَ عنه السُّوءَ والفَحشاءَ إنه مِنْ عبادنا المُخْلَصينَ﴾**.

ولن نقفَ أخي المؤمن في هذا الشطرِ منَ الآية، إلا عندَ مُوجِبِ إزالةِ اللّبْسِ عن سوءِ فَهْمٍ، وَقَع فيه كثيرٌ منَ الناس، في ظَنّهم بيوسفَ عليه السلام أنّ نَفْسَه حدّثَتْهُ بالتجاوُبِ معها؛ والحقيقةُ أني لم أَجِدْ آيةً كمثِلِ هذه الآية، أُحِيْطَتْ بالأدِلّةِ المُتَدافِعَة، مِنْ نَصِّ القرآنِ نفسِه، للتأكِيدِ على بَراءَةِ يوسفَ عليه

السلام، مِنْ مُجردِ التفكيرِ بالتجاوبِ معها، وأسُوقُها بإيجاز ما ٱسْتَطَعْت:

الدليلُ الأول: في قولِ الله تعالى، في الآيةِ السابقةِ على لسانِ يوسفَ عليه السلام، بعدَ أنْ عَرَضَتْ عليه ما عَرَضتْ، وبصورةٍ مباشرةٍ وقاطعة: **﴿معَاذَ الله﴾**، أي إنه إقصاءٌ كُلِّيٌ لأيِّ ٱحتمالٍ بالتفكيرِ في المعصية:

الدليلُ الثاني: ورودُ هذه الآية مباشرةً بعدَ آيةِ الاستعاذةِ بالله وهي تُعيدُ سَرْدَ الحدثِ، ولا تذكرُ حدثاً جديداً.

الدليلُ الثالث: لُغوي، في فَهْمِنا لقوله تعالى: **﴿وهَمّ بها لولا أَنْ رأَى برهانَ رَبِّه﴾** فلولا حَرفُ ٱمتناعٍ لوجود، تقول: لولا المطرُ لَخرجْتُ .. فالخروجُ ممتنعٌ لوجودِ المطر. فيكونُ المعنى في الآية الكريمة: لولا أَنْ رأَى برهانَ رَبِّه لَهَمّ بها. فالهَمُّ ممتنعٌ لوجودِ رؤيةِ يوسفَ لبرهانِ ربِّه.

الدليلُ الرابع: يَتبّدى منْ أُسلوبِ السَرْد: فقد قالَ الله تعالى: **﴿ولقد همّتْ به﴾**، فيه تأكيدٌ لحصولِ الهَمّ منها، ثم قال: وهَمَّ بِها لولا أَنْ رأَى بُرهانِ رَبِّه، فلم يَسْبِقَها تأكيدٌ لما حَصَلَ لجهةِ امرأةِ العزيز.

الدليلُ الخامس: في ٱمتداحِ يوسفَ عليه السلام، في سِياقِ الآيةِ ذاتِها، في قولِ الله تعالى: **﴿وكذلك لِنَصْرِفَ عنه السوءَ والفحشاء﴾**. وقد فَسَّرَ العلماءُ الفحشاءَ بجُرْمِ الزنا، وفَسّرُوا السوءَ بمُقَدِّماتِ الزِنا، أَي المراودةِ والهَمّ. فٱنْظُرْ أخي المؤمن إِلى دِقَّةِ القرآنِ في التفصيلِ بينَ درَجاتِ المَعْصِية، وكيفَ أَنه نَزّه يوسفَ عَنها كُلِّها، ثم ٱنْظُرْ أخي المؤمن إلى قولِ الله تعالى **﴿كذلك لِنَصرِفَ عنه السوءَ الفحشاء﴾** فالله سبحانه وتعالى لم يقل **﴿كذلك لنصرفَهُ عن السوء والفحشاء﴾** فالسوءُ والفحشاءُ هي المصروفةُ عن يوسفَ عليه السلام. وهذا أبلغُ من أن يكونَ هو مصروفاً عنها.

الدليلُ السادس: منَ الآيةِ نفسِها، في قولِ الله تعالى عنه: **﴿إنه مِنْ عبادِنا**

المخلَصين﴾ والمخلَصُ غيرُ المُخْلِص. فالمخلِصُ هو الذي يَجْتَهِدُ مِنْ تَلِقاءِ نفسِه بتحصيل الإخلاص، أمّا المُخلَص، فهو الذي تَكفَّلَ الله تعالى بإيصالهِ إلى الإخلاص، ولا يُعقلُ أن يقعَ بعدَ تعهدِ الله تعالى بتخليصه، في المعصية.

الدليلُ السابع: من حصولِه قبلَ الحادثة على وِسام الإحسانِ، وقد قالَ عنه الله تعالى: **﴿وكذلك نَجْزي المحسنين﴾** ولقد علَّمنَا رسولُ الله ﷺ، أنّ الإحسانَ هو أنْ تَعْبُدُ الله كأنَكَ تراه، ولا يَقْبَلُ أحدٌ منا أَنْ يقولَ: إنّ الإحسانَ فَارَقَهُ في هذه اللحظات.

الدليلُ الثامن: يأتينا في لاحقِ الآيات، مِنْ فمِ ٱمرأةِ العزيز نفسِها في ٱعترافِها عندَ ٱسترجاعِها للحدثِ إذْ تقول: **﴿ولقد رَاوَدتُهُ عَنْ نفسه فَٱسْتَعْصَم﴾**[(١)]، وقد كانَ بإمكانِها أَنْ تتشبّثَ ولو بحركةٍ واحدةٍ بَدَرَتْ منه، لِتُخَفِّفَ من شدةِ ذَنْبِها.

الدليلُ التاسع: فينا نحن الذين نقرأُ كتابَ الله تعالى، ونُصَدِّقُه، فحين نسمعُ يوسفَ عليه السلام، يقولُ في لاحقِ الآيات: **﴿قالَ هي رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾**[(٢)] وهو صادقٌ، ونحن نعلمُ منه ذلك، ولو كانَ بَدَرَ منه أيُّ تَصَرُّفٍ خاطىءٍ لكانَ صَرّحَ به.

الدليلُ العاشر: في سَماعِنا، تَخوُّفَهُ عليه السلام، مِنْ أنْ يَحْصُلَ منه، ليسَ همّاً، بل مَيْلاً، وهو أَقَلُّ بكثيرٍ مِنَ الهَمِّ، ومناجاتُه الله تعالى أنْ يَصْرِفَ عنه كيدَ النِسوة، إِذْ قالَ فيما سَنَرى في اللاحقِ منَ الآيات: **﴿قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلِيّ مما يَدْعُونَني إليه وإلا تَصرِفْ عني كَيدَهُنّ أَصْبُ إِليهنّ وأَكُنْ مِنَ الجاهلين﴾**[(٣)].

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣٢].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ٢٦].

(٣) [سورة يوسف، الآية: ٣٣].

فهلْ لنا أخي المؤمن، بعدَ كُلِّ ما سَمِعْنا مِنْ رفيع الأَدِلّة، أنْ نقولَ في يوسفَ عليه السلام، قولاً لا يَلِيقُ به؟

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - تحفيزاً للشباب على رفض الإغواء الذي قد يتعرضون له، وذلك بالتأسي بتصرف يوسف عليه السلام عن طريق تقوية رؤية براهين الله تعالى بالتأييد والنصرة عند رفض الفاحشة، ويجب الإستعداد لدى الشباب باستحضار آيات قدرة الله تعالى في الكون، ومعاني مراقبة الله تعالى والمعرفة بأنه مطلع على الخبايا والخفايا، وأنه لا يخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

٢ - وجوب الدعاء إلى الله تعالى أن يصرف عنا وعن أبنائنا السوء والفحشاء، بذكر الآية الكريمة، تأسياً بفضله على نبيه يوسف عليه السلام وهو السميع العليم، القريب المجيب الدعاء.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٢٠]

تَنْقُلُنا الآيةُ الكريمةُ أخي المؤمن، إلى مشهدٍ جديدٍ من مشاهدِ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، تتَسَارَعُ فيه الأَحداثُ في غَزارةٍ شديدة بالمعاني، وتنوُّعٍ واسعٍ في الصُّور، وتَفاعُلٍ عالٍ في المشاعر، وانتقالٍ مِفْصَلي في وضع يوسفَ عليه السلام.

إلا أنه، وَمعَ كلِّ هذه الغزارةِ والتسارع، تَحمِلُنا الآيةُ الكريمةُ إلى مشاعرَ

جديدةٍ مِنَ السعادةِ والانتصار في نجاح يوسفَ عليه السلام في ٱجتياز المرحلةِ الأَصعبِ منَ الامتحانِ، بٱمتيازٍ رفيع. . .

وسنتابعُ أَحداثَ المشهدِ، الواحدَ تِلوَ الآخر.

يقولُ الله تعالى: ﴿واسْتَبَقَا الباب﴾.

في هذا الشطرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأَمُّلِنا لما أَنتَجْتُه كلمة **﴿واستبقا الباب﴾**، من تحريكٍ مفاجىءٍ للمشهد، مِنْ حالِ توترٍ وٱحتقانٍ شديد، مَعَ هدوءٍ حَذِرٍ، إِلى تنفيسِ الاحتقانِ وحركةٍ عاليةٍ مُتصاعدة، بدأَتْ بتحرُّكِ يوسفَ عليه السلامُ المفاجىءِ، وما أَعْقَبَهُ مِنْ تحرُّكٍ مِنَ امرأةِ العزيزِ في أَعقابِهِ. وفي هذا المشهد، تثبيتٌ لقاعدةٍ هامةٍ من قواعدِ عِلْمِ الاجتماع، نُورِدُها كالتالي: إنّ الاحتقانَ الشديدَ في العلاقاتِ بينَ الأَفرادِ، هو المُحفِّزُ لحصولِ التنفيسِ عبرَ الٱنفجار، الذي يَظْهَرُ إِلى العَلن، إمّا عِراكاً، أو شِجاراً كلامياً، أو تشنجاتٍ بكائيَّةً، أو أَذيةً مادية، كمثلِ هدوءِ ما قَبْلَ العاصفة. وغالباً ما تكونُ الأَضرارُ أَفْدَحَ مِمّا قد يُخيَّلُ للأَطرافِ حالَ الاحتقان.

اللطيفة الثانية: في تأَمُّلِنا للدوافعِ والأَسبابِ التي حَمَلَتْ كُلاً مِنهُما للرّكْضِ نحوَ الباب.

فَمِنْ جهةِ يوسفَ عليه السلام، وبعدَ أنْ حَماهُ الله تعالى مِنْ شَرِّ الوقوعِ في المعصيةِ، أو التفكيرِ فيها، كانَتِ الخِياراتُ أَمامه ضيقةً محدودة:

فإمّا أَنْ يتسمر واقفاً مكانَه، مُلتزماً مَوْقِفَهُ بالرفضِ السَلْبِيِّ، دونَ أَنْ يُحرِّكَ سَاكِناً.

وإمّا أَنْ يَدْفَعَها عنه، وهذا يَعْني ٱضطرارَهُ لاستعمالِ العُنفِ، مَعَ خُطورةِ ٱنقلابِ الموقفِ ضِدَّه، فيما لو دَفَعَها وأُصيبتْ بأذيةٍ.

وإمّا أنْ يبتعدَ ويتركَ الغُرْفَةَ وبأسرعِ ما يُمْكِن.

وفي كل الأحوال، فإنّ القرارَ صعبٌ ومريرٌ على يوسفَ عليه السلام:

فهو في موقعِ الخادمِ لدى سَيِّدَةِ القصر، وأيُّ مِنَ الخِياراتِ الثلاثةِ المذكورةِ مُرُّ المذاق، فهو إمّا أنْ يتأذّى في ٱستمرارِ تَصاعُدِ الٱحتقانِ في الموقفِ في الخِيارِ الأول، وإمّا أنْ يَتحوَّلَ مِنَ الضَّحِيّةِ إلى المذنبِ في الخِيارِ الثاني، وإمّا أنْ تُعاقِبَهُ العِقابَ الشديدَ في الخِيارِ الثالث. وها نحن نَراهُ، بما آتاهُ الله تعالى مِنَ الحِكمةِ والعِلْم، يَختارُ أهونَ الشرور، ويَقْبَلُ على نَفْسِه ٱحتمالَ معاقبتهِ ظُلْماً، ويُسْرِعُ في الانسحابِ مجتهداً أفضلَ ٱجتهادٍ. وسنَرى آثارَ هذا الخيارِ الصائبِ، في اللاحقِ مِنَ الآيات.

ومن جهةِ امرأةِ العزيز، فقد تَعدّدَتِ الأَسبابُ التي تَحْمِلُها على الركضِ باتجاهِ الباب، وقد رأَتْهُ يركضُ باتجاههِ:

فإمّا لمنعِه مِنَ الهرب، وقد عَلِمَتْ منه الصُّدودَ والرفض..

وإمّا لمحاولةِ مُراوَدَته عن نفسِه مِن جديد..

وإمّا لِسَبْقِه والوِشايةِ به كَذِباً لمعاقبته.

وإمّا لمغادرةِ الغُرفةِ بعدَ أنْ أيقنتْ أنه لنْ يَسْتَجِيبَ لها.

والحقيقةُ أَنَّ تَسارُعَ الأحداث، وظهورَ عواملَ جديدةٍ، حَسَمتْ هذه الاحتمالاتِ، وأدارتْ تَطَوُّرَ القِصةِ في اتجاهٍ جديد، كما سنَرى لاحقاً إن شاءَ الله.

اللطيفة الثالثة: في تأَمُّلِنا لِمَعْلَم جديدٍ مِنْ مَعالِمِ شَخصيةِ يوسفَ عليه السلام. فنحنَ نُلاحِظُ أنه منذُ حديثِ الرؤيا إلى يعقوبَ عليه السلام، في أولِ السورة، لم نَسمعْ منه حديثاً، ولم نَشْهَدْ له تَصَرُّفاً، بل كانَ مواكباً لتطورِ الأَحداث.

ثم ها نحنذا نَسْمَعُه في أَولِ كلمةٍ يُسَجِّلُها لهُ القرآنُ الكريمُ بقولِه: ﴿مَعاذَ الله إنّه رَبِّي أحسنَ مَثْواي إنه لا يُفلِحُ الظّالمون﴾، ثُمّ نَراهُ يَنْفُضُ عَنْ نَفْسِه ثوبَ الطّاعة، ويقومُ بتصرُّفٍ رافضٍ بركْضِه نحوَ الباب، في تَصَرُّفٍ جريءٍ قد لا تُحْمَدُ عُقْباهُ لِمَنْ هُوَ في مِثْلِ صِفتِه، أَمامَ مَنْ هي في مِثْلِ صِفَتِها.

مَعَ هذا الحدث، بَدأْنا نَرى في يوسفَ عليه السلام، رجلاً ذَا شَخصيةٍ قويةٍ مُكْتَمِلة: لقد اْستوعبَ الموقفَ وعَرَضَهُ على الثوابتِ التي يَحْمِلُها ممّا عَلّمَهُ الله تعالى بِمُقْتَضَى قولِ الله تعالى: ﴿وآتيناهُ حُكْماً وعِلْماً﴾(١) وطَبّقَ القاعدةَ الكُبرى: «لا طَاعَةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق»، فإذا بجميع الاعتباراتِ الواهية تتَهاوَى، فلم يَعُدْ يَرى في نفسِه، ربيب بيتِ العزّ، حيثُ يَجِبُ أَنْ يَتَلَقى الأوامرَ ويُطيع، ولم تَعُدِ امرأةُ العزيزِ سيدةً تَأْمُرُه وتَنْهَاهُ، بل وَجَد نفسَه في موقفِ نصيرِ الحقّ في مُواجهةِ دَاعِي الباطل، وهذا الموقفُ لا يَحْتَمِلُ المُهادَنَة، فكانَ قرارُه حَازِماً جازماً، ليكونَ لنا مِثالاً رائعاً يُحْتَذى، ويَحْملُنا على أَنْ نَقْتَدِيَ به فيما يَعْترِضُنا مِنْ مَواقفَ صَعبةٍ في سيرةِ حياتِنا.

[ننتقل إلى حلقة أخرى على القرص المدمج رقمها: ٢١]

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وقَدّتْ قَميصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأولى: في دَهْشَتِنا، ونَحن في سِياقِ آيةٍ شاملةٍ جَامعةٍ مُوْجَزَة، أَنْ نرى تفصيلاً قد يبدو لأوّلِ وَهْلةٍ، غيرَ ذِي بال. لكنّ الله سبحانَه وتعالى، شاءَ أنْ يَجْعَلَ في هذا التفصيل، دليلَ براءَةِ يوسفَ عليه السلام، فإذا بهذا التفصيلِ الصغير، يَرْتَدِي الأَهميةَ الفَائقةَ، ويُوْصِلنا إلى قاعدةٍ هامةٍ من قواعدِ تَعامُلِ الناسِ

(١) [سورة يوسف، الآية: ٢٢].

فيما بينهم، ومُفَادُها: الناسُ تَأْخُذُ بالأدلةِ المحسوسةِ للتّصديق، أمّا مجردُ القولِ الصادقِ غير المشفوعِ بالدليلِ الحِسيّ، فلا مكانَ له بينهَم. لأنّ السَرائِرَ لا مقِياسَ لها في الحياةِ الدنيا.

ولقد أَعْمَل الله تعالى على يوسفَ عليه السلام، هذه القواعدَ الدنيوية، أُسوةً ببقيةِ البَشر، تدليلاً على بشريةِ الأنبياءِ والمرسلين، وخُضوعِهم أصلاً لحياةِ البشر، واْستثناءً لتميز الأَنبياءِ والمرسلين.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا للحالِ النفسيةِ التي كانَتْ عليها اْمرأةُ العزيز، وهي تَقُدُّ قَميصَه مِنْ دُبُر: لقد اْستَبَقَا الباب، ولقد سَبَقَها، لأَنه هو الذي بدأ أولاً بالتحرُّك، وهذا دليلُ براءةٍ أولُ له، ولقد وصلَ إِلى الباب قَبْلَها. لقد أَصابَها الغَضبُ والقلقُ في آن:

➢ الغضبُ مِنْ رَفْضِه لها، ثُمّ من اْبتعادِه عنها، ثم عَزمِه على مُغادَرَةِ الغُرْفَة، واْحتمالِ سَرْدِه لِما حَصَلَ.

➢ والقلق مخافةَ أنْ ينتشرَ الخبر.

كلُّ هذا دَفَعَها إِلى مَنْعِ يوسفَ مِنَ المغادرة، أَو على الأقل، أَنْ تُغادِرَ قبله، فأَمْسَكَتْ بهِ لتُبعِدَهُ عنِ الباب، وكانَ أنْ مَزّقَتْ قَميصَهُ مِنَ الخَلف..

رَدّةُ الفعلِ هذه، ليستْ واحدةً بين الناس: ففي مثلِ هذا الموقف، نجدُ مِنَ الناسِ مَنْ يُصيبُه الإِرباكُ، فلا يَقْوَى حراكاً، ويتسمرُ في أَرْضِه تَائِهاً حائراً، ومنهم مَنْ يُصيبُه الغَضَبُ الجامِح إِلى درجة الجنون، فيُقْدِمْ على أَفعالٍ غير موزونة قد تكونُ مُؤْذية. ومنهم مَنْ يكونُ سريعَ التفاعلُ سريعَ البديهة، قريبَ الخاطر، يَبْحَثُ عن أَفضلِ الحلول، ويُسْعِفُهُ الذِّهنُ فيتخذُ القَرارَ الذي يَعْتَقِدُه الأَفضلَ لمصلحتهِ، ويقومُ بتنفيذه، وكانَ هذا حالَ امرأةِ العزيز.

لقد تتبّعَ العلماءُ في عصرِنا الحالي، هذه المسألةَ عَنْ كَثَب، وأَصبحَ بإمكانِنا

اليوم، أنْ نَرْسُمَ خَريطةَ تَنقُّلِ الأَفكارِ بينَ أرجاءِ الدِّماغ، ذَهَاباً، وإياباً، صُعوداً، وهُبوطاً، وما يمكنُ أنْ تَصِلَ إليه من نتيجةٍ، بحسَبِ التكوينِ الدّاخِليّ الوظائِفيِّ المرتبطِ بخصائصِ الشّخْصيةِ لكلِ واحدٍ منا، لكنّ المقَامَ لا يَتّسِعُ في تأمُّلِنا اليوم، للحديثِ عَنْ هذا الفتح الإلٰهيّ للإنسان، وهو على درجةٍ عاليةٍ منَ الأهمية.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿وقَدّتْ قميصَهُ مِنْ دُبرٍ﴾** فيما تَنقُله إلينا من صورةٍ لِتَبَدُّلِ حالِ الإنسانِ وَقْتَ الغَضَب. والحقيقةُ أَنّ قوةَ الإنسانِ البدنيةَ تتضاعَفُ عِنْدَ الغَضَب، لِتَسارُعِ إفرازِ مَادّةِ الأَدرينالين في الدم، فما يُعْطِي العضلاتِ قابليةً أَعْلَى للقبضِ والضغط. فإذا كانتِ امرأةُ العزيزِ جَذَبَتْ يوسفَ عليه السلامُ مِنَ الخَلْفِ لإبعادِه عنِ الباب جذباً غيرَ عنيفٍ، لَما أَدّى ذلك إلى تمزيقِ قميصِه. إلا أنّ حالةَ الغضبَ الشديدِ التي انْتَابتها، جَعَلتْ قوةَ جَذْبِها كافيةً لتمْزيقِ القَميص، وتلك كانت رحمةً منَ الله تعالى، لإيجادِ الدليلِ الماديِّ لإثباتِ براءَةِ يوسفَ عليه السلام.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وأَلفَيا سيّدَها لَدا الباب﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تَسارُعِ الأحداث، وبروزِ الصُّورِ، الواحدةُ تلوَ الأُخرى، مِنْ غيرِ أنْ تكونَ مُعَقّدةً، تَقْتَضي خيالاً صعباً للتصوير، مَا يَضْمَنُ استمرارَ متابعةِ القارىءِ والمستمعِ، منْ غيرِ إرهاق.

اللطيفة الثانية: في الإطلالِ على مشهدٍ جديدٍ بمعطياتٍ جديدة:

فالعزيزُ هو سيدُ القَصْر، وهو الحاكمُ والآمرُ والناهي فيه، وهما أَمامَ واقعةٍ تَتمثّلُ بوجودِهما معاً في غُرْفَةٍ مغلقة، وعليها تبريرُ هذا الوجود.

في هذه اللحظة، تَتبدَّلُ الحالُ النفسيةُ عند كلٍّ منهما:

فامرأةُ العزيز، التي كانَتْ في موقعِ الآمر والناهي داخلَ الغُرفة، ثم في موقعِ الغاضب المنازِع عند باب الغُرْفة، أَصبحتْ في موقعِ المَبرِّرِ الباحثِ عنِ الخَلاص، في حَضْرةِ سَيِّدِها. في هذه اللحظة، صارتْ تَبْحثُ عَنِ النجاة، حتى بالكذبِ وَرَمْيِ الآخَرينِ.

أَمّا يوسفُ عليه السلام، الذي كانَ داخِلَ الغُرفة في موقعِ المتلقِّي للأوامر، ثم في موقعِ الرافضِ المنتفضِ عندَ بابِ الغرفة، فقد أَصْبَح في موضعِ المتَّهَمِ الذي يُدافِعُ عَنْ نفسِه، أَمامَ العزيز، مع ضَعْفِ وسائِلِ الدِّفاع...

اللطيفة الثالثة: لغوية في قول الله تعالى: ﴿**وأَلْفَيا**﴾ فعلى الرُّغْم مِنَ الجَوِّ العاصفِ الذي تدورُ فيه الأَحداث، جاءَتْ كلمةُ أَلْفَيا، لطيفةً مُلَطِّفَةً للجوِ، وأَعْقَبَها تَنَاغُمُ الكلماتِ في السِياق، ﴿**وأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الباب**﴾؛ وهذه جَماليةٌ لغويةٌ لا نَجِدُها في كلامِ البشر.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**قالتْ ما جزآءُ مَنْ أَراد بأهِلكَ سُوءاً إلاّ أَنْ يُسْجَنَ أَو عذابٌ أَليم**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأولى: في اَستمرارِ تأَمُّلِنا لشخصيةِ اَمرأةِ العزيز، وهي تُتابِعُ مَنْهَجَها في التعامُلِ مَع الحدَث: فحينَ قَرّرتْ أَنْ تَلْحَقَ بيوسفَ عليه السلام، وجَدْنَا أَنها مِنَ الذين يتمّتعونَ بسرعةِ بديهةٍ وتأَقْلُمِ سريعٍ معَ الأَحداث، وها هي ذِي مَرةً ثانيةً، تؤكِّدُ أَنها تَتمتّعُ بحضورِ ذِهنٍ وسرعةِ بديهةٍ لكنّها تَسْتخْدِمُها في الباطِلِ، فترمي يوسفَ عليه السلام زُوراً وكَذِباً بما كانَتْ تَعْتَزِمُه هي، وتَعرِفُ يقيناً، بأنه سَيِّىء.

هذا الحدث، يُوصِلُنا إِلى قاعدةٍ أُخرى مِنْ قواعدِ عِلْمِ الاَجتماع. ومُفادُها:

تَوُقدُ الذَكاءِ متروكٌ بينَ النَاس، يَسْتخدِمُونَهُ إمّا في الخيرِ فَيُفْلِحونَ وإمّا في الشر، فيقعونَ ويُوقِعون.

اللطيفة الثانية: في تناسُقِ العبارة مَعَ الأَدبِ الرفيع. فالله تعالى أَجْرى على لسانِ امرأةِ العزيزِ كلاماً راقياً للتعبير عَنْ فِكرةٍ قبيحة، فقالتْ: **﴿مَنْ أَرادَ بأَهْلِكَ سُوءاً﴾** وهي تقصِدُ فاحشة الاعتداءِ على العِرْض، تُريدُ تَنْزيه نفسِها عنِ الزّنا.

اللطيفة الثالثة: في تأَمُّلِنا إلى أي مَدَى يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ الإنسانُ الذي لا تُقَوِّمُهُ الأَخلاق، ولا يَرْدَعُه الدين، في الإمعانِ في الأذِيّةِ لأَخيه الإنسانِ الضعيفِ البريء: لقد اقترحَتْ على العزيزِ ظُلْمَيْنِ شنيعَيْنِ بعد أَنْ أَعْمَى الحنقُ بَصيرتَها، وأَفْقَدَها الغيظ صَوابها: إمَّا السِجْنُ، أَو العَذابُ الأليم. وكم مِنَ الظُلْمِ يُرْتَكَبُ في حَقِّ الأَبرياء، وَيُظُّن الظَالمونَ أَنهم بِمَنْآىً عنِ العقاب، لكنّ الله تعالى يقول: **﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعملُ الظالمون﴾**(١).

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب التحرك واتخاذ الموقف الأوفق والأصلح في أسرع وقت ممكن، خشية ذهاب فرصة دفع السوء عن النفس أو التلبس في تهمة هو منها بريء.

٢ - للدلالة على أن المكر السيء حاضر في إذهاب الماكرين، ولا تعوزهم الحيلة، ولا يردعهم ضمير عن الصاق التهم بالأبرياء.

٣ - للدلالة على أن فاقد الضمير يمكنه أن يكون قاسياً جداً مع البريء المتهم، وأن يوقع عليه أشد الأذية، أو أن يساهم بأن تقع عليه الأذية الشديدة، كاقتراح السجن، أو التغريب، أو حتى القتل.

---

(١) [سورة إبراهيم، الآية: ٤٢].

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٢٢]

تنقلُنا هاتانِ الآيتان أَخي المؤمن إِلى مَشهدٍ جديدٍ من قِصّةِ يوسفَ عليه السلام، تَكاثَرَ فيه الأشخاصُ شيئاً فشيئاً. فبعدَ أن كانَ المشهدُ السابقُ مُقْتصِراً على يوسفَ عليه السلام، وٱمرأةِ العزيز، ثم أَصبَح ثُلاثياً بأنضمامِ العزيزِ إِليه، سيتحوّلُ مَعَ هذه الآية، إِلى رُباعِيٍّ بدخُولِ الشّاهدِ عليه، ثم سيَزدادُ العَدَدُ إِلى أَنْ يتحوّلَ الحدثُ إِلى قضيةٍ تَنتَشِرُ في الأَوساطِ القريبةِ ثم البعيدةِ في المدينة، كَمِثْلِ دوائرِ الماءِ في ٱتساعِها، ثم بعد ذلك، سيُصْبِحُ الحَدَثُ أُمَمِياً، ثم بعدَ ذلك سيصبحُ كَوْنياً مُتداوَلاً عَبْرَ الأجيال، هذا الذي لأجْلِهِ غَلَّقَتِ الأَبوابَ، كي لا يَعْرِفَ به أَحد!

سبحانَ الله العظيم: ما شاءَ الله تعالى سَتْرَهُ، سُتِرَ إلى يومِ الدِّين، وما شاءَ إِعلانَه، لا ينفَعُ مَعَه ٱجتهادٌ ولا تَعْمِية.

يقولُ الله تعالى: **﴿قال هي رَاوَدَتْني عَنْ نَفسِي﴾**.

في هذا الشَطْرِ مِنَ الآيةِ، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأولى: في تأَمُّلِنا لأُسلوبِ الخِطابِ الذي تَحدّث به يوسفُ عليه السلام. فبعد أنْ سَمِعْنا في الآيةِ السابقة، قولَ ٱمرأةِ العزيزِ تَتحدّثُ عَنْ يوسفَ دونَ توجيهِ الخِطابِ إليه بقولها: **﴿ما جزآء مَنْ أرادَ بأهلِكَ سُوءاً إِلا أنْ يُسْجَنَ أو عذابٌ أليم﴾**، متكلمةً بصيغةِ الغائب، وهو حَاضِر، فلم تستطع بسبب ذنبها

سوى التعريض، إذا به يُصرِّح بجرأة البريء **﴿هي راوَدَتني عَنْ نَفسِي﴾**.

ولم يكنْ ليصرحَ بهذا لولا اتهامها له. يقول الله تعالى: **﴿لا يحبُ الله الجهرَ بالسوءِ من القولِ إلا من ظُلم﴾**[١].

اللطيفة الثانية في تأمُّلِنا وإعجابنا بجُرأةِ يوسفَ عليه السلام، في قولِ الحق، وإنْ كانَ مَنْ هو في مِثْلِ وَضْعِه لا يَجْرُؤُ على الكلام. فهي المرةُ الأُولى التي نَسْمَعُه يُخاطِبُ فيها العزيزَ في مسألةٍ بالغةِ الخُطورة، مُتحَدِّياً فيها زوجةَ العزيز، بل متحدياً العزيزَ نفسَه: فإنّ في ٱتهامِ يوسفَ عليه السلام، لزوجةِ العزيزِ بمراودتهِ عنْ نفسِه، إنتقاصاً مِنْ منزلةِ العزيزِ وٱفتضاحَ سِرِّهِ، وٱهتزازَ مكانتهِ إذْ سيُصْبَحُ مادَّةَ خِصْبَةً تَلُوكُها الألْسُنُ في المدينة.

وفي أغلبِ الأحيان، يَقْبَلُ الخَدَمُ على أنْفُسِهم تُهَماً تَتَكفَّلُ بِطَمِسِ الحقائقِ مما يُرْضِي الجميع، وقد كانَ بالإمكانِ أنْ يَقْبَلَ على نفسِه التُّهمة، فيُعاقَبَ ظَاهِرِياً، ثم يُعْفَى عَنه كَمَخْرَجٍ للتَّستُّر على ٱمرأةِ العزيز، وبالتالي على العزيز؛ إلا أنه آثَرَ ألاَّ يَتهاوَنَ في حقِّ الله تعالى، في إعلانِ بَراءَتِه، وهو بذلك يُعَلِّمُنا أنْ نَنْطِقَ بالحق، ولو تحتَ سيوفِ الظُلْمِ والتهديد.

اللطيفة الثالثة: في تَعَرُّفِنا إلى مَعْلَمٍ جديدٍ مِنْ مَعالمِ شخصيةِ يوسفَ عليه السلام: فنحنُ نَلْحَظُ أنه مُنذُ بدايةِ قِصّتهِ، كانَ قليلَ الكلام، بل إنه لم يتحدّثْ في مَواضِعَ حَرَجَةٍ جداً، كما حَصَلَ عندَ ٱنتشالهِ مِنَ البئر، فهو لم يُصَرِّحْ عن نفسِه، وكذلك حِينَ ٱشْتَراهُ عزيزُ مِصْر، وكذلك حينَ عَاشَ حِقْبَةَ نُموِّهِ وشبابهِ في بيتِ العزيز. إلا أَنه هنا، في هذا الموقفِ الأشدِّ حَرَجاً الذي لو ٱستشارَ فيه الناصحين الدنيويين لأشارُوا عليه بالصمت، هنا تَكَلَّمَ ودافَعَ عن نفسِه. الخلاصة: أنّ يوسفَ عليه السلام، يَعْرِفُ متى يتكلّمُ ومتى يَصْمُت، يَعْرِفُ ماذا

---

(١) [سورة النساء، الآية: ١٤٨].

يقولُ وكيفَ يقول. وهذا هو ثاني موقفٍ مُشرِّفٍ نَشْهَدُه له، بَعْدَ أنْ تَكَلَّمَ برفضِ الفاحشةِ حينَ قال: **﴿معاذَ الله إنّه ربِّي أَحْسَنَ مَثْواي﴾**[١].

اللطيفة الرابعة: في ٱنعدامَ التوازنِ بينَ ٱمرأةِ العزيز، ويوسفَ عليه السلام في هذا الخِصَام، ورُجْحَانَ الكِفّةِ لِصَالِحِها.

فهي أولاً: سيِّدةٌ مَرْمُوقَةٌ يَصْعُبُ على العزيزِ والناسِ مِنْ بَعْدِه أنْ يُصَدِّقَ أَنها هَمَّتْ بٱستمالةِ الخادِمِ إِليها.

وهي ثانياً: ٱمرأة، وهو رجل، والفِكْرُ يَتّجِهُ غالباً إِلى مُحاولةِ الرجلِ أولاً التحرُّشَ بالمرأة، ونادراً ما يَحْصُلُ العكس.

ثالثاً: هي التي بادَرتْ بالاتهامِ أولاً، والفكرُ الإنسانيُ يَميلُ إِلى قَبولِ الادّعاءِ مِنَ المُدَّعِي، ويَنْتظِرُ الدِّفَاعَ مِنَ المُدّعَى عليه، ويَكْفيْهِ أنه لم يُبادِرْ بالاتهامِ حتى يَضْعُفَ مَوْقِفُه.

رابعاً: في ظِلِّ ٱنعدامِ الشهود، سَيُدْلي كلُّ واحدٍ منهما بأقوالِهِ، وفي ظاهرِ الحال، سيكونُ تبيانُ الحقيقةِ عَسيراً.

إلا أنّ مشيئةَ الله تعالى، بإظهارِ الحق، قَضَتْ بأَنْ تدورَ الأَحداثُ باتجاهٍ جديد لم تَحْسِبْ له ٱمرأةُ العزيز حِساباً، وهي التي ٱجْتَهَدتْ لإحكامِ الطَّوْقِ حَوْلَ يوسفَ عليه السلام.

يقولُ الله تعالى: **﴿وشَهِدَ شاهدٌ مِنْ أهلِها إنْ كانَ قميصهُ قُدّ مِنْ قُبلٍ فَصَدَقَتْ وهو مِنَ الكاذبين﴾**.

في هذا الشَطْرِ مِنَ الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في عودةِ الصُوَرِ إِلى التسارعِ بعدَ هدوءٍ أَعْقَبَ تنفيسَ

(١) [سورة يوسف ، الآية: ٢٣].

الاحتقان، فَنَفهَمُ مِنْ سِياقِ الآية. أَنّ المسألةَ تفاعَلَتْ، ولم يَصلِ العزيزُ إلى تِبيانِ الحقيقةِ مِنْ تِلْقاءِ نفسه، مما ٱستوجَبَ توسيعَ الدائرةِ للحصولِ على إجابة.

ونَفْهَمُ أنّ الشاهِدَ لم يَكُنْ حاضِراً في المشهدِ السابق، وهو حينَ أَعْطَى رأيَهُ لم يَكُنْ قَميصُ يوسفَ تَحْتَ نَاظِرَيْه.

ونَفْهَمُ أَنّ العزيزَ جَادٌّ في السَعْي للوصولِ إلى مَعْرفةِ الحقيقة، دونَ أنْ يَميلَ إلى تَصديقِ زوجتِه. وقد رأَيْنا أَنّ مِيزانَ القُوى في صالحِها.

اللطيفة الثانية: في إشراكِنا في ٱستنتاجِ آليةِ حُصولِ التمزيقِ دونَ الإفاضةِ في التفصيل. فحينَ ٱكْتَفَى الشّاهِدُ بقول: ﴿**إِن كانَ قميصهُ قُدَّ مِن قُبلٍ فَصَدَقَتْ**﴾ لم يُعْطِنَا حيثياتِ التحليلِ. وترَكَ لنا أنْ نُعْمِلَ فِكْرَنَا، لنصلَ إلى الوقَائِعِ التالية: بمعنى: إنْ كانَ قميصهُ قد تَمزَّقَ عِنْدَ صَدْرِهِ، فهذا يَعْني أنه كانَ بمُواجَهَتِها مُقْبلاً عليها، وراحَتْ تُدافِعُ عَنْ نَفْسِها، فَمَزَقَتْ قميصَه مِنْ حيثُ يُمْكِنُها، ولنْ تَتَمكّنَ إلا مِنْ عِنْدِ صَدْرِه.

فٱنظُرْ أخي المؤمن إلى إعجازِ القرآن في الإيجاز.

اللطيفة الثالثة: في إدْرَاكِنا لمشيئةِ الله تعالى، بإحقاقِ الحقّ دُونَ تَدَخُّلٍ غيبي مُباشِر: لقد شاءَ الله تعالى أَنْ يَظْهَرَ الحقُّ بموجبِ تفاعُلِ البشرِ فيما بينَهم، بما أَوْدَعَ لديهم مِنْ خَصائِص، خصوصاً نِعمةَ العقلَ والتفكيرِ وما ٱحتاجَتْ تبرئةُ يوسفَ عليه السلام، إلى معجزةٍ غيبية، وهي أهونُ على الله تعالى، فكانَ سيرُ الأحداثِ اللاحق، يُوضِحُ هذا الأمر:

فقد أَنْطَقَ الله تعالى شخصاً مُحايداً بتحليلٍ مَنْطِقي وبمفهومِ الإقناعِ لغيابِ الدليل. وجعلَ هذا الرجلَ مِن أهلِها، لكي لا يكونَ هناك تحيُّز.

وجعلَ الاستنتاجَ في المُطْلَقِ بحيثُ إنه يَصْدُقُ على الحاضرِ والغائب، وٱستعمَلَ صِيغةَ الغائب، ليكونَ الحُكْمُ عاماً.

وبدأ باستعراضِ ٱحتمالِ براءَتِها أولاً، حينَ قال: ﴿**إنْ كانَ قميصُه قُدّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهو مِنَ الكَاذِبين**﴾.

ثم يقولُ الله تعالى على لسان الشاهد: ﴿**وإنْ كانَ قميصهُ قُدّ مِنْ دُبرٍ فكذَبَتْ وهو مِنَ الصّادقين**﴾.

وفي هذه الآية، استكمالٌ لتحليلِ الشاهد بأُسلوبِ السردِ ذاتِهِ، وبطريقةِ ٱستخلاصِ الحكم نفسِها، دونَ الخوضِ في التفاصيلِ التي تُتْرَكُ لنا لتحليلها كما التالي، بمعنى: وإنْ كانَتْ هي التي تَدْعُوُه إِلى نفسِها وهو يبتعدُ عنها فاراً مُتّجهاً نحوَ الباب، وهي تَتْبَعهُ فيكونَ وَجْهُها قُبالَةَ ظَهْرِه، وإنْ شَاءَتِ الإِمساكَ به لمنعهِ مِنَ الهرب، فلنْ تَتمكّنَ مِنْ إِمساكِه إلا مِنْ خَلْفِهِ، فَلئنْ جَذَبَتهُ يَحْصُلُ التمزيقُ مِنَ الخَلْف.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الجرأة في الحق، وقول الصدق ولو كان احتمال خسارة مكسب ما واردة بعد قول الصدق. وهذا من دليل عمق إيمان القائل وصحة توكله على الله تعالى ويستدل على ذلك يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: قال هي راودتني عن نفسي.

٢ - للدلالة على خطأ من يلتزم الصمت حال وجوب النطق بالحق، سواء عن نفسه أو عن غيره، كأن يكون شاهداً لحدث قد يعرض بريئاً إلى الاتهام ظلماً حال سكوته حتى ولو كان الكلام قد يفوت عليه كسباً محتمل الحصول.

٣ - للدلالة على وجوب إعمال أسباب الأدلة المادية والمباحث الجنائية للكشف عن ملابسات الأعمال الجرمية، وعدم الإكتفاء بالأقوال، حتى وإن كانت صادرة عن شخص موثوق، فالله تعالى هو أدرى بالسرائر.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٢٣]

نتابعُ معاً أخي المؤمن أَحداثَ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، وكنّا قد رأينا في الآياتِ السابقة، موقفَ الاتّهامِ الذي وُضِعَ فيه يوسفُ عليه السلام في ظِلِّ انعدامِ الشواهدِ والشُّهود، ثم سَمِعَنا تحليلاً مَنْطِقيّاً على لسانِ شخصٍ بعيدٍ عن الواقِعة، لم يَكُنْ حَاضِراً حين أَصابَتَ الحَيْرَةُ العزيزَ..

وقد سمِعَ اتهاماً خطيراً مِنْ زوجتِهِ ليوسف، وَردّهُ عليها، وها نحن الآن مَعَ هذه الآية، نستمعُ إِلى الحكمِ ببراءةِ يوسفَ عليه السلام، وقد بَرّأَهُ الله تعالى قبلَ العِباد.

يقولُ الله تعالى: ﴿**فلما رأى قميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبر**﴾.

في هذا الشطرِ مَن الآية، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأولى: في ابتداءِ الآيةِ بكلمةِ فَلمّا، تدليلٌ على أنّ العزيزَ لم يَكُنْ قد التفتَ قبلاً إلى حالِ القميص، وهو في حالِ ذهولٍ وَضياع. والتحليلُ المنطقيُ الذي وصَل إِليه الشَاهِدُ، ليس صَعْباً نظرياً، على أيِّ واحدٍ منا، وقد كانَ بإمكانِ العزيزِ أنْ يُفكِّرَ فيه، لأنه لا يَتَطّلبُ خِبرةً خاصةً كتلكَ التي تَمْتَلِكُها المباحثُ الجنائيةُ في البحث والتقصيِّ عنِ الأدِلّة.

لكننا بالعودةِ إلى قواعدِ علمِ النفس، نجدُ أنّ حالَ العزيزِ في هذه اللحظاتِ تنطبقُ عليها قاعدةُ التَغْشِيَة ومُفادُها: عندَ حُصولِ خَطْبٍ جلل، تَتَعَطلُ أَجهزةُ التحليلِ والمنطقِ، لفترةٍ زمنيةٍ مِقْدارَ ما يَحْتَاجُهُ الذِّهْنُ لاستيعابِ الحدَث.

القاعدةُ ذَاتُها تَنْطَبِقُ على حالِ الغَضَبِ الشديد، الذي يُعَطِّلُ مراكزَ التعقُّلِ والاتزانِ، مما قد يَتَسببُ بأَفْعالٍ منافيةٍ للمنطق، فيها إيذاءٌ غيرُ مُتناسبٍ مَعَ الحدث.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا، أَنّ العزيزَ أخذَ بتحليلِ الشاهِد بعينِ الاعتبارِ ولم يُهْمِله، دليلٌ على أنه كانَ يَبْحَثُ عنِ الحقيقة. وهذه مسألةٌ هامةٌ تُلْقِي الضوءَ على حقيقة الحياةِ الاجتماعيةِ التي كانَتْ سائدةً في ذلك الزمان.

فنحن نعلمُ أنّ مصرَ في ذلك الوقت، كانتْ تحْتَ حُكْمِ الفَراعنة، وبعضُهم أدعى الألوهيةَ واستعبد الناس ولم تَكُنِ الضوابطُ الاجتماعيةُ محكومةً بحدودِ الشرع، وأَوامرِه ونواهِيه، مَثَلُها في ذلك كَمَثَلِ مجتمعاتِ اليونانِ والإغريق.

وعلى صعيدِ الأُسرة، كانت العائلاتُ تتكوَّنُ بالزواجِ وإنجابِ الأولاد، وحافظَ الناسُ على بعضِ الفِطْرَةِ فيهم، ومنها المحافظةُ على الشعورِ بالغَيرة، رُغْمَ كلِّ الفَسادِ الذي كانَ قائماً، فكانتَ الفَواحشُ والزِّنا موجودةً، إلا أنّ الرجلَ لا يَقْبَلُ على نفسِه أنْ تخونَهُ زَوْجُه، ليس مِنْ مُنطلقِ الحُرْمَةِ الدينية، بل بدافعِ الأَثَرةِ وَحُبِّ الذات، والشعورِ بالمهانةِ والذِّلّة.

نَسُوقُ هذه الوقائعَ لِنَنْظر إلى عصرِنا اليوم. لنرى أنّ التاريخَ يُعيدُ نفسَه، وأنّ الخُطَّةَ الشيطانيةَ في التعاملِ مَعَ الإنسان، واحدةٌ منذُ أنْ خَلَقَ الله تَعالى آدم، ثم تَوَعّدَهُ وذُرِّيتَهُ بالإغواء. فنحن نرى في المجتمعاتِ الغربية المتحضّرة، المتدنيةِ إلى أسفلِ دَرْكٍ في الانحلالِ والتفلُّت، حيثُ لم يَعُدَ الزِّنا جُرْماً يُعاقَبُ عليه، وقد دَخَلَ في ذِهنيةِ المواطِنِ الغربي، منذُ نُعومةِ أَظْفَارِه، أنّ الزنا سلوكٌ طبيعيٌ لدى الإنسان، وقد بلغَ عمقُه في الذِّهينةِ الغربيةِ مبلغاً، أَصبحَ الذي لا يُمارِسُه غيرَ طبيعي.

مَعَ كلِّ هذا الانحراف، نجدُ أنَّ المجتمعَ بأَسْرِهِ تَثورُ ثَائِرتُه، حينَ يَحْصَلُ

زنا مضافاً إلى أُسرةٍ قائمةٍ بطريقِ الزواجِ أو بطريقِ الزنا، وهذه من غرائبِ الأُمورِ وعجائبِها: فالمجتمعُ الغربيُ يقبلُ الزنا الأَول، الذي عليه تقومُ الأَسَرُ، ويَرْفُضُ الزِنا الثاني الذي يَطْرَأُ على الزِنا الأول. إنها مجتمعاتٌ تحيا حالةَ انفصام حقيقية، وهي تَتَخَبَّطُ في ظلماتِ اَعتمادِ قواعدَ عقيمةٍ في تنظيمِ مجتمعِها، مَثَلُهاَ في ذلكَ كَمَثَلِ ما عاينته المجتمعاتُ البائدة التي أَزالها فَسادُها من الوجود.

وبالعودةِ إلى حالِ عزيزِ مصْر، فإنّ بحْثَهُ عنِ الحقيقة، كان حقيقياً وجادّاً، وذلك لمعرفةِ ما إذا كانتِ امرأته هي المذنبةَ أم يوسف. أَمّا بعدَ المعرفة، فإنّ التصرفَ يكونُ مختلفاً فيما لو كانَ يوسفُ عليه السلامُ هو المذنبَ، أو فيما كانتْ هي المذنبة، على ما سَنَرى في لاحقِ الآيات.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**قال إنه من كيدِكُنّ إنّ كيدكُنّ عظيم**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في الأُسلوبِ الذي اَعتمَدَهُ العزيزُ في إِصْدارِ الحكم، وقد تجلّتِ الحقيقةُ واضحةً أمامَ عَيْنَيْهِ، بإدانةِ اَمرأتِه، وتبرئةِ يوسفَ عليه السلام: فلم يقُلْ إِنك أَنت المذنبة، بل لم يُوَجِّهْ إِليها الكلامَ غيابياً، على نحوِ تخاطُبِ اَمرأتِه ويوسفَ، في دفاعهما، إنما وَجّهَ الخِطَابَ إلى عامّةِ النِساءِ وهو أُسلوبٌ ذكيٌّ، رَمَى مِنْ ورائِه إلى عدم إِظهارِ عُلُوّ يوسفَ عليه السلامُ على امرأتِه.

اللطيفة الثانية: في إعلامِنا من خلالِ هذه الصيغة في إِصدارِ الحُكْمِ، بأَنّ العزيزَ لنْ يكونَ على مستوى الجُرأَةِ المطلوبةِ منه في مثلِ هذا الموقفِ بمعاقبةِ زوجتِه، أو على الأقل تغنيفها، ولا بمستوى الإنصافِ المطلوبِ منه بالثناءِ على يوسفَ عليه السلام، حينَ عَلِمَ بَراءَته، وسنعلمُ في الآيةِ التالية، أنه ليس إلا مثِالاً للحالِ الاجتماعيةِ المتردِّيةِ التي آلَ إِليها المجتمعُ الفِرعونيُّ مِنْ فسادٍ وخِيانة.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا على قولِ العزيز: **﴿إنّ كيدكُنّ عظيم﴾**.

هل هو فقط من بابِ سردِ رأيهِ وقولِه، أَم إِنه حُكْمٌ إِلٰهيٌ يُمْكِنُ ٱعتمادُه في معرفةِ حالِ كيدِ النساءِ؟

الكيدُ في اللغةُ الصنيعُ، وفي اللغةِ أيضاً، الحيلةُ والمَكْرُ، ولقد عَلِمْنا أنه جاءَ في الحديث النبويِّ الشريف، في كثيرٍ مِنَ المواضِعَ، تحذيرٌ مِنْ فِتنةِ النِّساءِ وكيدِ النِّساءِ وهذا ما لا يَخْفَى على عاقلٍ من خصوصيةِ النساءِ فيما جُبلْنَ عليه مِنْ قدراتٍ ذهنيةٍ مَرِنة، في مقابلِ غَلَبةِ الرِجالِ عليهن بالقوةِ البدنية.

المدهشُ في الأَمر، أنَّ الأبحاثَ العِلميةَ العصريَة الدقيقة، التي أَفادَتْ مِنَ الفتحِ العلميِّ الحديث، في تَتَبُّعِ المسالِكِ العصبيةِ في الدماغ، أَظهرتْ فُروقاً، واضحةً في اتجاهِ الإشاراتِ العصبيةِ عندَ الرجلِ والمرأة: ففي حينِ تتجهُ أكثرُ الإِشاراتِ لدى الرجلِ إلى الفص الأَماميِّ مِنَ الدماغ، قبلَ ٱنتقالِها إِلى أَماكنَ أُخرى، تتجهُ الإِشاراتُ لدى المرأةُ نزولاً باتجاهِ أسفلِ الدماغ، حيثُ مرَاكزُ الاَنفعالاتِ والعواطِفِ، قَبْلَ أَنْ تتوزّعَ إِلى المناطقِ الأُخرى مِنَ الدماغ، ممّا يُشيرُ إِلى أَنّ المرأةَ في الأَصلِ عاطفية، ثم هي عَقلانيةٌ بعدَ ذلك، في حينِ أَنّ الرجلَ عقلانيٌ في الأَصل، ثم هو عاطفيٌ بعد ذلك.

وهذه المسألةُ، مَع الفتحِ العِلميِّ الجديد، تَحتاجُ لأَنْ تُعارَضَ معَ نُصوصِ الشّرْعِ مِنْ كتابٍ وسنة، لما يُمْكِنُ أَنْ تَكْشِفَهُ مِنْ طُرقِ وَسْوَسةِ الشيطانِ للإنسان، ومعرفةُ مكامنِ تَدَخُلِه وأَينَ يَقْبَعُ مِنْ تفكيرِ الإِنسانِ مما يَسْمحُ لنا أَنْ نُقاوِمَهُ بفَعَاليّةٍ أَكْبر.

* * *

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية.

١ - للدلالة على الحالة النفسية للمرأة حين يتملكها الغضب أو تريد الحصول على مسألة ما بالحيلة والحنكة، وذلك تدليلاً على أنها تملك من الخصائص والمقومات الخاصة بها والتي لا يملكها الرجل فيمكن القول: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم.

٢ - للتدليل على وجود فروقات تكوينية بين الرجل والمرأة، في معرض ذكر آيات الفروقات بين الرجال والنساء، ومن بين الفروقات تميز وتفوق المرأة على الرجل في حبك الخطط للحفاظ على مصالحها.

ثم يقول الله تعالى:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج ٢٤]

نتابعُ معاً أخي المؤمن معَ هذه الآية تتمةَ حُكْم عزيزِ مِصْرَ في مسألةِ تبرئةِ يوسفَ عليه السلام، مِنْ تُهمةِ مُراوَدَةِ زوجتهِ عَنْ نَفْسِها وقد رَمَتْهُ بها، ونحن نَتوّقعُ أنْ يكونَ حُكْمُه عادلاً وصارماً، لِما للمسألةِ مِنْ خُطورةٍ على العِرضِ والشَّرَف، ولِما للعزيز مِنْ مكانةٍ تُحتِّمُ عليه أَنْ يكونَ حُكْمُهُ قُدْوَةً للناس، ولِما للعزيزِ منْ صَلاحِيّاتٍ عاليةٍ في تنفيذِ الأَحكام الصادرةِ عنه.

وكنا قد رَأَيْنَا أنه أَبْدَى ٱهتماماً بالغاً في معرفةِ الحقيقة، فهو لم يُبادِرْ إلى مُعَاقَبَةِ يوسفَ عليه السلام، عندما أتُهِم، وإِنْ كانَ قولُ زوجتهِ حاسماً في تخييرهِ بينَ أَنْ يَسْجُنَهُ أو أنْ يُعَذِّبَه عَذاباً أليماً، خِيارانِ لا ثَالِثَ لهُمَا ثم إنه ٱستَمع إلى الشاهدِ في تحليلِه، وٱنطلقَ إلى أرضِ الواقع، للتحقُّقِ مِنَ ٱنطباقِ التحليل على حالِ القميصِ وها هوذا قد عَلِمَ وٱسْتَيقَنَ أَنَّ يوسفَ بريءٌ، وأَنّ زوجتَه هي المُذْنِبَة، فماذا كان الحُكْم؟

يقولُ الله تعالى في الآية الكريمة على لسان العزيز: **﴿يوسفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا﴾**.

أي: أعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ هذا، أي: يا يوسف، تَكَتَّمْ عَمَّا حَصَل، ولا تَذْكُرْهُ لأحد.

سبحانَ الله! إننا لَنُدْهَشُ حين نعرفُ أنّ هذه هي الحصيلةُ التي خَرَجَ بها العزيزُ في نِهاية الأَمر، بأَنْ يَطْلُبَ مِنْ يوسفَ عليه السلام، عَدَمَ ذِكْرِ مَا حَصَلَ على مَسْمَعِ النّاس. فبدَلَ أنْ يُثْنِيَ على يوسفَ عليه السلام، نَزاهَتَهُ ورِفْعَةَ أدَبِهِ وعِفّتَه وحُفَظَهُ له، وبدلَ أنْ يُعْلِيَ مِنْ شَأْنِهِ ويَرْفَعَهُ على الملأ كافةً، ويُظْهِرَ بَراءَتَه ويَحمِلَ الناسَ على الاقتداءِ به، وبدلَ أنْ يَرُدَّ إليه ٱعتبارَهُ بعدَ كلِّ ما تَعَرّضَ له مِنَ التشهير، أو في أدْنَى حدودِ التصرُّف، يُوكِلُ إليه عملاً آخرَ بعيداً عنِ القصرِ وسَيِّدتهِ إذا به يَطْلُبُ منه أنْ يتصرَّفَ وكأنّ شيئاً لم يَكُنْ.

لكنّ دَهشتَنا تزُولُ حين نُدْرِكُ أَنّ ضَعفَ الشعورِ بالغَيرةِ والذَّوْدِ عنِ العِرْضِ، هي سِمَةُ المجتمعاتِ المُترفَة، التي ٱبتعدَتْ عَنْ هُدَى الله تعالى وٱستوطنَها الشيطانُ يَفْرِضُ فيها قواعدَه، ومن بينِ هذه القواعدِ، إستسهالُ الرذيلة، وغَضُّ الطّرْفِ عَنْ فَاعِلِها، والتّهاوُنُ في تأديبِ مُرْتَكِبِها مما يُشَجِّعُ الناسَ على التَّمادِي في إطلاقِ العِنانِ لشهَواتِهم، دونَ حسيبٍ أو رقيب.

وفي الآيةِ الكريمةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لٱبتداءِ الآيةِ بذكْرِ اسمِ يوسفَ عليه السلام في مخاطَبةٍ مباشِرَةٍ مِنَ العزيز، لِطَرَفَي النِّزاع، ثم إغفالِ ذكرِ ٱمرأتِه حين توجَّه بالخطابِ إليها، وهذه مُفارَقَةٌ واضحةٌ في الآيةِ الكريمة، نَفْهَمُ منها ضِمْنياً بعضاً من ردِّ الاعتبارِ ليوسفَ عليه السلام، وإنْ لم يَكُنْ كافياً لإحقاق الحق.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عندَ مضمونِ معنىٰ ﴿**وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ**﴾.

أي ٱطْلُبي الغفرانَ وأَعْلنِي النّدَم.

فإذا ما تأمّلْنا حَال امرأةِ العزيزِ بعدَ ٱفتضاحِ أَمرِها، نجدْ أَنّ واقَعها النفسيّ يَزْدَادُ سُوءاً وتأَزُّماً معَ تَقدُّمِ سيرِ الأحداث.

فقد بدأ الحدثُ حينَ غلبَتْ عليها عواطفُ الاَنجذابِ نحوَ يوسفَ عليه السلام، وسيَطَرتْ هذه العواطفُ على تَصَرُّفِها مما أغْمَى بصيرتَها ونَسَيتْ موقعَها وأَضاعت ٱتّزانَها.

ثم جُوبِهَتْ برفضِ يوسفَ عليه السلام، الوقوعَ في المعصية، ومحاولتِهِ الهروبَ منها، فأُصيبتْ بالهَلع وحاولتْ ثَنْيَهُ عَنْ عَزْمِه.

ثم فُوجئَتْ بوجودِ زوجِها لدى البَاب، فتحوَّلَ الشعورُ لديها إلى غَضبٍ وضِيق، وشعورٍ بالإحصارِ والإرباك، حاولت التخلُّصَ منه بالكَذِب، وٱتهامِ يوسفَ عليه السلامُ ظُلْماً وَعُدْواناً.

ثم ظَهرتِ الحقيقةُ بعدَ تِبْيَانِ الدّليل، وتحوّلتْ منْ مُدعٍ إلى مذنبٍ مُتَلَبِّسٍ بجريمتِه، وفي هذا الموقف، يتَحوَّلُ الشعورُ إلى إحباطٍ وضَعْفٍ تَخُورُ معه القُوى، وتَتَهاوَى الدُّفَاعَات، فإذا ما كانَ الجزاءُ موازِياً لمقدار الجُرم، شَعَرَ مَعهُ المذنبُ بأنه نالَ جَزاءَهُ الذي يَسْتَحِقُّه، مما يُعيدُ التوازنَ المفقودَ لديه، رُغْمَ حُزنْه وكُرْهِه لتطبيقِ العُقوبةِ.

أمّا فيما لو لم يَنَلْ جَزاءَهُ بَعْدَ وُضوحِ جُرْمِه، فإنّ هذا يَدْفَعُ النّفْسَ إلى موجاتٍ جديدةٍ منَ الاَضطراب، تَتَراوحُ بينَ القَلقِ والحبُور، يَغلْبُ عليها اللّاتوازن، بين حديثِ النّفْسِ بالكَفِّ عَنِ التّمادي مِنْ جهةٍ، والإيغال في التّمادِي مِن جهةٍ أُخرى.

والواقعُ أنّ ٱمرأَةَ العزيزِ عاشَتْ حالَةَ الاَضطرابِ العنيفِ هذه، بَعْدَ صُدورِ

حُكْمِ العزيز: فهي مُذنبةٌ لم تَلْقَ جَزاءاً، وأَداةُ الجُرْمِ عُرِفَتْ، وموضوعُ الجُرْمِ موجودٍ وظُروفُ تَكْرَارِ الجُرم موجودة، والرّادِعُ الأخلاقيُّ أَو الدينيُّ مَعْدُوم، وما قولُ العزيزِ لها ﴿اسْتَغفري لذَنْبك﴾، مِنَ القُوّةِ بمكانٍ حتى تَنثنِيَ عَنِ المحاولةِ ثانية. ولقد فَعَلَتْ كما سَنَرى في لاحقِ الآيات.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الترف حين يغلب على قوم. تضعف فيهم المروءة والشهامة، وتختفي موجبات الغيرة والذود عن العرض فتذكر الآية تدليلاً على ضعف الموقف في موقع يستوجب الحسم والعقاب.

٢ - للاستدلال حال حصول ظلم فاضح على متهم بريء رغم وضوح براءته، أن هذا الأمر كثير الحصول والتكرار على مر الأزمان، وأسطع دليل هو حكم عزيز مصر الذي أصدره في هذه الآية.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠)﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٢٥]

نصلُ معاً أخي المؤمن، إلى مَشْهدٍ جديدٍ مِنْ مشاهدِ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، وقد أُسْدل الستارُ معَ الآيةِ السابقةِ على فَصلٍ حاسمٍ مِنَ المحنةِ القاسيةِ التي تَعرّضَ لها يوسفُ، دونَ أنْ تَلْقَى امرأةُ العزيز أيّ تصرفٍ ماديٍّ حاسمٍ مِنْ قِبَلِ زوجِها، يَرْدَعُها عن التعرُّضِ ليوسفَ عليه السلام، ودونَ أنْ يُبْعدَ يوسفَ عن مَوئِلِ الخطرِ المُحْدِقِ به.

فإذا بالآية موضوع تأمُّلِنا، تَنقُلُنا مباشرةً إلى مجلسِ نسوةِ المدينة، اللواتي يُمَثِّلْنَ المجتمعَ الراقي، واللواتي يُحسَبُ لأحادِيثِهِنّ وآرائهنّ حِساب، وإذا بموضوعِ حَديثِهِنّ المِحوريِّ، مسألةُ امرأةِ العزيزِ ويوسفَ عليه السلام.

يقولُ الله تعالى: ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عند مَغزَى تخصيصِ حديثِ النِّسْوةِ، بالإشارةِ إليهن دونَ غيرهِنّ مِنْ بقيةِ الشَّعْب، وحين نسمَعُ أَنّ النسوةَ يتحدثْنَ في المسألة، نعرفُ أنّ كُلّ الناسِ صَارُوا على عِلْم بها، لكنّ الله تعالى شاءَ أنْ يَخْتَصّ حديثَ النِسوةِ بالتثبيتِ في الآيةِ الكريمة ونفهُم من ذلك:

أنّ النساءَ أَقدرُ مِنَ الرجالِ على إدارةِ أَحاديثِ المسائلِ الاجتماعية والأُسْرِيّة، ويَمْلِكْنَ القُدرةَ على التفصيلِ والتمحيص، والاستنتاجِ والتعليق، ويكونُ لاجتماعِهِنّ على أمرٍ من هذا النوع، صدى أبلغُ وأعمقُ مِنْ حديثِ الرجال، الذي غالباً ما يكونُ سطحياً وعابراً، ما يُعَزِّزُ خصوصيةَ كُلٍّ مِنَ الرجالِ والنساء، فيما غَرَسَ الله تعالى في نفوسِهم مِنْ ميولٍ واَتجاهات.

ونفهمُ أيضاً، أَنَّ نساءَ المجتمعِ الراقي، يتربّصْنَ ببعضِهِنّ ويتبعْنَ كلّ خُطوةٍ تَخطُو بها إِحْداهُنّ لِيَجعَلْنها أَحاديثَ، وفي هذا ترجمةٌ لخلُوِّ أذهانِهِنّ من مشاغلِ الحياةِ الجِدِّية، ومن وقوعهنّ في أسرِ المُباهاةِ والتفاخُرِ والتنابذ.

ونفهمُ أيضاً، أنّ المدنيةَ في عصرِ الفراعنة، بلغَتْ شأْواً عالياً يتمثّلُ بالمجالسِ التي تَعْقِدُها النساءُ للتباحُثِ. في أُمورِ حياتِهِنّ، وهذا ما صَدّقَتْهُ الاكتشافاتُ الأثريةُ، حيث تَمّ اَستخراجُ مجالسَ بكامِلِها مِنْ باطنِ الأَرض، بعدَ طولِ اَختفاءٍ واَندثار.

ونفهمُ أنّ ٱمرأةَ العزيز، تَهْتَمُّ بما يَدورُ في هذا المجلس، وتُعيُره ٱلتفاتاً وٱنتباهاً، على ما سَنرى في الآيةِ اللاحقة.

إلا أنّ الأهمَ، هو ما نَعْرِفُه مِنْ أنّ الأَمْر كُلّهُ بتقديرِ منَ الله تعالى الذي شاءَ أنْ يَظْهَرَ هذا الجانبُ مِنْ تطورِ الأَحداثِ، لإطلاعِنا على ما سيكونُ مِنْ أَمرِ هذه المِحنةِ التي تَتوالى فُصولاً على يوسفَ عليه السلام.

اللطيفةُ الثانية: في الصيغةِ التي وردَ فيها فعلُ المراودة: امرأةُ العزيزِ تُراودُ فَتاها، بصيغةِ المضارع، ولم يَرِدْ بصيغةِ الماضي، كقولكِ، ٱمرأةُ العزيزِ رَاوَدَتْ فَتاهاَ عن نفسِه. وكأنّ في ذلك، غمزاً من قناتِها، وكأنها مستمرةٌ في مراودتهِ عن نفسِه.

اللطيفة الثالثة: في جماليةِ التعبيرِ القرآنيِّ، في الإشارة إلى يوسفَ عليه السلام، في الآية، دونَ ذِكْرِ ٱسْمِه، فإذا بهنّ يُسَمِّينَهُ فتاها ولم يَقُلْنَ: خَادِمَها وفي هذا تكريمٌ منهنّ ليوسفَ عليه السلام، في تنزيههِ عن صِفَةِ الخَدَم.

اللطيفة الرابعة: في مَغْزَى نِسْبَتِهِنَّ ليوسفَ عليه السلامَ إلى ٱمرأةِ العزيزِ وليس إلى العزيز، لإظهارِ شِدّةِ جُرْمِها، وبلوغِ ذَنْبَها: للدلالةِ على عدمِ أَهْلِيَّتها لامتلاكِ نفسِها في حضرةِ شابِ عُهِدَ إليها برعايتهِ، فقُلْنَ: ﴿**تُراوِدُ فَتاها**﴾ ولم يَقُلْنَ: تُراوِدُ فتىَ العزيز، أو تَراودُ فَتاهُم.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**قد شَغَفَها حُباً. إنّا لنَراها في ضَلالٍ مبين**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأولى: في وُقوفِنا عندَ ما ذَكَرَتْهُ مِنْ دَرجةِ الحبِّ التي وَصَلْت إليها ٱمرأةُ العزيز:

والمعروفُ أَنّ الحبّ على درجات، وقدُ أتقنَ اللغويون تَفْصِيلَ درجاتهِ على مَراتبَ تصاعديةٍ، نَذْكُرُها كما التالي:

➢فأولُ مراتبهِ الملاحظة، وهي أَنْ يَنْتَبِه المحبُّ إِلى خَصائصَ في المحبوب، تجعلُه يُمِيِّزُهُ عنِ الآخرين، مَا يُثَبِّتُه في ذِهْنِه، ويجعلُ صورتَهُ راسخةً في مخزونِ ذَاكرتِه. ثم يأتي المَيْل، وهو شعورٌ خفيٌّ بالراحةِ، عندَ رؤيةِ المحبوب، أو سماع صوتهِ، دونَ أَنْ تكونَ ملاحظةُ هذا الأمرِ مادةً حالة.

➢ثم تأتي المحبة، وهي درجةٌ أعلى مِنَ الصداقةِ بقليل، ومُفادُها رغبةُ الخيرِ للمحبوب، والسعادةُ لسعادتهِ، والحزنُ لحزنه، ومُوافَقَةُ المحبوبِ في المشهدِ والمغيب.

➢ثم يأتي الهَوى، وهو ٱرتفاعُ المحبةِ إلى مستوىً راقٍ، يتوافَقُ مَعَ التصريحِ القلبيِّ الضمنيِّ بالاهتمامِ المخصوصِ بالمحبوب.

➢ثم تأْتي العلاقة، وهي تَعَلُّقُ القلبِ بالمحبوبِ، يدورُ مَعَهُ حَيْثُما دارَ.

➢ثم يأتي الكَلَفُ، وهو شِدَّةُ الحُبِّ مع تَكَبُّدِ المَشقّة.

➢ثم يأتي العِشْقُ، وهو فَرْطُ الحبِّ، مع لُصوقِ القَلْبِ بالمحبوبِ، وفيه إِفراطٌ ومُبالغة.

➢ثم يأتي الشَعْف، وهو ٱحتراقُ القلبِ وإِمراضُه من شِدَةِ الحب.

➢ثم يأتي الشَغَفْ، وهو حين يبْلُغُ الحبُّ مبلغاً يَصِلُ بالمعنى المجَازيِّ إلى شِغافِ القلب، أي أَغْلِفَتهِ، بمعنى أنه تَغَلْغَلَ إلى أعماقِ أعماقهِ.. وبهذا اللفظ، جاءَتِ الآيةُ الكريمة: ﴿**قد شَغَفَها حُبًّا**﴾.

ثم يَتَدَرّجُ أهلُ اللغةِ في وَصْفِ المراحلِ صعوداً، فيذكُرونَ اللّوْعَةَ واللاعجَ، ثُمَّ الجَوى ثم التَّتيُّم، وهو أَنْ يَسْتَعبدَهُ الحب، وهي مراحلُ خطيرةٌ يُخْشَى على المرءِ منها، ثم الوَجْد، وهو الحبُ الذي يَتْبَعُهُ الحُزنُ. ثم الافْتتانُ، ثم الهِيام، وهو أَنْ يَذْهَبَ الرجلُ على وَجْههِ لغلبةِ الهَوَى عليه، وبينها مراحلُ تَصِلُ عِندَ بعضِهم إلى خمسينَ مرحلة.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى، على لسانِ النِّسوة: **﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مبين﴾**، إشارةٌ إلى عددٍ منَ الحقائقِ، نُورِدُها كالتالي:

اعتبرتِ النِّسوةُ عملَ امرأةِ العزيزِ عملاً مُشِيناً، وكأنهُنّ يُنَزِّهْنَ أنفسَهُنّ عنِ القيامِ بمثلِ هذا العمل.

ونفهمُ مِنْ الآيةِ أنهن لا يَعْرِفْنَ يوسفَ عليه السلام، ولا يَعْرِفْنَ على أيِّ مستوىً مِن الجمالِ هو.

ونفهمُ أنّ الخبرَ انتشَر في المدينة، بصيغتِه الصحيحة: أي إنّ يوسفَ عليه السلام، بريءٌ، وأنّ امرأةَ العزيزِ هي المذنبة. ولم يَستطعِ العزيزُ أنْ يَحولَ دونَ انتشارِ الخبر، ولم تَستطعْ هي أنْ تُسَوِّقَهُ بالصورةِ المعكوسة.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى، على لسانهن: **﴿إِنَّا لَنَرَاهَا﴾**.

وهو تعبيرٌ مجازي للإفادةِ عنِ الرؤيةِ القلبية، وليستِ البَصَرِيّة، وتُستعملُ في اللغةِ العربية، للدلالةِ على استقرارِ اليقينِ لدى القائلِ بصحةِ مَقُولته، وإيرادُها يكونُ أَبْلَغَ في التعبيرِ مِنْ عَدمِه.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - **للدلالة على أن لا سر يخفي على الناس، وخصوصاً في المسائل التي تتعلق بالشرف والعرض، أو مسائل الروابط العاطفية، وأن موضوع هذه المسائل بحد ذاته، يشكل عامل جذب وتحفيز للناس لتداوله، وبشغف شديد.**

٢ - **للدلالة على أن خطأ الشخص المشهور، أو المعروف، أو صاحب المكانة المرموقة في المجتمع، أو الذين تسلط عليهم الأضواء، فإن الألسن تضخمه بسرعة شديدة، ويصبح بسرعة فائقة جسيماً، يتلذذ الناس بمداورته فيما بينهم.**

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٢٦]

تنتقلُ بنا الآيةُ الكريمةُ أخي المؤمن إلى المشهدِ الخامسِ منَ الفصلِ الثالثِ مِنْ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، في زَخْمِ تصويريٍّ بديع، تَصْلُح مَعَه الآيةُ لتكونَ وَحدَها، قِصةً كاملةً زاخِرةً بالأَحداث، فيها الحركةُ والتفصيل، والتصويرُ لحالِ النفسِ البشرية، وتَقَلُّباتِها في تَفاعُلِها مَع الأحداثِ، وسَنُحاوِلُ ٱستخلاصَ ما جاءَ فيها من قواعدِ عِلْمِ النفسِ، ما تَيَسَّرَ لنا.

يقولُ الله تعالى: ﴿فلَما سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنّ أَرْسلَتْ إِليهن﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفةُ الأولى: في ٱفتتاحِ الآيةِ بكلمةِ ﴿فلما﴾ وفي هذا ربطٌ مُحْكَمٌ للسِياقِ معَ الآيةِ السابقة، التي ٱفتَتَحَتْ فَصلاً جديداً، تَوْطِئَةً لِتفاعُلِ حَدَثِ المراودةِ على مستوى المدينةِ بكامِلها، فنتهيَّأُ بذلك، للتعرُّفِ إلى رَدّةِ فِعلِ ٱمرأةِ العزيز، على ما حَصَلَ مِنْ حديثٍ في المدينةِ بينَ النِّسوة.

اللطيفةُ الثانية: في قولِهِ تعالى ﴿فلمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنّ﴾ وفي هذا إعلامٌ ضِمنيٌّ لنا، لنوعِ العلاقةِ التي تَسودُ بينَ ٱمرأةِ العزيز، أو السيدةِ الأُولى في المدينة، وبقية نساءِ المدينة، خصوصاً أهلَ الطبقةِ الراقيةِ فيها.

فالمَكْرُ هو الخِداعُ أصلاً، ويأتي بمعنى الإخفاء، وهنا جاء بمعنى سوءِ المقَالةِ والاغتياب. ولم يأْتِ التعبيرُ على لسانِها، بل هو لسانُ حَالِها، يُعْلِمُنا بهِ الله تعالى.

وبكلمةٍ واحدةٍ، نفهمُ منها ما يلي:

أنّ حالَ التوترِ سائدةٌ بينَ الطرفين. والأَسبابُ عديدةٌ تتكررُ في كلِ الأَزمان: فكلُّ واحدةٍ تتمنّى أنْ تكونَ مكانَها، وهي تُريدُ أَنْ تحتفظَ بمكانِها، والإنسانُ جُبِلَ على مُقارنةِ نفسِه بالآخرين، ومراقبةِ الآخر، إن كانَ خَصْمَه، وتَتَبُّعِ عَثراتِه، ولا يُهَذِّبُ هذه النّوازعَ إلا الدِّينُ القويم.

ونفهمُ أنهُنّ يتربّصْنَ بها، حتى إذا ما سَنَحَتْ لهُنّ الفرصةُ بسَمَاعِهنّ بهفوتِها، تَنادَيْنَ مُسْرِعاتٍ مجتمعاتٍ للائتمارِ بها، لمنعِ ٱندثارِ أَخبارِ الحدثِ من جهةٍ أُولى، ولإشفاءِ غليلِهنّ بالتشَفيّ بالحديثِ في مادةِ خِصْبَةٍ من جهة ثانية وهي فرصةٌ لا تُسْنَحُ كلّ يَوم.

ونفهمُ أَنها تَهْتَمُّ لِسَمَاعِ ما تقولُ النُسْوة وتتفاعلُ معه: فهي لم تُهْمِلْ خبرَ ٱجْتَماعِهنّ، بل أَوْلَتْهُ أَبلغَ عنايةٍ. وسنْعلَمُ أنه أَجّجَ غَضَبَها ودَفَعها إِلى إِعمالِ فكرِها مِنْ جديد.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**أَرسَلَتْ إِليهن**﴾.

إشارةٌ ضِمنيةٌ أُخرى، للتعبيرِ عن تَفَاعُلها السريعِ بصورةٍ إِيجابية، مَعَ خبرِ ٱجتماعِهن، وقد كانَ بإمكانِها أنْ تَتَفَاعَلَ سَلْباً، بأنْ تنطويَ على نفسِها، وتَمْتنِعُ عنِ التواصُلِ مَعَهُنّ، بل أَنْ تَمْنَعُهنّ مِنَ المجيءِ إِليها، وهي ذاتُ سُلْطةٍ ومكانةٍ بإمكانِها ٱستعمالُها.

إلا أنها عادَتْ لأَستعمالِ ذكائِها القويّ جداً، وسُرعةِ بديهتها، وحضورِ ذِهنِها، مُضيفةً إِليها هِمَّةً عاليةً بالمجابهةِ والتحدّي، دونَ تَسَرُّعٍ أَوِ ٱنفعال، بل بهدوءٍ وتخطيط، وهذه صفاتٌ لا يَتمَتّعُ بها كثيرٌ من الناس: التّدبيرُ والتخطيطُ المُحْكَمُ، معَ ضبطِ الأَعصاب.

فهي لم تُظْهِرِ العَدَاءَ لهُنّ، رُغْمَ شِدّةِ غَضَبِها عليهن، لضمانِ تَنفيذِ خُطّتِها، وذلك بٱستدارجهنّ إلى حيثُ تُريد، فكانَ أَنْ أَرْسَلَتْ إِليهِنّ.

اللطيفة الرابعة: في قولِه تعالى: **﴿أَرْسَلَتْ إِليهن﴾**.

لقد ٱنتهى الإِعلامُ حولَ هذا الأمرِ بهاتينِ الكلمِتين.

من جديد، نَجِدُ أنّ النّصّ القرآنيّ يَسْمَحُ لنا بإِيجازِه، بالتدخُّلِ الشخصيّ لربطِ الأَحداث، فجاءَتِ العِبارةُ عامةً، تَحْمِلُ فَوْرَ سَمَاعِها أو قِراءَتها، إحتمالاتٍ عدّة، دون جَزْم:

- فقد تكونُ أَرْسَلَتْ إِليهن دعوةً لزيارةِ تَسَامُرٍ وَتَنادُمٍ عادية.
- وقد تكونُ أرْسَلَتْ إِليهنّ كِتابَ عِتاب.
- وقد تكونُ أرسَلَتْ إِليهنّ أُعطيةً لكفّ أَلْسِنَتِهِنّ عنها.

وتَعَدُّدُ الاَحتمالاتِ دونَ جوابٍ مباشر، يحفِّزُنَا على الاَنشدادِ لمتابعةِ سيرِ أحداثِ القصة. فإذا بتتمةِ الآيةِ تُوَجِّهُنا إلى تثبيتِ الاَحتمالِ الأول وهو أنها أَرَسَلَتْ إِليهنّ تدعوهن. وإلغاءِ الاَحتمالاتِ الأُخرى، في حركةٍ سريعةٍ جداً لا تَتَجاوَزُ جُزْءاً مِنَ الثانية، تَتَكَرّرُ مَعَنا آلافَ المرات، في حياتِنا اليومية، بينَ نصبِ الاَحتمالات، والاَختيارِ بينَها، وتثبيتِ أَفْضَلِها، وإِقصاءِ الأُخرى. وهذه العمليةُ هي في الحقيقة، رَمْزُ الوعي والإِدراكِ عِنْدَنا.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنّ مُتّكأً﴾**.

في هذا الشّطْرِ مِنَ الآية، تنفيذٌ للمرحلةِ الثانيةِ مِنْ خُطةِ ٱمرأةِ العزيزِ، فإذا بنا نفهم:

أَنّ الدعوةَ في ظاهرِها مُسَالِمة، بل وُديةٌ تَقَرُّبِيّة.

وأَنّ النّسْوةَ لَبّيْنَ الدّعْوَةَ، رُغْمَ ما قد يَعْترينا مِنَ ٱستغراب: هُنَّ يتحدّثْنَ عنها

بالسُّوء، فإذا بها تَدْعُوهُنّ لزيارةٍ وُدّية. الدعوةُ مُسْتَغرَبة، وتلبيتُها أيضاً مُسْتَغرَبة. لكننا نُدْرِكُ أنّ فِطْنَةَ وذَكاءَ ٱمرأةِ العزيز، بالإضافةِ إلى مكانتِها السُلْطَوية، تُحَوِّلُ الدعوةَ إلى أمرٍ بالحضورِ، ونفهمُ مِنْ تعبيرِ القرآن بإعدادِ المُتّكَأ، أنها ٱتخَذَتْ إجراءً ٱستثنائياً لأجلِ إطالةِ أَمرِ الزيارة، وذلك بالقيامِ بالأعمالِ الماديةِ الدالةِ على وُجوبِ الجلوسِ، مَعَ تحضيرِ النفسِ على المُكُوث، وهذه بعضٌ مِنْ أدواتِ الحربِ النفسيةِ الخفية، غير المُعْلَنَة، التي يَعتمِدُها الحَاذِقُ كَعُنْصرٍ مِنْ عَناصِرِ خُطّتِه، للوصولِ إلى هُدْنَةٍ بمساعدةِ خَصْمِه، بما يكونُ قد تَحَضرَ في نفسِه مِنْ شُعورٍ بالطُّمأْنينة، أو الاستسلام، أو الثقةِ أو الآنبهارِ أوِ الخَشْية.

والتاريخُ زاخرٌ بالأَمْثِلَة، كحال الملوكِ الذين يَضَعُونَ مجالسَهم في نهايةِ مسارٍ طويلٍ زاخرٍ بالأعاجيبِ والفنون، يَسيرُ فيه الزائرُ فتمتلىءُ نفسُه بالرّهْبَةِ والآنبهار، حتى إذا ما وَصَل إلى المَلْكِ، كانَتْ صورتُه في نفسِه مُتَضَخِّمَةً مُسْتَرْهَبَة.

أو كمثلِ حالِ رجلِ الأعمالِ الذي يُعْلِي مكتبَه وكُرسِيّه، ويُخْفِضُ كرسيّ الجالس قُبالَته، بهدفِ التأثيرِ النفسيِّ عليه، لإشعارِهِ بالدُّونِيّة، والأمثلة مِنْ واقعِ الحياةِ كثيرة.

أمّا ما فعلتْهُ ٱمرأةُ العزيزِ مِنَ المؤثراتِ النفسية:

فهي أنها دَعتِ النِّسْوَةَ في حَمْأَةِ حديثِهنَّ السيىءِ عنها.

وجعلتْ لكلٍ واحدةٍ منهن مجلساً وثيراً، تَضَعُ فيه مَخَاوِفَها وشُكُوكَها في نوايا سيدةِ القَصْرِ حِيالَها.

مما يُشْعِرُها بالطُمأْنينة، وتصبحُ أكْثَر قابليةً لآستيعابِ الحدثِ اللاحِقِ، كما خطّطَتِ ٱمرأةُ العزيز.

بل تُصْبح على استعدادٍ للتعاطُفِ بعدَ نَبْذِ الكيدِ والمَكْرِ الذي سَمِعْنَا به في أولِ الآيةِ.

فتنقلبُ بذلك المشاعرُ من عَداءٍ، وتَوَجُّسٍ وشكوكٍ، إلى تَسامُحٍ، فتَعاطُفٍ فانحياز.

ولا يُفوتُنا أَنْ نُشَير إلى أَنّ الاتكاءَ بحدِ ذاتِه، في غير حالةِ الاسترخاءِ المطلوبِ للراحةِ منْ أثرِ التعبِ والعَناءِ، أو التحضيرِ للنومِ مثلاً، وفي غيرِ خصوصيةِ الإنسان في مَهْجَعِه، إنَّ الاتكاءَ عند الأكل مذمومٌ في الشرعِ، لأنه مِنْ عادةِ المُتْرَفِين والمتكبرين، ولذلك نُهِيَ عنه، فقد أَخرجَ ابنُ أبي شَيْبَةَ عَنْ جابرٍ رضي الله تعالى عنه عن النبيِّ ﷺ، أنه نَهىَ أنْ يأْكلَ الرجلُ بشِمَالهِ وأنْ يأكلَ مُتكئاً.

[رقم الحلقة على القرص المدمج ٢٧]

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وآتتْ كُلّ واحدةٍ مِنهنّ سِكّيناً﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في إظهارِ الأهمِ، وإخفاءِ مَا لا يَهُمُّ القارىءَ والمستمعَ معرفتهُ، مما أعْطتُهنّ مَعَ السّكَاكِين، ففي مثلِ هذه الاجتماعات، يُقَدَّمُ طعامٌ أَو شَرابٌ.

ولعلّها قَدّمَتْ لهنّ فاكهةً، أو طعاماً يَحتاجُ وجودَ السِّكّين لِتقطيعِه، في حين أن الواحدَ منا يرى أن الأهمَّ فيما يقدَّمُ إليه حَبَّةُ الفاكهةِ، حيث يُلْقِي باهتمامهِ وتركيزِه عليها، ويكونُ وجودُ السكينِ ثانوياً، لا يُلْقِي إليه بالاً، وكأنه تحصيلُ حَاصِلٍ، جاءتِ الآيةُ الكريمةُ بصيغتِها، لِتَقْلُبَ معادلةَ الاهتماماتِ في أسماعِنا وأَنظارِنا، تحضيراً لما سيكونُ مِنهُنّ في لاحقِ الآيات.

اللطيفة الثانية: في استمرارِ تَتَبُّعِنا لامرأة العزيزِ في خُطّتِها، وتأَمُّلنِا لقوةِ ذَكائِها وفَهمِها العميقِ لأَحوالِ النفسِ الإنسانية، فنفهمُ في هذا البند منْ خُطتها:

أَنها جَعلتْ منْ وُجودِ السّكاكينَ في أَيدي النّسوة، هدفاً في هذه المرحلة مِنَ الخُطّة، فأَعْمَلتْ مبدأ التّورِية، بأنْ قَدّمَتْ لهُنّ طعاماً لا يُؤكَلُ إلا بآستعمالِ السكين، ما يجعلُ وجودَه مُبَرّراً دونَ إثارةِ الشكوك.

ونفهمُ أَنها رَمَتْ من خلالِ وَضْعِ السكاكين بينَ أيديهن، إلى تحويلِ الواقعةِ المُنتَظَرةِ، إثْرَ ظُهورِ يوسفَ عليه السلام، وخُروجِهِ عليهنَّ إلى واقعٍ ماديٍّ ملموس، يَصْعُبُ عليهنّ إنكارُه لاحقاً، ويُثْبِتُ تأثُرهُنّ الجَماعيّ بما تأَثّرَتْ به منفردة.

ونفهمُ أنها واثقةٌ تمامَ الثِقة، بما ستكونُ عليه رَدّةُ فِعلهِنّ عِنْدَ رُؤْيةِ يوسفَ عليه السلام، ومَعْرفتُها بتأثيرِ الآنبهار على الأَفعالِ، وضَياعِ الرُّشْدِ حالَ الانبهار.

اللطيفة الثالثة: في ملاحظةِ الآنتقالِ من العامِ إلى الخاص، في تَدرُّجٍ تَصْويريٍّ بديع: فهي أَرْسَلَتْ إليهن: الصورةُ عامة؛ ثم أَعْتَدَتْ لهُنَّ مُتَّكأ: هنا أيضاً: الصورةُ عامة: ثم آتتَ كُلَّ واحدةٍ مِنْهُنّ سِكِّيناً: الصورةُ خاصةٌ بكلِ واحدةٍ منهن، وهذا مُنْتَهى التصوير، لأنه بعد ذلك، سنعودُ إلى العامّ فيما يلي مِنَ الآية.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**وقالت آخرُجْ عليهن فلمّا رأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أَيدِيَهُنّ وقُلْنَ حَاشَ لله ما هذا بَشَراً إنْ هذا إلاّ مَلَكٌ كريم**﴾.

في هذا الشّطْرِ منَ الآية، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأولى: في بلوغ التهيئةِ النفسيةِ أَقْصَاها، عندما وَصَلتْ إلى المرحلةِ الأخيرة مِنْ خُطّتِها بأَن قالتِ: آخْرُجْ عَليهنّ. ففي هذا اللحظة، كانَتْ هي في أَعْلَى درجاتِ الآنفعال لأنها بذلت جُهداً كبيراً في إِعدادِ الخُطة، ثُم في تنفيذها، ثم في ضَبْطِ أَعصابِها وإِخفائه حتى آستكمالِ كافةِ المراحلِ الأُولى. وعند خروجهِ عليهن، انتهى دورُها في الحَشْدِ العاطفي، وبدأَتْ نفسُها بالعودةِ

التدريجيةِ إلى الهدوء. العكسُ في ذلك، حَصَلَ مَعَ النِّسْوةِ اللواتي كُنّ في حالِ ٱسترخاءٍ وهدوءٍ إلى أنْ خَرَجَ عليهِنّ يوسفُ عليه السلام بِطَلّةٍ بهية، وجمالٍ فائقٍ أَخّاذ، فإذا بهنّ مجتمعات، يتفاعَلْنَ مَعَ الحَدَث، ويتبدّلُ الهدوءُ لديهنَ ٱنفعالاً وتوتراً، يَصِلُ إلى حَدِّ الإرباك.

وما أَسْرَعَ ما تتبدَّلُ الحالُ العَاطِفيةُ عندَ الإنسان، من هدوءٍ إلى ٱنفعالٍ وهياج، ومِنْ سَكينةٍ وَوَقار، إلى حركةٍ ونَشاط.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ مَجْرياتِ الحدثِ بدِقة:

فالنِّسوةُ لا يَعْرِفْنَ يوسفَ عليه السلام، ولم يَرَيْنَهُ أبداً، ولم يَسْمَعْنَ بتأثيرِه الأَخّاذِ على مَنْ يَراه، فهي لا تُظْهِرهُ على الملأ.

والمعتادُ في مثلِ هذه الاجتماعات، أَنْ يدور الخَدَمُ على الزائرين لخِدْمتهم، دونَ أَنْ يلتفتَ الزائرُ إلى شخصِ الخادمِ الذي يَبْقَى وَجْهُهُ مُبْهَماً، حتى وإِنْ رآهُ الزائر، فإنه يَمْحُوهُ مِنْ ذَاكرتِه مباشرة.

إلا أنه في وَضْعِ يوسفَ عليه السلام، لم يَكُنْ مرورُه حَدَثاً عابراً، بل إِنّ مجردَ ظهورِهِ أَصْبَحَ الحدَث كُلَّه: فانتهتْ كلُّ الٱنشغالاتِ والأَحاديثِ الجانبيةِ، الهامةِ والهامشِية، وٱنتَهى الٱهتمامُ بالطعام، فأَخذَ الألبابَ، وسرقَ الأنظار، وأذْهَبَ العقولَ، وأرْخَى الذُّهول.

وهذا الأَمر حدثَ معَ كلِّ النِّسوة، مما يؤكِّدُ الإجماعَ على أَنّ تأثيرَه على الحاضراتِ كان مُوازِياً ليقينِ ٱمرأةِ العزيزِ بحُصولِ هذا الأَثَر.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفنا عندَ قولِ الله تعالى: ﴿**وقَطّعْنَ أيديَهن**﴾.

وفي هذا إشارةٌ إلى حالٍ من أَحوالِ العقلِ البشريِّ في أَدائه لمهامِّه:

فإِنّ العقلَ حالَ اليَقَظةِ والحضور، يكونُ مُسيطراً على كلِّ الحركاتِ

والأفعالِ والأقوال، التي تَصْدُرُ عنِ الجسم، ويُوافِقُ على صدورِ ما يَراهُ مُناسباً، لحفظِ الجسم، وحِفْظِ الحياة، والمحافظة على الانْضباطِ ومُراعاةِ أَحكام تَعامُلِ الناسِ فيما بينهم، والخضوعِ لضوابطِ المجتمع، والانْتباهِ للأعراف والتقاليد، والظهورِ إلى العلن بمظهرٍ يتوافقُ مَعَ السلوكِ العامِ للمجموعةِ البشرية، التي ينتمي إليها، وفي حالِ ثَباتِ الإيمان، الخضوعَ لأحكامِ الشرعِ في الأوامرِ والنواهي، وملاحظةِ الحلالِ والحرام، ومُقاربةِ الخيرِ واجتنابِ الشر.

ويَمُرُّ العَقْلُ أحياناً بحالاتٍ يَذْهَلُ فيها عَنْ هذه الضوابط، دون أن تفارقه حَالَ اليَقظَةِ والحضور، خصوصاً عندَ الدهشةِ والانبهار، فيصيبُه نوعٌ مِنَ الجمودِ والارْتباك، حتى درجة الشَللِ المؤقّت، فلا يَعودُ مالكاً لكلِ حركةٍ أو سَكنَة، ويمكنُ للمراكزِ العصبيةِ السُفْلى أَنْ تتفلّتَ مِنْ سيطرتِه فتأمَر الأَطرافَ بأَوامرَ قد لا تكونُ خاضعةً لما ذَكَرْنا سابقاً مِنْ ضوابطِ الحفظِ والمراعاة.

وهذا ما حَصَل معَ النِّسْوةِ حين رَأيْنَ يوسفَ عليه السلام: تاهتِ العقول حينَ أَخذَها جَمالُه وبهاؤه، فأَعملَتْ أَيْدِيهِنّ والسكاكينُ فيها تجريحاً بكلِ ما وَصَلَتْ إليه بما فيها أَيديهِن.

اللطيفة الرابعة: في إعلامِنا بمعرفةِ المجتمعِ الفرعوني، زَمَنَ يوسفَ عليه السلام، بالله جَلّ جلالُه، ومعرفتهِ بوجوده، ووجودِ الملائكة. إلا أَنه لم يَكُنْ مجتمعاً مؤمناً مُوَحِّداً بالله عزّ وجل، على مَا سَنَرى في لاحقِ الآياتِ مِنْ دعوةِ يوسفَ عليه السلام، لمُساكِنيه إلى عبادةِ الله الواحِد الأحد.

اللطيفة الخامسة: في صيغةِ المبالغة التي تَجلّتْ في أَبلغِ صورِها في كيفيةِ اجتهادِ النِّسْوةِ في وصفِ جمالِ يوسفَ عليه السلام. فلم تَقُلِ النِّسْوةِ: إنه جميلٌ..

بل لم يَقُلن: إنه أجملُ ما رأتْ أعينُنا، بل تجاوزن الحقيقةِ إلى المجَاز، وخَلطن الحاضرَ بالخيال، فقلن: ﴿**ما هذا بَشراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على إستعار حالة الصراع بين النسوة حال نشوبها مع اعتماد كل وسائل المجابهة والدفاع، سواء الذهنية، أو العقلية، أو العاطفية، أو الكلامية، أو العملية الفعلية.

٢ - للدلالة على أن المرأة سريعة الغضب، سريعة الأنفعال وسريعة التصرف، إذا ما عقدت العزم على أمرٍ، فأنها لا تتوانى عن الإسراع في تنفيذه.

٣ - للدلالة على سرعة بديهة المرأة وقدرتها على الحكم على الأمور وإنزالها منازلها الصحيحة، وذلك بالإشارة إلى اعترافهن بقوة تأثير جمال يوسف عليه السلام على امرأة العزيز.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج ٢٨]

نصلُ معاً أخي المؤمن مَعَ هذه الآية إلى الأعترافِ الصريح الكاملِ مِنِ أمرأةِ العزيز بما كان مِنها مِن مُراوَدَةِ يوسفَ عليه السلام عن نفسِه، وذلك بتصريح علني على مَسْمَعِ الملأ، إلا أنها ما أَدْلَتْ بأعترافِها توبةً وندماً وأستغفاراً، بل لتُعْلِنَ عَنْ إصرارِها ومُثابَرتِها على المراوَدَةِ، بعد أَنْ أوقعتِ النِّسوةَ فيما نَصَبَتْ لهنّ مِنْ فخ الذُّهولِ والأنبهارِ بجمالِ يوسفَ عليه السلام، وثَبَّتَتْ عليهنّ ذلكَ بالدليلِ الماديِّ بأَذِيتِهنّ لأنفسِهنّ بالسكاكين، وجَعلتْ منهنّ، طائعاتٍ أو مجبرات، سنداً لها في مَطْلَبِها.

يقولُ الله تعالى: **﴿قالتْ فَذلِكُنَّ الذي لمتنني فيه﴾**.

في هذا الشّطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأوَلى: في كلمةِ ﴿فذلِكُنّ﴾، وهي تُستعملُ أصلاً للإشارةِ للبعيد، إلا أنها تستعملُ أيضاً للقريبِ حالَ التعظيمِ والتمجيد، كمثِلِ قولك: ذلك البطلُ العتيد، وهو أمَامَك.

نشيرُ إلى هذه اللطيفة في بداية الآية، لكي نصلَ إلى حقيقةِ شعورِ امرأةِ العزيزِ حِيالَ يوسف عليه السلام في هذه اللحظات: فبعدَ تصاعُدِ حُبِّها له، ووصولهِ الذُّروةَ حينَ رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِه، وبعدَ انْطِفاءِ وَهْجِهِ عندَ المواجهةِ أمامَ زوجها، وبعدَ تَخاذُلِ العزيزِ عنِ اتخاذِ إجراءٍ فوريٍّ حَاسِمٍ لتأديبها، مِمّا شَجَّعَها على الاستمرارِ في طريقِ الميلِ إلى يوسفَ وطلبه، ها هي ذي في هذه الآية، تعودُ فيتصاعدُ شُعورُها بالانجذابِ نحوَ يوسفَ عليه السلام، فتبدأُ حديثَها بإعلاءِ شَأنهِ أمامَهُنّ بقولِها: ﴿فذلِكُنّ الذي لمتنني فيه﴾.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا على مَدْلُولاتِ قولِها: ﴿فذلكُنّ الذي لمتنني فيه﴾ وكأنّها تقول: الآن وقد مَلّكْتُنَّنِي الدليلَ الماديّ على تَأثُرِكُنّ بجمالهِ ووقوعِكُنّ تحتَ تأثيرِ حُسْنِه، فلقد أَعطيتُنّنِي صَكَّ البراءة، وأَثبتُنَّ أَنّ كُلّ واحدةٍ منكنّ لو كانَتْ مكاني، لكانَتْ فَعَلَت مِثلي، فأيُّ فضلٍ لكُنَ عليّ؟ وما لزومُ مجالسِكُنَّ للتشهيرِ بي؟ وقد فعلتنّ أَشَدّ مِمّا فَعَلْت: فإنّ مجردَ رؤيتُكِنّ له مرةً واحدةٍ، أَذْهَبَتْ عُقولَكُنّ، فآذيتُنّ أنفسَكُنَّ بالسَكاكين، فكيفَ بمن تَراهُ كلّ يومٍ وفي كلِّ ساعة؟

اللطيفة الثالثة: فيما نرى مِنْ تَحَوُّلٍ في موقفِها عمّا كانَتْ عليه حينَ دافعت عن نفسها أَمامَ زَوْجِها عندَ الباب: فهناك كانَتْ تُحاوِلُ تبرئةَ نفسِها بالتنزُّهِ عنِ المراودةِ وإظهارِ يوسفَ عليه السلام، بصورةٍ مقيتةٍ مكروهةٍ بأنه هو الذي أَرادَ بها سوءاً.

أمّا هنا، فهي تحاولُ تبرئةَ نفسِها بإثباتِ المراودة، وذلك بٱلتماسِ العُذرِ بحتميةِ حصولِ المراودةِ، على مسمعٍ منَ النساءِ، وفي مجتمعِ النساءِ، وبالمقابل، إظهارِ يوسَف عليه السلام، بصورةٍ حسنةٍ وعالية، وكأنها تتباهَى به أَمامَ النِساء، أَنه حُظْوَتُها وَتحْتَ إِمْرَتِها.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ ٱمرأةِ العزيز: **﴿ولقد راوَدْتُه عَنْ نفسِه فٱستعصم﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ٱبتداءِ العبارةِ بكلمة **﴿ولقد﴾** وفيه تأكيدٌ جازمٌ على حصولِ المراودةِ منها، وٱعترافٌ صريحٌ دونَ خَشْيَة، بل بَصلفٍ وإِصرارٍ، نُسَمِّيه في لُغَتِنا وَقَاحَة، بأنها كانَتْ داعيةً إِلى الفَاحِشة.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لظهورِ معالمَ جديدةٍ في نفسيةِ ٱمرأةِ العزيز: فبعد الذي عَهِدْناه فيها منْ ذكاءٍ وحُنكةٍ وتخطيط، نراها في هذه الآية، تَفْقِدُ صَبْرَها وحِذْرَهَا، وتَعترِفُ أَمامَ جمعٍ منَ النساءِ تَعْرِفُ من قَبْلُ أَنهُنَّ يَتربَّصْنَ بها، وأَن كُلّ واحدةٍ منهن قد تكونُ شاهداً عليها لاحقاً، فيما يُشْبِهُ الانْهيارَ الكاملَ في دفاعها، في ظِلِّ تَصاعُدِ تَعَلُّقِها بيوسفَ عليه السلام، من جديد، وهي توشِكُ أَنْ تَصِلَ للمرةِ الثانيةِ إِلى مرحلةِ اللارجوع ذاتِها في المراودة، ولكنْ هذه المرة، دونَ حذر، ومن غيرِ إِغلاقِ أَبواب، وعلى مرآىَ ومسمعِ جَمْعٍ غفيرٍ مِن النِّساء.

اللطيفة الثالثة: لغوية، في سَماعِنا لكلمةِ: **﴿فٱسْتَعْصِم﴾**.

أي: طلبَ العِصمَة وتَمسَّكَ بها وعَصَاني، والاستعصامُ بناءُ مُبالغة، يَدُلُّ على الامتناعِ البليغِ والتحفُّظِ الشديد، وكأنها تقصدُ القول: لقد مانَعَ مُمَانعةً شديدة.

والحقيقةُ أنّ مُمَانَعَتُهُ كانَتْ على مستويين: قولي عندما قال: معاذَ الله. وفعلي، عندما فَرَّ منها بٱتجاهِ الباب.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ ٱمرأةِ العزيزِ: **﴿ولئن لم يَفعَلْ ما آمرُهُ ليُسْجَنَنَّ وليكونا مِنَ الصّاغِرين﴾**.

في هذا الشَطْرِ الأَخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تصاعدِ الوتيرةِ بصورةٍ تدريجية، في كلامِ ٱمرأةِ العزيز، مما يُتَرْجِمُ تصاعُدَ الحالِ النفسيةِ لديها، حتى بلوغِ الذُّورة، فقد بدأَتْ كلامَها في الآيةِ الكريمةِ على وتيرةٍ هادئة، ولكنْ واثقةٌ مطمئنةٌ، حين أوجَدَتْ لنفسِها العُذْرَ في حُبِّها ليوسفَ عليه السلام، ثم تَصاعَدَت هذه الوتيرة عند ٱعترافِها العَلنيِّ بمراودتِه مُترافقةً مَعَ تنامي شعورِها بالٱنجذابِ من جديدٍ نحو يوسفَ عليه السلام، وصولاً إلى التهديدِ ليوسفَ في حالِ عدمِ الٱنصياع، بعد أن بَلَغَتْ مُستوى الإغلاقِ المُطْبِق، إذْ لم تَعُدْ ترى بعينَيْها ولا أَمامَ-نَاظِرَيْها إلا تلبيةَ رَغَباتِها.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ كلمةِ: **﴿لَيُسْجَنَن﴾**

إِننا نفهمُ توعُدَها له بالسَجنِ فيما لو كانَ مذنباً، أو فيما لو ثَبَتَتْ عليه تُهْمَةُ حتى ولو كانَ بريئاً.

أمّا أنْ تعترِفَ بلسانِها أنها هي المُذْنبةِ، ثم تَدْعوَهُ إلى المعصيةِ وتُهَدِّدَهُ بالسَجنِ في حالِ رَفْضِه، فإنه الذُروةُ في الظُّلم.

وغريبٌ جداً أنْ نَسْمَعَ منها تهديداً بالسجن. فالذي يَسْجُنُ هو سَيِّدُها، وكأنها تقولُ له: لئن لم تأْتِ بالفاحشةِ معي، فيسجُنُكَ زوجي؟! أيُ ٱنحدارِ هذا الذي وصلَتْ إليه.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ مقارنةِ حالِها يومَ حادثةِ القَصْر، وحالَها في هذه الآية.

ففي الحالةِ الأُولى: تجمَّلت وتهيّأَتْ وتودّدَتْ وَدَعتْهُ بعدَ ذلك إلى نفسِها منتظرةً منه التجاوُبَ، فما نالتْ منه شيئاً.

وفي الحالةِ الثانية: لم تتهيأْ، ولم تتودَّدْ، بل لم تلتفِتْ إلى ٱحتمالِ تجاوُبِهِ أو عَدَمِهِ، وقامَتْ بتوجيهِ الأوامرِ السُلْطَويّةِ العُليا إليه، ثم قامَتْ بتهديدِه.

اللطيفة الرابعة: في ٱستكمالِ المقارنةِ بينَ أَقْوالِها في الموقفين:

ففي الموقفِ الأول: حين كانَتْ موضَع الإِرباكِ والتبريرِ بينَ يدي العزيزِ قالت: ﴿**إلاّ أنْ يُسْجَنَ أو عَذابٌ أليم**﴾[١].

وفي الموقفِ الثاني: قالت: ﴿**ليُسْجَنَنّ وليكونا مِنَ الصّاغِرين**﴾.

فنجدُ أنَّ الموقفَ الأولَ كان أَخَفّ وَطْأَةً، رُغْمَ أَنها كانت لا تزالُ في موقعِ المدِّعي القوي، فقد قَدّمَتْ خِيارَين، أمّا في الموقفِ الثاني، فٱستعملتْ صيغةَ الدمجِ بينَ العقوبات، والتأكيدِ عليها مِنْ طريقين:

الأول: بإدخالِ نونِ التوكيد.

الثاني: بإثقالِ النونِ في السَجنِ بقولها: ﴿**ليُسْجَنَنّ**﴾.

وفي هذا ٱستمرارٌ للحربِ النفسيةِ التي تَشنُّها على يوسفَ عليه السلام عسى أنْ يَضْعُفَ، ويُعطيَ تحتَ التهديد، ما لم يُعْطِ تَحتَ الإِغراء.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٢٥].

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الصالح في ذاته، المسالم المتجنب للمشاكل، ليس بمنأى على لحاق المشاكل به، تلبساً وافتراء.

٢ - للدلالة على جرأة الإنسان حين تعمى بصيرته، على التبعية العمياء لنزواته وشهواته، واستعداده لإيقاع الظلم بالآخرين فيما لو لم ينفذوا له مراده.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٢٩]

تقتربُ بنا الآيةُ الكريمةُ أخي المؤمن، مِنْ نهايةِ مَشْهدِ مجلسِ النّسْوةِ، في هذا الفَصْلِ مِنْ قصةِ يوسفَ عليه السلام، وقد رأَيْنا مَعَ الآية السابقة، جُرأةَ ٱمرأةِ العزيزِ في الإِفصاحِ علناً عَنْ تَولُّهِهَا بيوسفَ عليهِ السلام، وٱتّباعِها أُسلوبَ الأَوامِرِ السُلْطَويةَ عليه، لإجبارِه على طَاعتِها، وتهديدِهِ بالسجْنِ والصَّغَار في حالِ عدمِ الإِجابةِ والتلبية. فما كانَ جوابُ يوسفَ عليه السلام؟

يقولُ الله تعالى: **﴿قال ربِّ السِّجْنُ أَحبُّ إِليّ مما يَدْعُونَني إِليه﴾**

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في صيغةِ جوابِ يوسفَ عليه السلام: النّسْوَةُ يوآزِرْنَ ٱمرأَةَ العزيزِ في طَلبِها، فإذا به يصْبحُ في مواجهةِ جمعٍ مِنَ النّساءِ، بَدَلَ أَنْ يكونَ في مواجهة ٱمرأةٍ واحدة، فلم يتقوَ بقُوّتهِ، وٱلتجأَ إِلى الله تعالى مناجياً رَبَّه، ولم يَلْتَفِتْ إِليهنّ لمُجَابَهَتِهِنّ، فلقد أُعلنت براءَتُهُ قَبْلاً، بَعْدَ رَفْضِهِ المراودة. ولم يَجِدْ

لدى العزيزِ مِنَ الغَيْرةِ ما يُنْصِفه، ولن يَجَدَ هذه المرةَ أيضاً، ما يُنْجِده، فكانَ جوابهُ أنِ ٱختارَ ما تُهَدِّدُهُ به، مُفَضِّلاً إِيَّاهُ على الرُّضوخِ لها.

اللطيفة الثانية: في جماليةِ الأُسلوبِ القرآني، في الردِّ على مَطْلَبِهِنّ، فلم يَذْكُرْ يوسفُ عليه السلام ما يَطْلُبْنَهُ، أي ٱقتراف فاحشةِ الزنا، وٱكْتفى بالتعريض فقال: ﴿**ما يَدْعُونني إِليه**﴾، وفي هذا تعليمٌ لنا في ٱنتخابِ أَلْفَاظِنا، وتَخَيُّرِ أَكْثَرِها أَدَباً وَلَباقَة.

اللطيفة الثالثة: في العِبرةِ التي نَأْخُذُها مِن حكمةِ يوسفَ عليه السلام، وقد أُوتَي منها باليقين القَطْعِيِّ في نَصِّ القرآن.

ففي الموقفِ الذي وُجِدَ فيه يوسفُ عليه السلام، كانتِ الخياراتُ صعبةً ومؤلمة:

فأَيٌّ مِنّا يختارُ أَنْ يُسْجَنَ ظُلْماً وعُدواناً، وهو يَعْرِفُ ذلك، وظَالِمهُ يَعْرِفُ ذلك، والحَكَمُ يَعْرِفُ ذلك، وسجانه يَعْرِفُ ذلك، إلا إِذا كان الخِيارُ الآخرُ أَشدّ مرارةً وَرَهْبَةً؟

فيما امرأة العزيز تَتَكَلَّمُ بلهجةِ الواثقة من تنفيذِ وَعِيدِها، وكأنها تُدَبِّرُ خُطَّةً أُخرى مُحْكَمةً تَضْمَنُ بها إِدْخَالَه السِّجْن، ولا يُعْوِزُهَا الكِذبُ أَو الحِيلة..

من هنا نَلْتَمِسُ القاعدةَ البشَريةَ الهامة، التي وَصَلَ إِليها يوسفُ عليه السلام، وأوصَلها إِلينا القرآنُ الكريم: حرمانُ النفسِ منْ بَعْضِ مُتَطَلَّباتِها، أَفضلُ مِنْ مَعْصَيةِ الله تعالى.

اللطيفة الرابعة: في تَأَمُّلِنا للحالِ النفسيةِ التي وَصَل إِليها يوسفُ عليه السلام، حين نَاجَى رَبّه: فقد بَلَغ مِنَ الضيِّقِ والحصرِ مَبْلَغاً يفوقُ المَدى الذي وصلَ إِليه وقْتَ مُراوَدَتِها الأُولى. فقد كانَ جوابُه في المرةِ الأُولى مقتضباً

بقوله: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾[١]، أَعقَبَهُ تصرُّفٌ ماديٌّ بمغادرةِ الغرفة، ولم تَكُنِ المراودةُ الأُولى مصحوبةً بالتهديدِ ولا بالوعيد، أمّا المُراودةُ الثانيةُ فقد حَصَلَتْ بعدَ شَحْنٍ نفسيٍّ شديد، وتمهيدٍ عملي واقعي بٱستجلاب نُصْرَةِ النِّسْوةِ، وتألُّبِهِنّ عليه، مَعَ مرارةِ تجربةِ تَخاذُلِ العزيز في الحكمِ في المرةِ السابقة. فإذا به مُحاصَرٌ من كُلِّ الجِهات:

➢ مِنْ جهةِ ٱمرأةِ العزيز، التي تُراوِدُهُ عَنْ نفسِه، بإلحاحٍ بالغ.

➢ ومِنْ جهة النِّسْوةِ اللواتي يُؤَيِّدْنَ ويُشَجِّعَنَ ٱمرأَةَ العزيز.

➢ ومِنْ جهةِ العزيزِ الذي لنْ يكونَ مَوْقِفُهُ أَفضلَ منَ الأَول.

➢ ومن جهةِ السِجْنِ الماثلِ أَمامَ نَاظِرَيْه.

إنه حقاً موقفٌ لا يَحْتَمِلُه كثيرٌ مِنَ الناس!

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: ﴿وإلا تَصْرِفْ عنّي كيدَهُنَّ أَصْبُ إِليهِنّ وأكُنْ مِنَ الجَاهِلين﴾.

في هذا الشَّطْرِ مِنَ الآيَة، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في إعلامِنا غيرَ المباشِر، بحصولِ تَحوُّلٍ أَكيدٍ في موقفِ النِّسْوَةِ مِنَ المسألة، بٱتجاهِ تأييدِ ٱمرأةِ العزيزِ في مَطْلَبها، وهي مسألةٌ خطيرة، نفهمُ منها ما يلي:

حصولُ إجماعٍ عن نُصْرَةِ الباطلِ عند تَحْولِ موقفِ المجتمعاتِ مِنْ رَفْضِ الباطِلِ إِلى تَأْييده..

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٢٣].

نَتبيَّنُ عُمْقَ فسادِ المجتمعِ الفِرعَونيِّ، حيثُ لم توجد اَمرأةٌ واحدةٌ رشيدةٌ مِنْ بين المجتمِعات تَرْدَعُهُنَّ عَنْ دَعْوتهنّ إلى البَاطِل.

ونَتبيّنُ مِنْ قولِ يوسفَ عليه السلام، إقْدام النسوةِ على إعمالِ الكيدِ في دَعْوَتِهن، أي التحايُلِ لتحسينِ صورةِ الباطلِ لترغيبهِ به.

اللطيفة الثانية: في عبارة: **﴿تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾** إشارةٌ لُغويةٌ جميلةٌ للتعبيرِ عن أفضلِ الحلولِ التي يَراها للتخلُّصِ منهن:

فهو لم يَطْلُبْ مِنَ الله تعالى أنْ يُبْعدَهُنّ عنه، وقد أَصْبَحنَ كثيراتٍ بعد أَنْ كانَتْ واحدة، وقد تلجأُ كلُّ واحدةٍ منهن بعدَ ذلك مَعَ بقاءِ الكيدِ لديها إلى محاولةِ إغوائهِ بطُرقِها الخاصة.

وهو لم يَطْلُبْ أنْ يُبْعِدَه عَنْهُن، لأنّ البُعْدَ الماديّ، لا يَغْنِي شيئاً إذا ما اَستمرّ التأثيرُ الفِكريُّ حاضراً.

فكانَ طلبهُ بأَنْ يَصْرِفَ الله تعالى عنه كَيْدَهُنَّ، أفضلَ ما يمكنُ أنْ يَطْلُبَهُ إنسانٌ وُجِدَ في مِثْلِ هذا الموقف.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ تحليل يوسفَ عليه السلام، لحال النفسِ البشريةِ عندَ تَعَرُّضِها المستمرّ لضغوطِ الغِوايةِ، فيما لو تُرِكَ لها أَنْ تتَفَاعَلَ مَعَ هذه الضغوط. وكانَ كلامهُ الموجزُ مُعَبِّراً عنْ آليةِ الوقوعِ في المعصية. نتوقَّفُ عندَها قليلاً، لأهميتِها القُصْوَى في مجتمعاتِنا على مَرِّ الزّمَان:

لَقَدْ غَرَسَ الله تعالى في الإنسانِ كمّاً هائلاً منَ الأَحاسيسِ والعواطفِ تُساعِدُه في إتمامِ مُهمَّتِهِ بالوِلايةِ في الأَرضِ والسِّيَادةِ على بقيةِ المخلوقاتِ فيها، وضبطِ التعاملِ مَع أَمثالِه مِنَ البَشَر، واَستمرارِ الحياةِ وحِفْظِ النوع، وجعلَ الله تَعالى لهذه العواطف ضوابطَ مُحْكَمَةٍ تَضْبِطُها وتَمْنَعُها مِنَ التَفَلُّتِ، لِما لَتَفَلُّتِها من آثارِ مُدَمِّرَةٍ للمجتمعِ الإنسانيّ.

وما ذاك إلا بٱلتزامِ أَحكامِ الله تعالى، فيما عَلَّمَ البشرَ بما أَرسلَ إِليهم مِنْ شَرائعَ ورُسُل.

عند هذا الباب، وقفَ الشيطانُ اللّعينُ لِينفُذَ إلى الإنسانِ بحضِّهِ على فَرْطِ العواطِفِ مِنْ عُقَالِها، وإرسالِ العِنانِ لها، مع ما نَعْرِفُه مِن ٱنصياعِ الجوارحِ لِهياجِ العَواطِف، ونختارُ مِن مجموعِ هذه التَفلُّتاتِ، مسألةً واحدةً فقط، تتوافَقُ مَعَ مَضْمونِ الآيةِ الكريمة، موضوعِ تأمُّلِنا اليوم، وهي مسألةُ خَطَرِ حُصولِ جُرْمِ الزنا:

فقد أَصبحَ معروفاً اليوم، أَنّ تَحَرُّكَ إفرازِ أَنواعٍ مخصوصةٍ مِنَ الهرُموناتِ في أجسامِنا، بما قَدَّرَ الله تعالى لها في أوقاتٍ مخصوصةٍ من حياتِنا، تبدأُ مَعَ البلوغ، وتمتدُّ طِيلةَ فترةِ الخُصوبة، تُتَرْجَمُ عملياً مَيْلاً إلى الجِنْسِ الآخر؛ هذه الهُرموناتُ، تُحرِّكُ النفسَ، فتتحركُ مَعَها العواطفُ التي سَبَقَ ذِكْرُها. هنا يبدأُ التفاعلُ ومعه يبدأُ الصِّراعُ بين نوازعِ الخيرِ المتمثلةِ بالضوابطِ الشرعية، ونوازعِ الشَّرِّ المتمثلةِ بوَسَاوُسِ الشيطانِ اللعينِ وتزيينِه.

وفي جولةٍ سريعةٍ لمحاولةِ معرفةِ أسبابِ غَلبةِ نَوازعِ الشَّرِّ، وبالتالي حُصولِ الزنا نجدُ ما يلي:

هناك أولاً ضَعْفُ النفس، وضَعْفُ الضوابطِ الإيمانية، التي إمّا أَنْ تكونَ قد بُنِيَتْ بصورةٍ هَشّةٍ ضعيفة، أو لم تُبْنَ أَساساً.

وتلك مسؤوليةُ الأَهلِ الذين أُنيطَ بهِمُ البِناءُ فَلَمْ يَفْعَلُوا.

وهناك عدمُ الإِحصان، ممّا يُضعِفُ الدِّفاعاتِ التي قَدْ تَتَهاوَى تحتَ ضَرباتِ المُغْرِيات.

وهناك عدمُ تأديبِ النفسِ وتهذيبِها وتمرينِها لتجاوُزِ المغرِيات.

فمنْ لم يَتَحضّرْ ويتأَهّلْ ويتمرّنْ لمباراةِ الصراعِ مَعَ وَساوُسِ الشيطانِ، يَهْزِمُه من الجولةِ الأُولى.

وهناك قوةُ المغرياتِ الخارجية، رُغْمَ وُجودِ الضّوابط: وهذا العُنْصر هو الذي يُرَكِّزُ عليه الشيطانُ في أَيّامِنا: فهو لم يَتْرُكْ واحدةً مِنَ التِّقْنِيّاتِ الحديثة، ولا الفتحَ العلميَّ التكنولوجي، إلا وٱستثمَرهُ في نَشْرِ الرَذِيلة، والغِواية، حتى أَصْبَحْنا مُحاطِينَ مُحْدَقِينَ منْ كُلِّ الجَوانب، مُحاصَرِينَ حتى في بيوتِنا ومَخَادِعِنا، تُقَدِّمُ لنا الغِوايةُ مَعَ الطعامِ والشرابِ والأخبار، تُقَدِّمُ لنا في التربيةِ والتعليم، تُقَدِّمُ لنا في الرياضةِ والتنشئة.

ومَعَ العملِ الجَادِّ الواجبِ لدفعِ كُلِّ هذه الشرور، نقولُ مَعَ يوسفَ عليه السلام. ﴿**وإِلا تَصْرِفْ عنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِليهنّ وأَكُنْ مِنَ الجاهلين**﴾.

نسألُ الله تعالى لنا جميعاً السلامةَ والنُّصْرَةَ على الشيطانِ وجُنودِهِ، إِنه سميعٌ قريب.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على مشروعية قبول وقوع الظلم بالسجن، كخيار أوحد لعدم الوقوع في المعصية.

٢ - للدلالة على سهولة وقوع الإنسان، وخصوصاً الشباب في الغواية، وهو بحاجة إلى نصرة الله تعالى لصرف الكيد عنه، وليس له أن يستقوي بثبات نفسه وقوة شخصيته نظراً لانغراس الضعف في أصل تكوينه.

٣ - للدلالة على أن اختلاط الرجال بالنساء والفتيان بالفتيات هو عامل غواية شديد يُسهّل وقوع الفاحشة، ولقد أكده القرآن الكريم على لسان يوسف عليه السلام فليس للنظريات القاصرة أن تكذبه.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٠]

تصلُ بنا هاتان الآيتان أخي المؤمن إلى نهايةِ الفصل الثالثِ مِنْ قِصّةِ يوسفَ عليه السلام، بانتهاءِ محنةِ المراودة مِنْ جهةٍ أولى لتبدأَ مَعَها محنةٌ جديدةٌ مِنْ نوعٍ آخر هي التي سَتُفتَحُ له بابَ المجد، من جهةٍ أُخرى..

يقولُ الله تعالى: **﴿فاستجابَ لهَ رَبُّهُ فَصَرَفَ عنه كَيدَهُنّ﴾**.

في هذا الشطر من الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تحوُّلِ أُسلوبِ السردِ منْ توترٍ، واحتقان في الآياتِ السابقة، إلى هدوءِ الاحتقانِ وتنفيسِه مَعَ قولِ الله تعالى: **﴿فاستجابَ له ربُّه﴾**.

اللطيفةُ الثانية: في تناسُقِ الأُسلوبِ اللُّغويِّ بين مطلبِ يوسفَ عليه السلام في مُناجاتِهِ في الآيةِ السابقة، حين قال: **﴿رَبِّ السِّجْنُ أحبُّ إليَّ﴾** والآيةُ موضوعُ تأمُّلِنا هنا. ففي أغلبِ سورِ القرآن، خصوصاً حالَ مُناجاةِ الأنبياءِ والرسل، نجدُ أُسلوبَ الردِّ على المناجاةِ بصيغةِ: **﴿فاستَجَبْنا له﴾**(١)، كمثلِ قولِ الله تعالى: **﴿ونوحاً إذْ نادَى مِنْ قَبْلُ فاستجَبْنا له فَنَجَّيْناهُ وأهلَه﴾**(٢). وكقولِ الله تعالى: **﴿فاستجبْنا له ووهبْنا له يَحيى وأَصْلَحْنا له زَوْجَه﴾**(٣).

أمّا في الآيةِ الكريمةِ، فقد جاءَ الجوابُ متناسقاً معَ ذِكْرِ كَلمة «ربِ»، في الآيةِ السابقة، فقالَ الله تعالى: **﴿فاستجابَ له ربُّه﴾**.

(١) [سورة الأنبياء، الآية: ٨٤]

(٢) [سورة الأنبياء، الآية: ٢١].

(٣) [سورة الأنبياء، الآية: ٩٠].

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عند مضمونِ ٱستجابةِ الله عَزّ وَجل، لطلبِ يوسفَ عليه السلام.

لقد شَعَر يوسفَ عليه السلام، أَنّ النِّسْوَةِ وعلى رأْسِهنّ ٱمرأةُ العزيز، يمارِسْنَ ضغطاً نَفسياً شديداً عليه، يتمثّلُ بكلِ أصنافِ الإِغراءِ والإِغواء.

وهو شابٌ في مقتبل العمر، يَعْرِفُ أنهُ إِنسانٌ بشر مِنْ لحم ودَم، ويَعْرِفُ أنه عُرضةٌ لما يَتعرَّضُ له البَشرُ مِنْ نَوازعَ وأَهواء، ويَعْرِفُ أنّ كَثيراً مِنَ الناسِ يَسْقُطُونَ في ٱمتحانِ الإِرادةِ، إِذا ما ٱعتمدوا فقط على قوةِ قهرِ النفسِ لديهم.

ويعرفُ أنه لا يَمْلِكُ سُلْطةَ إبعادِهِنّ مادياً عنه: فلا هو في موقعِ السُلْطةِ لِيَصْرِفَهُنّ بكلمةٍ واحدةٍ آمرةٍ منه، ولا هو يَقْدِرُ على الفِكاكِ مِنْهُنّ بحُكْمِ صِفتِه فَتىً في القَصْر.

فما كانَ منه، بعد أنْ أدْرَكَ هذا الواقعَ الحَرِج، إلا أَنْ طَلَبَ مطلباً حَاذِقاً، فيه الخلاصُ دونَ خَسائرَ كُبْرى: أَنْ يَصْرِفَ الله تعالى عنه كَيْدَهُنّ، فلا يكونُ بذلك قَدْ تَسَبّب بأذيةٍ لأحد:

- فلا يُؤْذِي نفسَه بمحاولةِ الفِرارِ كما فعَلَ في المرةِ السابقة.
- ولا يَؤْذِي النِّسوةَ بدفْعِهنّ عَنْه فيما لو ٱقتربْنَ منه.
- ولا يُؤْذِي وُجهاءَ المدينة، بما قد يُشَاعُ حولَ زَوجاتِهمّ مِنْ سُوءِ سُمْعَة.

اللطيفة الرابعة: في مُطابقةِ الاَستجابةِ لعينِ المطلب، فقد طلبَ يوسفُ عليه السلامُ مِنَ الله تعالى، أَنْ يَصْرِفَ عنه كيدَهنّ، فجاءَ الجوابُ في هذه الآية: فصرفَ عَنْهُ كَيْدَهُنّ.

وفي هذا إِكرامٌ مِن الله تعالى ليوسفَ عليه السلام، نغتبطُ له.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**إنه هو السميعُ العليم**﴾.

في هذا الشَطْرِ الأخير مِن الآية، تذكيرٌ لنا بأمْرين اُثنين.

الأول: أنَّ الله تعالى، حين ذكَر اَسْمَ السميع، وهو مِنْ أسمائِه الحُسْنَى أرادَ أنْ يُعْلِمَنا أنّ الحُكْمَ في الآية. يَنْطَبِقُ على كلِ الناسِ في الاَستجابةِ لدعائِهم، فجاءَ لفظُ السميعِ مُعَرَّفاً، ومَسْبوقاً بعلامتي توكيد، ﴿إنه﴾ و﴿هو﴾. ونفهمُ مِنَ الآيةِ أنّ الله تعالى يَسْمَعُ دعاءَ الداعي في كلِ وقت، وفي كلِ حين، والاَستجابةُ لا تكونُ فقط للأنبياءِ والمرسلين، بل للمؤمنين كافّة.

الأمرُ الثاني: هو علمُ الله تعالى، الذي لا تَخْفَى عليه خافيةٌ في الأَرضِ ولا في السماء، فجاءَ التذكيرُ بإيرادِ اَسم آخرَ مِنْ أسماءِ الله الحسنى، وهو ﴿العليم﴾، أيضاً مُعَرّفاً ومؤكّداً، للدلالةِ على أَنْ لا شيءَ يَحْصُلُ إلا بعلمِهِ، في كلِ حينٍ وآنٍ، وعلى وجهِ الخصوص، في موضوعِ يوسفَ عليهِ السلام، فقد تَكفَّل الله تعالى بحفظِهِ ورِعايتِهِ وهو أَعلمُ بما يقعُ معه مِنْ أَحداث.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿ثم بدا لهم مِنْ بعدِ ما رأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنّهُ حتى حين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ كلمةِ **﴿بدا لهم﴾**.

الذين بدا لهم، هو العزيزُ ووُجَهاءُ المدينة، الذين وَجَدُوا أَنفسَهم جميعاً في صعيدٍ واحد، بعدَ أن اَنتشرتْ أخبارُ مجلسِ المراوَدَة.

ونفهمُ منْ كلمةِ **﴿بدا لهم﴾**، أنهم عَقَدوا اَجتماعاً خُصِّصَ لبحثِ مسألةِ يوسفَ مَعَ النِسْوَة، تَمّ خلالَه اَستعراضُ الوقائعِ والأَحداث، وهو ما عَبّرَت عنه الآيةُ الكريمةُ بقولِ الله تعالى: **﴿مِن بَعْدَ ما رَأَوُا الآيات﴾**، وهذا حدثٌ لافت، أنْ يُفْرَدَ اَجتماعٌ على مستوى مُمَثّلي الأمة، لبحثِ مصيرِ خَادِمٍ في قصرِ العزيز.

لكنّ مدلولاتِ الحدث، كانَتْ على قَدْرٍ كبيرٍ منَ الأهمية، إستدعى حُصولَ هذا الاَجتماع:

فالظاهرةُ الأُولى: هي حادثةُ القميص، وما نَتَجَ عنها منْ شُيوعِ نبأ براءَةِ يوسفَ مما نُسِبَ إليه، وتجريمِ اَمرأةِ العزيزِ بجرمِ المراودة.

الظاهرة الثانية: هي تقطيعُ النِّسوةِ لأيْدِيهِن، وهذه الحادثةُ لا تَقِلُّ أَهميةً عنِ الحادثةِ الأُولى.

الظاهرةُ الثالثة: تأثُّرُ كلِّ النِّسوةِ بجمالِ يوسفَ عليه السلام، وعدمُ اَنتهاءِ المسألةِ في نظرِ المجتمعين. عند هذا الحد، مما قد يؤدِّي مَعَ تطورِ الأحداث إلى بلبلةٍ في المدينة، لا تُحْمَدُ عُقْباها.

يضافُ إلى ذلك، عدمُ مَعرفتِهم بما كانَ من صرفِ كيدِ النِّسوةِ عن يوسفَ عليه السلام، واَستمرارُ تَخَوُّفِهم من جولةٍ جديدةٍ من المراودة.

اللطيفة الثانية: أنّ الله تعالى سمّى الأحداثَ التي حصَلَتْ بالآيات، وفي هذا تكريمٌ بالغٌ ليوسفَ عليه السلام، وتثبيتٌ لمواقِفِه المُشرِّفَةِ في رفضِ الاَنصياعِ للغِواية، وجُرأتِهِ وتَحدِّيه للتهديدِ بالسَّجْن أوِ الصَّغَارِ أو العذابِ الأليم.

اللطيفة الثالثة: في دَهْشَتِنا لما تَوصّلَ إليه المجتمعونَ مِنْ قرارٍ لحل أزمَتِهم: إنهم في موقفٍ حَرَجٍ تَسببَتْ به اَمرأةُ العزيزِ أَصلاً، ونِسْوَةُ المدينةِ تَبَعاً، لا يدَ ليوسفَ فيه، فهو لم يُراوِدْهُنّ عَنْ أَنْفُسِهِنَّ طَرْفَةَ عين، ولم يَقُمْ بإغرائِهِن، ولم يَخْرُجْ إليهِنّ مُختاراً، لقد جَرتْ به الأحداثُ وهو يَتَجنّبُها ما اَستطاع، حتى إنه لم يَقُمْ بأيِّ عملٍ مَاديٍ في رَفْضِه، كان من الممكنِ أَنْ يَفَسّرَ بأَنه تَهَجُّمٌ أو أذية.

فماذا يكونُ الحُكم؟: أنْ تُسْجَنَ الضحيةُ ويُتْرَكَ المذنبُ حُراً طليقاً!

إلا أنه حكمُ الهروبِ والتعمية، فلا العزيزُ ولا رجالُه تَجرّؤا على إحقاقِ

الحقِ ودَحْضَ الباطلِ، وقَرّرُوا الخروجَ بأَقلِّ الأَضرارِ الممكنة، ولو على حسابِ ظُلْمِ رجلٍ بريء، هم مُدْرِكُون مستيقنون براءَتَه.

كم مِنَ الذِمَمِ مُثْقَلَةٌ بالظُلْم، ستأتي يومَ القيامةِ لتؤدِّيَ الحُقوقَ إِلى أَصحابها؟!.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الله تعالى قريب مجيب الدعاء فإذا ما دعاه المظلوم، أو ذو عسرة، أو محصر، فإنه يستجيب له؛ وقد تكون الإستجابة حالة مباشرة، وقد تكون مؤخرة لحكمة عند الله تعالى قد يعقبها خير عميم.

٢ - للدلالة على أن الكثير من المظالم تقع بين الناس، على مرأى ومسمع من أصحاب السلطة، أو حتى منهم على المحكومين، وترتكب المظالم نهاراً جهاراً، بصلف وتعنت وكبر، وهم يحسبون أنهم بمنأى عن الحساب، لكن الله تعالى لا يُظلم مثقال ذرة، والكل مساق إلى الحساب.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣١]

نبدأُ مَع هذه الآية، أخي المؤمن، فصْلاً جديداً منْ فصول قصةِ يوسفَ عليه السلام، في أَجواءٍ جديدة، تبدو في الظاهر وكأنها اَنحدارٌ في مستوى المعيشة، وفي أعينِ المتابعين للأحداث، ظُلماً فاحشاً أَصابَ يوسفَ عليه

السلام، وهي في الحقيقة تدبيرٌ رَبّانيٌ ما عَرَف فاعِلُوه أنه حَلقةٌ مكتوبةٌ في سلسلةِ صعود يوسفَ عليه السلام نحوَ القِمَّة.

وقبل أَنْ نبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة، نتوقَّفُ عندَ هذه النَّقلةِ النوعيةِ في مَشَاهِدِ القِصةِ، لِتَخرج بالملاحظاتِ التالية:

يتغيَّرُ الجوُ العامُ في السرد، انطلاقاً من هذه الآية، وَمَعها يَتَغيَّرُ مفهومُنا لارتقابِ الأحداثِ وتَسَلْسُلِها: ففي الفصلِ السابق، عِشْنَا في أَجواءِ المجتمعِ الراقي في أَدَقِّ تَفاصِيلِهِ، وفي أَعمقِ خُصوصِيَّاتِه، وتَعرّفْنَا إِلى اهتماماتِه ومشَاغِلِهِ، ورأينا صُورةً عنِ المجتمعِ النِّسائيِّ فيه، ومجَالِسِهِنّ، ومَكَائِدِهن.

هذا المجتمع، الذي يُكَرِّرُ نفسَه في كلِّ الحضارات في كلِّ العصور: تَرَفٌ وغِنى، فَراغٌ قاتل، دَسائِسُ ومُفاخرات، بَطْشٌ وظُلْم، بُعْدٌ عنِ الله تعالى، خِيانَاتٌ زَوْجِيّة، تَخَاذُلٌ وضَعْفُ حَمِيّة... مِنْ كلِّ هذا الجوِّ الموبوءِ خَرَجَ يوسفُ عليه السلام، سالماً غانماً آمناً مَحْمِيّاً بِحمَى الله تعالى.

وها نحن مع هذه الآية نتهيأُ لنعيشَ أَجواءَ العُزْلَةِ والظُّلْمةِ، أَجواءَ السُّجونِ والمساجين في نزولٍ سريعٍ في سُلّمِ طَبَقاتِ المجتمع، متجاوزينَ طَبقاتِ الميسورين، والطبقة المتوسطة، والطبقة الفقيرة، والطبقةَ المُعْدَمَة. لنصلَ إِلى حيثُ يُجَرّدُ الإِنسانُ مِنْ حُرِّيَتِه، ويصبحُ أسيرَ القُضْبَان، وتحتَ إِمرةِ السّجّان: هو عِقابٌ تَوافَقَ البشرُ عليه، لإِشعارِ المعتدينَ مِنْ بينِهم على أَمنِهم وسلامتِهم ومُمْتَلَكاتِهم، بأنهم غاضِبون من تَصَرُّفاتِهم، ولِحَثِّهم على العودةِ إِلى الاستقامةِ والنزاهةِ، والسيرِ مَعَ الناسِ في خطِ التعايشِ الهادىء وتَبادُلِ المنافعِ والتآزر، لِدَرْءِ المخَاطِر.

وحين يصلُ الخارجُ عن تَوافُقِ المجتمعِ على مُصْطَلحِ السلوك السليم إِلى السِجْن، يكونُ قد قَطَعَ شَوْطاً كبيراً في التميُّزِ عن بقيةِ الناس، في نظرتِه إِلى

الحياة، فهو غالباً ما يكونُ ناقماً على المجتمع، يَعتبرُ نفسَه مُضْطَهداً، مَحْرُوماً مُعاقباً في الحياةِ بلا ذَنْب، قَاسِيَ القلب، يَسْتَسهِلُ التعدِّيَ على حُرماتِ الناسِ وأَموالِهم، عنيفاً يلجأُ إلى الخَلْعِ والكَسْرِ والقَتْل، ضَحْلَ الثقافةِ والعِلْم، سريعَ الغضب، قصيرَ النظر، مَعْدُومَ الاتِّزان.

فإذا ما تَمَّ تجميعُ هذه الخصائصِ المتمثِّلةِ في شَخصِ المجرم مَعَ آخرين جاؤوا هُمْ أيضاً بخصائِصهم، يَحْصُلُ تَمازُجٌ وتفاعل، يَتولّدُ عنه بيئةٌ جديدةٌ خاصة، مُتَلوِّنَةٌ بشتى أَنواعِ الأَمراض، تَخْتَلِطُ فيها العبثيةُ باللّامبالاةِ، يتتلمذُ فيها صغارُ الشُّطارِ على أَيدي كِبارِ القَتَلة، وتَتماوَجُ فيها العواطف: مِنْ شعورٍ بالذَنْبِ والنَّدم، إلى الإِصرار والتَصْمِيمِ على الانتقام، إلى انعدامِ الشعورِ بالعطفِ والرأفة.

هذا الواقعُ الذي يُصَوِّرُ المجرمينَ الحقيقيين، لا يَنْسَحِبُ على فئةٍ أُخرى مِنَ الناس، حُبِسَتْ عَنها حُرِّيَتُها، عَدْلاً أو ظُلْماً، ليس لتأصُّلِ الإِجرامِ في نفوسِها، وإنما لأَسبابٍ أُخرى شتى، بعضُها اقتصادِيٌّ، والبعضُ الآخرُ عَاطِفي، وأحياناً خطأ..

إلا أنّ الخَطَر يَكْمُنُ في وضعِ هؤلاءِ مَعَ أُولئك، وَمَثَلُهم في ذلك كَمَثَلِ وضعِ الحِمْلانِ مَعَ الذِئاب، والمؤسِفُ أنّ هذا هو الذي يَحْصُلُ.

إلى مثلِ هذه الأجواء، انتقلَ يوسفُ عليه السلام، فماذا كان منه؟

نبدأُ تأَمُّلَنَا أخي المؤمن في هذه الآية من آخرِها على خِلافِ ما اعْتَدْنَا عليه في تأَمُّلِنا للآيات.

يقولُ الله تعالى في آخرِ الآية، على لسان السجِينين: ﴿**إِنّا نَراكَ مِنَ المُحْسِنين**﴾.

هذا هو الاستنتاجُ الذي وَصَلَ إليه نَزِيلا السِجْنَ مَعَ يوسفَ عليه السلام.

وما كانا ليصِلا إِليه لولا أَنهما رَأَيا مِنْ يُوسفَ عليه السلام، مِنَ الصِّفاتِ ما دعاهما إلى مَدْحِه والثناءِ عليه.

في هذا الشطرِ من الآية، نَتَعرّفُ إلى ملامحَ جديدةٍ في شخصيةِ يوسفَ عليه السلام.

ففي جوِّ السِجنِ الموبوء، نرى أولَ إِشارةٍ قرآنيةٍ إِلى بَدْءِ مُهمةِ يوسفَ عليه السلام، بالدعوة إِلى الله تعالى، بكلِ ما أُوْتِي مِنْ وسائل، وعلى رأْسِها وأَولُها: الخُلُقُ الحَسَن، والتصرفُ الحَسن، حتى دونَ التفوُّهِ بأيةِ كلمة.

فإِذا به، بما أُوتِيَ مِن قوةٍ في الشخصية، يُثيرُ آنتباهَ السُّجناء، ويَلْفِتُ أَنظارَهم، ويَنْقُلُ إِليهم شُعوراً بالتميُّزِ عنهم؛ يَفْرِضُ عليهم نفسَه دونَ ادِّعاء، يَدْخُلُ قلوبَهم دونَ آستئذان.

لقد حافظ يوسفُ عليه السلامُ على اتزانِه وهُدوئه، وأَثبتَ ثِقَتَهُ العاليةَ بالله عَزّ وجل، ونُصْرَتهِ: لم يَرَ في محنتِه الجديدةِ عقاباً بل على العكس من ذلك. فقد وجدَ فيها سبيلاً جيداً للدعوةِ إلى الله تعالى في مجتمعٍ لم يُحَصنْ نفسَه بالمالِ والترف، فأضحى بيئةً خِصبةً تتأججُ فيها العواطفُ والأَهواءُ حيث يمكن للمستمعِ أن يفتحَ للدعوةِ أذنَه وقلبَه، غير قانعٍ بما زينتْ له نفسُهُ من ركونٍ إلى الجاه والغنى.

وبما أنّ الله تعالى شاءَ أَنْ يَجعَل مِنْ علاماتِ فَضْلِه وكَرمِه على يوسفَ عليه السلام، تَمَيُّزَهُ بتعبيرِ الرُّؤَى، فقد ساقَ إِليه هذين الفَتَيين، فلاحظاهُ بتدبيرٍ منَ الله تعالى، ثم أراهُمَا الله تعالى رُؤيا في آنٍ واحدٍ وهو ما يَفُوقُ نسبةَ التوافُقِ والمُوافقةِ في المعتاد، لأمرٍ شاءَهُ الله تعالى. سيَظْهَرُ لنا في اللاحِقِ منَ الآيات.

نعودُ إلى أوّل الآية، يقولُ الله تعالى: ﴿**ودخَلَ معه السِجْنَ فَتيان**﴾.

في هذا الشَطْرِ منَ الآيَة، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تركيزِ الأنتباه مُباشرةً إلى حدثٍ واحدٍ مِنَ المشهد، مُتَجاوِزِينَ كُلّ الأحداثِ السابقةِ والمحيطةِ بإقامَتِه في السِّجْن، وهو ما يُسمّى في لغةِ التصوير: استثبات، أو تحديج: ففي السِّجْنِ، غيرُ السَجينين، السَجّان والقُضبان، والمساجينُ الآخرون، وحياةُ السِّجن، وعن كلِ عنصرٍ من عناصرِ المشهد، تفصيلٌ وكلام، إلا أنّ الآيَةَ الكريمةَ جاءتْ بإيجازٍ بليغٍ، فأعلَمَتْنا بما يَنْبَغي لنا معرفتُه منَ الواقعِ المعِيش في هذه الفترة منْ حياةِ يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة الثانية: في وقوفنا عندَ عبارة: ودَخَلَ مَعَه، وهي تختصِرُ قَوْلَنا: ودخلَ ودَخَلَ معه. والتعبيرُ لطيف، إذ إنه يُبْعِدُ عنِ الذهنِ فكرةَ السوقِ والدفعِ التي تُصاحِبُ غالباً مَفهومَ دخولِ السِّجن.

اللطيفة الثالثة: في تَسميةِ السَجينين بالفتيين، وقد تَوافَقَ المفسرونَ على أنهما سَاقي الملكِ وخَبّازُه.

الحقيقةُ أنّ هذا هو طَرفُ الخَيطِ الحقيقيِّ، الذي جعلَه الله تَعالَى سبَباً لعلُوِّ شأنِ يوسفَ لاحقاً في أَسبابِ الدنيا، وهذه إشارةٌ هامةٌ للتعرُّفِ إلى تقاديرِ الله تعالى، في كيفيةِ تقلُّب الناسِ في الدرجاتِ وهو بعضٌ من سُنّةِ الله تعالى، وأحدُ قوانينِ علمِ الاجتماع، ومُفَادُه:

أَنّ حياةَ الناسِ خيوطٌ تَتقاطَع، بعضُها يتّصِلُ وبَعْضُها يَنْقَطِع؛ما اتصلَ منها، يَفْتَحُ بابَ علاقاتٍ جديدةٍ: إمّا صعوداً، يرفَعُ المعنيَّ إلى طَبقاتِ العِلْيَةِ مِنَ القوم، وإمّا هبوطاً، يُرْدِي المعنيَّ في أَوحال الأَرض.

وخيرُها جميعاً الصُحبةُ الحَسَنة، حين يجتمعُ المجتمعونَ على محبةِ الله تعالى وطاعتهِ ويَتَفرَّقُونَ على التعاهدِ على مراقبةِ الله تعالى، وعدم مَعْصِيته، كالبُنيانِ المرصوص، يَشُدُّ بعضهُ بعضاً.

لقد فتَحَ الله تعالى ليوسفَ عليه السلام، أوسع بابٍ في الدنيا، من أَضيقِ فُرْجة، حتى يعلمَ الناسُ أنّ الله تعالى، إنْ شاءَ، رَفَعَ مَنْ يشاء، وإنّ شاءَ، أذَلّ مَنْ يشاء وهو القادرُ على كلِّ شيءٍ قدير.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قالَ أَحدهما إِني أَراني أَعْصِرُ خَمراً وقال الآخرُ إني أراني أحملُ فوقَ رأسِي خُبزاً تأْكُلُ الطيرُ مِنه﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِهِ: **﴿إني أَراني﴾** الأولُ والثاني. وفي هذا إِشارةٌ إِلى الرؤيةِ في المنام، وكأنه يقول: إِني أرى في الرُّؤيا أني. إِلا أنّ كلمةَ أَراني، تأْتي ذاتَ وقْعٍ أَرَقّ وأَدَقّ.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا على فحوى الرُّؤيا: قال: **﴿إني أَراني أَعْصِرُ خمراً﴾**. انتهى. في عُرفنا، هذا غيرُ كافٍ على الإِطلاق لِفَهْمِ المعنَى مِنَ الرؤيا، لأنها مُقْتَضَبَة، والفِكرُ البشريُ لا يُمْكِنُه أَنْ يَتعدّى ما أَوْدَعَ الله تَعالى فيه مِنْ قُدُراتٍ، إِلا إِذا قَضتْ مَشيئةُ الله تعالى، أَنْ يَفْتَحَ على بَصيرةِ مَنِ اَصطفى مِنْ عبادِهِ، فيُرِيَهُ بنُورِهِ ما لا يرَى المُبْصِرونَ، وهذا ما اَخْتَصّ به يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة الثالثة: لغوية في قولِهِ: **﴿أَعْصِرُ خمراً﴾**. وهنا مجازٌ مُرْسَل؛ فما يُعْصَرُ هو العنب ثم يُحَوَّلُ بعدَ ذلكَ إِلى خَمْر، والعلامةُ ما يؤولُ إِليه فقد سُمِّيَ العنبُ خمراً، لأنه يَؤُولُ إِلى الخمر، كونُه المقصودَ مِنَ العصر.

ونفهمُ من نَصّ الآية، أَنه كان سَارِياً فيهم، ولا عَجَب، فحيثما ذَرَّ الشيطانُ قَرْنَهُ، جَعَلَ الخَمْرَ في مُقَدِّمَةِ أَدواتِهِ.

ثم تَنْتَهي الآيَةُ بقولِهما: **﴿نَبِّئْنا بتأْويلِهِ إِنّا نراكَ مِن المُحْسِنين﴾** وقد سَبقتِ الإِشارةُ في بدايةِ تأَمُّلِنا إِلى تَمَيُّزِ يوسفَ عليه السلام مما أَلجأَهُمَا إِليه.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب التخلق بالأخلاق الحميدة في أي موضع وجد الإنسان نفسه فيه، حتى في أوساط العتاة القساة، لأن هذه الأخلاق الحميدة يمكن أن تترك أثراً طيباً في نفوسهم، قد تكون سبباً في هدايتهم إلى الطريق المستقيم.

٢ - للدلالة على وجوب الصبر حال التعرض إلى ظلم، كأن يسجن إنسان ظلماً وعدواناً، ولنا في أنبياء الله تعالى ورسله أسوة حسنة، فقد سجن يوسف عليه السلام ظلماً وعدواناً، والله تعالى وجوب الإحتساب والصبر لعلمنا بأن كل ما يجري لنا يحصل بعلم من الله تعالى وتقدير.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٢]

سنبدأ مَعَ هذه الآية أخي المؤمن، بالتعرُّف أَكْثَر فأَكْثَر إِلى عمقِ شخصيةِ يوسفَ عليه السلامُ الدّعَويّة، ومنها نستقي المعَالِمَ الرئيسيةَ للدّاعية، تصحيحاً وتصويباً لمنهجِ الدُّعاةِ إِلى الله تعالى.

لقد سُئلَ يوسفَ عليه السلامُ في الآيةِ السابقةِ سؤالاً، يدورُ حولَ تفسيرِ رُؤيا رآها صاحباه في السِجن

المعتادُ بينَ الناس، بعدَ أَنْ يسمعَ الواحدُ مِنّا إطراءً بسَعَةِ عِلْمِه، أَنْ يُسْرِعَ بالإِجابةِ عنِ السؤال. فماذا كانَ مِنْ يوسفَ عليه السلام؟

لم يتسرّعْ في الإجابة، وإنْ يَكُنِ الجوابُ حَاضِراً لديه، وفي طياتِه خَبرُ مَقْتَلِ أَحدِهما، بلِ ٱبتعدَ عَنْ موضوعِ السؤالِ كُلِّياً، وانْطلقَ في حديثِهِ مُفْتَتِحاً خِطاباً مَنْهجيّاً هادفاً، يتمحورُ حولَ موضوعِ الدعوةِ إلى الله عَزّ وجل، قبلَ كلِّ شيء، وأَهَمُّ منْ كُلِّ شيءٍ.. فلْنستمعْ إليه كيفَ كانَتْ إجابتُه:

يقولُ الله تعالى: ﴿قال لا يأتيكُما طعامٌ تُرزَقَانِه إلا نَبأْتُكما بتأويلهِ قبلَ أنْ يأتِيَكُما﴾.

في هذا الشطْرِ مِنَ الآية، لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: في الإعراضِ الكُليِّ عنِ الإجابة عنِ السُّؤال وحتى عن الإشارةِ إليه، حتى لَيُخيَّلَ للمستمعِ، وكأنه لم يَسمعِ السؤالَ، أو لم يُلْقِ إليه بالاً. و هذا الأُسلوبُ في التّخاطُب، لا يُتْقِنهُ إلا القِلّةُ مِمّنْ يَمْتَلِكُونَ مَنهجيةَ إقناعٍ عالية، وقوةً في الشخصيةِ فائقة. فكان من حالهِ حينَ جوابِه:

أَنه لم يُؤْخَذْ بالإطراءِ الحاصلِ في الآيةِ السابقة، وقد عَلِمْنَا أنه وقَرَ في قَلْبَيْهما أنه مِنَ المحسنين، لِمَا رَأَيا من حُسْنِ تَصَرُّفهِ ودَمَاثَةِ خُلُقِه.

وأنه عَرَفَ متى يبدأُ بالدعوةِ إلى الله تعالى، وفي أيِّ ظرفٍ يدعو. وقد كانَ بوُسْعِه فورَ ٱجتماعِه في السِجنِ بصاحبيه، أنْ يلقيَ بنفسه عليهم داعياً وَمُنْذِراً، ومتوَعِّداً. إلا أنّ الله تعالى، حَباهُ برباطةِ جأْشٍ وصَبْرٍ وأناة.

وأنه رُغْمَ عِلْمِه أنّ أَحدَ السائِلَيْنِ مقتولٌ لا محالة ـ على مَا سَنرى في لاحقِ الآيات ـ لم يُشِرْ إلى هذا الأَمرِ على الإطلاق، بل ٱستبقَاهُ إلى حينِ إجابتهِ عن تأويلِ الرُّؤيا، مِمّا يُشيرُ إلى مَنهجيةٍ فكريةٍ مُتناسِقة، تَنْطَلِقُ مِنْ مبدأ: لكلِ مَقامٍ مَقَال، وعدمِ ٱستباقِ إعلامٍ على إعلام.

اللطيفة الثانية: في المبادرة التي قَامَ بها يوسفُ عليه السلام، لتأكيدِ

اَمتلاكِه الجوابَ عَنْ سُؤالِهما، وتعزيزِ ثِقَتِهما بصحةِ الإجابةِ اللاحقة، وذلك بإعطاءِ الدليلِ الحِسيِّ الملموسِ بصدقِ حديثِهِ ومَتَانَةِ مُقُولتِه، وفي هذا تحدٍ مُباشِرٌ، تَظْهَرُ نتائجُه مباشرةً، ولا يقتضِي مِنَ المتلقِّي سَعَةَ علمٍ أَو قدراتٍ ذهنيةً عالية. كما أَنه لا يتَطلّبُ وسائلَ ماديةً غيرَ موجودةٍ في الظرفِ الذي هُمْ فيه، فلا يُوجَدُ في السِجنِ إلا قُضبانٌ وفراغ، ومن حينٍ لآخَر بعضُ الطعام، فإذا بيوسفَ عليه السلام، يتناولُ الجُزءَ المتحرِّكَ من مجملِ ثوابتِ السِجن، أي حضورِ الطعام، ليكونَ مفتاحَ التحرُّكِ على ما سنَرى في لاحقِ الآيات.

اللطيفة الثالثة: في قولهِ: ﴿تُرْزَقَانِه﴾ الواقعُ أنّ المعنى في الآيةِ يكتملُ دونَ ذِكْرِ هذه الكلمة كسماعنا: قال لا يأْتِيكُما طعامٌ إلا نَبّأْتُكُما بتأويلِهِ قبلَ أنْ يأتِيَكُما لكنّ وُرودَ كلمةِ تُرزقَانِه تعطي المعنى المقصودَ مِنْ كلامِ يوسفَ عليه السلام، أبعاداً أَعلى وأَرْقَى:

فحين نسمعُ كلمةَ، رِزْق وأَرْتِزَاقَ، يتجه بنا الفكرُ مباشرةً إلى فضلِ الله تعالى علينا، فيما حَصَّلْنا، من مأْكلٍ أو مشربٍ أو مال..

وحين أوردَ كلمةَ تُرْزَقَانِه في مَعْرِضِ حديثِهِ، جعلَ المعنى أبلغَ مِنْ مُجرّدِ الإِخبارِ عَنْ وصولِ الطعام، وجعلَ أُسلوبَ الكلامِ يحملُ نَفْحَةً غيبيةً، تمهيداً، لحديثِ الدعوةِ الذي سيلي.

اللطيفة الرابعة: في هذا الشطرِ مِنَ الآية، أَننا وَمَع هذه الكلمات، نرى يوسفَ عليه السلام، يَفتتحُ المرحلةَ الجديدةَ والأَهمّ في حياتِهِ، ألا وهي التعبير الخارجي للملأ عن نبوته، فمنذ بداية السورة وحتى وصلنا إلى هذه الآية، لم تتجاوزْ أفعالُ وأقوالُ يوسفَ عليه السلام الحركةَ العادِيةَ للبَشَرِ العاديين، مع تَفُوقٍ في الفكرِ والسلوكِ عايناه. وها هو ذا الآن، وقد أَذِنَ له الرحمنُ بالكلام، يبدأُ الدعوةَ إلى الحق، مِنْ أَوْضعِ مكانٍ على وَجْهِ الأَرض، ولم يَجِدْ غضاضةً في ذلك وتلك صفةٌ أُخرى على الداعيةِ أَنْ يقتديَ بها، أَلا وهي التّواضُع.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**ذلكُما ممّا عَلَّمني ربِّي إني تَركْتُ مِلَّةَ قومٍ لا يُؤمنونَ بالله وهم بالآخرةِ هم كافرون**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: فيما نراه من تبرؤٍ سريعٍ منَ الحولِ والطَوْلِ إلى حولِ الله تعالى وقوتِه: فلقد يخامِرُ العُجْبُ أَحدَنا إذا ما أَنجزَ أَمامَ مُشاهِديه عملاً يَرَوْنَهُ عظيماً أَو باهراً، وكثيراً ما يَعْزُوهُ إلى نفسِه فيدَّعِي العِلَم والمعرفةَ والقوةَ والذَكَاء لكنّ يوسفَ عليه السلام، لم ينسُبْ عِلْمَهُ بما يُرْزَقُهُ السجينان لنفسه، لبلوغِ مَقام عالٍ، قد يُفيدُه لاحقاً، مع أنّ القبولُ كان حاضراً مُسبّقاً لدى السجينين، حينَ قالا: ﴿**إنا نَراكَ من المحسنين**﴾.

ذلك لأن يوسفَ عليه السلام، كغيرِه من الأنبياء، صلواتُ الله عليهم قد وَجَبَتْ في حقهِ الامانة، واستحالتْ في حقه الخيانة، فقال: ﴿**ذلكما ممّا عَلَّمني ربِّي**﴾.

اللطيفة الثانية: في الوقوفِ عندَ كلمةِ ﴿**ذلكُما**﴾، لكي نتعلَّمَ من يوسفَ عليه السلام أُسلوبَ خِطابِ الداعية: ففي إيراد اسم الإشارةِ، مضافاً إليه ضميرُ المثنّى العائدُ لهما، إشراكٌ لهما في مضمونِ الحديثِ الذي يَسُوقُه، فهو لا يُلْقي خِطاباً مُترّفعاً مُتَعالياً، بل يَجْعلُهما في صميمِ كلامِ الدعوة، حتى تطمئِنّ نفوسُهما بأنهما مَعْنِيّانِ مباشرةً بالحديث، رُغْمَ أنه لا يُجيبُ عن تساؤُلِهما. . وهذا الأسلوبُ يَنْجَحُ تماماً حين يَتبَنّى المسؤولُ قضيةَ السائلِ، وكأَنها قضيتُه، فتقعُ الطُمأْنِينَةُ في نفسِ السائلِ، حين يَأْتِيه الجواب.

اللطيفة الثالثة: في قولِه: ﴿**ممّا عَلّمني ربِّي**﴾، ومما تُفيدُ التبعيض، فهو يشُيرُ بهذا القولِ إلى أَنَّ الله تعالى، قد عَلَّمَهُ علوماً كثيرةً أُخرى. وأَنَّ ما تَرَوْنَهُ ليسَ إلا بعضَ هذه العلوم، فإذا كانَ هذا العلمُ قد أَدْهَشَ السامِعين، فهو يُحضِّرُ في نفوسِهم مكانةً أعلى حين يعلمونَ أنّ لديه مِنَ العلومِ الربانيةِ الأُخرى، ما يُوازي أو يفوقُ هذا العلم.

اللطيفة الرابعة: في إدراكِنا لقوةِ الإيجازِ في كلامِ يوسفَ عليه السلام، حين اختصرَ مُقوِّماتِ الإيمانِ الأساسيةَ المطلوبةَ من كُلِّ إنسانٍ، حتى يستحِقَّ لقبَ مؤمن، ألا وهي: إيمانُ المبدأ، وإيمانُ المَعَاد، أي: الإيمانُ بالله تعالى رباً أوْحداً أوْجَدَ المخلوقاتِ، وأنزلَ لهمُ الشرائعَ.. والإيمانُ باليومَ الآخر، تصديقاً وتأكيداً لعدلِ الله تعالى، ومَنْ تأمّلَ في القرآنِ الكريم، وتَفكّرَ في مضمونِ دعوةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ الكرام، لوجدَ أنّ المقصود منْ إرسالِ الرسلِ، وإنزالِ الكتب، هو دعوةُ الخَلْقِ إلى الإقرارِ بالتوحيد، وبالمبدأ والمَعَاد، فإذا بنا نَسْمعُ مأْخَذَ يوسفَ عليه السلام، على أهل زمانِه، أنهم **﴿قومٌ لا يؤمنونَ بالله وهُمْ بالآخرةِ هم كافرون﴾**.

وإذا ما أردْنا أنْ نَختَمَ تأملنا في هذه الآية، باستخلاصِ الإشاراتِ البليغةِ التي تَعلّمْنَاها مِن يوسفَ عليه السلام، حولَ مُواصفاتِ الداعية الجيِّدِ، نقول:

➢هو الذي وَقَرَ الإيمانُ العميقُ في قلبه، فتبرأَ من حولِه وقُوّتِهِ إلى حول الله العظيم وقُوّتِه.

➢وهو الذي لم يُؤخَذْ بالإطراءِ والثناءِ أثناءَ دعوتِهِ وتَنَبه إلى مزالقِ الكِبْرِ والرِفعةِ والعُلو التي تتربَّصُ به عندَ كُلِّ زاويةٍ ومُفترَق.

➢وهو الذي يعرفُ بماذا يُجيبُ وكيفَ يُجيبُ ومتى يُجيبُ عن التساؤلات، بعدَ دراسةِ نفسيةِ المستمعِ والمتلّقي.

➢وهو الذي يُشْرِكُ المستمعَ في صُلْبِ حديثه، ويجعلُه يتفاعَلُ مَعَ دعوتِهِ، ويَنْزِلُ إلى حيثُ هو، في بيتِه ومحيطِهِ ويُخاطِبُه باللغة التي يَفْهَمُها، وبالأُسلوبِ الذي يُؤَثِرُ فيه ويُقْنِعُه.

➢وهو الذي يَمْلِكُ الجرأةَ في الحق، فلا يَسْتحِي أَنْ يُظْهِرَ قوةَ إيمانِه، لأنّ هذه القوة هي التي ستخترقُ أَسماعَ وأَذهانَ وقلوبَ مستمعِيه.

➢وهو الذي يُطَبِّقُ على نفسِه أَخلاق الدعوة، حتى تُصَدِّقَ تصرفاتُه أَقوالَه، فتكونَ بذاتِها قوةَ دَفْعٍ صامتةٍ تُؤَازِرُ الكلمةَ وتدعَمُها.

➢وهو الذي يتسلّح بقوةِ العِلْمِ والمنطقِ السليم، وقوةِ الحُجةِ، وصَلابةِ الفِكر ومتانَةِ العقيدة.

➢وهو الذي يتحلّى بالهدوءِ والاتّزان، وبُعْدِ النَّظَر، والتدَّرُّجِ والرِفْقِ والرأْفَةِ والتسامحُ، وقَبولِ الانْتقادِ والتحقُّقِ منه، ومراجعةِ النفسِ في كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ الدعوة.

➢وهو الذي يكونُ قريباً مِنَ الله تعالى، فَيُراقبُه في السرِ والعلن ويَعْرِفُ أَنَّ الله تعالى معه ما دَامَ له مُخْلِصاً.

مواطن الإسترشاد بالآية في حياتنا اليومية:

١ - لإعطاء مواصفات الداعية الناجح الجيد، وذلك بإيراد كل المواصفات التي تم استنتاجها من مضون الآية الكريمة، والتعمق فيها، وإيضاحها، ثم إعطاء الأمثلة عليها وحض الداعية على انتهاجها أساساً ينطلق فيه في بناء شخصيته الدعوية بتصويب سلوكه أولاً وتهذيب نفسه وتعليمها وتثقيفها، ثم دراسة المجتمع الذي سيدعو فيه، ثم التعرف إلى احتياجات ومواصفات الأشخاص الذي سيدعوهم، مع تدريب نفسه على احتمال الأذى حال حصوله، وتوقع حصوله، والتحلي بالصبر والأناة وتفريغ القلب من الشحناء والبغضاء، والتحرق القلبي لوصول الهداية إلى المدعوين.

٢ - للدلالة على وجوب الجهر بالحق عند الإستطاعة، وتحين الفرص المناسبة لذلك، وعدم ترك هذا الجهد للصدف، إذ أن الفرص قد لا تتكرر ثانية بسهولة.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٣]

نتابعُ أخي المؤمن، مَع هاتين الآيتين، سَماعَ دَعوةِ يوسفَ عليه السلام صاحِبيهِ في السِجن إلى الإيمان بالله تعالى، بعد أنْ كانا قد وَجّهَا إليه سؤالاً عن تأويلِ رُؤياهُما، وهما في شَغَفٍ شديدٍ لاَستماعِ تعبيرِه للرؤيا، إلاّ أنه آثَر أنْ يَدْعُوَهُما إلى الله تعالى، قَبْلَ أنْ يجيبَهُما لأنها المناسبةُ الأفضلُ للدعوةِ قبلَ اشتغالِهِما بما سيسمعانِ مِنْ أَخبارٍ تُحَدِّدُ مُستَقبلَهما.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: **﴿واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إبراهيمَ وإِسحٰق ويعقوب﴾**.

في هذا الشطرِ من الآية، لطيفتان اثنتان:

الأولى: لُغوية فالمألوفُ في الترتيبِ عندَ ذِكْرِ الآباء، أنْ يُذكَرَ أولاً، ألأَبُ، ثم الجَدُّ، ثم الجَدُّ الأَعلى وهكذا.

إلا أَنّ الآيةَ اَعتمدتْ أَسلوبَ الأَطراد، أي البدءَ بالتّعْدَادِ مِنَ الجَدِّ الأَعلى، ثم الجدِّ ثم الأب، وذلك تنبيهاً إلى أَنّ المقصودَ ليس الأَشخاصَ بعينِهِم، بصفتِهِمُ البشريةِ المعتادة، بل ذَكَرَهُم ليذكُرَ مِلّتَهُمْ أي الإِسلام، التي اتبعوها، فبدأَ بصاحبِ المِلة، ثم بِمَنْ أَخذَها عنه أولاً فأوّلَ على الترتيب، وهكذا قُدِّمَ إِبراهيمُ عليه السلامُ لقصدِ صِفةِ الرسالةِ التي يَحْمِلُ، وفي هذا جماليةٌ لغويةٌ لا تُدَانى.

اللطيفة الثانية: في هذا الشطِر منَ الآية، حين نستشعرُ الأَدبَ وحِسّ الوفاءِ عندَ يوسفَ عليه السلام: فلم يَكْتَفِ بذكرِ صاحبِ المِلَّةِ الأَوّل، جدِّه الأعلى، إبراهيمَ عليه السلام، كما أنه لم يكتفِ بذِكْرِ أبيهِ يعقوبَ عليه السلام ـ وغالبُ طبعِ الناسِ ذكرُ آبائِهمُ المباشرين ـ ولم يكتفِ بذكرِ هذين العَلَمَيْنِ الأَساسيين، بل أعطى كُلَّ واحدٍ من آبائهِ حقَه على الترتيبِ الذي يُنَاسِبُهم جميعاً.

ثم تتابعُ الآية: ﴿**ما كانَ لنا أنْ نُشرِكَ بالله من شيء**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيَة، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لتركيز يوسفَ عليه السلام، على مضمونِ الفِكرةِ الأَساسيةِ التي يَعْرِضُها على سامِعيه. وهي أَساسُ دعوةِ الرُّسُلِ جميعاً، أي التوحيدِ المطلقِ لله تعالى: ففي الآيةِ السابقةِ، أَشارَ إِلى الإِيمانِ بالله تعالى، ولقد عَلِمْنَا أنّ أَهَل مصرَ في ذلك الزمان، كانوا يعرفونَ الله تعالى، ولكنّهم كانوا يُشركونَ به، فإذا بيوسفَ عليه السلام، وبخطابٍ وجيزٍ لا يَتعدَّى الكلمات، يَذْكُر معنى الإِيمان، ثم يُؤَكِّدُ عليه بتنزيهِ الله تعالى عنِ الشرك، وإبرازِ هذه الفِكرةِ، وكأنها الوحيدةُ التي يُريدُ إِيصالَها لسامِعيه، وهذه واحدةٌ من مُقَوِّماتِ صِحَةِ الدعوةِ إِلى الله تعالى.

اللطيفة الثانية: في قولِه: ﴿**مِنْ شيء**﴾ وهي أَبْلَغُ مِنْ قولِنا: ما كان لنا أَنْ نُشرِكَ بالله شيئاً، فجاءَتْ ﴿**مِنْ**﴾ للتأكيدِ على المعنى، وجاءَتْ للنفي المُطْلَق، فيُحَقِّقُ بذلكَ المعنى المقصودَ منَ الوحدانيةِ المطلقةِ لله تعالى، بالأُلوهيةِ والربوبية، وعلى هذا قامتِ الدنيا، وعلى هذا سيقومُ الحسابُ.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**ذلكَ مِنْ فضلِ الله علينا وعلى الناس ولكنّ أَكْثَر الناسِ لا يشكرون**﴾.

في هذا الشطرِ من الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تفصيلِ يوسفَ عليه السلام، بين فضلِ الله تعالى على الأنبياءِ والرسلِ الكِرام، وفضلِه على الناسِ عامة:

ففضلُ الله تعالى على المرسلين: أنه ٱخْتَارُهمْ لِما حَباهُمْ مِنْ خَصائصَ مميزةٍ من بينِ الناس، وٱخْتَصّهُم بمهمةٍ كبيرةٍ وصَعْبة، ألا وهي هِدايةُ الخَلْقِ إِلى طريقِ الحق.

➢وفضلُه عليهم أيضاً، أنه عَصَمَهُمْ مِنَ الوقوعِ في الشركِ والظُلْمِ والكَبائر.

➢وفضلُه عليهم، أنه أَعطاهُمْ مِنَ الآياتِ والمعجزاتِ ما يَفُوقُ قُدرةَ البشرِ العاديين، وذلك تأييداً لهم للحُجةِ والإِقناع.

➢وفضلُه عليهم، أَنه حَماهُمْ مِنْ هَمَزاتِ الشياطين.

وهذا بعضٌ من كثير، فلذلك قالَ يوسفُ عليه السلام: ﴿**ذلك مِنْ فضلِ الله علينا**﴾ للتبعيض.

ومن فضلِ الله تعالى على الناسِ كافة:

أنه خلقَهم فأحسنَ صُورَهم، ووهبَهمْ العقلَ والإِدراكَ والبصيرةَ والحواسّ.

وأنه مَيّزَهُمْ عن بقيةِ المخلوقات، وجعلَهم خُلفاءَ في الأَرض.

وأنه تَكَفَّلَ برزْقِهم، بَرِّهِم، وفَاجِرِهِم.

وأنه مَكّنهم في الأَرض، وسلَّطُهمْ عليها، وَوَضَعَ لهم أَسبابَ ٱستغلالِها.

وأَنه غَرَسَ فيهِم المشاعرَ والعواطف، فهم يتقلَّبُونَ بينَ سعادةٍ وحُبور، وحزنٍ وغَضب، فيكونَ للحياةِ معنىً ومَذاقٌ.

وأهمُّ من ذلكَ كُلِّه، أنه عن طريق الرسلِ عَرَّفَهُمْ بنفسِه، وعرَّفَهم فضلَهُ

عليهم، ومكّنَهُم مِنْ حُبِّه، وكافأَ مَنْ أَحبه في الدنيا بالطُّمأْنينةِ والسعادةِ، وفي الآخرةِ بالخلودِ في جنّةِ النعيم.

إلاّ أَنهم، ومَعَ كلِّ هذا الفضل، جَحَدُوا نِعَمَ الله تعالى عليهم، وطَغَوا في الأَرض، فكانَ قولُ يوسفَ عليه السلام: **﴿ولكنّ أَكْثَر الناسِ لا يشكرون﴾**.

اللطيفة الثانية: في هذا الشطرِ منَ الآية، في وقوفِنا عندَ كلمةِ **﴿يشكرون﴾**.

وهي ذاتُ مدلولٍ بليغ، وينبغي لنا أَنْ نُعطيه حَقّه. فالشكرُ يكونُ في الأَصل منَ العبدِ للخالِق، وهو يَحْملُ معنى العِرفانِ بالفضل، إلا أَنّ الله سبحانه وتعالى، شاءَ أَنْ يُكْرِمَ بني آدم أَكْثَر فأَكْثَر، فإذا بنا نقرأُ في سورةِ الإِسراء، الآية التاسعةَ عَشَرة: **﴿أولئك كان سعيُهم مشكوراً﴾**.

أي إنّ الله تعالى يَشْكُرُ لهم حُسْنَ سَعْيِهم فيما قامُوا به من صالحِ العملِ في الدنيا، وهذا أيضاً من فضلِ الله العميمِ على الناس.

ثم يتابعُ يوسفُ عليه السلامُ في الآيةِ التالية: **﴿يا صَاحِبَي السِجن أَأَرْبابٌ متفرقون خيرٌ أَمِ الله الواحدُ القَّهار﴾**.

في هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في انتقالِ الأُسلوبِ الخَطابيِّ مِنَ السردِ إلى المحاورة، مَا يستدعي تفاعُلَ المستمعِ معَ موضوعِ الخطاب، وقد قامَ يوسفُ عليه السلامُ بإِعمالِ كلِّ عناصرِ الحوارِ في الإِقناع:

فناداهُما بصورةٍ مُحبَّبةٍ حينَ قال: **﴿يا صَاحِبَي السِجن﴾**.

وفي واقِعهُم الحَالي، السِجنُ مكانٌ تَصْعُبُ فيه المُفاضَلة، وهو دارُ الأَحزانِ ومدارُ الأَشْجَانِ التي تصفو فيها المودّة.

وٱعتمدَ أُسلوبَ الأَستفهامِ الإِنكاريِّ، تدليلاً على بَشاعةِ الجُرْمِ ٱلمُرْتَكَبِ بالإِشراك.

وٱعتمدَ ٱسلوبَ المُفاضلة، حين وَضَعَ الوَحدانيةَ أَمامَ نَاظِرَيْهما، ووَضَعَ الإِشراكَ في المقابل، ليُظْهِرَ الفرقَ الشاسعَ بينهما.

وٱعتمدَ أسلوبَ التقديمِ والتأخيرِ، فَقدَّمَ واقعَ حالِهم، وأَخَّرَ ما يدعُوهم إليه.

وٱعتمدَ أُسلوبَ المَجاراةِ في التّسْمية، فَسمّى ما يعبدونَ مِنَ الأَوثانِ أرباباً، وما هي بالأَرباب، مَنْعاً مِنْ نفورِهم قبلَ عَرْضِ المُفَاضَلةِ على عُقولِهم.

فسبحانَ الله العظيمِ الذي أَلْهَمَ نَبِيَّهُ حِكْمَةً وحُنْكَةً وبلاغةً وفَصاحةً، نتعلَّمُ منها أُصولَ الدعوةِ وأَبوابَها.

اللطيفة الثانية: في وقُوفِنا عندَ ٱختيارِ صفاتِ الله تعالى، في مَعْرِضِ الدعوةِ إلى الهداية. فقال: ﴿**أَمِ الله الواحدُ القهّار**﴾.

وفي هذا، إِعمالٌ لمبدأ: لكلِ مقامٍ مقال، فوجدَ يوسفُ عليه السلامُ أَنَّ الموقفَ يَسْتَوجِبُ إِظهارَ عَظمةِ الله تعالى وقُوّتَه، أَمامَ ضَعْفِ الأَوثانِ ومواضيعِ الشِرْكِ الأُخرى، فجاءتْ صفةُ القَهّارِ، بما تحمِلُه منْ رهبةٍ وإِنذارٍ، لتتوافَقَ مَعَ موضوعِ الحديث.

اللطيفة الثالثة: في ٱستِنكَارِ حالِ الأَزدراءِ التي أرادَ يوسفُ عليه السلامُ نَقْلَها إلى صاحبي السِجن، بصورةٍ ضِمنيةٍ، مخاطباً فيها مَلَكاتِ المنطقِ عندهما، مُتجاوزاً الجوارحَ والثوابت، مُحْدِثاً ما يُسمَّى بـ"فعلِ الصَدْمة" حين أَنْكَر عليهما بالكُليّةِ كلّ المعتقدِ السائدِ في زمانِهما، دونَ مساومةٍ أو تلطيفٍ، ولا عَجَب، فلهذا جاءَتِ الرُّسل، ولهذا قامتِ الدنيا، وعلى هذا سيقومُ الحسابُ، فكُلُّ ما عدا التوحيدِ هَباء.

مواطن الإسترشاد بالأيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الدين عند الله تعالى هو دين واحد، وهو دين الإسلام. وإبراهيم عليه السلام هو الذي سمانا مسلمين، وكل الأنبياء والرسل الكرام إنما جاؤوا لتبليغ دعوة الإسلام، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، من ذريته إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، ومن ذريته أيضاً إسماعيل عليه السلام، وسيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فيكون الدين عند الله تعالى واحد، وهو دين الإسلام.

٢ - للدلالة على جواز محاورة الكافرين والمشركين بالحسنى دون مجادلة أو استفزاز أو تسفيه، وذلك بإظهار علو التوحيد على الكفر والإشتراك، وجعل صفة التوحيد لله تعالى هي محور الحوار.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٤]

هذه الآيةُ أخي المؤمن هي نهايةُ الفصلِ الأولِ مِنْ حديثِ يوسفَ عليه السلام، قَبْلَ أنْ يُجيبَ السائِلينَ عَنْ تَفْسِير رُؤْياهُما، وقد أَطْلَقَ فيها المبدأَ العامَّ الذي اصطفاهُ الله تعالى نبياً ورسولاً من أجل تبليغه ألا وهو: توحيدُ الله تعالى، والاقرارُ بأُلوهيتِهِ المطلقة، ولقد جاء هذا الإعلانُ في ذُروةِ انشدادِ المستَمِعين إلى حديثِهِ، تأكيداً على إتقانه فنّ المُخاطبَة في أرقى أساليبِهِ.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: **﴿ما تَعبدُونَ مِنْ دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾**.

في هذا الشطرِ مَن الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تَعميم الإشارةِ اللفظِيةِ إلى عمُوم أهلِ مِصْرَ رُغْمَ أنَّ المُخاطبين اثنان، وفي هذا تأكيدٌ على عموم الخِطابِ إلى كُلِّ الخليقةِ الذين اتخَذُوا مِنْ دُونِ الله أرباباً، أو أشركوا بالله، وأنه إذا ما خَاطَبهُما فإنه يُخاطبُ مَنْ خَلْفَهُما مِنَ النّاس، فهو بذلك يَتجاوزُ مكانَ الحوارِ، أي السِجن، وزَمانِه إلى أيِّ مكانٍ في الدنيا، وإلى كُلِّ العصورِ والأزمنة، فيقولُ لهم جميعاً: **﴿ما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِه إلا أسماءَ سَمّيتموها أَنتمْ وآباؤكم﴾**.

اللطيفة الثانية: في قوةِ الصورةِ الواردة في لَفْظِ عِبادتِهم بالكُليّة، وإظهارِ سفَاهَةِ مُعْتَقدِهم دُفعةً واحدة، دونَ مُحاباةٍ أو تلطيف، معَ ما تَحْمِلُه هذه الكلماتُ مِنْ معاني القوةِ والعِزَّةِ والمَنَعَةِ: إنه لا يَعْبأُ بِمشَاعِرهم في هذه اللحظات، ولا يستجلبُ وُدَّهم ولا تَعاطُفَهم معه، إنه لا يَستجيبُ في هذه اللّحظاتِ إلا إلى نداءِ رَبِّهِ بوجوبِ التبليغ عنه أسبابَ وُجودِ هؤلاءِ الناسِ على هذه الأرض، وذلك بهدفِ إحداثِ مَا نُسمِّيه اليومَ بالصّدْمَةِ الإيجابيةِ، وسنجدُ في هذه الآية، تسَلْسُلاً في الأدلةِ المقنعةِ الدالة على سَفَاهَةِ رأيِهم، وتفَاهَةِ مُعْتَقَدِهم، ما يَستحقُّ الدراسة بتمعُّنٍ لاستخلاصِ مَبادىءِ دَحْضِ حجج المشرِكين.

اللطيفة الثالثة: في جماليةِ اختيارِ الصفةِ المناسبةِ لما يَعْبُدونَ، إذ قال: **﴿إلا أسماء سَمّيتُموها﴾**، وحينَ نَسْمَعُ هذا الوصْفَ، تَتَّضِحُ لنا الحقائقُ التالية:

فهو بذلك، يَنسِفُها نَسْفاً، ويُحَوِّلُها إلى خَيالٍ مِنْ صُنْعِ الخَيال، وينزِعُ عَنها أيةَ قيمةٍ، فلا معنى لها ولا وُجود.

وهو يتَحدّاهُم في صَراحةِ عبارتِه وجُرأتِه على وَصْفِها بمجردِ الأسماءِ لا غير، بلا وجودٍ ولا نُفوذ، حتى يَنْقُلَ إليهم وجوبَ التساؤُلِ عَن صِحَةِ وَصْفِهِ لها.

وهو يَزْرَعُ الشَكَّ والحَيْرَةَ في نفوسِهم حين يَضَعُهم أمامَ حقيقةِ هشَاشَةِ عِبادتِهم للاشيء، ويُعَبِّرُ بذلك بصورةٍ صارخةٍ مُدَوِّية عن خِفَّةِ عُقولِهم حينَ اقتنعوا بعبادةِ أسماءٍ واهية.

اللطيفة الرابعة: لُغوية، في تَنَاسُقِ العِبارة، حينَ نَسْمعُ **﴿أسماءً سميتُموها﴾** رُغْمَ أهميةِ المضمون، إلا أنَّ أهميةَ الموضوعِ لا تَمْنَعُ مِنْ تمتُّعِ الأُذُنِ بجمالِ العبارة، وتلك مِيزةُ ألفاظِ القرآن الكريم في إمتاعِ المؤمنين مع إكرامِهم بالهِداية.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: **﴿ما أنزلَ الله بها مِنْ سُلْطَان﴾**.

في هذا الشَطْرِ منَ الآية، لطيفتانِ اثنتان:

اللطيفة الأولى: في دِقَّةِ الإقناع الخفيِّ غيرِ المباشر التي اعتمدَها يوسفُ عليه السلام، في تأكيد تَفَرُّدِ الله تعالى بالألوهيةِ المُطْلَقَة، وذلك بالإشارةِ البديهيةِ إلى أنه لا حجّة ولا مصدَر يقيني للعلم، إلا ما كان من عند الله تعالى مما جاءت به الرسُل، أو عقل اهتدى بهُدَى الله.

اللطيفة الثانية: في مُلاحظةِ هذا التدرُّج الذي اعتمدَهُ يوسفُ عليه السلام في إيصالِ فِكرةِ عبثيةِ مُعْتَقِدهم. وذلك على ثلاثِ مراحل:

المرحلة الأولى: في إظهارِ أنها لا تعدو وكَوْنَها أسماءً من غيرِ مسمَّياتٍ في قوله: **﴿إن هي إلا أسماء..﴾**

المرحلة الثانية: في عزْوِ تسميتها إليهم وإلى آبائهم بقوله: **﴿سميتموها أنتم وآباؤكم﴾**.

المرحلة الثالثة: في إظهار أنه ليس لديهم دليلٌ أو حُجّةٌ أو برهانٌ عقليٌ أو نَقْليٌ من مَصْدَرٍ إلهي على صحة عبادَتهم لها وذلك بقوله: **﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾**.

فلمّا اجتمعت هذه الدرجاتُ أدْرَكْنا أنها لا شيء على الإطلاق..

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿إنِ الحُكْمُ إلا لله أمَرَ ألا تعْبُدوا إلا إيَّاه﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في تصاعُدِ وتيرةِ الإعلامِ عَنْ حقيقةِ الوُجودِ البَشريِّ على ظهْرِ الأرض حتى الوصولِ إلى الذُّروةِ في إطلاقِ المُسَلَّمةِ الكُلّيةِ التي لا تحتاجُ إلى زَمانٍ ولا مكان، وتَنْطَبِقُ على كلِّ زمانٍ ومكان، وعليها قَامَت الحياةُ الدنيا وبها نادَى جميعُ الأنبياءِ والمرسلين منذُ أنْ خلقَ الله تعالى الإنسان، وستبقى حتى يومِ الدِّين: هي الحقيقةَ الأَصح التي فيها أسبابُ النجاة، وقِوامُ الفَلاحِ والنّجاحُ، فجاءتْ بعدَ تصاعُدِ تَدرُّجيٍّ بديعٍ، أوصَلَنا إلى تقديرِ أهميةِ هذه القاعدةِ الأساسية.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عندَ المعنى الشاملِ الذي تَضَمَّنَهُ قولُ الله تعالى: **﴿إنِ الحُكْمُ إلا لله﴾**، فإذا بنا نفهمُ:

أنَّ الله تعالى هو المُوجِدُ للكل، المالكُ لأمرِهِم، يفعلُ بهم ما يشاء، لا مُعَقِّبَ لحُكْمِه.

وأنه تعالى له وَحْدَهُ مُوجِبُ العِبادةِ والطاعةِ فلا يَصحُّ التقرُّبُ إلا إليه، ولا يجوزُ السجودُ إلا له، ولا يُقْبَلُ عملٌ لم يُرَدْ به وَجْهُه، ولا يَقْبلُ وسطاءَ ولا أنداداً ولا شُركاءَ في التقُّربِ إليه.

وأنه تعالى إليه المآلُ والمَصير، فلا مَفرَّ مِنْ لقائه، ولا سبيلَ إلى الخلاصِ

من وَقفَةِ يومٍ جامع، يجمعُ فيه الخلائقَ كُلَّها في صعيدٍ واحد، كلٌ يحملُ ما أعَدَّ لِنفْسِه مِنَ الزاد، وما خابَ مَنْ أكْثَر مِنْ صالحِ الزّاد.

وأنه هو الذي يَحْكُمُ بينَ العبادِ يومَ الدِّين، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، إلا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم، وهو الحكَمُ العَدْل الذي لا يَظْلِمُ مِثقالَ ذَرَةٍ في الأرضِ ولا في السماء.

وأنه هو الذي يُعطِي الجَزاء، فإمّا نعيمٌ مُقيم، وإما جَحيمٌ بِلا قَرار.

اللطيفة الثالثة: لُغوية، في مُلاحظةِ الصِيغةِ التي ورَدَتْ فيها الآيةُ الكريمةُ وهي صِيغةُ قُوّةٍ وجَزم، رأينا فيها أداةَ الحَصْرِ **﴿إلا﴾** تَرِدُ ثلاثَ مراتٍ في آية واحدة:

الأولى في قوله تعالى: **﴿إلا أسماءَ سمّيتمُوها﴾**.

الثانيةُ في قولهِ تعالى: **﴿إنِ الحُكْمُ إلا لله﴾**.

الثالثة في قولهِ تعالى: **﴿إلا إيّاه﴾**.

وفي ذلك تحفيزٌ نَفْسِي لقارىءِ القرآن ومستمِعه، على إيلاءِ الآيةِ حَظّاً وافراً منَ الفَهْمِ والتدَبُّر.

ثم تَنْتَهي الآيةُ بقولِ الله تعالى: **﴿ذلكَ الدينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثَرَ الناسِ لا يعلمون﴾**.

وفي هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في هدوءِ وَتيرةِ الإعلام، باستخلاصِ المعاني بعدَ استحضارِ المباني للأذهان، وذلك بإيرادِ حَقيقتين اثنتين غيرِ مُتطابقتين:

الأولى: أنَّ الدِينَ عندَ الله الإسلام.

والثانية: أنّ أكثَر النَّاسِ لا يعلمونَ أينَ يكونُ صالحِهُم وخَلاصهُم.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عِندَ عمقِ المعنى الذي حَملَتْهُ كلمةُ: ﴿**الدِّينِ القيم**﴾ فنحن نَفْهَمُ منها:

أَنهُ الدينُ الثابتُ المستقيم، الذي لا عِوَجَ فيه.

وأنه المُقَوِّمُ المعَدِّلُ للأُمور، الذي يَمْنَعُها منَ الشَتاتِ والضّياع.

وأنه المُهيمنُ المشرِفُ على ألأَعمالِ والتصرفات، يَضَعُ لها أُسُسَها الصَحيحةَ المقبولة عندَ الله تعالى.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا للحقيقةِ الأكيدةِ الثابتة، التي وَرَدَتْ في نهايةِ الآية بقولِ الله تعالى: ﴿**ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾، وفي هذا إعلامٌ عن حالِ أكثَرِ الناسِ في غَفْلَتِهم وذُهولِهم عنِ الدينِ القَيِّم، وأنَّ هذه الحقيقةَ ليستْ فقط في زمنِ يوسفَ عليه السلام، بل كانتْ في الزمنِ الذي سَبَقَه، وتَكرَّرَت في الزمنِ الذي تلاه ولا تَزَالُ تتكرَّرُ على مَرِّ الأزمان، وتَعَاقُبِ العُصور: ولقد تَتملكُنا الدَهْشَةُ حينَ نتساءَلُ عن سببِ إعراضِ الناسِ عنِ الدِينِ القَيِّم، تزولُ دهشتُنا حينَ نَسْمَعُ في القرآنِ الكريم تَوعُّد الشيطانِ الرجيم بني آدمَ بالغِوايةِ إذْ نقرأُ في سورةِ الأعراف: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿**قال أنظرني إلى يومِ يُبْعَثونَ * قال إنك من المنظرين * قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾[١].

(١) [سورة الأعراف، الآية: ١٤- ١٧].

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على متانة الدين القويم، وذلك بإيراد الآية بما تمثله من زخم قوي تحمله في ألفاظها، يعطي المسترشد بها قوة معنوية ولفظية عالية لا تجدها إطلاقاً في أقوال البشر أو دعواهم، وفيها من العزة والصلابة ما يجعلها تنطق وحدها على هزال الشرك والإلحاد.

٢ - للدلالة على أن أكثر الناس في كل العصور، هم في حال من الضياع والتيه، وهي تأتي جواباً عن تساؤل المتأمل في حال هذه الأمم الكثيرة الأعداد، التائهة عن درب الصواب، الغارقة في الضلال والضياع، في قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٥]

مع هاتين الآيتين يَنْتَهِي أخي المؤمن، هذا الفَصْلُ مِنْ حياةِ يوسفَ عليه السلام، يُوطِّدُ معه أُسُسَ المرحلةِ اللاحقة التي ستبدأُ بعدَ بضعِ سنوات، وسنَجِدُ في هاتين الآيتين مَزْجاً رائعاً في وَصْفِ خصائصِ النبوةِ والرسالةِ فيه معَ تَناغُمٍ في وصفِ بشريتهِ التي لا يخرجُ عنها، ونَتذَوَّقُ عُذوبةَ القرآن الكريم في أُسلُوبِهِ اللُّغويِّ الفريدِ في القَصص.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: **﴿يا صَاحِبَي السجنِ أمّا أحدُكُما فيسْقِي رَبَّهُ خمراً﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في العودة بعدَ الآيتينِ السالفتينِ المدويتين اللتينِ رأينا فيهما موقفاً جازماً من يوسفَ عليه السلام، بشأنِ إيضاحِ عقيدةِ التوحيدِ، حتى قارَبَ فيهما البِعادُ عنْ نزيلي السِجن في تَسْفِيهِ عِبادَتِهم، ما يُخَلِّفُ موقفاً مُتأزِّماً في الحوارِ بينهم إذا به يعودُ للاقترابِ مِنهما في افتتاحِ الآيةِ بقوله: **﴿يا صَاحِبَيِ السِجْنِ﴾**.

اللطيفة الثانية: في قوله: **﴿أَمّا أَحَدُكُما﴾** فنرى الإيجازَ القرآنيّ وعُلُوّ اللغة المنتقاةِ عنِ التفصيلِ المألوفِ لدى الناسِ في السرد، ونحن نَفْهم من هذه العبارةِ:

أنَّ يوسفَ عليه السلام حينَ أعْطَى الحُكمَ في تأويلِ الرؤيا إنما ارتقى عن أشخاصِ السائِلينَ، ونأى في تفسيره عن ذَاتهما تعبيراً منه عن عدمِ التأَثُرِ بما لهذا أو ذاك مِنْ خصائصَ فردية..

ونفهم أنّ يوسفَ عليه السلام إنما هو في هذه اللحظاتِ مُبَلِّغٌ عنْ رَبّه في كلِّ كلمةٍ يقولُها، لأنّ فيها إعلاماً غيبياً يَفوقُ طاقةَ البشر، ولذلك نَلْحَظُ الثِقَةَ في العبارةِ، واليقينِ القَطْعِيّ في الإبلاغِ بِمَعْزَلٍ عمّا سيَصدُرُ منه لاحقاً منْ تعليقٍ بعدَ التبليغ بعدَ انتهاءِ تأويلِ الرؤيا، حيثُ سيختلِفُ الأُسلوبُ وتختلفُ العِبارات.

اللطيفة الثالثة: في قوله: **﴿فيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾** لقدِ استعملَ صيغةِ الغائبِ رُغمَ أنّ السائلَ قُبالتَه، ولم يَقُل له: أمَّا أنتَ فَتَسْقَى رَبَّكَ خَمْرا، وفي هذا تمامُ توكيدِ تجنُّبِ يوسفَ عليه السلام الإشارةَ إلى أحدهما بذاتهِ، فيما أورَدَ مِنَ التأويل، وهي خاصةٌ نادرةٌ في تصرُّفِ البشر، إلا منْ أُوتيَ حِكْمَةً وعِلْماً.

اللطيفة الرابعة: في أُسلوبِ التلميحِ دونَ التصريح في إعطاءِ القولِ الفَصْلِ

في مَصيرِ السائِلينَ، فلم يَقُلْ للأولِ أنتَ ناجٍ بلِ اكتفى بالإشارةِ إلى بعضِ مُسْتَتبعَاتِ النجاة، أي عودتهِ إلى مُزاولَةِ عَمَلهِ، والسببُ في ذلك، إعمالُ التَناسُقِ بينَ هذا الإعلام، والإعلامِ الذي سيَليهِ عنْ مَصيرِ السائلِ الثاني، على ما سنَرى في لاحقِ الآية.

اللطيفة الخامسة: لُغوية: فحين نَسْمَعُ في القرآنِ الكريم عِبارَة: يَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً، للإشارةِ إلى سَيِّده: نَفْهَمُ مَدى سَعَةِ اللغةِ العربيةِ لاحتواءِ المعاني المُتعدِّدَةِ في اللفظِ الواحد، حتى السماحِ باستعمالِ كلمةِ رَبٌّ للإشارةِ إلى السيد.

تقودُنا هذه المسألةُ إلى الإشارةِ إلى أَمرين اثنين:

الأول: أنّ على الخائضِ في اللغةِ العربية من غيرِ أهلها أنْ يعِيَ هذه المِيزةَ في لُغةِ القرآن الكريم، ولا يَتجنّى بجهلِه على نُصوصِ أهْلِها: عَنَيْتُ بهم أولئكَ المستشرقِينَ الذين عاثُوا في تُراثِنا نخراً وحَفْرا، وشَوَّهُوا الحقائقَ وزَيفُوا التاريخ، وإذا بهِم يَتصدّرونَ لِينقُلُوا إلينا تُراثَنَا كما فَهِمُوه هم.

الثاني: وجوبُ الرِفْقِ عندَ الناقدين، في أحكامِهم على أصحابِ الأدبِ واللسان، قبلَ الحُكْمِ عليهم بالشّطَطِ أو الكُفر، إستهداءً بِهَدْي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: «**إلتمس لأخيكَ عُذْراً**» فكَمْ منَ الألفاظِ التي اتُهِمَ أصحابُها ظُلماً، بسببِ عدمِ فَهمِ مقاصدِهم في توَسُّعِهم في استعمالاتِ اللغة.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**وأمّا الآخرُ فيُصْلَبُ فتأكُلُ الطيرُ منْ رأسِه**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في هذا الزَّخمِ التَّصْويريِّ البديع الذي يَزْخَرُ به هذا الشطر، فنفهمُ من هذه الكلماتِ الوجيزة:

أنَّ مصيرَ الخَبَّازِ يتحدَّدُ هذه اللحظاتِ في موقفٍ صَعْبٍ على السائلِ والمسؤول.

وأنَّ يوسفَ عليه السلام، لم يَتَردَّدْ في إيرادِ الحقيقةِ المُرَّة، وهو يُعْلِنُها وجهاً لوجه، أمامَ الباحثِ عن تعبيرِ رُؤياه.

وأنه دونَ أن يتلفَّظَ بكلمةِ الموت، أَعطى الموتَ بُعداً تصويرياً حين حملَ القارىء والمستمعَ على تصَوُّرِ المصيرِ الذي سَيؤُولُ إليه الخَبَّاز.

وأنه مصيرٌ واضحُ المعالم، مُحَدَّدٌ بالتفصيل: سيكونُ صَلْباً لا يُرجَى معه فكاكاً، والتدليلُ على حَتْمِيةِ الموتِ هو التفصيلُ الآخرَ الذي تلاه حين صَوَّرَ كيفَ أنَّ الطيرَ ستأْكُلُ مِنْ رأسِهِ.

اللطيفة الثانية: في تناسُقِ السِياقِ معَ ما جاءَ في الشَطْرِ السابق، حينَ تكلَّمَ يوسفُ عليه السلام، بصيغةِ الغائب في حديثِهِ مع الحاضر، نظراً لجسامةِ وخُطورةِ المعلومة المُعطاة، وذلك بهدفِ مَنْعِ الظَنِّ باستهدافِ الخَبَّازِ لشخْصِهِ في الحُكْم، وللتجَرُّدِ الكَامِلِ في نَقْلِ الخَبرِ عنْ ربِّ العالمين..

اللطيفة الثالثة: في تقديمِ خبرِ النجاةِ على خبرِ الهلاكِ وهذا من الأَدبِ الرفيعِ في المخاطبة، فلقد بَشَّرَ الساقي بنجاتِهِ أولاً، تناسُقاً مع طبيعةِ البشر في طَلبِ البِشر.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان**﴾.

نشعرُ مع هذه الكلمات صعوبةَ الموقفِ وحَرَجهُ في آن: إنه تعبيرٌ عنِ افتراقٍ حتمي بعدَ هذه اللحظات، بين ناجٍ وهَالكٍ، وصعوبةُ الموقف تَنبعُ مِنْ أنهما صَدقاهُ مُسبَّقاً حين رأياه منْ المحسنين ولجآ إليه.

وكان في جوابه لهما: ﴿**قُضِي الأمر**﴾ دَلالةٌ على وَحْي.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وقال للذِي ظَنّ أنه ناجٍ منهما اَذْكُرني عِنْدَ رَبِّك﴾.

في هذا الشطرِ الأولِ من الآيةِ الثانية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في التحوُّل المباشِرِ في أقوالِ وأحوالِ يوسفَ عليه السلام من خِطابِه الأول، حينَ أبلغَ السَّائلينَ عِلماً غيبياً، نقَلَهُ باليقينِ القَطْعِيِّ عنِ الله تعالى، إلى خِطابِه الثاني، حينَ تَحدَّثَ بواقعِ حالِه البَشريِّ إذْ أشارَ إلى سَجْنِه ظُلماً وعُدواناً، وهو يَسْعَى للخَلاصِ منْ هذا الظُلم، فنَرى أنَّ الوَتيرَة قد انخفضتْ، ولهجةَ الكلامِ قد تَغَيَّرَتْ.

وهو بذلك يوكِّدُ بَشَرِيَّتَه، مثْلُهُ في ذلكَ كمثَلِ كُلِّ الأنبياءِ والمُرْسَلين الذين ما انفكُّوا عنْ بشرِيّتِهم في حياتِهم ومعَاشِهِم، وآلامِهم ومُعاناتِهم.

اللطيفة الثانية: في احتمالِ الصيغةِ المُنتقاةِ أكثَرَ مِنْ معنى، وهذا كثيرٌ في القرآن الكريم، وهو يُعطي لآياتِ القرآنِ الكريم، غنىً واسعاً في التفسير.

ففي هذه الآية جاءت الصِيغة: ﴿وقال للذي ظَنّ أن ناجٍ مِنْهُما﴾.

قال بعضُ المفسرين: الذي ظَنّ هو يُوسفُ عليه السلام، وهنا على قولِ أكثر المفسرين بمعنى أيقَنْ، وعلى قولِ بعضِهم، تَوَقَّعَ واجتهَدَ..

وقال البعضُ الآخر: الذي ظَنّ هو الساقي مُحَدِّثُ يوسفَ عليه السلام، وهو مما يَقْبَلُهُ المعنى أيضاً.

فتَدَبَّرْ أخي المؤمن جَمَالَ ألفاظِ القرآن..

اللطيفة الثالثة: في استعمالِ صيغةِ اسم الفاعل الدّال على المُضَارِعة في قوله: ﴿أنه ناجٍ منهما﴾ بدلاً من قوله (أنه سينجُو منهما): الدالةِ على المستقبل لإفادةِ حَتمِيّةِ الوقوع.

فالله تعالى هو الذي قَضَى بنَجاتِه: فجاءَت العبارةُ على هذا النحوِ أثبَتَ وآكد.

وفي قوله تعالى: ﴿اذكُرْني عندَ ربِّك﴾ لم يَرِد التفصيلُ لما هو مطلوبِ أن يُذكَرَ عندَ المَلِك، فاحتمل المعنى أن يَذكُرَهُ بِعلمِه ومَكَانته، كما احتملَ أن يَذكُرَهُ بِمَظلَمتِهِ وما امتحُنَ به بغيرِ حق، أو يَذكُرَهُ بجُملة ذلك.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿فأنسَاهُ الشيطانُ ذِكرَ رَبِّه فَلَبِثَ في السجْنِ بِضْعَ سنين﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قوله تعالى: ﴿فأنسَاهُ الشيطانُ﴾ وفي هذا تنبيهٌ لنا إلى التصاقِ الشيطانِ الرجيم، بدخائلِ أُمورِنا، دقيقِ تَفصيلاتِها، وإيضاحٌ لنا أنَّ عزيمَتَهُ على الإضرارِ بنا لا تفتَرُ، وحَضٌ لنا على وُجوبِ التنبُّهِ والحذرُ منه، بل مقاوَمَتُه والغَلَبَةُ عليه، بدوامِ ذِكرِ الله تعالى، والمحافظةِ على حُسْنِ العلاقةِ معَ الله تعالى.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لاختلافِ الصِيغةِ في الآيةِ ذاتِها حين نَسْمَعُ أولاً: ﴿أذكُرني عندَ رَبِّكَ﴾، ثم نسْمَعُ في آخرِ الآية: ﴿فأنساهُ الشيطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ وظاهرُ الحالِ اللغويّ يستوجِبُ قولَ: فأنساهُ الشيطانُ ذِكْرهُ عندَ رَبِّه.

ثم إنّ دائرة ما أنساه الشيطان، تتّسِعُ لتشملَ عِدّةَ أمورِ منها:

- أنساهُ الشيطانَ الحديثَ عن يوسفَ عندَ الملك.
- وأنساهُ أهميةَ الحدَثِ الواقعِ بينهم هذه اللحظات في التبليغِ عَنْ نَجاتِهِ.
- وأنساهُ المِيزَة الكُبرى التي يَتَمتعُ بها يوسفُ عليه السلام في تأويلِ الرُّؤى.

والأمورُ السالفةُ الذِكْر مترابطةٌ فيما بينها، وكُلٌّ واحدةٍ منها عندَ افتكارِها تَلْفِتُ الانتباهَ وتَحُضُّ على الحديثِ عَنْ يوسفَ في حَضْرةِ المَلك، إلا أنه قضاءُ الله تعالى، الذي يأخُذُ مَجراهُ في تَطَوُّرِ الأحداث.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**فلَبِثَ في السجْنِ بِضْعَ سنين**﴾ وفي هذا تَعبيرٌ لُغويٌ جميل عن انتقالٍ زمنيٍّ لطيف، في مجرَيات الأحداث، ما احتاجَ إلى كثيرِ كلام، ليَنقُلَنا معه إلى حِقْبةٍ جديدة، تبدأُ معها نِهايةُ الأحزانِ في حياةِ يوسفَ عليه السلام.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على بشرية الأنبياء والمرسلين في تأثرهم بما يتأثر به الناس من ألم وجور وتأذٍ من الظلم وحبس الحرية، والرغبة في التخلص من الظلم الواقع بهم.

٢ - للدلالة على شدة التصاق الشيطان بنا، في محاولته على الدوام إغواءنا والسعي لإيقاعنا في المهالك، وفرحه بما يصيبنا من تيه وضياع ومحاولاته الدؤوبة لإيقاعنا في المعاصي. وحري بنا أن نتنبه لوجوده ونترقبه ونقارعه ونقاومه، وذلك بدوام ذكر الله تعالى والمثابرة على الطاعات.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٦]

مع هاتينِ الآيتين تَنْتَقِلُ بنا الأحداثُ أخي المؤمن إلى فصلٍ جديدٍ من فصولِ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، وكُنا قد تَرَكْنَاهُ في السجن، يقضي عُقوبة حَبْسِهِ ظُلماً ليُكَفِّرَ عن ذَنبٍ لم يَرْتَكِبه، لم يُحاكَم ولم يُقضَ عليه بمدةٍ زمنيةٍ مُحَدَّدة. هكذا، وضعُوهُ ونَسُوه، وكم تَتكَرَّرُ وتتَكَرَّرُ على مَرِّ العصورِ مأساةُ ظُلْمِ الإنسانِ للإنسانِ ثم يَمْضَونَ جَميعاً، وقد خابَ مَنَ حملَ ظُلْماً.

يقولُ الله تعالى: **﴿وقال المِلكُ إني أرى سَبْعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكلُهُنَّ سَبْعٌ عِجاف﴾**.

في هذا الشطر منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: **﴿وقالَ الملِك﴾** وهنا يَكْمُنُ إعجازٌ تاريخيٌّ للقرآن الكريم: ففي حين يَرِدُ ذِكْرُ حُكّامِ مِصْرَ بِلَقَبِ فرعونَ في ستين (٦٠) آيَةً في القرآن الكريم. يَرِدُ لَقَبُ حاكمِ مِصْرَ في ثلاثةِ مواضِعَ مِنْ سورةِ يوسف باسْمِ المَلِك، وتفسيره: أنّ يوسفَ عليه السلام، سكَنَ مِصْرَ في زمنِ الملوكِ الرُّعاة الهكسوس ولم يُعْرَفْ تاريخُ مِصْرَ واجتياحِ الملوكِ الرُّعاةِ لها، إلا بعدَ العثورِ على حَجَرِ رشيد الذي اكتَشَفَهُ الفرنسيون عام (١٧٩٩) ألفٍ وسبعمئةٍ وتسعةٍ وتسعين أثناءَ حملتِهم على مِصْر، وبعدَ دراسةِ أحدهم للُغاتِ الإغريقية والقِبطيةِ والعربية مدةَ عشرين سنة، تَمَكَّنَ بعدَها من فكّ رموزِه مِمّا مَهَّدَ لمعرفةِ تاريخِ مِصر.

اللطيفة الثانية: في الانتقالِ السريعِ من مشهدِ يوسفَ عليه السلام في السِجْنِ معَ صَاحِبه وقد أمضَى الله تعالى أَمْرَه،وصَدَقَتْ رُؤيا يوسفَ عليه السلام، فخَرَجَ السّاقي، وصُلِبَ الخَبّاز، ثم مَرتْ أيامٌ طويلةٌ جاوزتِ السنوات، أفهمْتنَا الآيةُ الكريمةُ بالتلميح، دونَ صريحِ البيان مرورَها إلى أنْ آنَ أوانُ فِكَاكِ سَجْنِ يوسفَ عليه السلام، فجاءَتِ الآيةُ الكريمةُ لِتَضعَنا مباشرةً في قلبِ

الحَدَث، هو يدور من جديدٍ في عالمِ الرُّؤى، وفي هذا الانتقال حمْلٌ للقارىءِ والمستمع على التفاعُلِ مع الأحداثِ مما يؤَمِّنُ له استمرارِ المتابعةِ وَمَنْعَ شَتَاتِ الذِهْنِ.

اللطيفة الثالثة: في عدمِ ذِكْرِ أنّ ما رأى الملكُ كان رُؤيا منامية فقد قال الملِك: **﴿إنّي أرى سَبْعَ بقرات﴾**، ولم يَقُلْ «إني أرى في المنام»، وقد وردَتْ هذه الصِيغةُ في القرآنِ الكريم في موضعِ آخر، وفي هذا جَماليةٌ لُغوية:

فلم تَرِد لأنّ الذِهْنَ يُدْرِكُ تِلقائياً في عُرْفِ البشر أنها رؤيا في المنام.

ولأنّ محوَر قِصةِ يوسفَ عليه السلام في كلِّ مَراحِلِها يدورُ حولَ الرُّؤى.

ولأنّ التأكيدَ على أنها رؤيا سيردُ في آخرِ الآية، كان الأسلوبُ أبلغَ في عدمِ التّكرارِ،ويكونُ أكثَرَ بلاغةً حينَ يكونُ المحذوفُ في أوّلِ الكلام.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ غرَابَةِ المشهد في رُؤيا الملِك: فلقد رأى بَقَراً يأكلُ بقراً، وهذا خِلافُ ما اعتادَ عليه الناس،ويَزدادُ المَشهدُ غرابةً، حين يرى أنّ البقرَ الهَزيلَ الضعيف، يأكلُ البقرَ السَّمين.

وهذا أيضاً خِلافُ ما اعتادَ عليه الناسُ في إعمالِ مبدأ القياسِ في الأحجامِ.

ولقد شاءَ الله تعالى، أن يكونَ المشهدُ غريباً،ليحصلَ التحريكُ في الأحداثِ حتى يقضيَ أمراً كان مفعولاً.

اللطيفة الخامسة: في الدُّخولِ المفاجىءِ لعُنصرِ جديدٍ على القِصة، ألا وهو المَلِك، فلقد كانتِ الأحداثُ تَدورُ حتى الآنَ بعيداً عنه، ولم تَكُنْ هناك حاجةٌ قَبْلاً لذِكْرِهِ. إلا أنَّ الله تعالى، جَعلَ كلَّ شيءٍ بقَدَر، فأجرى الرُّؤيا عندَ الملك، وجعلَها مُعَقَدةً صَعْبَة الحل، فأحدثَ المَلِكُ في بحثِهِ عن تفسيرِ رُؤياهُ تحريكاً غيرَ هادىءٍ لمجرَياتِ الأحداثِ، سيكونُ في صالحِ يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة السادسة: لُغوية في قولِه تعالى: ﴿**عِجاف**﴾ أي أصابَها الهزال الشديد، وهي جَمْعُ أعجفُ وعَجْفاء، وفي غير القرآنِ الكريم يكونُ الجمعُ على وزنِ فُعُل أي عُجُف، إلا أنّ وُرودِها في صيغةِ عِجاف، جاءَت أكمل، تَناسقاً مَعَ قولِه تعالى: ﴿**بقراتٍ سِمان**﴾.

فانظُر أخي المؤمن، أينَ يذهبُ بكَ القرآنُ الكريمُ في التمتُّعِ بجمالِ اللُّغة.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**وسَبْعَ سُنبلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يَابِسات**﴾.

وفي هذا الشطر منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في التوافُقِ اللُّغويِّ بين هذا الجزءِ مِنَ الرؤيا، مع الجُزءِ الأول:

فهناكَ سبعُ بقراتٍ، وهنا سبعُ سُنْبُلات.

وهناك يَغْلِبُ الضَعيفُ القَويَّ وهنا أيضاً.

وهناكَ لم يَفْقَهِ الملكُ مَعْنَاها، وهنا أيضاً.

وهذا التوافقُ يحققُ الانسجامَ في ذهنِ القارىءِ والمستمع، في سَعْيِهِ لمعرفةِ تأويلِ الرؤيا.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا أنه رُغمَ التُّوافقِ السالِفِ الذِكْر، جاءَ هذا الشطرُ منَ الآيةِ بأسلوبٍ يختلِفُ عنِ الشطرِ الأول، مَنْعاً من حصولِ التَكْرار:

فلَمْ تُذْكَر أعدادَ السُنْبُلاتِ مرتين، كما حصَلَ مع ذكرِ البَقرات، وإنما قال الله تعالى: ﴿**وأُخرَ يَابِسات**﴾.

ولم تُذكر غلبةَ الضّعيفِ على القَويِّ من السُنبلاتِ معَ ذهابِ المعنى إلى حصولِهِ، وقد ذُكِرَ في الشطرِ الأولِ من الآية.

وهذا الأسلوبُ في السردِ، يفوقُ أسلوبَ البشرِ في التعبيرِ والإيجاز.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ عناصِرِ رُؤيا المَلِك: وهي البقرُ والسنابل، لنتأمَّلَ المَغْزَى الذي رَمَتْ إليه الآيةُ الكريمة:

فهذانِ العنصرانِ ممَّا أَلِف الناسُ رؤيته في حَياتِهِمُ اليومية.

وهما في ظاهرِ الحال مِنَ الأمورِ البسيطةِ على الفَهْمِ والإدراك.

إلا أنَّ حركةَ الرُّؤيا، جعلَتْها مِنْ أصعبِ الألغازِ.

وهذا ما سَمَحَ للملِكِ بالتعبيرِ السليمِ عنْ مضمونِ الرُّؤيا في طلبهِ للتفسير مع عدمِ تَمكُّنِهِ من فَهْمِ معاني رُؤياه.

لقد شاءَ الله تعالى أن يُعْلِمُ المَلِكَ، ومِنْ خَلْفِهِ البَشر، أنهم لم يبْلُغُوا منَ العلمِ إلا القليل، وما هم ببالغينَ منهُ شيئاً إلا بما شاءَ لهم مِنَ الفتح، ولا يَتكرَّرُ الفَتحُ الغَيْبِيُّ إلا وقتَ مجيء الأنبياءِ والرُّسُل.

أمَّا ما تَبَقَّى مِنَ الفَتْح، فهو بالتَّتابُعِ والتَّراكمِ.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**يا أيها الملأ أفْتوني في رُؤيايَ إن كنتُم للرُّؤيا تَعبرُون**﴾.

في هذا الشطر من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا للحالِ النَّفسيَةِ للملِك، في هذه اللحظات:

فلقدْ أصابَهُ الاضطرابُ والتأزُّمُ حينَ جاءَتْهُ الرُّؤيا، ولم يَقْدِرْ على تأويلِها أو فَهمِها، رُغْمَ وُضُوحِها: لقد جاءَتْ واضحةً لا تَحْمِلُ اللَّبْسَ، ووقائِعُها سهلةٌ على السَّرْد.

وهو رُغْمَ سُلْطَتِهِ وبَأسِهِ لم يَقْدر لها دَفْعاً، بل انسلَّتْ إليه في هَدأةِ نومِهِ، وتجاوَزَت كُلّ الدِّفاعَاتِ واستقرَّت في ذهنِه.

فإذا به يَستَنْجِدُ بالناسِ وقدِ اعتادَ أن ينجد.

وكانَ في كلامهِ تعبيرٌ عنِ الضَّعفِ إذْ قال: ﴿**يا أيُها الملأُ أَفْتُونِي في رُؤيايَ**﴾.

وكانَ في كلامهِ شَكٌّ في إمكانيةِ نَجْدَتِه إذ قال: ﴿**إنْ كُنتُم للرؤيا تَعْبرُون**﴾.

فيكونُ بذلك قد استجمَعَ كُلَّ عناصرِ الإحصَار:

- فهو ضعيفٌ رُغْمَ كُلِّ القوةِ التي يَتمتَّعُ بها.
- وهو متأكِّدٌ منْ وُجودِ خَطرٍ داهمٍ، نظراً لوضوحِ الرُّؤيا.
- وهو غير متأكِّدٍ منْ أنّ الملأَ سيُحْسِنُونَ تَعبيرَها.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ جماليةِ الصُّورةِ التي ساقَتْها إلينا كلمةُ: تَعْبرُون، والعُبورُ يكونُ عادةً للنهرِ أو المفَازَةِ، فحينَ تقولُ: عبَرتُ النهرَ تتخيَّلُ نَفْسَكَ تخوضُ عُبابَه، وتتجاوَزُه من مكانٍ إلى آخر.

وهكذا الصورةُ في الآيةِ القُرآنية: عبورُ الرؤيا، وكأنك تَسْلُكُ فيها من مَبْدَئها إلى مُنْتهاها مَسْلَكاً يُمَكِّنُكَ منَ الإمساكِ بأطرافِها.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ مبدأ أساسي طبَعَ الله تعالى عليه نفُوسَ البشرِ في التكامُلِ والتَّناصُر عندَ ضَعْفِ الحَوْلِ، وذَهابِ الطُّول، ولم يَخْرُج الملِكُ عن هذه القاعدة في طلبِ المعونةِ منَ الملأ، ولا يَخرُجُ عنها سَوِيٌّ عَاقِل، تأكيداً على ضَعْفِ الإنسانِ مَهْمَا بَلَغَ منَ القُوَّةِ وعُلُوِّ الشأْنِ مِصداقاً لقولِ الله تعالى: ﴿**وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً**﴾[١].

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**قالوا أضغاثُ أحلام وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمين**﴾.

---

(١) [سورة النساء الآية: ٢٨].

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لحْظِنا لاشتدادِ التأَزُّمِ في حقِ الملكِ: لقد عَبَّرَ في الآيةِ السابقةِ عن عَجْزِهِ عنْ تأويلِ رُؤياه، واستنجدَ بالعارفينَ والمعبرين مِنْ قومهِ، ومنْ عادةِ الملوكِ أن يأْمُروا فيُطاعُوا وأن يَطْلُبُوا فيُلَبُّوا، وإن يستشيرُوا فيُشَارَ عليهم بما يُحبُّون ويَرْضَونَ.

قال لهم: ﴿أفْتُوني في رُؤْيايَ﴾، فأجَابُوهُ: **﴿أضغاثُ أحلام﴾**.

فبدلَ أن يُهَدِّئوا مِنْ رَوْعِه، ويُعيدوا السَّكينةَ إلى نَفْسِهِ، زَادُوهُ اضطراباً وتَأَزُّماً وكأنهم يَدْفعُونَ بالقِصةِ إلى قِمّةِ التأَزُّمِ، ويَصلُونَ بها إلى ما تعارَفَ اللغويُّونَ على تسميتهِ بالحَبْكَةِ، كلُّ هذا بتقديرِ الله تعالى الذي أعجزَهُم عنِ التأويل، وأقْعَدَهُم عنِ التفسير، حتى يأخذَ الحلُّ لهذه العُقدَة مكانَتَه.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ الجماليةِ اللغويةِ في التصويرِ القرآنيِّ في قولهِ تعالى: قالوا أضغاثُ أحلام، والضِّغثُ في اللغة هو الحَزْمَةُ من أنواعِ النّباتِ والعُشْبِ والحَشِيش، بِشَرْطِ أنْ يكونَ مما قامَ على سَاقٍ واستَطالَ، فهي المجموعَةُ من النّباتِ الغيرِ مُتنَاسِقَة، كأنك تقول: مِنْ كُلِّ وَادٍ عصا، فإذا بهم يُشَبِّهونَ رُؤيا الملك بالمجموعةِ المتنافِرَةِ منَ الصُّورِ والأفكارِ التي ضُمَّتْ في حَزْمَةٍ واحدة، فقالُوا: **﴿أضغاثُ أحلام﴾**.

اللطيفة الثالثة: في دِقةِ التعبيرِ القُرآنيِّ في وقوفِنا عندَ قولهم: **﴿وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمينَ﴾**

فإنَّ المَلِكَ حينَ جَمَعَهُمْ، لم يَجْمَع سوادَ الناسِ الذي لا علمَ لديهم.

بلْ جمعَ أهلَ العلمِ في زَمانهِ الذين اكتسبُوا من معارفِ زَمانِهم أكملَها

وأدَقَّها وخاصةً من عُرفَ بين الناسِ بتعبيرِ الرُّؤى وربما جمعَ السَّحرة والكهَنَة.

وهم لم يَنْفُوا عن أنفُسِهم العلمَ بالكُليَّةِ، بل قامُوا بالتفريقِ بينَ أمرين:

الأمر الأول: هو تعبيرُ الرُّؤى، وذلك حينَ تكونُ أحداثُ المنامِ متسقةً متناغمةً متوافقةً مع ما ألَفَهُ الناسُ منَ الأحداثِ.

والأمر الثاني: هو حينَ تكونُ الأحداثُ مختلطةً مضطربةً لا يكونُ فيها ترتيبٌ معلوم، واتفقُوا على تسميتها بالأحلام.

فهم بذلك لا يَنفَونَ عن أنفسِهم العلمَ بالكُليَّةِ، بل يَنفُونَ عِلْمَهم بتأويلِ الأحلامِ فقط، فجاءَ التعبيرُ القُرآنيُّ: وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمينَ.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على ضعف الإنسان مهما علا في السلطة والجاه والسلطان، حتى وإن صار أقوى ملوك الأرض، فإن حدثاً بسيطاً، كرؤيا في المنام، يمكنه أن يفزعه ويؤرقه ويذكره بواقعه الضعيف، فهو تحت ألطاف الله تعالى، وإن شاء أوضعه وافقره وأذله وأفقده شعوره بالعزة والسلطان.

٢ - للدلالة على أن الله تعالى إذا شاء أن يغم على الخلق جميعهم أمراً ما، فلن يقدروا أبداً بما يملكون من مقومات المعرفة والعلم أن يخترقوه، إلى أن يأذن لهم بذلك، وإن حصل وعرفوه، وجب عليهم أن يشكروا الله تعالى أن سمح لهم بمعرفته، لا أن يتنكروا وينكروا الفضل، والمؤسف أن هذا هو حال أكثر الناس، وخصوصاً أهل العلم والإختصاص الذين يجحدون فضل الله تعالى عليهم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِى سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٌ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٧]

نُتابعُ مع هذه الآيةِ أخي المؤمن، سِياقَ الفَصْلِ الفَاصلِ في حياةِ يوسفَ عليه السلام، والذي سيُسلَّطُ عليه الأضواء، كنتيجةٍ لحلِ عُقدةِ تأويلِ رُؤيا الملك، وقد رأينا في الآياتِ السابقة كيفَ عجزَ المفسِّرونَ عنِ التأويل وبلغَ التأزُّمُ لدى الملك مَبْلَغه مما استوجَبَ حَشْدَ طاقات الحاشيةِ بكاملِها.

يقولُ الله تعالى: **﴿وقالَ الذي نجا منهما وادكر بعدَ أُمَّةٍ أنا أُنبئُكم بتأويلهِ فأرسِلُون﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في عُلُوِّ النَّصّ القُرآنيِّ عنْ ذكرِ اسم أو صفةِ الشرابيِّ، وهو الذي قَضَى له الله تعالى بالنّجاة، وكان قد علمَ بنجاتِهِ مَنْ يوسفَ عليه السلام، حينَ عبّرَ له تفسيرَ رُؤياهُ، وهذا الحدثُ بذاتِه لا يُمحى منَ الذاكرةِ، وإنْ تَوارَى حيناً من الزمن، في تلافيفِ الأحداثِ المختزَنَةِ لديه، وقد هَيّأَ الله تعالى كلَّ الأسبابِ لحصولِ الاستذكار:

فجعلَ مَجرياتِ الأحداثِ، تدورُ بشكلٍ تَرَقُّبِيٍّ في حَقِّ الشّرابيِّ في الفترةِ الممتدَّةِ بين تعبيرِ رُؤياهُ إلى حينِ نَجاتهِ، مما طَبَعَ الحَدَثَ في الذاكرة. .

ثم خبَتْ هذه المشاعرُ على عادةِ الناس بعدَ نجاتِه، وعادَ إلى الدُّنيا يخوضُ فيها معَ الخائضين.

ثم حصلتْ رُؤيا الملك، ولم تَتّضِحْ معالِمُ مَغْزَاها لديه، ثم أشْكَل على القومِ تعبيرُها، مما أوجَدَ حالةَ استنفَارٍ عامةٍ لدى الجميع، كانت بمثابةِ المُحَرِّكِ لاستحضارِ ذِكرى يُوسفَ عليه السلام، في ذهنِ السَّاقي.

وكان الأمرُ الفاصلُ هو اشتراكَ الحدثِ الأول: أي تعبير الرُّؤيا لديه معَ الحدثِ الثاني أي حصولِ رُؤيا الملك في الحَلِّ المشترَكِ وهو الُلجوءُ إلى يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة الثانية: لُغوية في وقوفِنا عندَ كلمةِ: ﴿**وادكر**﴾ وهي في الأصلِ إذْتَكَرَ على وزنِ إفْتَعَلَ قُلِبَت تاءُ الافتعالِ دالاً، وأُدْغمتْ في الذال وهي تعني: أَجْهَد نَفْسَه بالاستذكارِ، تدليلٌ على أنّ الجميعَ انهَمَكَ مع الملك في البحثِ عن حلٍ لهذه المُعضلة.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿**وادَّكَرَ بعدَ أُمَّة**﴾ وفي هذه الكلماتِ إيجازٌ بليغ، فالأمةُ في الأصلِ يُرادُ بها الجماعةُ منَ الناس، كما أنها يُمكِنُ أنْ تُقَال للرّجُلِ الجامعِ لصفاتِ الخير، إلا أَنها يُمْكِنُ أن تُقَالَ للفترةِ منَ الزمن، ولا تكونُ كذلك إلا بعدَ حذفِ مُضافٍ كأنْ تكونَ الكلمةُ المحذوفَةُ: حينَ أو زَمَنَ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقَامَهُ وجوباً.

وحين نقرأُ: ﴿**وادَّكَرَ بعدَ أُمَّة**﴾ نَفْهَم من هذه العبارةِ الوجيزة:

أنَّ الساقي أَعْمَلَ ذِهْنَهُ في البحثِ عنِ الحل، نظراً لأهميةِ الحدثِ المطروح.

وأنَّ الحدثَ المهم، وإنْ كان يتجاوزُ شَخْصَه، إلا أنه اعتَبَر نَفْسَهُ مَعْنِيّاً به لارتباطِهِ الوثيقِ بحال الملك..

وأنه كانَ قد نَسِيَ يوسفَ عليه السلام مدةً من الزمن وما كان لِيتذَكَّرَهُ تِلْقائياً، وهذا بعضٌ منْ تقديرِ الله تعالى، بإيجادِ الظُّروفِ الملائمةِ لتمامِ الأحداث.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ قَناعةِ الساقي الأكيدةِ، بوجودِ الحلِّ عندَ يوسفَ عليه السلام، والقناعةُ الراسخة لا تتكَوَّنُ إلا بعناصرَ أساسية نذكرُ منها:

١ - وجودُ مشكلةٍ تَحتاجُ إلى حل.

٢ - إعسارُ الحلِ السريع.

٣ - تأزُّمٌ خلالَ البحثِ عنِ الحل.

٤ - طرحُ الحلِ من مصدرٍ مختلف.

٥ - تأكُّدُ صَوابيةِ الحلّ.

٦ - رسوخُ اليقينِ بقُدرةِ مصدرِ الحلِ على إيجادِ حلولٍ لاحقة.

وما حصلَ معَ الساقي مُنْطَبِقٌ تماماً معَ هذه العناصر فإذا به يَضَعُ يوسفَ عليه السلام في مكانةٍ عاليةٍ في إمكانية حل المسائل المستعصية، وإذا بنا نَسْمَعُهُ يقول: ﴿**أنا أُنَبِّئُكُم بتأويلِهِ فأَرسِلُون**﴾.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ الساقي: ﴿**يوسفُ أيُّها الصِّدِّيقُ أفْتِنا**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيَة، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لاستمرارِ الأُسلوبِ القرآنيِّ في تَجاوزِ تفاصيلِ الأَحداث، لعُلُوهِ عنْ أسلوبِ الناسِ في القَصص، مما يَتْرُكُ للقارىءِ والمستمع إمكانيةِ المشارَكَةِ في مَلءِ الشَواغِرِ التي لا يَحتاجُ العقلُ البشريُّ وجودَها وجوباً في السرد، فَنَعْرِفُ مباشرةً أنَّ الساقي ذَكَر اسمَ يوسفَ عليه السلامُ للحاشية، وطلبَ منهم إيصالَه إليه في السّجنِ، وقد حصَلَ هذا الأمرُ بموافقةِ الملكِ وعِلْمِه . . .

اللطيفة الثانية: في جَمَاليةِ المناداةِ التي اعتمَدَها الساقي في مُخَاطَبةِ يوسفَ عليه السلام بقولهِ: **﴿يوسفُ أيُّها الصِّدِّيق﴾**

لقد كان يوسفُ عليه السلامُ يُخاطِبُهما حينَ كانا معه: **﴿يا صَاحِبَي السِجن..﴾**

وفي هذا الخطابِ تَوَدُّدٌ ولُطفٌ.

وها هو ذا الساقي، وبعَدَ سنوات، يَرُدُّ ليوسفَ عليه السلامُ الوُدُّ واللُّطفَ في قوله: **﴿يوسفُ أيُّها الصِّدِّيق﴾**.

وفي هذه المُنَاداةِ نَلْحَظُ الكثيرَ مِنَ المعاني:

فحين ذَكرَهُ باسمِهِ أَعْلَنَ له بقاءَ ذِكْرَاه حاضِرةً في ذِهْنِهِ، ويَغْلِبُ على الناسِ حين تكونُ لقاءَاتُهم عابرةً، ألا يحتَفِظُوا بأسماءِ مَن يَلْتَقُونَ.

وحين يَستعمِلُ أداةَ النداء: **﴿أيُّها﴾** يُعَبِّرُ عنِ اهتمامٍ بشخصِ يوسفَ عليه السلام، يُحاولُ أن يَنْقُلَهُ إليه عَلَناً.

وحينَ يقولُ أيُّها الصِّدِّيق بصيغةِ المُبالغة، فكأنهُ يقولُ له: إننا نُصَدِّقُكَ دائماً، وفي كلِّ ما تَقُول.

وحين يقولُ له: **﴿أَفْتِنَا﴾**، فإنه يُعَبِّرُ عنْ بالغ الاهتمامِ في التفسيرِ الذي سيُعطيه يوسفُ عليه السلام. وحين تقولُ لعالمٍ: أَفتِنا، فإنكَ تقولُ له بطريقةٍ غيرِ مُباشرة: لا يُوجدُ لديَّ أيُّ خِيارٍ آخرَ غيرَ ما ستأتيني به.

ثم يَقُصُّ الساقي على يُوسفَ عليه السلام رُؤيا المِلكِ فيقول: **﴿أَفتِنا في سَبْعِ بقراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنَّ سبْعٌ عِجاف، وسبعِ سُنبلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يابسات﴾**.

نُلاحظُ أنَّ النَّصّ جاءَ مُطابقاً تماماً لما قالَ الملك وهذا ما نُسَمِّيه في أيامِنا الحاضرةِ: بالأمانةِ العِلمية، والمقصودُ مِنَ النقلِ الحَرْفِيّ، هو الحرصُ على عدَمِ

ضياع شيء مِنْ صحةِ التأويل: فهذا علمٌ يَجْهَلهُ الساقي، ولا يَدْرِي ما إذا كانَ أيُّ تفَصيلٍ مُغْفَلٍ في المعلومةِ المنقولةِ سيُؤدِّي إلى تغييرٍ في التأويل.

ثم يقولُ في آخرِ الآية: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلى الناسِ لعلَّهُمْ يَعْلَمُون﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ لطيفتان اثنتان:

الأولى في قولهِ ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إلى الناسِ﴾، وهذا الأسلوبُ الذي اعتَمَدَهُ الساقي في استحثاثِ يوسفَ عليه السلام، بالإجابةِ أولاً، ثم الاهتمامِ بالموضوعِ وإيلائِه ما يَلْزَمُ من تدقيقٍ وتَعَمُّق هو الذي يَعْتَمِدُه الناسُ حينَ يَطْلُبونَ المَعُونة، ويُريدونَ أنْ تكونَ هذه المَعُونَة مُمَيَّزةً فائقة فيلجأونَ إلى الوسائلِ المساعدةِ، ومِنْ بينها إشراكُ كلِّ الناسِ في سَماعٍ أو رُؤيةِ حصيلةِ المعونة، وهو ما يُسَمَّى في علمِ النفس: الحَشْد.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ كلمةِ ﴿يَعْلَمون﴾ حيث لم يذكرُ مفعولُ الفِعل، أيْ لم يُصرّحْ عنِ الأمر الذي يعلَمُونَه، فاحتملَ أن يكونَ معنَى قولهِ ﴿لعلَّهم يعلَمُون﴾:

أي رجاءَ أنْ يَعرِفَ الملكُ تأويلَ رُؤياهُ فتسكُنَ نفسُه وتسْكُنَ الناس.

أو لعَلَّ الناسَ تَعْرِفُ مكانتِكَ وعِلْمِكَ.

أو لعَلَّ الملكَ يَلْحَظُ مُعَاناتِكَ في سِجْنِك فيُخلِّصُك.

أو غيرُ ذلك..

* * *

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن سنة الله تعالى في الخلق هي النسيان، وأنه مهما كان الحدث الحاصل جللاً، فإن الأيام كفيلة بدفعه إلى مخازن الذاكرة البعيدة، خصوصاً بعد تحصيل المبتغى، وتمام حصول الأمن والطمأنينة.

٢ - للدلالة على أن حس الإجتماع موجود أصلاً لدى الناس والإستثناء هو الإعتزال والإنفراد. فهذا الساقي حين سمع بمأساة الملك أعمل فكره في الإشتراك الجماعي مع الآخرين للبحث عن حل للمشكلة، وأسعفته ذاكرته بمعلومة مقدرة يوسف عليه السلام على تعبير الرؤى، فما توانى عن المشاركة.

٣ - للدلالة على أن مشيئة الله تعالى بنفاذ أمره، تجري تحت سنن وقواعد دقيقة، فلا تتجلى الحقائق، ولا تقع الأحداث إلا بمقدار مقدور من الله تعالى، بتوقيت دقيق وبتسلسل بديع لا نقدر نحن البشر على الإحاطة به بكامله.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٨]

كنا قَدْ رأينا أخي المؤمن في الآياتِ السابقة ما كانَ منْ رُؤيا الملِك، وعَجْزِه وحَاشِيَتِهِ عنْ تفسيرِ الرؤيا، وقد جعلَ الله تعالى في هذا الإحصارِ سبباً للجوءِ إلى يوسفَ عليه السلام في سِجْنِهِ حيث تُرِكَ فيه مَنْسِيّاً سنواتٍ طِوالاً، وها هو ذا يُجيبُ السائلَ عن سؤالِه مباشرةً دونَ تَرَدُّد.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**قال تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: فيما نَلْحَظُه مِنْ دُخولِ يوسفَ عليه السلام في صُلْبِ الإجابةِ دونَ مُقَدِّمات.

وبالعودةِ إلى الظَرفِ الدقيقِ الذي وُجِدَ فيه لحظةَ سُؤالِه نَجِدُ المُعطياتِ التالية:

فهو موجودٌ في السِجنِ بلا ذَنبٍ منذُ سنوات، ولم يَلْتَفِتْ إليه أحدٌ منَ الناس، ولا حتى الساقي الذي بَشَّرَهُ بنجاتِه، ويوسفُ عليه السلام منقطعٌ عنِ الدنيا.

وهو يَرْقُبُ نتائجَ ما أوصَى به الساقي عند خروجِه منَ السجنِ بذِكْرِه عندَ الملِك لإنهاءِ سَجْنِه ولقد طالَ انتظارُه ونحن نعرفُ شعورَ المترَقِّبِ المَسْجُونِ ظُلماً وعُدواناً، المنتظرِ العدلَ والإنصاف.

فإذا بهم حينَ تَذَكّروه أَتوهُ لا لِيُخرِجُوهُ منْ سجْنِهِ بل لِيطلُبُوا منه المَعونَةَ مع بقائهِ في سِجْنِه!

العامةُ منَ الناس، والسلوكُ الطَبيعيُّ المقبولُ منهم أنْ يَرْفُضُوا هذه المعونة، أنْ يَطلبُوا أولاً إنصافَهم وإطلاقَ سَرَاحِهِم أو على الأقل اشتراطَ تَخليتِهم بعدَ نجاحِ المَعُونَة.

ما كان هذا تصرفُ يوسفَ عليه السلام، بل تَخَطَّى مِحْنَتَهُ التي هوَ فيها، وتجَاوَزَ مَطْلَبَهُ الخاصَ بالحرية، وأَجَّلَ طلب إنصافِه، وإعلانِ براءَتِه، وأجابَهُم إلى مَطْلَبِهم، وأَعطاهُمُ التفسيرَ المطلوبَ للرُّؤيا الذي جعلَ الله تعالى فيه سببَ

نجاةِ أُمةٍ بكاملها، مما يُحَقِّقُ فيه خَصائصَ عاليةً اختَصَّهُ الله تعالى بها، وهي الصَّبرُ والأَناة، وبعدُ النظرِ وسَعَةُ الفكرِ والدِرايةِ في اختيارِ المواقف، والكَرَمُ الواسعُ على ما سَنرى في لاحقِ الآيات، والتعالي على الظُلم، وتقديمُ الخيرِ العامِ على النفع الخاص، وما أَحْوَجَنا إلى مِثْلِ هذه الصفاتِ.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قَولِه تعالى: ﴿**قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبا**﴾.

وهو أُسلوبٌ يَزْرَعُ الثِقَةَ في نفسِ المستفتي حينَ يَجِدُ أنّ المُتَكَلِمَ نفسهُ يَتَكلَّمُ بالثِقَةِ التامة، فهو لم يتردَّد في الإجابةِ، كما أنه لم يُظْهِر خللاً أو ضُعْفاً في وُضوحِ الرُّؤيا، ولم يَطلُبْ زِيادةَ تفصيلٍ أو إيضاح، بل اعتمَدَ أُسلوبَ الإخبارِ بمعنى الأمر، للمبالغةِ في الإيجابِ إذْ قال: ﴿**تزرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبا**﴾.

اللطيفة الثالثة: في تأمُلِنا لكلمةِ: دَأَبا أي بصورةٍ مُستمرةٍ متواصلةٍ معَ الاجتهادِ في الإكثَارِ منَ الإنتاجِ. هو لم يَكْتَفِ بإيرادِ معلومةِ وُجوبِ الزرع، بل أَعْطَى معها الأُسلوبَ والكيفيةِ، وأوْضَحَ أهميةَ الإكثارِ في كلمةٍ وجيزةٍ تَحْمِلُ الكثيرَ منَ المعاني:

ففيها إيذانٌ بأنّ أمراً خَطِيراً سيَحْصُلُ يَسْتوجِبُ التأكيدَ على التفرُّغِ لاستغلالِ وقتِ الخُصوبَةِ.

وفيها حثٌّ على منعِ تَسّربِ المَللِ إلى النفوس: فأنتَ بحاجةٍ إلى المُحَفِّزِ لِتُقْنِعَ الناسَ بالاستمرارِ بالعملِ بهمةٍ ونشاطٍ لتخزينَ المُؤَنْ والثِمار، لمدةِ سبعِ سنواتٍ مستمرة، وهم ينتظرونَ جَذْباً غيبياً في حقِّهم لا يَرَوْنَهُ رَأيَ العين، قد يُخامِرُهم الشَكُّ بمجيئِهِ يوماً فهو يَطْلُبُ منهم أنْ يَجْعَلُوا اجتهادَهم في الزّرْعِ عادةً مستمرةً متواصلة.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**فما حَصَدْتُم فذَروهُ في سُنبلِهِ إلا قليلاً مما تأكلُون**﴾.

في هذا الشطر من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ التَسَلْسُلِ الفِكريِّ الواضحِ والسليم الذي يُقَدِّمهُ يوسفُ عليه السلام في تعبيرهِ للرؤيا.

فهو سُئِلَ فقط عن معْنَى البقراتِ السِمان، والسُنبلاتِ الخُضْر وكان بإمكانهِ أنْ يقولَ له: هي تعنِي سنواتِ الخِصْبِ والإنتاجِ.

إلا أنه مِنْ وَاقِعِ حِسِّهِ الإنسانيِّ أولاً وحُبِّهُ للخيرِ ثانياً، وما حَباهُ الله تعالى بهِ من فِكرٍ نافذٍ وعقلٍ راجح، وبُعْدِ نظر، وما مَيَّزَهُ الله تعالى به من مِيزاتِ النُّبُّوةِ والرِّسالة، تجاوزَ مُجرَّدَ تعبيرِ الرؤيا، ليقومَ بتبني الحدثِ برُمَّتهِ، وهو ما سيَحصُلُ للأرضِ وسُكّانِها مِنْ تَبَدُّلاتٍ مُناخيةٍ وبيئيةٍ تُهَدِّدُهم، فأعطَى حلاً مُتكاملاً، عرضَ فيه المشكلةَ بوضوحٍ تام، وأدْرَجَ معها في السِياقِ ماهيَّةَ الحلول، وكيفيةَ اعتمادِها معَ ذكرِ تفصيلاتٍ قد تبدو ثانويةً، إلا أنها عظيمةُ الأَهمية.

اللطيفة الثانية: في تأمُلِنا لقولهِ: ﴿**فَذَرُوهُ فِي سُنبلِه**﴾، وفي هذا إعجازٌ قرآنيٌّ عظيم:

القمحُ مؤلَّفٌ من مادة نشوية، يُغَلِّفُه غلافانِ مُستقلانِ: الأول الداخلي يَلْتَصِقُ به التصاقاً شديداً، حتى لا يَكادُ يَنْفَصِلُ عنه، والثاني خارجي كثيفٌ شديدُ السَماكة، تَغْلِبُ عليه الألياف وهو ما يُؤَلِّفُ الأساسَ الذي في اجتماعهِ مع الأَغلِفَة الأُخرى، منْ حباتِ القمحِ الأُخرى يُكَوِّنُ السُنْبلَة.

والقمحُ إذا نُزِعَتْ عنه الأغلفةُ الخارجية، يُصْبِحُ سَهْلَ التعرُّضِ لهجمات حَشرةِ السوس، التي تَخْتَرِقُ بسهولةِ الغلافَ الداخليِّ الرقيق، وتُمْعِنُ طَحناً في نَشاءِ القمحِ، وتُفْسِدُه فَيُصْبِحُ غيرَ صالحٍ لطعامِ البشر.

والناسُ في زمنِ يوسفَ عليه السلام لم تَكُنْ تَعْرِفُ هذه الحقائقَ العلمية، ولم تَكُنْ قد جرّبتِ اختزانَ القمحِ على مدَى سنواتٍ طويلة، فإذا بيوسفَ عليه السلام، بما آتاهُ الله تعالى من فتحٍ غيبيٍّ يُحذِّرُهم من نَزْعِ الغلافِ الخارجيِّ عنِ القمحِ، بقوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾.

فسبحانَ الله العظيم، الذي أرْسَى لهذه الدُّنيا قَوانِينَها، وعرَّفَنا أسرارَها وهيّأَ لنا أسبابَ الإفادةِ منها.

وأستطردُ هنا، لأسوقَ فَتْحاً عِلمياً جديداً مع القمحِ أيضاً، ولكنْ مع الغلافِ الداخليِّ للقمحِ هذه المرة، ومعَ إعجازٍ نبوي اخْتَصَّ الله تعالى به رسولَه الكريم، محمداً عليه أفضلُ الصلاةِ، وأتمُّ التسليم في زمنٍ لم يَكُنِ الفتحُ العلميُّ وصَل فيه إلى ما وصَلَ إليه في يومِنا هذا.

روَى الإمامُ ابنُ ماجه، عن أُمِ أيمنَ، أنها غرْبَلَتْ دقيقاً - أي أزالتْ عنِ الطحينِ بعدَ طَحْنِه الغلافَ الدّاخليّ الرقيق، وجَعَلَتْهُ دقيقاً مَنْخُولاً - فصَنَعَته للنبيّ صلى الله عليه وسلم عجيناً، فقال: «**ما هذا؟**» قالت: طعامٌ نصنعهُ بأرضِنا، فأَحَبَبْتُ أنْ أصنع منه لكَ رَغيفاً، فقال: «رُدّيه فيه ثم اعجِنيه»، أي أعيدي إلى الطّحينِ ما أزَلْتِ عنهُ منَ الغلافِ الداخليِّ، ثم اعجنيه.

ولقد أظهرَ العلمُ الحديثُ، أنّ في قشرةِ القمحِ الداخلية، مادة «البريبري» وهي المادةُ الأَساسيةُ التي تُكَوِّنُ الڤيتامين باء، العنصرَ الأساسِيّ والحيويّ لِتغذيةِ الجهازِ العَصَبِيّ، والمُصابونَ بنقصِ هذا الڤيتامين يُعانُونَ من هُزالٍ حادٍ، وتَقَرُّحاتٍ مَعِدِيةٍ وفَقْرٍ في الدم، وكانَ هذا الاكتشافُ هو باكورةَ معرفةِ الإنسانِ بعالمِ الڤيتامينات.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ قوله: ﴿**إلا قليلاً مما تأكلُون**﴾.

وفي هذا إشارةٌ إلى كيفيةِ التعاملِ معَ مُتَطَلّباتِ الحياةِ في هذه الفترةِ الصعبةِ

المقبلةِ عليهم، وكأنه يَضَعُ لهم برنامجاً تَقَشُّفياً يَدْعُوهُم للالتزامِ به منْ ضِمْنِ تَبَنِّيهِ لمشروعِ الإنقاذِ المتكامل، ويُظْهِرُ لنا بوضوح الإعجازَ القرآنيَّ في الإيجازَ لنجدَ أنه وَضَعَ في آيةٍ واحدة، تَفصِيلَ الشّقِّ الأوّلِ مِنَ المرحلةِ الممتدّةِ على سبعِ سنوات في ماهِيَّةِ الحدث، وكيفيةِ التعاملِ معه معَ لَحْظِ كافةِ التفاصيلِ الهامةِ لنجاحهِ.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الأخذ بالأسباب في التعامل مع طوارىء الحياة، وإعمال الرأي والفكر وعدم التخاذل أو التهاون في إيجاد أفضل الظروف وأحسن الطرق لتحسين سبل الحياة، بما فيها الأخذ بمعطيات العلم الحديث ودفع الناس إلى التفكير في تحسين ظروف الحياة.

٢ - للدلالة على وجوب الإقتصاد في الإستهلاك تحسباً من حال الإنكماش الإقتصادي، وإجراء تمارين على برامج التقشف، وبالإجمال، الإبتعاد عن التبذير والإسراف في الإنفاق، حتى في وقت الرخاء والبحبوحة، لأن هذه الحال لا تدوم أبداً.

ثم يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٩]

يتابعُ يوسفُ عليه السلام معَ هاتينِ الآيتين، ما كانَ قد بدأهُ في إعطاءِ الحلِّ المتكاملِ لتعبيرِ رُؤيا الملكِ معَ ما يَقتَضِي فِعْلُه من إجراءاتِ عَمليةٍ للخروجِ مِنَ مُعْضِلَةٍ تُهَدِّدُ الناسَ جميعاً، وكُنّا قد سَمِعْنَاهُ في الآيةِ السابقة، يُعلِّمُ الناسَ كيفَ يَستَفيدونَ منْ سنواتِ الخِصْبِ المُقْبِلَة، فلنتابعُ معه حَدِيثَه.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام **﴿ثم يأتي مِنْ بعدِ ذلكَ سبعٌ شدادٌ يأكُلنَ ما قَدّمتم لَهُنّ إلا قليلاً ممّا تحصِنُون﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عند تعبيرِه بقولهِ: «**سبعٌ شِداد**» والمقصودُ بها هي السنواتُ السَبْعُ الشِداد، والسِياقُ يُفْهِمُنا أنها السنوات، وجاءَتْ بصيغةِ «شدادٍ» للتعبيرِ عنْ شِدّتها على الناس، ونتوقَّفُ قليلاً عندَ معنى شِدّةِ السنين، على الناس:

فهي تَعْني انقطاعَ أسبابِ الخِصْبِ والإنبات، وكلُّه مُتعلّقٌ بعنصرٍ واحدٍ بسيط: ألا وهو الماء، وجاءَ الإعجازُ القُرآنيُّ لِيَخْتَصِرَ الحياةَ كُلَّها بقولٍ واحد: **﴿وجَعَلنا منَ الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيّ﴾**(١)، وجاءَ العِلْمُ قَدِيمُه وحَديثُه وجاءَ العلماءُ مُؤمِنُهم وكَافرُهم لِيُسَلّموا بهذه الحقيقةِ المطلقة: **﴿وجعَلنا من الماءِ كُلَّ شيءٍ حيّ﴾**.

وهي تشيرُ إلى ضَعْفِ الإنسانِ وخُضوعِه لسُنّةِ الله تعالى، التي شاءَها في الحياةِ الدنيا، فلَئِنْ جفتِ الأرضُ، إنقطعَتْ حِيلةُ الإنسانِ إلا مِنْ رحمةِ الله تعالى مما عَلمَهُ بالادّخارِ والاختزان، كما نَلْحَظُ في كلامِ يوسفَ عليه السلام.

وهي تُنَبّهُ إلى أنَّ كُلّ شيءٍ بِقَدَر، وما هذه التَبدُّلات المُناخيةُ التي نشاهِدُها إلا بقَدَرٍ منَ الله تعالى، فلو شاءَ لأذهبَ الخُضْرَةَ والماء، وأسبابَ الحياةِ عن الأرض، وما ذاكَ على الله بعزيز.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: **﴿يأكُلنَ ما قَدَّمتم لَهُنّ﴾**، وفي هذه العبارةِ تعبيرانِ لُغَوِيان جميلان.

---

(١) [سورة الأنبياء، الآية: ٣٠].

الأول: صِيغةُ المَجازِ في قوله تعالى ﴿**يأكلن**﴾ أي أنّ الناسَ في هذه السنوات يأكُلونَ ما ادّخرُوا مع التصويرِ الجميلِ الذي يُراوِدُ الذِهنَ في تَصوُّرِ السنواتِ تأكُلُ المُدَّخراتِ.

الثاني: في قوله تعالى: ﴿**ما قَدَّمْتُم لَهُنَّ**﴾ وكأنّ العبارةَ تقولُ: لا سبيلَ لكم إلا أن تَفتَحوا خَزَائنَكُم عندَ مجيءِ هذه السنواتِ الشِداد، لأنّ جُهدَكُم الأولَ بالادِّخار، هو تأمينَ الطّعامِ لهذه السنواتِ الجائعةِ التي ستأتي وتَلْتَهِمُه.

اللطيفة الثالثة: في وقُوفِنا عندَ قولِ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام، ﴿**إلا قليلاً ممّا تُحصِنون**﴾.

هنا أيضاً نتعرَّفُ إلى معالمَ جديدةٍ في شخصيةِ وفكرِ يوسفَ عليه السلام:

فهو لم يَكْتَفِ بتقديمِ توضيحِ الشِقِّ الثاني منْ رُؤيا المَلِك، بل أعطى من جديدِ الآليةَ التي يَجبُ أعتمادُها في التعاملِ معَ الأحداثِ فقالَ ما معناهُ: في السنواتِ الصَعْبة، سَتجِدُونَ بينَ أيديكم ما يَحفَظُ لكُمُ الحياةَ بالمخزونِ الذي ادَّخرْتُموهُ في الحافظاتِ تَسْتَهْلِكُونَه بالتدريج.

ولا تمنَعُ جَزَالَةُ العِبارة وإيجازُ الكلام منْ إيضاحِ مسألةٍ غايةٍ في الأهمية: ألا وهي، وجوبُ تركِ قِسْمٍ منَ المَؤونَةِ المُختَزَنةِ جانباً، قَبْل تَقْسيمِها إلى سَبْعِ سنواتٍ للاستهلاكِ وهذه التَفاتةٌ فَذّةٌ نقف عندَها قليلاً:

فالاتجاهُ الأقربُ والأسهلُ عندَ الناس هو توزيعُ المَؤونةِ على سَبْعِ سنواتٍ تحتَ ضَغْطِ حاجةِ النَفْسِ لإشباعِها معَ عِلْمِها بمحدوديةِ المخزون.

أمّا أنْ تَمْنَعَ عنها جُزْءاً منْ هذا المخزونِ المَحْدُود فهو ممّا لا تَسْتَسِيغُه، إلا أنّ مَوجب لحظِ ما هو أبعدُ منَ الاستهلاكِ حَمَلَ يوسفَ عليه السلامُ على إظهارِ امتلاكهِ لِفكْرٍ اقتصادي واسع، إذْ قال: ﴿**إلا قليلاً مما تُحصِنون**﴾، أي: دَعُوا

جانباً قَبْلَ قِسْمَةِ المَؤونةِ على سَبْعِ سنوات، بعضاً منَ الحبوبِ على أصنافِها، لأنّكم ستَحْتَاجُونَها للزرع عندَ عودةِ الخُصوبةِ إلى الأرض.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانية: **﴿ثم يأتي من بعدِ ذلكَ عَامٌ فيه يُغَاثُ الناسُ وفيه يَعْصِرون﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا أنّ هذا الإيضاحَ من يوسفَ عليه السلام ليسَ استكمالاً لتعبيرِ رُؤيا الملك، وقدِ انتهى منْ تعبيرِها في الآيةِ السابقة، وكان بإمكانهِ التوقُّفُ عندَ حدودِ تعبيرِ رُؤيا الملك، إلا أنه يَتجاوزُ مسألةَ التعبير لإكمالِ مُهمّتِه الأساسية ألا وهي التبليغُ عنْ ربّه، فهو هنا يَنْقُلُ وحياً عنِ الله تعالى منهُ عِلْمٌ غَيْبِيٌّ شاءَ الله تعالى إيصالَهُ إلى الناس، على لسانِ يوسفَ عليه السلام لغاياتٍ عدة:

الاولى: هي نقلُ البُشرى إلى الناسِ بالنهايةِ السعيدة التي سيصِلُونَ إليها بعدَ سنواتِ الجَدْبِ والقَحْطِ مما يَحفِزُهُم على الاهتمامِ بتطبيق خُطّةِ يوسفَ عليه السلام في الادِّخارِ والاقتصاد.

الثاني: لإيصالِ رسالةٍ إلى الملك مُفَادُها اهتمامُ يوسفَ عليه السلام، ليسَ فقط بتعبيرِ الرُؤيا وإنما بتبنّي كاملِ المسألةِ في نواحيها التنفيذية.

الثالثة: إظهارُ فضلِ يوسفَ عليه السلام وفضائِله: فضلُه في تقديمِ أكثرَ مما طُلِبَ منه وعدمُ اشتراطهِ مكاسبَ ذاتيةٍ بإعطاءِ بعضِ المعلومةِ وحَجْبِ البعضِ الآخر، وفضائله في تعريفِ الملكِ بهذه الخصائص التي مَرَّتْ فيما يَتمتَّعُ به يوسفُ عليه السلام منْ حُنْكَةٍ وتَمَكُّنٍ وعلمٍ واسع، وبُعدِ نظرٍ، وسَعَةِ أُفق، ودرايةٍ اقتصادية وتَتَبُّعِ التفاصيل، والثقةِ الراسخة، والتجرُّد عنِ المكاسبِ الذّاتية.

اللطيفة الثانية: لُغوية في جمالِ التعبيرِ القرآنيِّ في تَكْرارِ قوله تعالى: ﴿**ثم يأتي من بعدِ ذلك**﴾ في آيتين متتاليتن، تتحدَّثُ الأُولى منهما عن أيامٍ صعبة، والثانيةُ عن أيامٍ سَهْلة على وقعٍ ثابتٍ جميل، تَحْملُ الكلماتِ إلى القلبِ مُباشرةً.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ دِقةِ التعبيرِ القرآنيِّ في قوله تعالى: ﴿**ثم يأتي من بعدِ ذلكَ عامٌ فيه يُغاثُ الناس**﴾.

فجاء تقديمُ الجارِّ والمجرورِ لإظهارِ أهميةِ مجيءِ هذا العام.

وإذا ما وقفنا عندَ حالِ الناسِ قبلَ مجيءِ هذا العام:

فهم في ضَنْكٍ وشِدَّة ويتحاملونَ على الجوعِ والعطش، وضِيقِ المأكلِ سنةً بعدَ سنة.

حتى إذا ما اقتربَ الوعدُ الذي وُعِدوه اشْتَدَّ عليهمُ الأمر، وصارَ الانتظارُ أشَدَّ صعوبةً، وصارَ الزمنُ في نَظَرِهم أكثرَ طُولاً..

وهذه طبيعةٌ في البشر نَلْحَظُها في عمومِ الناس، والمثالُ المُصَغَّرُ على هذا الأمرِ هو الصِيام، فإذا ما دخلَتْ الساعةُ الأخيرةُ منَ النهار، شعرَ الصائمون وكأنَّ هذه الساعةَ تَعْدِلُ كُلَّ ما ذَهَبَ منَ النهار.

ولذلك كانَ جوابُ يوسفَ عليهم السلام في هذه الآية، وكأنَّهُ يُعَبِّرُ عن حالِ الناسِ عندَ نهايةِ السنةِ السابعة، فألْقَى على مجيءِ عامِ الفرَجِ ما يَسْتَحقُّه منْ تعبير، فقال: ﴿**فيه يُغاثُ الناس**﴾.

اللطيفة الرابعة: في قولِ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام ﴿**وفيه يَغصِرون**﴾.

الواضحُ في قوله أنهم في السنوات العِجافِ هُم لا يَعْصِرون ولقد توافَقَ

المفسِّرونَ على أنهم في سنةِ الفَرَج، يَعْصِرون الزَيتونَ زَيْتاً، والسُمْسُم دُهناً، والعِنَبِ خَمْراً.

أُشيرُ إلى هذه الحقيقة، لأنقُلَ الشُعورَ الذي يسودُ الناسَ حالَ الجَفاف: فما يقومونَ بِعَصْرِهِ يُعتبرُ منْ كماليّاتِ الطعامِ والشراب، وهذه الكماليات تقتضي أن يُبْذَلَ جهدٌ أكثر وطاقةٌ أعلى، وهي تُنْتِجُ أنواعاً من الطعامِ والشرابِ ليستْ من أساسياتِ الحِفاظِ على الحياة.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن القرآن الكريم يحتوي على كنوز اللغة والأدب بذكر مثال: سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهم، والأمثلة المشابهة كثيرة في القرآن الكريم.

٢ - للدلالة على وجوب الإدخار حتى من القليل المتوفر لاحتمال حصول أشد من الشدة الواقعة، والأمور دائماً نسبية.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٠]

تبدأُ معَ هذه الآيةِ أخي المؤمن مرحلةً جديدةً من مراحلِ قِصّةِ يوسفَ عليه السلام، وهي مرحلةُ وصولِ تفسيرِ الرُؤيا إلى الملك، وقد وضَعَتْ حدّاً لحالِ التأزُّمِ والقَلَقِ والاضطرابِ التي عاينَها المَلِك، بعد أنْ عَجزَ الملأُ عن مَدِّهِ بالتفسير، وسَنَجِدُ أنّ هذه الآيةِ زَاخِرَةٌ بالأَحداثِ والمواقف، وتُعْلِمُنا عنْ عناصرَ أُخرى في شخصيةِ يوسفَ عليه السلام لم نَعْرِفْها فيه بعد.

يقولُ الله تعالى: ﴿وقالَ الملِكُ أئتوني به﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عندَ قولِه تعالى: **﴿وقال الملك﴾** فبمجَردِ أنْ نسمعُ هذه العبارةِ، يَمُرُّ في أذهاننا شريطٌ سريعٌ منَ الأحداثِ، كُلُّنا يعرفُ مَجْرَياتِه دونَ الحاجةِ إلى تَساؤلٍ أو تَشَاور:

فنعرف:

أنّ الساقِي عادَ مُبتَهجاً إلى الملك، وقَصَّ عليه تعبيرَ المَنامِ، مما أراحَ الملِك.

وأنه نقَلَ إليه الحَلَّ المتكاملَ الذي أعطاهُ يوسفُ عليه السلام لإنقاذِ الناس، بعدَ أن تَبيَّنَ مدلولَ الرؤيا، وما تَحْمِلُه منْ إنذار.

وأنَّ هذا الجوابَ، كان أكثرَ مما تَوَقَّعَ أو طلَبَ الملك: وهذه مسألةٌ نادراً ما تحْصُلُ بينَ الناس: أنْ يأتِيكَ خبرٌ صَاعِقٌ بحدوثِ قَحْطٍ وَجَدْبٍ وضيقٍ وإحصار، مع تهديدٍ حَقيقي ومباشِرٍ على الحياة والبقاء، وفي اللحظَةِ ذاتِها، يأتيكَ الحَلُّ الشامِلُ الكامِل، المشفوعُ بالتفاصيلِ الدقيقةِ لِكَمالِ تمامِ الخلاص.

وأنَّ المسألةَ برمتها انتشرتْ بينَ الناس، فإذا بالملِك يتكَلَّمُ علناً، لِيُحوِّلَ الحدث إلى حدثٍ اجتماعي عام، يقفُ الناسُ فيه موقفَ المنتظرِ المترقِّبِ ليرى رَدَّةَ فعلِ المَلِك.

إلى هنا يَسُوقُنا الذِهْنُ ونحن نَسْمَعُ: **﴿وقالَ الملِك﴾**.

اللطيفة الثانية في قولِهِ: **﴿ائتوني به﴾**.

في هذه العبارةِ أيضاً، الكَمُّ الغنيُّ منَ المعاني:

فالملوكُ يُخاطِبونَ الناسَ على قَدْرِ ما يُعْطُونَهم هُمْ منَ الأهميةِ والقَدْر، وهم يَتَحسَّسُونَ سُلْطَتَهم ويَسْتَعْمِلُونها بدرايَتِهم في أساليبِ الحُكْمِ..

فإذا ما خاطَبُوا الوزراءَ والمقربين مثلاً، خاطبوهم بلينٍ ورِفْق.

إذا ما خاطَبُوا الأنداد، خَاطبوهم باحترامٍ وتقدير.

وإذا ما خَاطَبُوا الرُسلَ، والوُفود، خاطَبُوهُم بسياسةٍ وحُنْكَةٍ.

وإذا ما خاطبُوا العُصاةَ خاطبوهم بقسوةٍ وشِدّة.

وإذا ما خاطبوا الخَدم، خاطبوهم بعُلوٍ وتَرفُّع.

أمّا في هذه الحال فإنّ المعني بالخِطاب، هو إنسانٌ مجهولٌ لديه، سَجينٌ في أَحدِ سُجونهِ، لا يَعرِفُ له جَاهاً ولا عِزاً، ولا يَعرِفُ حتى لماذا هو مسجُون، وبِمُوجَبِ ما سَلَف منَ المراتب، فهو يَنْزِلُ في عُرْفِهِ أدناها.

إلا أنه في المقابل أَنجَدَه وفَرَّجَ كَرْبَه، وأَعطاهُ ما استعْصَى على الجميعِ إعطاؤُه، وأرسلَ له مع الساقي لُغزاً في شَخْصِه وشَخصِيتهِ وعِلْمِه، لم يستطعِ المَلكُ أن يَصْمُدَ أمامَ إلحاحِ داخلهِ بالتعرُّف إلى هذا الرجلِ المليءِ بالعلمِ، المنسيِّ في غيَاهِبِ السِجْن، فقال: ﴿**ائتوني به**﴾.

فمِنْ جهةٍ أوْلى، كانَ في قولِه أمرٌ واضحٌ بعدمِ رفعهِ فَوْقَ ما يَفترض هو مِنْ مَقام.

ومِنْ جهةٍ ثانية، أدْخَلَ شَخْصَهُ في أمرِ الإحضار، تعبيراً عنِ الاهتمامِ الشديدِ بمجيءِ يوسفَ عليه السلام، ولم يَقُلْ مثلاً: أحضِرُوه، بل قال: ﴿**ائتوني به**﴾.

اللطيفة الثالثة: في قوةِ الإيجازِ القرآنيِّ، إذْ كما رَأينا، فإنَّ أربعَ كلماتٍ وجيزة، اختصرت كميةً منَ الأحداثِ المتعاقبةِ إظهاراً لِعُلُوِّ القرآن الكريم وتَفَرُّدِهِ

في العبارة، مِصْداقاً لقولِ الله تعالى في أولِ السُّورة: ﴿نحن نَقُصُّ عليكَ أحسَنَ القَصَصِ﴾[١].

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿فلمّا جاءَهُ الرسولُ قالَ ارجَعْ إلى رَبِّكَ فاسألْه﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا مُتَعجبين مُندَهشينَ مِنْ جوابِ يوسفَ عليه السلام، وهو يدفعُ القِصَةَ منْ جديد إلى مرحلةٍ جديدةٍ من التأزم: لقد طَلَبَهُ الملكُ شخصياً، مقصوداً مطلوباً لشخصهِ لرؤيتهِ، فرفَضَ بلباقةٍ وذَكاء، مُفتَتِحاً تساؤلاً، سيُصْبِحُ قريباً لُبَّ الاهتمامِ وقَلْبَ الانشغال.

وإذا ما تأملْنا واقِعَ حالِ يوسفَ عليه السلام في هذه اللحظات نَجِدُ:

أنه وبعدَ طُولِ نِسيانٍ وقَعَ عليه الاهتمامُ فجأة، ليس من قِبلِ السَّجّان، أو القاضي، ولا حتى العزيز بل من أعلى سُلْطةٍ في البلاد، منَ الملكِ بنفسه، وطلَبَهُ إلى مَجْلِسِه.

وطبيعةُ البشر تَسُوقُهُم سِراعاً إلى الفرحِ والسُّرورِ والحُبورِ بهذا الخبر، والانكبابِ مباشرةً على سُرعةِ التلبية لِمَا في ذلك من تفريجِ الكَرْبِ، والخَلاصِ منَ السجنِ، ولِما في ذلك من عُلوٍ في المكانةِ والشأن، ولِمَا في ذلك من تَحَوُّلِ الأنظارِ إليه.

وفي أقلِّ الأمورِ احتمالاً، حتى ولو تجَاوَزَ الواحدُ منّا كُلَّ هذه الاعتبارات، فإنه حين يأتيهِ الأمرُ منَ الملكِ بوجوبِ الحُضور، فلا يَتَردَّدُ في الإجابةِ خوفاً منْ بَطْشِ المَلِك.

---

(١) [سورة يوسف ، الآية: ٣].

أمّا يوسفُ عليه السلام، فقد آتاهُ الله تعالى منَ الصّفاتِ ما يَرْقَى به عَنْ تصَرُّفِ النّاسِ في هذه الأحوال، ومن هذه الصفات:

- رباطةُ الجأشِ، وضَبطُ النَّفْسِ ومَنْعُها منَ الإسراعِ في تلبيةِ رَغْبَتِها في الحصولِ على الحريةِ حتى يكونَ قدِ استكملَ ما يجبُ إظهارُهُ من براءَتِه.
- بعدُ النظرِ وحُسْنُ التَّخْطِيط.
- التّعالي عنْ مُغرياتِ بَهْرَجِ الدُّنيا منْ مقابلةِ سادة القوم، تحتَ أيِّ ذريعةٍ ولأيِّ سببٍ كان.
- قوةٌ ومَنَعَةٌ بالله تعالى في رفضِ طَلَبِ الملكِ بالحضور.
- إحداثُ الدَّهشةِ لدى الآخرين أولاً في إعطائِهِم كُلّ ما يَطلبُونَ منه ثانياً في رَفضِهِ المُكافأة قَبْلَ إحقاقِ الحق.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلنا للصِّيغةِ التي استَعْمَلها يوسفُ عليه السلام في إجابتِهِ لأمرِ المَلكِ بإحضارِه.

فقالَ عنْ ثقةٍ تامةٍ لا تَرَدُّدَ فيها: ﴿**ارْجِعْ**﴾.

خاطَبَ المَلِكَ بصيغةِ انعدامِ ولايته عليه بقوله: ﴿**ارْجِع إلى رَبِّكَ**﴾.

وجعلَ الخِطابَ بصيغةِ الاستفهام، وهو يقولُ له: ﴿**ارْجِعْ إلى رَبِّك فاسألْه**﴾.

نحن معَ هذه الصِيغة نَسْتَشعِرُ القُوّةَ المعنويةَ العالية، التي يَتحدَّثُ بها يوسفُ عليه السلام معَ الملكِ بصورةٍ غيرِ مُبَاشِرَة.

فهو يُشْغِلُ المَلِكَ مع هذا السؤال بمسألةٍ لم تَكُنْ تَخْطُرُ له ببال وفي غَمْرَةِ امتلاءِ نفسِه بمعاني وحثيّاتِ تأويلِ حُلُمِهِ، وكيفيةِ وجوبِ مُجابهةِ الخَطرِ القَادِمِ، إذا به يجدُ نَفْسَهُ مُرْغماً على وَضعِ هذا الانشغالِ جانباً، للدُّخولِ في إيجادِ

الجوابِ عنْ سُؤالِ يوسفَ عليه السلام، مع ما يَستَدْعِي ذلكَ منَ العَودةِ إلى أشخاصِ الحدث، ومُراجعةِ مُجرياتِ ما حصَلَ بَعْدَ سنواتٍ مِنْ حُصولِه، ليجدَ نفسَه في موقعِ الحكمِ الذي يُعيدُ مُحاكمةً غيرَ عادلة، لم تَحصُلْ أصلاً، ذَهَبَ ضحيتَها يوسفُ عليه السلام ظُلماً وافتراءً.

اللطيفة الثالثة: في الإشارةِ إلى المَلكِ بعبارة: «**ربّك**» تماشياً مع سِياقِ السَرْدِ الذي رَاعى ما أَلِفَهُ الناسُ زمَنَ يوسفَ عليه السلام في استعمالِ كلمةِ رَبّ للدَّلالةِ على السَّيد، وقد سَبَقَتْ مِنّا الإشارةُ في الآياتِ السابقة إلى رحَابَةِ صدرِ اللغةِ العربيةِ في استعمالِ تعابيرِها.

ثم يقولُ الله تعالى في ختامِ الآية: ﴿**ما بالُ النّسوةِ اللآتي قَطَّعْنَ أيديَهُنَّ إنّ ربِّي بكيدهِنَّ عليم**﴾.

وفي هذا إيضاحٌ بليغٌ ولَطيفٌ وجميلٌ في آن.

فهو بليغٌ لأنه أشارَ إلى الكُلِّ بالجُزء، ونحنُ نَعلَمُ أنَّ السُؤالَ يَشْمَلُ نِسوةَ المدينة، كَطَرَفٍ فَرْعي، وامرأةَ العزيز، كَطَرفٍ أساسي.

وهو لطيف لأنه لم يذْكُر فيه امرأةَ العزيز، تَرَفُّعاً عنِ الإشارةِ إلى مُراوَدَتِها له عنْ نَفسِه.

وهو جميلٌ لأنه إنما أمسَكَ بطرفِ الخيطِ في الإشارةِ إلى الحدثِ من خلال نتيجته، لا من خلال سببه، بقوله: ﴿**اللاتي قطعن أيديهن**﴾ ولم يقل: اللواتي ائتمرن بي، أو اللواتي وافقن امرأة العزيز في سَعيها ومُبتغَاها.

ويُنْهي يوسفُ عليه السلام رسالتَه إلى الملكِ بقوله: ﴿**إنّ ربّي بكيدِهِنَّ عليم**﴾.

مواطن الاسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب عدم الإستعجال في تلقف الأعطية، ومقاومة الرغبة بالحصول عليها. لاحتمال أن الإفادة الجزئية منها، تغطي فوت ربح أكبر يشترط للحصول عليه بعض الصبر.

٢ - للدلالة على أن طلب إحقاف الحق غير مقيد بزمن معين، ولصاحب الحق الذي ظُلم أن يطلب رد اعتباره ولو بعد فترة طويلة في وقوع الظلم عليه. وليس له أن يركن إلى أن حقه سيؤخذ له في الآخرة، فمن استطاع تحصيل حقه في الدنيا. وجب عليه السعي لذلك.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤١].

تُتابعُ معنا أخي المؤمن هذه الآية في نَقْلِ ما جَرَى مِنْ أحداثٍ، بعدَ أن صارَ يوسفُ محورَ اهتمامِ الملك، ولقد رأينا في الآيةِ السابقة كيف استطاعَ يوسفُ عليه السلام أن يُحوِّلَ الانتباهَ مِنْ مسألةِ رُؤيا الملك الهامةِ جداً، إلى الدخولِ في دربِ إنهاءِ مِحنتِهِ في السِجن.

يقول الله تعالى: **﴿قال ما خطبكن إذ راودتُن يوسف عن نفسه﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائف عدة:

اللطيفة الأولى: وكما في سالفِ الآيات، نَجِدُ أنّ النَّصّ القرآنيّ يَتجاوزُ

التفاصيلَ التي يستطيعُ القارئُ والمستمعُ أن يَعِيَها بنفسِه، فبمجرّدِ أنْ نسمعَ ﴿قال ما خَطْبُكُنّ﴾ نفهَمُ العديدَ منَ الأُمور:

نفهمُ أنّ الملكَ أستمعَ إلى جوابِ يوسفَ عليه السلام حينَ رفضَ الخروجَ منَ السِجن، وأحالَ عليه مسألةَ إنصافِهِ.

ونفهمُ أنّ الملكِ قَبِلَ هذه المُهمّة، ونَصَّبَ نفْسَه للفَصْلِ في هذه القضية، وأولاها الاهتمام الفائق، إذْ تركَ كلّ مَشَاغلهِ وانطلَقَ يَبْحَثُ عنِ الحقيقة.

ونفهمُ أنه استمعَ إلى القِصةِ بكامِلها، واستَحضَرَ عناصِرها وأطرَافَها، واحضرَ إلى مَجْلِسِه منْ كانَ ضالعاً فيها.

ونفهمُ أنه حينَ اكتملَتْ لديه كافةُ عناصرِ القضية، بنى خُطَّةً لاستدراجِ الفُرقاءِ لحمْلِهم على البَوْحِ بالحقيقة.

عندها، بدأ مَجْلِسَه بالقول: ﴿ما خَطبُكُنّ﴾.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قوله: ﴿ما خَطْبُكُنّ﴾.

الخَطْبُ في اللغةِ العربية: الحدثُ الجلل، وهو لا يستعملُ عادةً إلا في الأمورِ الهامّة، فهو لم يبتَدِرْهُنّ بالقول: ما بالُكُنّ مثلاً، بل أرادَ أنْ يُعطي المسألةَ ما تَسْتَدعيهِ منْ حزمٍ ودِقّة، فقال: ﴿ما خَطْبُكُنّ﴾.

اللطيفة الثالثة: في قوله: ﴿إِذْ رَاوَدْتُّنَّ يوسفَ عَنْ نَفْسِه﴾.

لقد عبرَّ الملكُ في قوله هذا من درجةٍ عاليةٍ من الذكاء، وكانتِ الصيغُ التي يستطيعُ اعتمادَها مُتنوّعة، كأن يقولَ مثلاً: ما قِصَّةُ يوسف؟ بالمطلقِ دونَ تحديد، أو أنْ يسأل: هل يوسفُ مُذْنب؟ هل تَجاوَزَ حُدودَه وأساءَ التصرُّف؟ وإلى ما هناكَ من صِيغَ السُّؤال.

إلا أنه فضّلَ استعمالَ صِيغةِ الاستفهامِ الإنكاري مُعَبّراً بذلك عنْ تَجاوُزِه

للمعلومةِ الأوّلية، وهي اتهامُ يوسفَ عليه السلام، للاستفهامِ عنْ سببِ مُرَاوَدَتِهِنّ له، فلئن كانَ حقاً مُذْنباً، فالدفعُ يجبُ أنْ يكونَ أقوى من جِهَتِهِنّ مثال ذلك أنْ تُبادرَ ولَدَكَ بالسؤال: كم قِطعةَ حلوى أخذت دونَ أنْ تسألَهُ ما إذا كانَ هو الذي أخذَ الحلوى فلئن كان حقاً أخذها، سيقرُّ في نفسه أنك على دِراية، ويَذْكُرُ العدد، ولئنْ لم يَكُنْ أخذَها حقّاً، فإن دِفاعَهُ سيكونُ أقوى، لِينفي بالكُليَّةِ وبالقوةِ المطلوبةِ أخْذَها.

فانظرْ أخي المؤمن إلى دِقةِ القرآنِ الكريم في التعبير.

ولقد نجحت خطة الملك في حضهِنَّ على الاعتراف.

فنسمعُ قولَ الله تعالى: ﴿**قُلْنَ حاشَ لله ما عَلِمْنَا عليه مِنْ سُوء**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قوةِ الدّفعِ التي سَاقَتْها النِّسْوَةُ جواباً عَنْ سؤال الملك: لقد وَجّه إليهِنّ اتّهاماً مُبَطّناً يَطْلُبُ فيه إقراراً وإيضاحاً:

إقراراً عن حَالِهِنّ ما إذا كُنَّ قدِ ائتَمَرْنَ بيوسفَ عليه السلام.

وإيضاحاً عنْ حالِ يوسفَ وتَصرُّفِه، إما ابتداءً أو تفاعُلاً معَ حدثِ المُراودَة.

فكانَ الجوابُ مِنهُنّ حازِماً جازماً صريحاً: إنه بريءٌ كُلَّ البراءَةِ من كلِّ ما نُسِبَ إليه.

وإيرادُ صيغةِ ﴿**حاشَ لله**﴾، أعلى وأقوى من مجردِ النَّفي البَسيط.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لحالِ النِّسوة في جوابِهِنّ قَبْلَ السَجن وبَعْدَه: لقد قالتِ النِّسوة يومَ جَمَعتهُنّ امرأةُ العزيزِ ورَأينَ يوسفَ عليه السلام: ﴿**حاشَ لله ما**

هذا بشراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم﴾[١].

والآن تقولُ النِّسْوَة: **﴿حاشَ لله ما عَلِمْنا عليه مِنْ سوء﴾**.

وفي كلا الحالين النساءُ في دَهْشَةٍ وعجب معَ اختلافِ في الدّوافِعِ والظُّروف.

ففي الحالِ الأولى كُنّ في موضعِ استكشافٍ وتعرفٍ إلى هذا الذي شَغَفَ امرأةَ العزيز حُبّاً، وأتَينَ للومها، فإذا بهِنّ عندَ رُؤيتِهِ يُوافِقْنَها وقد بهَرَهُنَّ جَمالُه.

أمّا في الحالِ الثانية، والظروفُ تُعلِمُنا أنّ النّسوةَ عَلِمْنَ ما كانَ من أمرِ رُؤيا الملِك، ومن تفسيرِ يوسفَ عليه السلام لهذه الرُؤيا دونَ مُقايضةٍ، أو مُساوَمَة، إضافة إلى ما سَبَقَ وعَرفْنَ عنه مِنَ الاستقامةِ والنّزاهةِ والعِفّةِ والترَّفُع، هذه الأمورُ دَفَعتهُنّ إلى الاعترافِ المَدوِّي ببراءتِه، النّافي بصورةٍ قاطعة، أيَّ جُنوحٍ في تَصَرُّفه.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لدقةِ التعبيرِ القرآنيِّ في إيرادِ كلمةِ: «مِن» في قولِهِنَّ: **﴿ما علِمْنا عليه مِنْ سُوء﴾**.

و«مِنْ» هنا تأتي لتنفِيَ نفياً قاطعاً أيّ سوءٍ مَهما كان نَوْعَهُ ومُستواه، ولو قُلْنَ ما عَلِمْنا عنهُ سوءاً، لجاءَ المعنى أقَلَّ قوةً، وأضْعَفَ حَزْماً.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قالتِ امرأةُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ أنا راوَدْتُه عَنْ نفسِه وإنه لِمَنَ الصَّادقين﴾**.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في الدخولِ المفاجِىءِ لامرأةِ العزيزِ إلى مَيدانِ الحِوار وإلى هذا الجُزْءِ بكاملِه منَ القِصّة:

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣١].

فيوسفُ عليه السلام، حينَ أرْسَلَ السُّؤالَ إلى الملكِ معَ الرسول لم يُشِرْ إلى امرأةِ العزيزِ بأيةِ كلمة، بل قال: **﴿ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فاسأَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ﴾**.

وحين تكَلَّم الملك، تكَلّمَ مع النِّسْوة إذْ قال: **﴿ما خَطْبُكُنَّ﴾**.

إلا أنَّ الحَلْقَةَ الأساسيةَ في كلِ المسألة هي امرأةُ العزيز التي مِنْها بدأتِ المحنةُ على يوسفَ عليه السلام، ومِنها يجبُ أن تنتهي، فكانَ دخولُها دائرةَ الضوءِ ضَرورياً، وكانَ دُخولاً فاصلاً ومُدَوِّياً ليحملَ معَه بالصورةِ العَلَنِيَّةِ على الملأ جَميعاً على مرِّ التاريخ، بَراءَةَ يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة الثانية: في قولِ امرأةِ العزيز: **﴿الآنَ حَصْحَصَ الحقّ﴾**.

في هذه الصيغةِ جماليةٌ فريدة:

ففيها افتتاحُ إعلانٍ هام، يَسْتَوجِبُ لَفْتَ الانتباهِ، فاستعْملَتْ صيغةً غيرَ مألوفةٍ في الكلام، تُوازِي المؤثراتِ الصوتيةِ فيما تَحْمِلُه كلمةُ: **﴿الآن﴾** إلى الأذُنِ مِنْ تنبيهٍ واستحضار.

وإيرادُ كلمةِ **﴿حَصْحَصَ﴾** تَحْفِيزٌ آخر، لأنها مِنْ غريبِ المُفْرَدَات، **وأصلُها:** وضَحَ وَتبَيَّنَ بعدَ خفاء، قال الزَّجّاج: أصلُها: حَصْحصَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ حصة، أي: بانَتْ حصة الحقِ مِنْ حصةِ البَاطِل.

وحينَ تسمعُ **﴿الآنَ حَصْحَصَ الحَقّ﴾**، تتَنَبَّهُ وتَسْتَعِدُّ لِتَلقِّي خبرٍ هامٍ، ولقد جاءَ هذا الخَبرُ إذْ قالت:

﴿أنا رَاوَدْتُهُ عن نَفْسِه وإنه لَمِنَ الصّادِقين﴾.

وفي هذا القولِ دِقّةٌ فِقهِيّة.

ففي أيامِنا الحاضرة، يُبْنَى الدليلُ على براءَةِ أو جُرمِ شخصٍ على أحدِ أمرين اثنين، إما إقرارٌ أو شهَادَة.

بمعنى: إمّا أن يَعْترِفَ المذنبُ بِذَنبِه، فيُجرَّمُ ويُحْكَمُ عليه، وإمّا أنْ يَشْهَدُ عليه مَن يُوثَقُ بقوله، فيُجَرَّمُ ويُحْكَمُ عليه.

وكذلك في البراءة: فإمّا أنْ يعترفَ المدّعي ببراءةِ المُتّهم، وإمّا أنْ يَشْهَدَ لهُ مَنْ يُوثَقُ بقوله مع ما يستَلْزِمُ ذلكَ مِنْ مُسْتَتْبعَاتِ الأدِلّة، فيُبرّأ.

أمّا امرأةُ العزيز، فلقَدْ أخَذَتْ بأدواتِ التبرئةِ جميعاً.

فقالت: ﴿أنا رَاوَدْتُهُ عَنْ نفسِه﴾ وفي هذا إقرار.

ثم قالت: ﴿وإنه لَمِن الصَّادِقين﴾ وفي هذا شَهَادَة.

اللطيفة الثالثة: في الوقوفِ عندَ افتراقِ معاني العِبارات، رُغْمَ تَطابُقِ مَبانيها، بِحسَبِ اختلافِ الظُّروفِ التي قِيلَت فيها.

فامرأةُ العزيزِ قالتْ يومَ جَمَعَتِ النِسْوَة: ﴿ولقَد رَاوَدْتُه عنْ نَفسِه﴾(١).

وهنا تقولُ: ﴿أنا راوَدْتُه عنْ نفسِه﴾.

ولكنّ الفرقَ شَاسِعٌ جداً بين هذا القولِ وذاك:

هناكَ كانتْ تَسْتَعِرُ غَضباً ورَغْبَة.

وهنا تَقِفُ مَوقِفُ المقر المُعْتَرِفِ بذنْبِهِ.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ قَوْلِها: ﴿وإنه لَمِن الصّادقين﴾ وهي خَتْماً الكلمةُ الفَصْلُ في هذا الفَصْل:

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣٢].

لقد انتظرَ يوسفُ عليه السلام هذه الكلمةَ طويلاً، ودفعَ مِنْ أجْلِها سَنواتٍ عديدةً مِنْ عُمرِه، ومِنْ أجلِها رَفضَ عَرْضَ المَلِكِ بالخروجِ..

وهذه الكلمةُ ستَزيدُ مِنْ رَصيدِه عندَ الملك، الذي يُراكُم في ذِهْنِه صِفاتِ يوسفَ عليه السلام، الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى تَصِلُهُ تِباعاً معَ تَسَلْسُلِ الأحداث، حتى يصلَ إلى القِمَّةِ في الانبهارِ معَ هذه الخاتِمَةِ المشرِّفَةِ ليوسفَ، فيَسْتَعِدَّ لِيُنيطَ به أرْفَعَ وأَدَقَّ مَنْصِبٍ في زمانِهِ..

مواطن الإسترشاد وبالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الحق سيظهر حتماً ولو بعد حين، إما على لسان من ارتكب الظلم، وإما بظهور الأدلة المبرئة.

٢ - للدلالة على أن النفس البشرية مبنية على الفطرة السليمة أصلاً، ثم يعكر صفاءها، يصيبها من نوازع ورغبات وانقياد لوساوس الشيطان، فإذا ما انزاحت هذه النوازع والوساوس عاد إلى النفس نقاؤها ورونقها وجمالها، فتقر معترفة بما بدر منها

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٢]

نتابع مع هاتين الآيتين أخي المؤمن ما كان من آخر تفاصيل أحقاق الحق بتبرئة يوسف عليه السلام، وكان ذلك بمبادرة الملك إذ أعاد أحياء ملف اتهام يوسف عليه السلام، سجنه ظلماً وعدواناً، فكان أن اعترفت النسوة أولاً، ثم

اعترفت امرأة العزيز، بأنها هي التي راودته عن نفسه، وأنه بريء من كل ما نسب إليه، وبالتالي فهي تعترف ضمناً بأنه سُجن ظلماً وعدواناً.

إلى هنا، ينتهي مشهد المحاكمة، وقبل أن يتلفظ الملك بقوله النهائي للفصل في هذه المسألة، شاء الله تعالى أن يعلمنا بما كان من رد فعل يوسف عليه السلام، حين بلغه أن امرأة العزيز، ومعها نسوة المدينة قد اعترفن بما كان منهن من مراودة، فماذا قال؟

يقولُ الله تعالى: ﴿ذلكَ لِيعْلَمَ أني لم أَخُنْهُ بالغَيْبِ وأنَّ الله لا يَهْدِي كَيْدَ الخائنينَ﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: أنّ الآيةَ تحتوي الكَثيرَ منَ الترميز، ممّا يَسْتَوجِبُ مِنّا الوقوفَ عندَ واقعِ حالِ يوسفَ عليه السلام، حينَ قالَ هذا القول:

فلقَد أُوْقِفَ موقفَ المُتَّهَمِ الخائن حينَ استبقَ البابَ معَ امرأةِ العزيز وألفياهُ لدى الباب، فبادَرَتْ باتهامِه، فأصبحَ في نظرِ العزيزِ لحظةَ اتهامِها له، وكأنه الخائنُ لِحُسْنِ الاحتضانِ والتربية، ولقد دَفَعَ عن نفسِه بما أُوتِيَ منْ قُوّة، ثم حصَلَتْ حادثةُ النِّسوةِ اللاتي قَطّعْنَ أيدِيَهُنّ وأعْقَبها سَجْنُه حينَ أشكَلَ على العزيزِ مَعْرِفَةُ الحقيقة، وبقيَ في نفسِ يوسفَ عليه السلام، هاتفٌ يَدْعُوهُ مِنْ أعماقِه لِيقولَ بأعلى صوتِه: أيها العزيزُ أنا لَمْ أَخُنْكَ بالغيب.

ثم دارتِ الأيام، أمضَى يوسفُ عليه السلامُ ما أَمْضَى من سنواتٍ في السجنِ إلى أنْ شاءَ الله تعالى أنْ يُبَدِّلَ الأحوالَ عنْ طريقِ رُؤيا الملِك، وما كانَ مِنْ ذكاءِ يوسفَ عليه السلامُ في إعادةِ استحضارِ مسألةِ سَجْنِه، ولا تَزَالُ في نفسِه الرّغبَةُ في إظهارِ بَراءَتِه خُصوصاً أمامَ العزيز.

ولماذا العزيز؟

لأنّ هذا الرجلَ سَهِرَ على حُسْنِ تَربيتِهِ: لقدِ اشتراهُ في السوقِ صغيراً ضعيفاً، فتعهَّدَهُ بالرعايةِ والحِماية، وأنبته نباتاً حسَناً، وأحسنَ مَثْوَاهُ حتى شَبَّ في كَنفِ العِزِّ والرّخاء، وبلَغَ أَشدَّهُ كالشامةِ بينَ الحَاشيةِ، ويوسفُ عليه السلام، لا يَنْسَى شيئاً منْ هذا.

فإذا ما أُعطِيتْ للعزيزِ عن يوسفَ عليه السلامُ صورةُ الإنسانِ الذي نقَضَ العهد، وغَدَرَ به، واسْتَغَلّ إحسانَه وكرمَه، وتَعَدّى على حُرْمَتِهِ، وبقيتْ هذه الصورةُ منطبعةً في ذِهنهِ، فإنّ يوسفَ عليه السلام الذي حبَاهُ الله تعالى بخصائصِ العِفةِ والنُّبْل، لا يستطيعُ أنْ يدَعَ هذه الصورةَ في مكانِها، وله أنْ يُزيلَها بكُلِّ ما آتاهُ الله تعالى مِنْ وسائل..

فلمّا سَمِعَ باعترافِ امرأةِ العزيزِ وهي تُبَرِّؤُه، كانَ أوّلَ ما قال: ذلكَ لِيعْلَمَ (أي العزيز) أني لم أَخُنْهُ بالغيب.

اللطيفة الثانية: في قوله: **﴿لم أَخُنْهُ بالغيب﴾**.

وفي هذا جماليةٌ لغوية: لقد أرادَ إظهارَ بشاعةِ جُرمِ الخِيانة، فوَصَفَ حُصولَها بالغيب، أي: لم أسْتَتر وراءَ الحُجُبِ والأبوابِ المغلقة، والتخفِّي والغيابِ عنْ أعيُنِ الناس، وكأنه يُشيرُ إلى ما سَلَف من آياتٍ في وصفِ حالِ امرأةِ العزيز، حيثُ نقرأُ: **﴿وغَلّقَتِ الأبوابَ﴾**[1] كمِثلِ حالِ ما دأبْنا على تسميتِهِ في أيامِنا الحاضرة بالجريمةِ المُدَبرّة.

اللطيفة الثالثة: في قوله: **﴿وأَنَّ الله لا يَهْدِي كيدَ الخَائنين﴾**.

وفي هذا القولِ إرساءٌ لقاعدةٍ أساسيةٍ من قواعدِ الحياةِ الدنيا: إن الخيانةِ

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٢٣].

فعلٌ مُسْتَهْجَنٌ مُسْتَقْبَحٌ، وإنّ مَنِ ارتكبَ فِعْلَ الخِيانةِ فإنّ مآلَهُ إلى الهلاكِ والضّياعِ لأنّ الله تعالى يَمْنَعُ عنه الهِدايةِ، فهو يَتَخَبَّطُ في ظَلامِ الشَكِّ والتردُّد، تَنْعَدِمُ لديهِ الثوابتِ، ويضيعُ القِياس، فيسيرُ على غيرِ هُدى، حتى ولو اجتهدَ ونظرَ وتَفكّر، حتى ولو التجأ إلى ثوابتِ الآخرين، أو طلَبَ مِنْهُم المَعُونَةَ: إنه ضالٌ تائهِ، يستَشْعِرُ الضّياعَ في داخلِهِ، وهذا منْ أسرارِ الله تعالى، حين يُصابُ الخَائنُ بهذه الأحوالِ منَ الاهتزازِ والاضطراب، وفُقْدانِ الاتّزان، ويَنْتَهِي به الحالُ إلى الانهيارِ والدّمارِ الذاتي، والشواهدُ في التاريخِ كثيرةٌ عَنْ مصيرِ الخائنين.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام، **﴿وما أُبَرِّىءُ نفسي إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوءِ إلا ما رَحِمَ ربِّي إنّ ربّي غفورٌ رَحيم﴾**.

في هذه الآيةُ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: فيما نَلْحَظُهُ منْ صِفةٍ أُخرى جديدةٍ، نَتَعرّفُ إليها في يوسفَ عليه السلام، ألا وهي التّذَلُّلُ والخضوعُ لله تعالى.

فبعدَ أنْ شَعَرَ أنّ حَقّهُ قد وصَلَه، وأنّ الملأ كُلّهُم قد عَرَفُوا أنه سُجِنَ ظُلْماً وعُدْواناً، وبعدَ أنْ أرسَلَ عبرَ أَلْسِنَةِ الناسِ وآذانِهم رسالتَهُ إلى العزيز التي طالما أرادَ إرسالَها إليه بالفمِ الملآن، وعلى رُؤوسِ الأشهاد، بعدَ أنْ بلَغَ كُلَّ ذلك من رَدِّ الاعتبار، لم يَنْسَ نَفْسَه، ولم يَغْتَرّ بزَهْوَةِ الانتصار، فقال بتجرُّدٍ كامل مُعلناً التصاقَهُ بإنسانيتهِ، مُتَبَرّئاً منْ حَوْلِهِ وقُوَّتِه إلى حَوْلَ الله تعالى، مُجَدِّداً إعلامَ الدُّنيا عَنْ مُهِمَّتِهِ الأساسيةِ بالدعوةِ إلى الله تعالى، فإذا به يقولُ قولاً غَنياً بالمعاني زَاخِراً بالتواضع.

فهو ينطَلِقُ مِنْ نفسِهِ فيقول: **﴿ما أُبَرِّىءُ نَفْسِي﴾**، أي إنّي بَشَرٌ مَثَلي كَمَثَلِكُم، أحمِلُ بَينَ جَنْبِيَّ نَفْساً كما أنتم، فهو يتساوَى والناس في مُنطَلَقِ

كلامه، وهو يُشيرُ مِنْ خِلالِ ذلك إلى أنَّ ما شَهِدْتُمْ مِنْ إعلانِ بَراءَتِه، وما يحملُ في طَيّاتِه منْ إعلامٍ عنْ عِفَّةٍ وترفعٍ، وحِفْظِ أمانةٍ وصَبْرٍ على الظُّلْم، لا يَرْفَعه فوقَ مستوى البَشَر، ولا يَنْزِعُ عنه بَشَرِيّتَه.

لماذا؟

يتابع: ﴿**إنّ النّفْسَ لأمّارةٌ بالسوء**﴾، أي إنّ الله سبحانَهُ وتعالى إذْ خلَقَ البشَرَ جعلَ لَهُمْ في دارِ الدُّنيا دارَ امتحانٍ واختبار، دارَ ابتلاءٍ وبلاء، وترَكَ لهُمُ الخِيارَ في سُلوكِ ما يشَاؤُونَ من طريقٍ بعدَ أنْ أوضَحَ لهُمُ المَسالك، وأراهُم طريقَ الهِداية، وإنَّ مِنْ شِيمةِ النفسِ أنْ تَدْعُو صَاحِبَها إلى الاستكانةِ والرُّكونِ إلى الدنيا، وليسَ أدَلَّ على ذلك ما ذَكَرَهُ الإمامُ القُرطبي عنْ حَديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذْ قال: «**ما تقولونَ في صاحبٍ لكُمْ إن أنتُم أكرمْتُموه وأطعمْتُموه وكَسَوْتُموه، أفْضَى بكُم إلى شَرِّ غاية، وإنْ أهَنْتُموه وأعرَيْتُموهُ وأجَعْتُموه، أفضَى بكُم إلى خيرِ غاية؟**» قالوا: يا رسولَ الله! هذا شَرُّ صاحبٍ في الأرض، قال: «**فوالذي نَفسِي بيدِه: إنها لنفوسُكُمُ التي بينَ جَنوبِكم**».

ثم يُتابعُ يوسفُ عليه السلامُ مُعَقِّباً: ﴿**إلا ما رَحِمَ ربِّي**﴾ «وما» هنا، بمعنى مَنْ، أي: إلا مَنْ رَحِمَ ربّي فَعَصمه، فأرادَ بذلك أنْ يتواضعَ لله، ويَهضِمَ نفْسَه، لئلا يكون لها مُزَكِّياً ومُفتخِراً، وكما قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أنا سيِّدُ وُلِدَ آدَمَ ولا فخر**». وليُبيِّن أنّ ما فيه من الأمانة، ليس به وَحْدَه، وإنما هو بتوفيقِ الله وعِصمتِه ولُطْفِهِ.

وفي هذا الاستثناء نُصْحٌ وتنبيهٌ وترغيب:

فهو نُصحٌ للناسِ كافة، بوجوبِ إدراكِ الخَطَرِ الدّاهمِ الذي يَترَبَّصُ بهم، إن هُمُ انصاعُوا لما تَدْعُوهم إليه نفوسُهم مِنَ الرُّكُونِ إلى الدنيا.

وهو تنبيهٌ لهم مِنْ خَطرِ الانزلاقِ إلى مَصائدِ الشيطانِ المُتربِّصِ بهم.

وهو ترغيبٌ في الانعتاقِ مِنْ أسرِ النَّفْسِ، والانطلاقِ إلى رِحابِ رحمةِ الله تعالى الواسعة التي فَتحَها لكلِّ الخلائقِ بلا استثناءِ إلا مَن استثنى نفسَه.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لِتَغيُّرِ الأُسلوبِ في هذه الآية، عَمّا سَلَفَهُ مِنَ الآياتِ في هذا المشهد، فبعدَ أنْ كانَ مَضمونُ الآياتِ يحملُ وقعاً مُتسارِعاً لتوافُقهِ معَ غزَارَةِ الأحداث، وموضوعِ الحَدَث، إذَا به يَهْدَأُ معَ هذه الآية، ليصبحَ أُسلوبُ النُّصحِ والإيضاحِ والإرشادِ مُوَجَّهاً إلى كلِّ الناسِ في كلِّ الأزمان.

اللطيفة الثالثة: في ما نَلْحَظُهُ في آخرِ الآية مِنْ تَناسُقِ عباراتِ القرآنِ معَ المضمونِ الذي تَسُوّقُهُ: فبعدَ أن أشارَ يوسفُ عليه السلامُ إلى اتجاهِ النّفسِ نحوَ الأمرِ بالسُّوء، ثم أوضَحَ أنَّ هذا الاتجاهَ ليسَ حتمياً بل هو مُحاطٌ برحمةِ الله تعالى للإنسانِ، جاءَتْ صفاتُ الله الحُسْنَى لتكونَ مُتناسقَةً معَ هذا السِياقِ فقال: ﴿إنّ ربّي غفورٌ رحيم﴾.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على شدة جرم الخيانة، وقد حرص يوسف عليه السلام بعدما ظهرت براءته على الملأ، على إيضاح بشاعة جرم الخيانة تنبيهاً للناس إلى أنها من أعظم الجرائم.

٢ - للدلالة على أن النفس أمارة بالسوء، فعلى الإنسان أن يراقبها مراقبة شديدة ويضبطها حتى لا ترديه إلى مزالق السوء، وأن يسأل الله تعالى الرحمة والمعونة، فهو بدون معونة الله تعالى بلا حول ولا طول.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٣]

تصلُ بنا هاتان الآيتان أخي المؤمن إلى بدايةِ مرحلةِ الفَرجِ والتمكين ليوسفَ عليه السلام، حيثُ ستبدأُ معها فصولٌ جديدةٌ من قصةِ يوسفَ عليه السلام، نَرى فيها أَوْجُهاً جديدة مِنْ شخصيتِه ونتعلَّمُ منه الكثيرَ مِنْ خصائصِ الحُنْكَةِ والإدارة.

وكنا قد وصَلنا معَ الآياتِ السابقة إلى تمامِ إظهارِ براءَتهِ على مشهدٍ من الناس، وقد عرفَ الجميعُ عِفَّتِهِ وأمانته، واستكمَلَ في أذهانِ الخاصةِ والعامة كُلَّ الصفاتِ العاليةِ المُمَيَّزة مِنْ صدقٍ وأمانَةٍ وعلْم وحَزْم ودرايةٍ وبُعْدِ نظر، وحسنِ تَدَبُّر، وذكاءٍ وموهبةٍ وتنظيم، وأدركَ الجميعُ أنه يَحْمِلُ منَ الخَصائصِ والصفاتِ التي تفوقُ خصَائصَ الناسِ العاديين، وهو ما مَيَّزَهُ الله تعالى عَنْهُم به من خصائصِ النبوةِ والرسالة، فكانَ هناك نوعٌ منَ التهيئة العامةِ للقَبولِ به كأحدِ أركانِ المرحلةِ العصيبة المقبلةِ على الناس.

وكانَ أوَّلَ منْ أدركَ هذا هو الملك، فإذا بنا نَسْمَعُه يقولُ كما جاءَ في الآيةِ الكريمة: **﴿وقالَ الملكُ ائتوني به أستَخْلِصْهُ لنفسي﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عند تَكْرَارِ المَلِكِ لعبارةِ **﴿ائتوني به﴾** وقد سَمِعْنَاهُ قبلاً يقولُ: **﴿ائتُوني به﴾**.

ولكنَّ الفرقَ شاسعٌ بينَ حالِه في الموقفين:

فحينَ طلبَه أولاً، لم يَكُنْ يعرفُ عنه شيئاً سوى أنه استطاعَ أنْ يُعَبِّر له رُؤيا، واعتبرَ ذلك أمراً غريباً أنْ يَصْدُرَ التعبيرُ عَنْ سجينٍ لا يعرفُ لماذا سُجِنَ، فكانَ الغموضُ يَكْتَنِفهُ، وكانَ طلبُه له هو لإزالةِ هذا الغموضِ والتعرُّفِ إليه.

وحينَ طلبَه ثانيةً كانتْ أمورٌ كثيرةٌ قد تَبدَّلَتْ في نظرِ المَلِكْ، إذْ تعرَّفَ خلالَ هذه الفترة إلى قِصّةِ يوسفَ عليه السلام، منذُ وصولِه إلى مصر، وتعَهُّدِ العزيزِ تربيتَه، وقِصةِ المُراودة، وتُهْمَةِ سَجْنِهِ، وثباتِ براءَتهِ: إنه لأَمرٌ مُذهِشٌ أنْ تكتشفُ فجأةً أنَّ رُؤيا في المنام، سَتحْملك على إدراكِ أنّ أَحَدَ الناسِ مسجونٌ ظُلماً وعُدواناً في أحدِ سُجونِك، وقد بدا لكَ أنه زَاهِدٌ في الخروج منَ السجنِ، قبلَ إظهارِ براءَتهِ، هذه الحقائقُ دفَعَتِ الملكَ إلى الإصرارِ على إحضارِه، ولكنْ هذه المرة، بشوقٍ وشَغَف.

ولقد عبَّرَ عن ذلكَ تعبيراً دقيقاً إذْ قال: ﴿**أستَخلِصْهُ لنفسي**﴾.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ الصِيغةِ التي ورَدَ فيها قولُ المَلِك، ﴿**وقالَ الملكُ ائتوني به أستَخلِصْهُ لنفسي**﴾.

فهذه صيغةُ أمرٍ وجَزْم، الأمرُ في قوله: ﴿**ائتوني به**﴾. نَفْهَمُ هنا أُسلوبَ الملوكِ في إحضارِ الرعية، ولا غرَابَةَ في هذا، إلا أنه لمَّا عَقَّبَ بقوله: ﴿**أستَخلِصْهُ لنفسي**﴾ جاءَ جوابُ الأمرِ بمعانٍ جديدةٍ جديرٌ بنا أَنْ نَقِفَ عِندَها:

فهو بذلكَ يُعَبِّرُ عنْ رُسوخِ المكانةِ التي احتَلَّها يوسفُ عليه السلامُ في قلبهِ وهو لم يَرَهُ بعد.

وهو يُعَبِّرُ عنْ إرادةِ رَفْعِهِ إلى مكانٍ عالٍ، سنعرفُهُ في الآيةِ اللاحقة.

وهو يُعَبِّرُ عنْ حاجةٍ قويةٍ لوجودِ شخصٍ يَحْمِلُ مُواصفاتِ يوسفَ عليه السلام إلى جانبِه.

وهو يؤكِّدُ على إدراكِه دِقَّةَ المرحلةِ المقبلةِ فيما سَيَحُلُّ بمصْرَ مِنْ أحداث، وقد أوْلى تعبيرَ يوسفَ عليه السلامُ لرؤياه الأَهميةَ البالغة.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عند ما حمَلتْهُ إلينا الآيةُ الكريمةُ مِنْ وصفٍ لِتَطوُّرِ قَناعَةِ الملك، ووصفِ حالِهِ النفسيةِ في هذه اللحظات:

فلقد جاءَهُ يوسفُ عليه السلام من بعيدٍ وعَبَّرَ الرسول، بخبرٍ غيبيٍّ عنْ مجيءِ سَبْعِ سنواتِ خِصْبٍ سَتَعُمُّ مِصْر.

ثم حَدَّثَهُ عَنْ خبرٍ غيبي آخر عَنْ سنواتِ قَحْطٍ وجَفَافٍ، وعليه أنْ ينتظِرَ سَبْعَ سنواتٍ معَ جُهْدٍ دَؤُوبٍ في الادِّخارِ وحفظِ المُؤن، قبلَ أنْ يَتحقَّقَ منْ أنّ هذا القَحطَ سيأتي أمْ لا.

وهو لا يَمْلكُ منَ الأَدِلّةِ الحِسيَّةِ التي تُؤَكِّدُ صِدْقَ قولِ يوسفَ عليه السلامُ شيئاً، وهو بينَ خِيارين:

إمّا أنْ يُصَدِّقَ، وبالتالي فعليه أنْ يَبْدَأَ بإعمالِ جُهدٍ جبارٍ، وتحريكِ الأُمّةِ بكامِلِها في إطارِ خُطةٍ مَدْرُوسَةٍ شاملة..

وإما ألا يُصَدِّقَ، ولا شيء يُلْزِمُهُ بالتصديق، وقد سَبَقَ وقالَ له العارفون: ﴿أضغاثُ أحلام﴾[1].

هنا نجدُ أثَرَ رَحمةِ الله تعالى بعبادِه حينَ ألْقَى في قَلْبِ الملكِ القَنَاعَةَ الأكيدَةَ بصدقِ يوسفَ عليه السلام، وصوابيةِ تعبيرِه للرُّؤيا ثم جاءَهُ ما يُثبِّتُ جنانه على التصديقِ بأن عَلِمَ من تفاصيلِ قِصَةِ المراودَةِ أنّ يوسفَ عليه السلامُ رجلٌ لا تُحَرِّكُهُ عَواطِفُهُ أو شهواتِهِ وبالتالي، فهو ليسَ بصاحبِ خَيالٍ أو جنوحٍ ومغامرة، وأدْرَكَ أنه يمتلكُ منَ الصفَاتِ الفائقة، حينَ بلَغَهُ ما كانَ منْ صِدْقِهِ

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٤٤].

وعِلْمِه في تعبيرِ رُؤيا صاحبَيْهِ في السجن، ونحن نعرفُ أنها خَصائصُ النُّبوةِ والرسالة.

لقدِ استجمعَ كُلَّ هذه المُعطيَاتِ وقاسَ ما لدى يوسفَ عليه السلامُ على ما لدى كُلِّ الوُزراءِ والعلماءِ والعارفين مجتمعين، فما دَانَوه. آنها قال: ﴿**أَستَخْلِصْهُ لِنفسي**﴾.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**فلمّا كَلّمه قالَ إنكَ اليومَ لدينا مَكينٌ أمين**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تجاوُزِ التفاصيلِ غيرِ الهامةِ في كيفيةِ خُروجِ يوسفَ عليه السلامُ منَ السجنِ، وقد تجَاوَزَ كُلَّ ما كان يَمْنَعُهُ منَ الخروجِ مِنْ إصرارِ على إحقاقِ الحق، وقَد تَمَّ له ما أَرَاد.

اللطيفة الثانية: في تَضاعُفِ إعجابِ الملكِ بيوسفَ عليه السلام حين قَابَلَهُ وجْهاً لوجهٍ وكَلَّمَهُ. وكانتْ إشارةً لطيفةً مُعبِّرةً حين اقتصرَتْ الآيةُ الكريمةُ على كلمة: ﴿**فلمّا كلَّمَهُ**﴾ لاختصارِ حَدَثٍ هامٍّ جداً في حقِّ الناس العاديين: لقد كلّمه الملك، إلا أنه في حقِّ يوسف عليه السلام هو حَدَثٌ لا يبهرُهُ، بل في الحقيقة هو يُشرِّفُ الملك.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ خُلاصَةِ حديثِهما، وفي إيجازِ القرآنِ الكريم معَ وضوحِ العِبارةِ، قمةُ البلاغة: إذْ أنهَى الملكُ حديثَهما بالقولِ: ﴿**إنّكَ اليومَ لدينا مَكِينٌ أمين**﴾.

أي: لقد عَلِمْتُ مكانتَكَ وتَمَيُّزكَ عنِ الناس.

وعَلِمْتُ أنكَ أفضلُ منْ يُسْدِي إليَّ النُّصْحَ والمَشْورة.

فأصبحتُ بذلكَ في مكانةٍ عاليةٍ في مراتبِ الناس.

وإنكَ معَ هذه المرتبة في أمانٍ منْ تَعَرُّضِ الآخرينَ لك.

وإنك مُتَمَكِّنٌ نافِذُ القولِ.

وإنَّا نَثِقُ بكَ فنُسَميكَ أميناً.

ثم يقولُ الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: **﴿قالَ اجعلنِي على خَزَائنِ الأرض إني حفيظٌ عليم﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عندَ قولِ يوسفَ عليه السلام: **﴿قال اجعَلْنِي على خزائنِ الأرض﴾**.

هنا أيضاً، نتعرَّفُ إلى جانبٍ آخرَ منْ شَخْصِيَّةِ يوسفَ عليه السلام:

لقدْ قرَّبَهُ الملكُ منذُ لحظات، وقال له: **﴿إنّكَ اليومَ لدينا مَكِينٌ أمين﴾**. الواحدُ منا يطيرُ فَرَحاً بهذا الإطراء وهذه المرتبة، ويَرْتَبِكُ ويُصيبُهُ الذُّهولُ مع السعادة.

أيُّ نجاحٍ من هذا النَّوعِ يُصيبُ أيَّ إنسانٍ في زَمَانِنا، يُذْهِبُ التَّماسُكَ ويَسْتَجْلِبُ الدُّوار، وتختلط غالباً مشاعِرَ الفرح منْ إرباكٍ وشَتَات.

وفي مثلِ هذه الظروف، يتوقَّفُ المُكرَّمُ عنْ أيِّ مَطْلَبٍ أو مَسألَة، بلْ ينتظِرُ سَماعَ المطالِبِ منَ المُكرِّمِ لتنفيذِها.

أمّا يوسفُ عليه السلام، فما تَوانَى لحظةً عنِ المُضِيِّ قُدماً في الصعودِ، لا لمطلبٍ ذاتي أو دُنيوي، فلقدْ رَفَعَهُ الله تعالى فوقَ كُلِّ هذه الاعتبارات، ولقد كانَ عزيزاً كريماً مُحسناً حتى في غَيابَاتِ الجُبّ، حتى في خِدْمَةِ العزيز، حتى في ظُلماتِ السِجن، ولنْ يَزِيدَهُ تقرُّبُ الملك منه عِزاً أو شَرَفاً.

بل لإنفاذِ أمرِ الله تعالى برفعِه ليكونَ لنا في قصتهِ عِظةٌ وعِبرة، لنعلمَ أنّ كلَّ شيءٍ بقضاء، وأنه تعالى يُعِزُّ منْ يشاءُ ويُذِلُّ منْ يشاء، بيدِه الخير وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

فقال بكُلِّ حزمٍ وتصميم: **﴿اجْعَلنِي على خزائنِ الأرض إنّي حفيظٌ عليم﴾**.

اللطيفة الثانية: بلاغية، وذلك في جماليةِ الصورةِ التي ساقَتها إلينا الآيةُ الكريمةُ ونحن نَسمع: **﴿اجْعَلني على خزائنِ الأرض﴾**، ونحن نتصوَّرُ معنى خزائنِ الأرض: الأموالَ والثمارَ والغِلالَ والمواردَ والحَصَاد والزروعَ والمُؤَن، والمستودَعَاتِ والمُسْتَوعَبات والأهراءاتِ والأطيان وحاجَاتِ العباد... إخْتصَرتَها الآيةُ بقولِ الله تعالى: **﴿خزائنِ الأرض﴾**.

اللطيفة الثالثة في ما أورَدَتْهُ الآيةُ الكريمةُ منَ الصفاتِ الجديدة التي نَعْلَمها تصريحاً هذه المرة، وليس تلميحاً أو إشارةً في يوسفَ عليه السلام: **﴿إني حفيظٌ عليم﴾**.

للمرةِ الأولى، منذُ بدايةِ القِصة،يتكلَّمُ يوسفُ عنْ نَفسِه،ليتحدَّثَ عنْ صفاتِهِ، ولقدِ استوجَبَ الموقفُ الذي هو فيه هذه اللحظة، أنْ يتكلَّمُ عن هذه الصفات:

فهو في مَعرضِ إقناعِ الملكِ بتوليتِهِ خزائنَ الأرض.

ولقد طلبَ مطلباً عظيماً دُفعةً واحدة، دونَ المرورِ بمراحلِ الدرجاتِ والرُّتبَ.

وهو يعلمُ أنه بذلك يَضَعُ نفسَه في أَدَقِ مَنْصِبِ وأصْعَبِ مُهمّة.

وهذا الأمرُ يستوجبُ صِفتين أساسيتين: العِلمَ والتدبير.

فلهذا قال: **﴿إني حفيظٌ عليم﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب اقتناص الفرص حين تبدو حاضرة، وعدم تأجيل الإفادة منها إذا ما توفرت الأهلية لذلك، ويوسف عليه السلام يعلمنا أن نضع الرجل المناسب في المكان المناسب وليس للرجل المناسب أن يستنكف عن شغل المنصب، لأنه حال استنكافه، سيملاءه آخر قد لا يكون كفواً.

٢ - للدلالة على أن الأمانة هي أعلى صفة ينبغي أن تتوفر في الأجير أو العامل أو الموظف. فحين رأى الملك من يوسف توفر الصفات الحميدة مجتمعة، اختار صفة الأمين ليبوئه بموجبها أعلى مكانة، وكانت صفة الأمين هي الصفة الملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى قبل بدء البعثة.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٤]

تَصِفُ لنا هاتان الآيتان، أخي المؤمن واقعَ حالَ يوسفَ عليه السلام في هذه المرحلةِ الجديدةِ منْ حياتِه وقد رَفَعَهُ الله تعالى إلى أَعلى مكانةٍ في الدنيا، فلنتأملهما برَوِيَّة، لنستَخْلِصَ منهما ما يُيَسِّرُ الله تعالى لنا مِنْ العِبر والعِظات.

يقولُ الله تعالى: ﴿**وكذلك مَكّنا ليوسفَ في الأرض**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدَّة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ﴿**وكذلك**﴾.

وفي هذه الكلمة، إشارةٌ لطيفةٌ إلى تتابُعِ الأحداثِ حتى وصلتْ إلى هذه

الغايةِ المَرْجُوَّة، ففي رَبْطِ ما سَلَفَ منْ أحداثٍ معَ ما سيَلْحَقُ، حمَلٌ للقارىءِ والمستمعِ على الشعورِ بالترابُطِ المتينِ من كُلِّ مشاهِدِ القِصة.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا على جَمَاليَّةِ الصورة التي تُعطِينا إيّاها عبارة: **﴿مَكَّنَّا ليوسفَ في الأرض﴾** فهي غنيةٌ جداً بالمعاني.

وأصلَ كلمةِ التَمْكِين: جعَلْنا له مكاناً، والمقصُود بها: أصْبَحَ له مُوْطِأَ قَدَمٍ راسخٍ في الأرض.

ونحنُ حين نَسمَعُ القرآنَ الكريمَ يَتَحدَّثُ عن تمكينِ الله تعالى ليوسفَ في الأرض، والله تعالى هو الخَالِقُ البارىءُ المصَوِّر المقدر المانِح، نُدْرِكُ أننا أمامَ واقعةٍ بالغةِ الأهمية:

فليسَ الملكُ هو الذي مكّنَّ ليوسفَ في الأرض، بلِ الله القادرُ القَهَّار، وما قَرارُ الملكِ بتسليمِ زِمامِ الأمورِ إلى يوسفَ عليه السلام، إلا بتقديرٍ منَ الله تعالى، والله تعالى يجعلُ الأسبابَ لِنفَاذِ أمْرِه..

وإذا مكّنَ الله تعالى ليوسفَ في الأرض، فقد جَعلَهُ من عِنايتِه ورِعايتِه وحِفْظِه وتوجيهِه في كيفيةِ إدارةِ الأُمور. هنا يتفوقُ يوسفُ عليه السلام على بشريتِه وعلى بقيةِ البَشَر، لأنه يُؤدِّي المهمةَ التي أَوْكَلَهُ الله تعالى بها في حفظِ النفوسِ خلالَ السنواتِ المِحنة، وهي لا تُترَكُ دونَ توجيهٍ إلهي، وإلهامٍ رَبّانيّ.

وحينَ نحاولُ فَهْمَ معنى **﴿وكذلك مَكّنا ليوسفَ في الأرض﴾** نجدُ الكثيرَ منَ المعاني التي تَرِدُ إلى الذِّهن:

فهي تَعْنِي أنه أصبحَ صاحبَ القولِ النافِذ، الذي يأمُرُ فيُطاع، يُشيرُ فَيُلَبى، يُصْدِرُ الاحكامَ فلا يُراجَعُ فيها.

وهي تعني الضَّمانَ بالاستقرارِ في الحُكْم، معَ وَفْرِ الطُّمأنينةِ في القلب، بأنّ هذا التمكينَ ليس رهناً بأهواءِ البَشر.

وهي تعني أنه أصبحَ صَاحِبَ جاهٍ وسلطانٍ، لا يتلقّى الأوامرَ من أحدٍ منَ الناسِ، ولا حتى المَلك الذي تخلّى عنْ إدارةِ المِحنةِ، وترَكَ الأمرَ ليوسفَ عليه السلام، يتحمَّلُ كاملَ المسؤولية.

وهي تعني أنه أصبحَ حقيقةً هو الحاكمَ الفِعْليَّ لِمصر، وليسَ فقط لِمصر،بل لكُلِّ الدنيا، إذْ سنرَى أنَّ كُلّ الأقطارِ ستأتي إلى مِصْرَ لِتأخُذَ منها المُؤَنَ والغِذاء.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿يتبوّأ منها حيث يشاء﴾.

في هذا الشطر منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عند التفصيلِ الذي يَبدُو في ظاهرِ الحالِ غيْرَ أساسي في وَصْفِ صلاحياتِ يوسفَ عليه السلام، إلا أنه في الحقيقةِ يَحمِّل دلالةً بالغةَ الأهمية، نتَوَقَّفُ عندَها قليلاً:

كثيرٌ منَ الملوكِ والحُكَّام، يَحْكُمونَ في قصورِهم، ومنْ قُصورِهم، ولا يتجاوزُونَ أبوابَها إلا في المناسبات.

في كثيرٍ منَ الأحيان، تَضعُفُ سُلْطَةُ هؤلاءِ الملوك، فيَحْكُمُ عَنهُم غيرُهم باسْمِهم، ويبْقَونَ في الحُكمِ صورةً دونَ فعاليَّةٍ، وغالباً ما يعلمون هذه الحقيقة، يَرْضَونَ بها لِضَعْفِهِم وقِلّةِ حِيلتِهم.

وعلاماتُ فعاليّةِ الحُكم، ليس فقط إعطاءَ الأوامرِ أو مظاهرَ الحُكْمِ والرفاهية، بل أهمُّ علاماتِ الحُكْم هو الحضورُ الفَاعِلُ على الأرض، أنْ يَنزِلَ الحاكِمُ إلى الشارعِ بينَ الناس، مع الناس، ويستشعرَ وُجودَه بينَهم، في اجتماعاتِهم وأحادِيثهم في مُنتَدَياتِهم ومَنازِلِهم، أنْ يَنفُذَ سُلْطَانُه إلى أصغرِ بيتٍ فيهم، أنْ يكونَ كثيرَ الحضورِ كثيرَ التنقل، سَهْلَ التنقُّل، يُؤبَهُ له، يتَوَقَّعُ حضورُه في أيّ وقت.

ولذلك جاءَت الآيةُ الكريمةُ بالغةَ الدقة، إذْ أوردتْ: **﴿يتبوّأ منها حيثُ يشاء﴾**.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا أنّ الصفةَ التي أعطاها الله تعالى في هذا الشطرِ منَ الآية ليوسفَ عليه السلام، تُكَمِّلُ ما حبَاهُ بِهِ منْ صفاتٍ ساميةٍ لإدارةِ سنوات المحنةِ.

فمِنَ المعلومِ أنّ مَرْكَزِيّةَ الحُكْمِ تُقَوّي مَرْكَزَ الدولةِ، وتُضْعِفُ باقي الأقاليم التي قد يَشْعُرُ أهلُها أنهم دونَ مستوى الاهتمامِ المطلوب، مما يُشَجّعُ حدوثَ هجراتٍ منَ الأقاليمِ إلى المركز، أمّا إذا كانتِ الإدارةُ الحاكمةُ أقَلَّ مركزية، وتثبتُ حضوراً ثابتاً ومؤكداً في الأقاليم، فإنّ هذا الأمرَ يُنْعِشُ الأقاليم، ويَحْمِلُ أهلَها على القرارِ فيها وإنعاشِها.

فجاءَت الالتفاتةُ اللطيفةُ في الآيةِ الكريمة، لِتُشيرَ إلى أنّ يوسفَ عليه السلام، انتهجَ مَنْهَجَ الحركةِ في حُكمِهِ لا مَنْهَجَ الثباتِ والرُّكُون...

وجاءَ قولُ الله تعالى: **﴿يتبوَّأُ منها حيثُ يشاء﴾** للإشارةِ إلى وُصولِ سُلْطَانِه إلى أرجَاءِ مِصْر، وإلى حركتِه وتَنَقُّلِهِ بشخصِه في هذه الأرجاء.

اللطيفة الثالثة: في جَماليةِ الصورةِ التي تُعطِيها كلمةُ **﴿يَتبَوَّأُ﴾** فهي تأتي مُنْسَجِمَةً انسجاماً تاماً معَ حديثِ الفَضْلِ والرفعة التي اخْتَصَّ بها الله تعالى يوسفَ عليه السلام، ونَفْهَمُ منها العلوَ والسُؤدَد، وهي أَبْلَغُ معنى مِنْ قولِنا مثلاً: يَنْزِلُ أو يتنقِلُ أو يَجُولُ.

ثـم يـقـولُ الله تـعـالـى: **﴿نُـصِـيـبُ بِرَحْـمَـتِـنـا مـنْ نـشـاء ولا نُـضِـيـعُ أجـرَ المُحْسنين﴾**.

وفي هذه إشارةٌ إلى أمرين اثنين:

الأمرُ الأول: هو أنّ الله تعالى قد جعَلَ كُلَّ شيءٍ بِقَدَر، حتى توزيعُ المَهامِّ والمناصبِ والدّرَجاتِ في هذه الدنيا، كُلُّها بِقَدَر، حتى توزيعُ الأرزاقِ والمِنحِ والعَطَاءِ كُلُّها بِقَدر.

لكنّ هذا لا يَعني تَفْضِيلَ منْ وَسّعَ الله تعالى عليه بالرزق على مَنْ قَدَرَ عليه رِزْقَه، بل في كلا الحالين هو إبتلاءٌ في حقِّ عامةِ الناس، لذلك يأتي الشطرُ الأخيرُ منَ الآية، مباشرةً ليوضِحَ دورَ الإنسانِ هنا، إذْ نقرأ: **﴿ولا نُضِيعُ أجْرَ المُحسنين﴾**.

وهذا يعني أنّ الله تعالى، إذْ قَدَّرَ المراتبَ والأرزاقَ، ترَكَ لكلِّ واحدٍ خيارَ العمل، فلِئنْ أحْسَنَ فيما وضَعَ بينَ يديه، فلقد نَجح وأفْلَحَ، ولئن أساءَ فقد أساءَ لنفسِه.

الأمر الثاني: هو أن هذه القاعدةُ تَسْرِي على كلِّ الناسِ في الحياةِ الدنيا، سواءٌ مَنْ آمنَ منهم وحَسُنَ إيمانُه، أمْ لَمْ يُؤمِن، مثَلُها في ذلك، كمثَلِ قواعدِ الكيمياءِ والفِيزياءِ وغَلَبةِ القوةِ عندَ انعدامِ النُّصرةِ الإلهية، وأبلَغُ مِثالٍ على ذلك، مكافأةُ العُلماءِ والمُخترعين، والباحثين، بالكشوفِ العِلميّةِ التي تؤدّي إلى اليُسر والرّخاءِ في تسهيلِ مجرياتِ الحياةِ الدنيا مِنْ طائراتٍ وسيّاراتٍ وحَواسِبَ وسِواها، حتى ولو جَرتْ هذه الكشوفُ على أيدي غيرِ المؤمنين، فلهُم الجَزاءُ في الدنيا على ما بَذَلُوه مِنْ جُهود.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿ولأَجْرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتَّقُون﴾**.

ولقد ورَدَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ مباشرةً بعدَ آيةِ جَزاءِ المُحسنين، لتكونَ تعقيباً واستثناءً.

فبعدَ أنْ أوضحتْ لنا الآيةُ الأولى أنّ الله تعالى لا يُضِيعُ أجرَ المُحسنينَ بالمطلق، جاءتْ هذه الآيةُ لِتُوضِحَ أنّ الجزاءَ في الآخرةِ أفْضَلُ وأعَمُّ وأشمل، لكنه لا يصيبُ إلا الذين آمنوا وكانوا يتَّقُون. أما الذين لم يُؤمِنوا، فلقد استوْفَوا أُجُورَهم في دُنياهُم، وأخذُوا نَصِيبَهُمُ العادِلَ لقاءَ جُهودهم، وكم هي ضحلةٌ ضئيلةٌ مكاسبُ الدُّنيا أمامَ أجرَ الآخرة.

ونحنُ نسمعُ في القرآن الكريم آياتٍ بيناتٍ في حَقِّ هؤلاء، إذْ يقولُ الله تعالى في سورةِ الأحقاف، الآيةِ العشرين: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: **﴿ويومَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُوا على النَّارِ أذْهَبْتُم طَيِّباتِكُم في حياتِكُم الدُّنيا واستَمْتَعْتُم بها، فاليومَ تُجْزَونَ عذابَ الهُونِ بما كنتُم تَستَكْبِرُون في الأرضِ بغير الحقِّ وبما كُنتم تَفْسُقُون﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الحاكم العادل الصالح يجب أن يكون قريباً من رعيته، أن يعيش مع الناس همومهم وأحزانهم، أن ينزل إليهم ويخالطهم ويسمع شكواهم بنفسه، أن يزور كل مناطق حكمه ولا يقتصر على مركز حكمه.

٢ - للدلالة على أن الحاكم العادل لا يخاف الناس بل يأمن لهم ويشعر بالطمأنينة بينهم، فينزل إليهم ويشعر نفسه واحداً منهم. ، من هنا ينطبق عليه قول الله تعالى: يتبوأ منها حيث يشاء.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٥]

تنقُلنا هذه الآيةُ أخي المؤمن نَقلةً سريعةً إلى مرحلةٍ جديدةٍ ومشهدٍ جديد مع تجَاوُزٍ سريعٍ وواسعٍ للأحداثِ، دونَ أن يَشْعُرَ القارىءُ والمستمعُ بصعوبةٍ في المتابعةِ والتركيز، ذلكَ لأنه كانَ قد تحضر معَ ما اختزنه من معلومةٍ من الآياتِ السابقة.

وإذا ما أرَدْنا ذِكْرَ ما حصَلَ منْ أحداثٍ بينَ الآيةِ السابقة، والآيةِ الحاضرة نفهمُ المجرياتِ التالية:

فلقَدْ استقَرَّ المَقَامُ بيوسفَ عليه السلام، على عرش مِصْر وتركَهُ الملكُ ليديرَ شؤونَ الناس، ويَنْظُرَ في صالحِهم.

وأنه أعملَ خُطتَه الاقتصاديةَ المُتكاملة فحضَّ الناسَ على الإكثارِ منَ الزَّرْع، فجمَعَ المؤَنَ والأغذيةَ في مستودعاتِه المركزية لضبطِ الصَّرفِ والاستهلاكِ.

ومنَعَ الناسَ مِنَ الإسرافِ حتى في سنواتِ الخِصْب، ولم يعطِهِم إلا القليلَ، رُغمَ ما يَرونَهُ منَ الخيراتِ الدّافقةِ منْ بطنِ الأرض.

وأنه قد مرَّ بعدَ ذلكَ زَمنُ الخِصْب، وانقضَتِ السنواتُ السبع، وبدأت بعدها سنواتُ الجَدْبِ والقَحْط.

وأنه بدأ التوزيعُ على الناسِ بمقاديرَ محسوبة، تَسْتَوجِبُ صَبْراً ودِقةً وضَبْطاً وتنظيماً فائقاً.

وأنّ الجَدْبَ طالَ كُلَّ الأرض، وليسَ مِصْرَ وَحْدَها، فأصَابَ الناسَ في كلِّ أقطارِ الأرض، الضيقُ والإحصار.

وأنه وصَلَ خبرُ المُؤنِ المُختَزَنةِ في مستودعاتِ عزيزِ مِصْرَ إلى هذه الأقطار، أوصَلَها إليها حاجةُ الناسِ إلى الطّعام، وهذه الأخبارُ تَخترِقُ الصعوباتِ والمسافاتِ، ولا تَنتظِرُ وسائلَ اتصالٍ مُتقَدِّمَةٍ مُيَسّرة وإرسالَ العُيونِ في الأمصار، وتواصلُ الإنسانِ مع أخيه الإنسانِ مستمرٌ منذ أن انتشَرَ البشرُ في أرجاءِ الأرضِ واستعمرُوها.

ومن بين هذه الأقطار أرضُ كنعان، حيثُ يعقوبُ عليه السلامُ وبَنُوه وقد أصابَهُم ما أصابَ الناس. .

فانطلقَ الإخوةُ باتجاه أرضِ مِصْر، وما كانوا لِيُفَكِّرُوا بِقَصْدِها لولا هذه الحاجة، التي قدرَّها الله تعالى عليهم لِحَمْلِهم على الاتجاهِ نحوَ يوسفَ عليه السلام إنفاذاً لوعدِه تعالى، وتحقيقاً لقضائه.

وأنّهم وصلُوا إلى مصرَ حيثُ اجتمعتْ أممٌ وخلائقُ يطلبُون الغذاءَ والقُوت.

إلى هنا، أوصلتنا الآيةُ الكريمة لنبدأ معها متأمّلين.

يقولُ الله تعالى: **﴿وجاء إخوةُ يوسفَ فدَخَلُوا عليه فعرفَهم وهم لهُ مُنكِرون﴾**.

في هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عندَ قولِه تعالى: **﴿وجاءَ إخوةُ يوسف﴾**.

والآيةُ لم تَذْكُرْ عددهم، ولا ما إذا كانَ أخوهُ الأصغرُ معهم، وذلك لإعمالِ أُسلوبِ التشويق، لأننا سنعرِفُ في الآيةِ اللاحقة، أنه لم يَحْضُر معهم، فلم يَرِدْ ذِكرُه في هذه الآية منعاً منَ التّكرار.

ونحن لم نَسمع ما دارَ بينَ يعقوبَ عليه السلام، وأبنائه قبلَ أنْ يُغادِرُوا إلى مصر، وهنا أيضاً بلاغةٌ قرآنيةٌ عالية، لأننا في لاحقِ الآيات سنعلَمُ أنّ حواراً طويلاً سيدُورُ بينهم، والقرآنُ الكريمُ يتجاوزُ الحَدَث التّلقَائِيّ ويتوقّفُ عندَ الحَدَث المفَصَليّ.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لقولِه تعالى: **﴿فدَخَلُوا عليه﴾**.

لقدِ اعتدْنا في أيامِنا الحالية أن يكونَ الحاكِمُ بعيداً جداً عن مرأى الناس،

لا يَرونَهُ إلا في المناسبات، أو في وسائلِ الإعلامِ المرئية، وإذا حصَل وكانَ هناك حدثٌ يستَوجِبُ اجتماعَ الناسِ، للعطاءِ أو الإحصاءِ، فهم لا يَرونَهُ البَتَّة بل يَرونَ بعضَ أطرافِ الحاشيةِ غير المُقرّبين، وفي مثلِ واقعِ مصرَ معَ يوسفَ عليهِ السلام، ومعَ هذه الأعدادِ الكبيرةِ المتوافِدَةِ من كُلِّ الجهات، منطقي ألا نَرى يوسفَ عليه السلام بينَ الجموعِ، وله أنْ يُديرَ تنظيمَ العملِ من بعيد، ومَنْصِبُه يسمحُ له ألا يَنزِلَ إلى أرضِ التوزيعِ، حيث الهَرْجُ والمَرْجُ ولرُبما التدافُعُ والزِّحام، خصوصاً أنّ مسألة التوزيعِ ممتدةٌ على مدى أشهرٍ وسنين.

إلا أنّ يوسفَ عليه السلام، تحقيقاً لمبدأ الدِّقة والأمانة، كان حاضراً للإشرافِ شخصياً على الكَيْلِ والعطاء، ويستطيعُ بذلك أنْ يُراقِبَ عَدالَة التوزيعِ، ويُضْفِي بحضورِه أجواءَ الانضباط، يُثْبِتَ قولَ الله تعالى فيه حينَ قالَ عَن نفسه: **﴿واني حفيظٌ عليم﴾**.

اللطيفة الثالثة: في استمرارِ تأمُّلِنا لقولِ الله تعالى: **﴿فدخلُوا عليه﴾**.

وهذا يعني أنه حصَلَ لقاءٌ مباشِرٌ معَ مُواجهةٍ في موقعٍ واحد، وهذا في حَقِّ الناسِ منَ الأمورِ التي يَصْعُبُ حُصولُها:

فحينَ يكونُ المُقَامُ مُتسِعاً لحركةٍ كثيفةٍ منْ ذهابِ الناسِ وإيابِهم، وحينَ يكونُ ممتداً على مدى الأيامِ والأشهرِ والسِنين، لا تَستطيعُ العينُ حَصْرَ كلِّ هؤلاءِ الناس، وأبلغُ مِثالٍ على ذلك، ما يَحصُلُ في أيامِنا الحاضرة، أيام الحَجّ حيثُ كما هو معروف في أماكنِ الاكتظاظِ والزِّحام، إذا ما انقطَعَ بصَرُكَ عنْ شخصٍ تتابعُه، لحظةً واحدةً فقط، إختفَى عنْ نَاظِرَيْكَ واستحالَ عليكَ مُتابعتُه.

وفي قوله تعالى: **﴿فدخلُوا عليه﴾** إشارةٌ إلى حصولِ اجتماعِهِ بهم بأمرٍ منَ الله تعالى وتقديرِه، وأنه لا مكان للمصادَفَةِ في ترتيبِ اللقاء، وذاك أنه أمْرٌ مُرْهِقٌ جداً، أنْ تستعرِضَ كلَّ القَادِمين، منْ كُلِّ البلاد، في كُلِّ الأوقاتِ على مَرِّ

الأيام، لكنّ الله تعالى شاءَ أنْ يَجْمَعَ يوسفَ عليه السلام بإخوتِه بعدَ طولِ انقطاع.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: **﴿فعَرَفَهُم﴾**.

وأسبابُ معرفتِه لهم كثيرة:

فهم حينَ ألقَوهُ في غيابة الجُبِّ، كانوا كباراً بالغين على ما ساقَ الرُّواةُ والمفسرون، وملامحُ وَجهِ البالغِ لا تتغيَّرُ إلا قليلاً على مرِّ الزمان..

وهم جاؤوه عشَرَة، فحتى لو اختلفَتْ عليه ملامحُ بَعضِهم، فإنَّ العلاماتِ الفارقَةَ بعضُها يُقَوِّي بعضاً.

وهو في الحقيقةِ يَنْتَظِرُهم تحقيقاً لوعدِ الله تعالى له بأنه سيجمَعُهُ بهم حينَ نسمَعُ في الآياتِ السابقة، **﴿وأوحَينا إليه لتُنَبئنهُم بأمرِهم هذا وهم لا يَشعُرون﴾**[(١)].

وأهمُّ من ذلك كُلِّه، أنّ الله تعالى أرشَدَهُ إليهم، ومَنْ يهدِ الله فهو المهتد.

اللطيفة الخامسة: في قولِه تعالى: **﴿وهم له مُنكِرون﴾**.

لقد عرَفَهُم يوسفُ عليه السلام، وعرَفَ أنهم جَاؤوا دونَ شقيقهِ الأصغر، ولقد نظرَ إليهم ونظرُوا إليه، فلم يَعْرِفُوه وأسبابُ عدمِ معرفتِهم له كثيرة:

فلقد كان صغيراً حين ألقوه في غياباتِ الجب، وملامحُ الطِفْلِ تتَغيَّر حين يَكْبُرُ.

وهو في عُرْفِهِم مجهولُ المصير فمُسْتَبْعَدٌ في ذهنِهم أن يكون هنا في مصر.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ١٥].

وأبَّهَةُ الملكِ تحجُبُ إمكانيةَ القياسِ على أخيهم، وهم عَرفوا حتماً أنّ اسمه يوسفَ، إذْ بقي اسمُه كذلك حتى في الحِقْبَة المصريةِ منْ حياتِه..

والمنطقُ لديهم لا يسْمَحُ لعقولهم بالذَّهابِ للتفكيرِ في أن يكون أخاهُم يوسفَ الذي تَركُوه في الفلاةِ عُرضَةً للذئاب، أو القوافلِ في أحسنِ تقدير هو هذا العزيزُ الذي هم في حضْرَتهِ.

وقبلَ أن نُنهي تأمُّلنا في هذه الآية، نتوقَّفُ قليلاً عندَ الحالِ النفسيةِ ليوسفَ عليه السلام، في هذا الموقف:

فلقد أساؤوا إليه أشَدَّ الإساءةِ حينَ ائتمرُوا به، ونفّذُوا خُطَّتَهُم بإبعادِه عن أبيه، وتخَلِّيهم عنه في أشدِّ حالاتِ ضَعْفِهِ، وتركِهِ عُرضةً للموت..

ثم قاسى ما قاسى من مرارةِ الفراقِ وألم البِعاد عن أبيه، وتعاقُبِ الأحداثِ عليه، إذْ سُجِنَ في سُجونِ مصر، بينما هُم كانوا يَنْعَمُونَ بالحريةِ في أرض كَنعان.

وهو الآنَ في موقعِ القَوِيّ المتمكِّن، بينما همُ في موقعِ الضّعفِ والطّلبْ ويستطيعُ بسهولةٍ أن يَقْتَصّ منهم لما فعلُوه معه في صِغرِه.

والتصرُّفُ العادِيُّ للناس، يَسْمَحُ لنا أن نقْبلَ منه أن يتصرَّفَ معهم تصرُّفاً في أقلِّ التقدير عادلاً، كأن يُذِيقَهُم بعضَ ما قاسَى منْ مرارةٍ في ظُلمَةِ الجُبّ، ووحدةِ السِّجن، لا للانتقام، بل للتأديبِ، وإفهام مدى القسوةِ التي عاملُوه بها.

إلا أنّ يوسفَ عليه السلام سيكونُ له معهم تصرفٌ آخر وبُعْدٌ آخرُ في شخصيتهِ نتعرَّفُ إليه في لاحقِ الآيات.

* * *

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن ملامح الإنسان تتغير مع الزمن، خصوصاً إذا كانت آخر رؤيتنا له منذ أن كان حدثاً يافعاً، وأغلب السبب في حصول التغير هو بنمو الجيوب الهوائية في الوجه، خصوصاً الجيوب الجبهوية التي تتحكم بعرض الجبهة واتساع محجر العين، والجيوب الأنفية التي تتحكم بشكل الأنف وحال الخدين.

٢ - للدلالة على أن صفة الشخص ومهام عمله تطغى على دلالات اسمه: فلئن عرفنا شخصاً اسمه زيد مثلاً يعمل خادماً، ثم عرفنا بعد حين أن مديراً عاماً اسمه زيد، فلا يدفعنا انطباق الأسماء على إجراء مقاربة بينهما.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٦]

نبدأ مع هذه الآية، أخي المؤمن، تأمُّلنا في الحوارِ الذي جَرى بينَ يوسف عليه السلامُ وإخوتِه في لقائهم الأول، بعد فِراقٍ دامَ سنواتٍ طويلة، يقولُ بعض المفسرين: إنها دامتْ عشرينَ عاماً، والله تعالى أعلم، تغَيَّرتْ خلالَها المُعطيات كلُّها، وانقلبت الأُمور رأساً على عَقِب، رفَعَ الله تعالى فيها يوسفَ عليه السلام إلى أعلى مقامٍ في الدنيا، وصارَ مقْصِدَ العالَمين، وها هُمْ أولاءِ إخوتُه في حضْرتِه، هو يَعرِفُهم وهم لا يعرِفُونه، هُمْ يطْلُبونَ العطاءَ، وهو يمْلِكُ المؤَنَ والكلأَ، وله السلطةُ والجاه، وله أنْ يُعْطِيَ أو يَمْنَع عمّنْ يُريد، ونحن نعْرِفُ أنهم آذوه وأساؤوا إليه، وتسبّبُوا في غُربتِه وبُعَادِه عنْ أبيه. ولو شاءَ أنْ يقتصَّ مِنهُمْ عدْلاً وحَقاً لأمْكَنَ له ذلك، دُونَما مُراجِعٍ أو مُعقِّب.

فلْنُتابعْ معاً فُصولَ هذا اللقاء، في هذه الآياتِ مَوْضِعِ تأمُّلِنا اليوم، وسنَجِدُ فيها الكثيرَ مِنَ الصفاتِ العاليةِ الرفيعة، التي حباهُ الله تعالى بها.

يقولُ الله تعالى: ﴿ولمَّا جَهَّزَهم بِجهازِهم قال ائتُوني بأخٍ لكُمْ مِنْ أبيكم﴾

في هذا الشَطْر من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وُقوفنا عندَ قولِه تعالى: ﴿ولمّا جَهَّزَهُم بِجَهازِهم﴾ فنَرى أنْ يوسفَ عليه السلام، بَنَى خُطَّةً مُحْكَمَة الدِقة، بعيدة الآفاقِ والمرامي، وذلك منذ أنْ دَخَلُوا عليه وعرفَهم، وهُمْ له مُنْكِرون، ثم إنه قَامَ بتنفيذِها عملياً بصمتٍ، وإتقان، دونَ ضجيجٍ أو تصريحٍ أو تلميح، وهو يُعَلِّمُنا بتصرُّفه الحكيم هذا، كيفيةَ التّعامُلِ معَ الأحداث، ولنا في أنبياء الله تعالى، كُلُّ العِظةِ والعِبْرة.

فنتعَلَّمُ مِنْ يُوسفَ عليه السلام:

أنه ينبغي لنا أَنْ نكونَ أقَلّ انفعالاً وتأثُراً بظاهرِ الأحداث، ونُقْبِلَ على الوقائعِ بروِيّةٍ وهُدوء. وأَنْ نَدْرُس المُعْطياتِ بجِدِّيَّةٍ وتعَقُّل، قبلَ الإقدامِ على التعامُلِ معَ هذه الأحداث.

ونتعَلَّمُ منه أنْ نكونَ أكْثَر صَمتاً، وأقَلَّ ضوضاءَ وجَلَبَة، وبالمقابل أن يكونَ التصرُّفُ العَمليُّ على الأرض، هو رائِدَنا، وليس الضَجيجَ الإعلامي.

ونَتعلَّمُ منه بُعْدَ النظر، وإحكامَ التنظيم، وعدمَ التصريحِ عَنْ تفاصِيلِ العمل، قبلَ استكمالِ الإعدادِ له.

ونتعلّمُ منه عدَم حرْقِ المراحلِ لإرضاءِ العواطف، إذ إنَّ الأخطاءَ تكْثُرُ عندَ هِياجِ العَاطِفة، فتَعْمَى البصائرُ والأبصار.

فماذا فعلَ يوسفُ عليه السلام؟

لقد أحسنَ استقبالَهم، ولم يُفصِحْ لهُمْ عَنْ نفسِه، ولم يُعْطِهم أيةَ إشارةٍ تُذَكِّرُهم به، ثم إنه قَبِلَ مِنهُمْ بِضاعَتِهِمْ كما كُلِّ الناس، ولم يَجْعلْ لهم على الناسِ مِيْزَةً تَدْفَعُهم للتَّساؤُلِ عَنْ سَببِ هذا التمييز، وهذه حنكةٌ بالغة، تقتضي ذكاءً عالياً، ومغالبةً لحنين الدم والأخوة في رباطة جأْشٍ وقُدرةِ تحكُّمٍ عالٍ بالعواطف.

ثم إنه بعدَ ذلك، جَهَّزَهُمْ بجهَازِهِم، أي أعطاهُمْ ما يُقابِلُ ما أحْضَرُوه مِنَ الغذاءِ والمُؤَن، إلا أنه هنا زادَهُم بشيءٍ قليلٍ، على ما سنرَى في الشَّطْرِ الثاني منْ هذه الآيةِ بقوله: ﴿**ألا تَرَوْنَ أنّي أُوفي الكيل**﴾ لحاجةِ اكتمالِ الخُطةِ إلى هذا الإيفاء.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ التَسَلْسُلِ الحاصلِ في تنفيذِ الخُطة: لقد قامَ يوسفُ عليه السلامُ بتحضيرِ إخوتِه نفسياً، للوصولِ إلى المرحلةِ الثانيةِ من الخُطة، حينَ استَدْرَجَهُمْ للحديثِ عنْ أخيهِ الصغير، وذِكْرِهم له، بما أُوتيَ مِنْ أسلوبِ الكلام، خُصوصاً وهُمْ يَرَوْنَ كَرَمَ العزيزِ وهو يَمْلأُ أوعيتهم بالمؤَنِ، ولسانُ حالِه كما التالي:

لقد أتَيتُمْ دُونَ أخي الصغير، وأنا أعرِفُ بوجودِه، وأنتم لا تَعْرِفُونَ أنّي أعرفُ بوجودِه، ولكي أسألَكُمْ عنه، يجبُ أنْ تُخْبِروني أنتم بوجودِه، ولا يجبُ أنْ يكونَ الدافِعُ لِحَمْلِكُم على إخباري عَنْ وُجودِه مُلفِتاً، لكي لا يُعْرَفُ أني أعرِفُ بوجودِه.

والحقيقةُ أنّ الله تعالى، هيّأ ليوسفَ عليه السلام مِنْ أسلوبِ الكلامِ في السؤالِ والاستفهام، ما حَمَلَهُمْ على الحديثِ عَنْ أَخيهِ الصغير، دونَ انتباهٍ منهم، فيكونُ بذلكَ قد أنهى المرحلةَ الأُولى منْ خُطتِه، وانتقَل بعدَها مُباشرةً إلى المرحلةِ الثانية.

يقولُ الله تعالى: ﴿**قال ائتوني بأخٍ لكُمْ مِنْ أبيكم**﴾.

وهنا أيضاً، لطيفةٌ جميلة، في وُقوفِنا عندَ دِقةِ الأسلوبِ اللُّغويِّ الذي استَعْمَلَهُ يوسفُ عليه السلام، في مخاطبتِه إخوتَه:

لقد أنهى تجهيزَهم، وهُمْ على أُهبةِ المُغادرة، وظَنُّوا أنّ اللقاءَ قدِ انتهَى بحصُولِهم غَانِمينَ على المُؤَنِ والغِذاء، وظَنُّوا أنَّ ما دَارَ بينَهم وبينَ العزيز، إنَّ هُوَ إلا مِنْ بَابِ الإيناسِ والتّعَارُف، فإذا به يطْلُبُ منهم، بصيغةِ الأمرِ بقولِه: ﴿**إئتوني**﴾، إحضارَ أخيه الصغير، ولكنْ بصيغةِ التعميم لا التَخصيص، بقولِه: بأخٍ، ثم يَدْفَعُ التعميمَ إلى الدائرةِ الأوسعِ بقولِه: ﴿**بأخٍ لَكُمْ مِنْ أبيكم**﴾.

وفي هذا الأسلوبِ إدْنَاءٌ وإقصاءٌ في آن: فهو يُحَدِّدُ بدقةٍ طَلبَه بإحضار أخيه الصغير، وفي الوقتِ ذاتِه، يُبْعِدُ عنْ أذْهَانِهم مَعْرِفَتَهُ به: ولا يُحْسِنُ هذا الأُسلوب في الكلام، إلا مَنْ آتاهُ الله تعالى موهبةً عاليةً في فَهمِ طَبائِعِ النّاس.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**ألا تَرَوْنَ أنّي أُوْفي الكيلَ وأنا خيرُ المُنزلين**﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآيةِ، لطائفُ عدَّة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتنا لاستدراكِ يوسفَ عليه السلام، لآثارِ طلبهِ الشديدِ على نفوسِهم، بإحضارِ الأخِ الصغير، وهو يَعْرِفُ أنه شديدٌ جداً عليهم، وأنها ستكونُ مِنْ أصعبِ المهامِّ عليهم، وهو الذي عايَشَ حادِثَةَ نَزْعِهِ مِنْ أبيه قَبْلَ ذلكَ بسنوات. فكانَ أنِ استَدْرَكَ بتذكيرِهم بحُسْنِ صَنِيعِهِ معَهُمْ، منذُ أنْ وصَلُوا إليه.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لمهارةِ يوسفَ عليه السلام، في ترتيبِ الأحداثِ أولاً، ثم مَهارتِه في استثمارِها ثانياً:

فهو لم يَبْخَسْهُمْ شيئاً مِنْ بضاعتِهم، علماً بأنه الطَرفُ الأقْوَى في تقديرِ الأثمانِ، وله الحريةُ في إعطائِهم ما يشاءُ مِنَ المُؤَنِ والغِذاء، فكانَ أنْ أجزأهُمْ وأوْفَاهُم.

ثم إنه أَحْسَنَ استقبالَهم، وكَلَّمَهُمْ بنفسِه، وأصلَح حالَهم في إقامتِهم بمِصْر؛ فكانَ له بَعْدَ طلبِه الذي طَلَب. أنْ يُذَكِّرَهُمْ بحُسنِ عملِه وإحسانِه على الترتيبِ الذي جَرى.

اللطيفة الثالثة: لغوية، في قولِه: ﴿**وأنا خيرُ المُنزِلين**﴾.

فَلَئِنْ فَهِمْنَاها بمعنى: وأنا خيرُ المُضيفين، فالصورةُ تحمِلُنا إلى معنى الإكرامِ بالإطعام، ويكونُ أصْلُ الكلمةِ مِنَ النُّزْل، أو الطّعام.

ولئن فَهِمْنَاها بمعنى: وأنا خيرُ مَنْ نزَلْتُمْ عليه من المأمُونين، فالصورةُ تحمِلُنا إلى معنى الإكرامِ بالإيواء، ويكونُ أصلُ الكلمة: المنزِلُ أو الدار.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن فن الإقناع هو فن صعب دقيق يحتاج من المحدث صفات عديدة صعبة لا تتوفر في كثير من الناس، وإذ أشير إلى مهمة الداعية في الإقناع، فنحن نستدل من تصرف يوسف عليه السلام مع أخوته الكثير من المقومات والمواصفات: فعليه أن يدير الحديث بموجب خطة مدروسة خفية لا يظهرها علنا مسبقاً، يكوّن من خلالها تصوراً كاملاً لحال محدثه، ويفهم طبيعة نفسيته، وما يريحه وما يثيره، وما يطمئنه وما يستفزه، وعليه أن يبادره بالعطاء، سواء المادي أو المعنوي، وعليه أن يغرس في قلبه القناعة بأنه حقاً صاحب أخلاق حميدة، وأنه صادق في كلامه معه. وينبغي عليه أن يكون على حافظة عالية جداً، وذاكرة قوية طيعة مرنة، يرتب من خلالها مجمل المعلومات التي استوعبها من محدثه لاحتمال ضرورة العودة إليها لجعل سبيل الدعوة منطبقة مع احتياجات المدعو الشخصية لما في ذلك من تأليف وطمأنة.

٢ - للدلالة على أن استعمال السلطة لما فيه الخير مندوب ومباح. فلقد استعمل يوسف عليه السلام سلطته في الحكم لإصلاح ذات اليمين مع إخوته، وجمع شمل عائلته.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٧]

نتابعُ معاً أخي المؤمن، هذا المشهَدُ في تأزُّمِه بينَ يوسفَ عليه السلامُ وإخوتِه، في موقفٍ فريدٍ، لطالما انتَظَرَهُ يوسفُ عليه السلام، إذْ أتَوْهُ في زمنِ الشِدّةِ، يَطْلُبونَ المُؤَنَ والغِذاء، فأكْرَمَهُمْ وأجْزَل لهم العَطاء، في استقبالٍ هادئٍ مُطْمئن، ولقدِ استطاعَ بحُنْكَتِهِ أنْ يَحْمِلَهُمْ على ذِكْرِ أخيه الذي بَقِيَ عندَ أبيه، وعَلِمْنَا في الآيةِ السابقة، أنه طلَبَ مِنْهُمْ إحضارَهُ معَهم، وخاطَبَهُمْ بلُغةٍ هينةٍ لينة، إلا أنها سرعانَ ما تبدَّلَتْ مع الآية، موضوعِ تأمُّلِنا اليومَ، فلْنَسْتَمِعْ.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسف عليه السلام: **﴿فإنْ لم تأْتوني به فلا كيْلَ لكُمْ عندي ولا تَقْرَبُونِ﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لهذا التبدلِ السريعِ في أُسلوبِ الكلامِ الذي اعتمَدَهُ يوسفُ عليه السلام، ونحن نتعرَّفُ هنا إلى ناحيةٍ جديدةٍ في شخصيةِ يوسفَ عليه السلام، ألا وهي الحَزْم والقُوة، وهو بذلك يَدْفعُهم إلى فَهْمِ خُطورةِ المسْألة:

فبعدَ أنِ استعملَ أُسلوبَ الترغيبِ في الآيةِ السابقة، في إظهارِ إحسانِه إليهم، وقد أوْفَى لهمُ الكَيل.

إذا به يُتْبِعُه بأُسلوبِ الترهيب، ولا يَتْرُكُ لهُمْ خياراتٍ عديدة، فهو لا يقْبَلُ المُساوَمَة، مِمَّا يَدْفَعُ القِصَّةَ إلى فصلٍ جديدٍ مِنْ فُصولِ التأزُّم، وقد أمْسَكَ يوسفُ عليه السلامُ بكلِ الخيوط..

اللطيفة الثانية: في تأَمُّلِنا لوقائعِ تسَلْسُلِ خُطةِ يوسفَ عليه السلام معَ إخوتِه، وتَتوضَّحُ لنا مِنْ خلالِها آثارُ رَحْمَةِ الله تعالى التي أختَصَّهُ بها، في وضوحِ الرؤية، ونفاذِ البصيرة.

فلقدْ بدأ بإكرامهم، ولم يَدعْ لما يَحْمِلُ في داخلِه مِنْ ألمِ الفِراقِ والبُعاد، مِنْ أثرٍ للظهور. ولم يَتْرُكْ لسنواتِ الخِدْمَةِ في قَصرِ العزيز، والمِحنةِ التي مَرَّ بها، مَجالاً لإلقاءِ اللَّومِ عليهم، ولم يسْتَذْكِرْ سنواتِ السِجْنِ وظُلْمَتِه، وهو لم يَرْتَكِبْ جُرماً، فلقد بدأ بإكرامِهم.

ثم إنه عاجَلَ بإعطائِهمُ الكَيل، فيكونُ بذلك قد قَرَنَ القَولَ بالفِعْل.

ثم إنه أدارَ وِجْهَةَ الحديثِ، حتى حَمَلَهُمْ على ذِكْرِ الأخِ الأصغر، وهنا يَصِلُ بهم يوسفُ عليه السلام، إلى ذُروةِ الإحْضَار: إذْ طلبَ مِنهم إحْضارَهُ.

ثم حَصَلَ تَبَدُّلٌ كاملٌ في أُسلوبِ الخِطاب، وُصولاً إلى إظهارِ الغَضَب!

ثم إنه قَرَنَ القولَ بالفِعلِ مرةً ثانية، فإذا به يُقَرِّرُ علانيةً سَحْبَ الكَيلِ منهم، إلى حينِ إحضارِ الأخِ الغائب.

ويَزدَادُ الأمرُ تأزُّماً، حين يَحمِلُهم على الظَنِّ أنّه لَنْ يُعيدَ لهُمْ حتى البِضاعَةَ التي أَتَوْا بها، ثَمَنَ الكَيل.

ويدفَعُ التأزُّمُ إلى أقْصَى مَدى، حينَ يُهَدِّدُهُمْ بعدمِ العودةِ إليه ثانيةً، لطلبِ الكيل، إذا لم يُحضِرُوا معَهُمْ الأَخَ الأصغر.

ولقد اعتمَد هذه التراتبية الظاهرَة في القَسْوَة، مَعَ إخفاءِ الكثيرِ من الرحمة، ونحن نلْحَظُ رَحْمَتَهُ بهم حينَ نَعرِفُ:

أنه لم يُخاطِبْهُمْ بما أساؤُوا إليه في مَاضِيهم.

وأنه أعادَ إليهم بِضاعَتَهُمْ سِرّاً.

وأنه يأمُلُ عودَتَهم في القريبِ العاجل.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلنا الآنَ لواقعِ حالِ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، وهم يَشهَدُونَ تَتالِي المِحَنِ عليهم، بَعْدَ أنْ أوْشَكُوا على الفوزِ بالغِذاء، والعودةِ إلى وطنِهم:

فلقد أتَوْا ببضاعةٍ راجِينَ استبدالَها بالغِذاء.

وشَهِدوا منْ عزيزِ مِصْر حفاوةً وحُسْنَ استقبال.

وذَكَرُوا عرَضاً أخاً لهم لم يأتِ معَهم، ولم يَجِدُوا في ذِكْرِه بأساً ولا أهمية.

فإذا بالعزيزِ يُفاجِئُهم ويَطْلبُ إحضارَه.

ثم إنه يُشَدِّدُ عليهم اللَّهجَة في الخِطاب، حتى دَرجةِ الوعيد..

ثم إنه يُغْلِقُ عليهم أبوابَ الخياراتِ كُلَّها، ولا يَطْلُبُ إلا أصعبَ الأُمورِ عليهم تحقيقاً.

ثم إنه يَنْزِعُ مِنْهُمُ الكَيْلَ إلى حينِ إحضارِ الأخِ الغائب.

ثم إنه - في ظَنِّهم في تلكَ اللَّحظات - أنه احتفظَ حتى ببضاعتِهم التي أحْضَرُوها معَهم فأيُّ إحْصارٍ أشدُّ من هذا الإحصار؟

فما كانَ مِنهم إلا أنْ قالُوا: ﴿**سنُرَاوِدُ عنه أباه وإنّا لفاعِلُون**﴾.

لقد ظهر أثرُ التهديدِ بسرعة، إذْ قَبِلُوا مَطْلَبَه، وهنا نَلْحَظُ عوْدَةَ الهدوءِ إلى وَتيرةِ الآيات، بسَماعِنا لقولِ الله تعالى: ﴿**قالُوا سنُراوِدُ عنْهُ أباهُ وإنَّا لفَاعِلُون**﴾.

اللطيفة في هذه الآية، في وقوفِنا عندَ كلمةِ سنُراوِد، وما تَحْمِلُه مِنْ معانٍ عمِيقة: فالمُراوَدَةُ هي التلطُّفُ والاحتيالُ للإقناعِ بتلبيةِ مَطْلَب، وهُمْ يعرفونَ أَنها مسألةٌ صعبةٌ جداً.

فلقد فعَلُوها سابقاً، وطلبوا مِنْ يعقوبَ عليه السلامُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ يوسفَ عليه السلام، وفَعَلُوا ما فعَلُوا، ثم تَابُوا وظَنُّوا أنها لَنْ تَتَكَرَّرَ، فها هي تَتَكَرَّر.

ولقد كانَ طَلبهُم في السابقِ عنْ سُوءِ نية، وكانَ ظَنُّ أبيهم أنه عَنْ حُسْنِ نِيَّة، وهم سيَطْلُبونَ الآنَ الطلبَ ذاته، ولكنْ عن حُسْنِ نِية، فكيفَ لهم أنْ يُقْنِعُوا أباهُم أنه ليسَ عَنْ سُوءِ نِية؟

ولقد استجابَ لهمْ أبوهم في السابق، لعدمِ وجودِ السابقة، أمَّا الآن، فالسابقةُ أرْخَتْ بظلالِها على كُلِّ حياةِ أبيهم، حُزناً وأسَفاً، فهل يضْمنُونَ حُصولَ الإجابة؟

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الطمأنينة إلى ثبات حال ما هي إلا وهم وسراب. فلقد تبدو الأمور هادئة تسير سيراً رتيباً حتى لنظن أنها ستبقى كذلك دائماً، ثم يأتي أمر الله تعالى، وهكذا في كل الأمور ودائماً، ولكن على درجات متفاوتة من السرعة، فيتبدل الحال وتنقلب الأمور رأساً على عقب. ذلك لكي يدرك الإنسان أن كل حال يزول، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

٢ - للدلالة على أن العدل في الحكم لا يعني الدعة واللين والتخاذل، بل أن الحاكم العادل حقاً، ينبغي أن يتصف أيضاً بصفات الحزم والجزم والقوة، بل القسوة أحياناً للأخذ على أيدي الظالمين وردعهم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٨]

تصلُ بنا هذه الآيةُ، أخي المؤمن، إلى مرحلةِ التنفيذ العَمَليّ من خُطةِ يوسفَ عليه السلام غيرِ المُعْلَنة، والتي أعَدَّها بدقَّة، وكان قد مَهَّدَ لها، كما رأَيْنا في سالفِ الآيات، بأنْ حَمَلَهُمْ بذكائِه على ذِكْرِ أَخيهِم الصغير، وجعلَ هذه المعلومة الثانوية في نَظَرِهِم، أساساً، أصْبَحَ مصيرُ حصولِهم على الكيلِ مُعَلَّقاً بتفاصيلِه، أي إحضارِ الأخِ الأصغر.

ولنا أنْ نتساءَلَ مَعَ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، الوَاقِفينَ في حَيْرةٍ وذهول:

لماذا يَهْتَمُّ عزيزُ مِصْرَ كُلَّ هذا الاهتمام، بإحضارِ الأخِ الأصغر؟

وهل يُعْقَلُ أنْ يتوقَّفَ كُلُّ الكَيلِ لكلِ هذه العِير، عَنْ هذه المجموعةِ القَادِمَةِ بشِقّ الأنفسِ، مِنْ مكانٍ بعيدٍ في وقتِ قَحْطٍ ومَجَاعَة، على هذا التفصيلِ، غيرِ الهامِ في نظرِهم؟

أكْثرُ مِن ذلك: لقد أحْضَرُوا معَهم بِضاعَتهم وأدَوْهَا له ثَمناً للطعام، وجَهَّزَهُمْ بالطّعام. ثم جاءَتْ هذه القِصةُ حَوْلَ الأَخ الأصغر، فإذا به يَسْحَبُ مِنهُمُ الطّعام، ويَسْتَبْقِي في ظاهرِ عِلْمِهم بِضَاعَتَهُمْ في حَوْزَتِه، فإذا بِهم بلا بِضاعةٍ وبلا كَيْل: إنهم حقاً في إحصارٍ شديد!

تبدأ الآيةُ أخي المؤمن، بقولِ الله تعالى: **﴿وقالَ لِفتيانه اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ في رِحالِهم﴾**.

في هذا الشَطْرِ منَ الآيَة، لطائِفُ عِدَّة:

اللطيفة الأولى: في مُلاحَظتِنا أنَّ يُوسفَ عليه السلام، وإنْ كانَتْ خُطّتُهُ في الأساسِ ضِمْنِيَّةً خَفِيَّة، إلا أنه أظْهَرَ بَعضاً منها، أمامَ فِتيانِه، دونَ أَنْ يُعْلِمَهُمْ بحيثياتِها وتفاصيلها، وذلكَ لأَسبابٍ عِدّة:

أولُها: أنه ليس أفضلَ مِنْ نفسِكَ لِحِفْظِ سِرِّك. وهُنا نتعَلَّمُ مِنْ يُوسفَ عليه

السلام، كيفيةَ التصرُّفِ الحسَن، لتحقيقِ النتائجِ الجيدة: أنْ لا تتكَتَّمَ حتى الإغلاقِ والإرباكِ والانعزالِ والانفرادِ، في تنفيذِ مشْرُوعِكَ، ولا تكونَ كثيرَ الكلامِ في إيضاحِ تفاصيلِ ما عَزَمْتَ تنفيذَه. بل تكونُ بينَ ذلِكَ قَواماً.

ثانيها: أنّ يوسفَ عليه السلام، أرادَ أنْ يُوضِحَ لِفِتْيَانِه كيفيةَ التعامُلِ مَع إخوتِه: فلقد عَلِمُوا منذُ قليل، أنه انتهرَهُمْ واستعادَ مِنْهُم الكَيل، واندفاعُ النّفْسِ في إخلاصِها لرئيسها، يَدْفَعُها لِمُجاراتِه في القَسْوَةِ على الوفدِ القَادِم، وقد غُمَّتْ عليهِمُ الحقيقة، ولقد يَبْدُرُ مِنْهُم تصَرُّفٌ يُسيءُ إلى الإخوة، يظُنُّونَ فيه رِضَى العزيز. فكان أَنْ أَشارَ إليهم، بأَنْ يُعيدوا إليهِمْ بِضَاعَتَهُمْ سِراً، فيَعْرِفُ الفتيانُ بذلكَ أنّ العزيزَ غيرُ نَاقِمٍ حقاً على هذا الوفد.

ثالثها: أنّ يوسفَ عليه السلام، لم يُصْدِرِ الأوامرَ بالتنفيذِ دونَ إيضاحِ أَسبابِ إصدارِ هذه الأوامر. وهذه مسألةٌ هامةٌ جداً، مِنْ مسائلِ علْمِ الاجتماع: ذاك أَنّ العقلَ البشريّ يَمْتَلِكُ مِنَ المرونةِ الذِهْنيةِ ما يَجْعَلُهُ قَادِراً على إصدارِ أشكالِ تنفيذِ أمرٍ ما، بصُورٍ مختلفة، تَتَراوَحُ بينَ اللّينِ والشِدّة، والدّقة والخِفّة، والإسرارِ والإعلان، والهدوءِ والجَلَبة، والاهتمامِ والاستخفاف.

فإذا ما تَوضّحَ الهَدَفُ الذي يَرْمِي إليه مُصْدَرُ الأَمر، كانَ تصَرُّفُ المُنَفِّذِ مُوافِقاً لهذا الهَدَف.

لذلك، أَوْضَحَ يوسفُ عليه السلامُ لِفتيانِه الهدفَ مِنْ إعادةِ البِضاعَةِ إلى إخوتِه، بقولِه لاحقاً: ﴿**لَعَلّهُمْ يَعرِفُونَها إذا انْقَلَبُوا إلى أهْلِهِم لعَلّهُمْ يَرْجِعُون**﴾، فنَفْهَمُ، معَ الفِتيانِ أنه أرادَ مِنْهم:

أنْ يُنَفِّذُوا هذا الأمرَ بهدوءٍ وسِرّيّةٍ تَامّة، ودونَ عِلْمِ الوَفْد، وتَرَكَ لهُمْ كيفيةَ تنفيذِ ذلك، بأَنْ يُقْصُوا كُلَّ القافلةِ عَنْ عِيرِها.

وأنْ يَجْعَلُوا البِضاعَةَ خِفْيَةً عنِ الأعين.

وأنْ يُحْكِمُوا إغلاقَ الأغطيةِ والسواتِر.

وأنْ تكونَ هي البِضاعةَ بعينِها التي أتَوْا بِها، دونَ نُقصان..

وأنْ يَحْصُلَ تنفيذُ كُلِّ ذلك بِرِفْقٍ وهدوءٍ ولِيْنٍ معَ الوفد.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لِغزارةِ المعاني الواردةِ في هذا الشَطْرِ مِنَ الآية:

فيوسُفُ عليه السلام، الذي سُرَّ وابْتَهَجَ بمجيء إخوتِه، قَرَّرَ عَدَم إظهارِ هذه البَهْجَةِ إلى العَلن، حتى استكمالِ عناصرِها كُلِّها.

ولقد أظْهَرَ أولاً عَدَمَ المعرفةِ بحقيقةِ صِلَتِه بالوَفْد، ثم أظْهَر تعامُلاً عَادِيّاً معَهم، إذْ ملأ أوْعِيَتَهُمْ بالطّعام، وهو عَازِمٌ على إعادةِ إفراغِها. ثُمّ أظْهَر الغَضَبَ وما هُو بِغَاضِب.

ثم إنه ارْتَضَى أَنْ يَظْهَرَ بِمَظْهَرِ القَاسِي، حين استَبْقَى في ظاهرِ علْمِهم بِضَاعَتَهُم، ومَنَعَ مِنْهُمْ الكَيْل.

أمَّا هُوَ في حقيقةِ الأمر، فهو السعيدُ بلُقْيَاهُم، وقد عَفَا عن شِدّتِهِمْ، وقسْوَتِهم، وهو الراغِبُ بإيفاءِ الكَيلِ لهم، بل بإيوائِهم وضَمِّهِم، وهو بذلك يُمثِّلُ النَّفْس السَمْحَة الخَيِّرَة، بخلافِ أحوالِ أغلَب النُّفوسِ البشرية، حين تَتعرَّضُ للضِّيقِ والقَهْرِ والظُّلْم.

اللطيفة الثالثة: في الإيجازِ اللُّغويّ الذي نَلْحَظُهُ في هذا الشَطْرِ مِنَ الآية: فَمَعَ تَدافُعِ الأحْدَاث. وكَثْرَةِ الصُّوَرِ والمشَاهِد، تأتِينا هذه الكلماتُ القليلةُ لِتؤدِّي المَعْنى المطلوبَ دونَ لبْسٍ أو غُموض، وهي تُوضِحُ لنا تَطَوُّرَ الأحداثِ على النحوِ التالي:

فلقد وصَلَ الإخوةُ في مسْعَاهُمْ للحصولِ على الطّعامِ إلى طَرِيقٍ مسْدُود، وانْقَطَعَ الحوارُ مَعَ العزيزِ على وَعْدٍ مِنهم، بمُرَاوَدَةِ أَبيهم على السَّمَاحِ بإرسالِ أخيهِم الأصغرِ معهم.

وبالمقابل، فلقد وَجدُوا أنفسَهم في أضْعَفِ موقفٍ، إذْ أعْطَوْا بِضاعَتَهم لرجالِ العزيزِ ابتداءً، ولمّا مُنِعَ مِنْهُمُ الكيلُ بعدَ أنْ تَمَّ تجهيزُهم به، ضَاقَتْ عليهِم الدُّنيا، وسيستَمِرُّ هذا الضِّيقُ فترةً أخرى، لعدمِ علْمِهِم بحقيقةِ نَوايا يوسفَ عليه السلامُ حِيالَهم.

ثم يَحْصُلُ انفراجٌ مِنْ طرفٍ واحد، دونَ عِلْمٍ مِنهم، بقولِ يوسفَ عليه السلام: **﴿وقالَ لفِتيانِه اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ في رحالِهِم﴾**.

ثم تُتابعُ الآية: **﴿لعلَّهُمْ يَعْرِفونَها إذا انقَلَبُوا إلى أهلِهم لعَلّهُمْ يَرْجِعُون﴾**.

في هذا الشَطْرِ مِنَ الآية استكمالٌ للمعنى الذي وعَيْناهُ في أوَّلِها، مَعَ تَكَامُلِ عناصرِ المعلومة. فالمتأمِّلُ في قولِه: **﴿لعلهم يَعْرِفُونَها إذا انقَلبُوا إلى أهلِهِم﴾** يُدْرِكُ أنّ يُوسفَ عليه السلام، قصَدَ الإخفاءَ في رَدِّ البِضاعة، فنفهَمُ مِنْ ذلك:

أنَّ الرِحَالَ في تصرُّفِ فتيانِ يوسفَ عليه السلام.

وأَنه ذُو حَجْمٍ ثابتٍ، سواءٌ كانَ خَاوِياً أو مُمْتَلِئاً.

وأَنه لا يُعْرَفُ عِنْدَ مَلْئِه ما إذا كانَ مُمْتَلِئاً أم لا.

وأَنه يُقْفَلُ فَلا يستطيعُ النّاظِرُ نَظْرَةً سريعةً أَنْ يَعْرِفَ ما فيه.

ولنا أنْ نتساءَلَ: لماذا فعَلَ يوسفُ عليه السلامُ هذا الأَمر؟

نقول: لأنه لم يُؤَدِّهِمُ الكيل، وهذا هو العَدْلُ والحَقّ. ولأنه قصَدَ أَنْ يعرفوا أنه عَامَلَهُمْ بالقَسْوَةِ في الظاهر، ثم يتبدَّى لهم بعدَ فترةٍ أنه لم يَظْلِمُهم، وأنه عادل.

والأهَمُّ مِنْ ذلكَ كُلِّه، أنه يريدُ عودَتهم مَعَ أخيهم الأصغر، وهذا في الحقيقةِ هَدَفُ الخُطةِ بكامِلها. وهو يعرفُ أنهم مُضْطرونَ للعودةِ من أجلِ الطعام، ويجبُ أنْ يكونَ بينَ أيديهم ما يشترونَ به الطَعام، وذاكَ قولُه لِفتيانِه في نهايةِ الآية: **﴿لعَلَّهم يرجِعون﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الشدة والإحصار مهما قويت وازداد خناقها، فإنها آيلة إلى الإنفراج ولو بعد حين. ومشكلة الإنسان أنه لجوج متسرع، وهو يريد أن يرى الفرج من ضيقيه حالاً، والحقيقة أنه في حال اختبار وامتحان، وعليه أن يتحلى بالصبر، ويتذكر هذه القصص المقيدة التي أعلمنا بها القرآن الكريم عن أحوال السابقين، وهي لم ترو عبثاً، بل أعلمنا بها الله تعالى تعليماً وتأديباً.

٢ - للدلالة على أن نجاح خطة ما تحتاج إلى مقومات عديدة منها الإخفاء بقدر، والأعلام بقدر: فلقد أخفى يوسف عليه السلام عن فتيانه صلته بإخوته، وإنما أعلمهم أنه لا يريد بهم السوء وطلب منهم حسن معاملتهم سراً.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٩]

تنتقلُ بنا هاتانِ الآيتانِ، أخي المؤمن، إلى مشهدٍ جديدٍ من مشاهدِ قِصة يوسفَ عليه السلام، معَ إخوتِه، في انتقالٍ سلسٍ سَريع، مِنْ حوارِهم معَ يوسفَ عليه السلام، عزيزِ مِصر، وقد وعَدُوه بمُراوَدَةِ أبيهم يعقوبَ عليه السلام، عنِ ابنه الأصغر، طِلْبَةَ يوسفَ عليه السلام، وها هم قد عَادُوا أدراجَهم، تتنازَعُهمُ المشاعرُ، بينَ الدهشةِ والاستغراب مِنْ حفاوَةِ العزيزِ بهم في بادىء الأمر، ثم انقلابُ الحفاوةِ تهديداً ومطالب، وبينَ الشعورِ بالخَيبةِ في العودةِ دونَ الحصولِ على الطّعام، والشعورِ بالغُبنِ في بقاءِ البِضاعةِ في حَوْزةِ العزيز، والشعور بالأملِ في قَبولِ يعقوبَ عليه السلامُ إجابةَ طَلبِهم في اصطحابِ أخيهمُ الأصغر.

ومعَ هذه الأجواء، نبدأ تأمُّلَنا في الآيةِ الأُولى.

يقولُ الله تعالى: ﴿**فلمّا رَجَعُوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكيلُ فأرسِلْ معَنا أخانا نكْتَلْ وإنّا له لحافظون**﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: لغوية: فبالعودةِ إلى الآيةِ التي سبَقَتْ هذه الآية، نسْمَعُ يوسفَ عليه السلامُ يقول: ﴿**إذا انقَلَبُوا إلى أهلِهم**﴾، ونقرأ في هذه الآية: ﴿**فلمَّا رَجَعُوا إلى أبيهم**﴾، فجاءَ السِياقُ اللُّغويُّ بمفرداتٍ مختلفةٍ مَنْعاً مِنَ التكْرارِ الذي قَدْ يُضْعِفُ الجَمَالِيّةَ اللُّغوية.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لِتناسُقِ المَبْنَى معَ المعنى، في المقارنةِ بينَ العِبارتين: ﴿**إذا انقَلَبُوا إلى أهلِهم**﴾، في الآيةِ السابقة، وقولِه تعالى: ﴿**فلمّا رَجَعُوا إلى أَبيهم**﴾ في الآيةِ الحَاضِرَة.

ففي الآيةِ السابقة، كانَ يوسفُ عليه السلامُ يُكَلِّمُ فِتْيَانَه، ولم يشأ أنْ يُحَدِّدَ لهُمْ أنّ العودةَ ستكونُ إلى أبيهم، وهو يَعْرِفُ ذلك تَمامَ المعرفة، ولو ذَكَرَ ذلك لكانَ تعطيلاً لخُطَّتِه وإفشاءَ لسِرِّه، فذَكَر الأهلَ بالمُطْلَقِ، وهو يقْصِدُ أبَاهُم.

أمّا في الآيةِ الحاضرة، فالإخبارُ لنَا مِنَ الله تعالى، لذلكَ قال: ﴿**فلمّا رَجَعُوا إلى أَبيهم**﴾.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ الحالِ النفسيةِ لإخوةِ يوسفَ عليه السلام، وهم في حضْرةِ أبيهم يقُولون: ﴿**يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكَيل**﴾.

لقد انْطَلَقُوا في رحلةٍ شاقةٍ إلى أرضِ مِصْرَ، طلباً للطّعام كما كُلُّ النّاس، وحَمَلُوا معَهُمْ بِضاعَتَهُمْ ليشتروا بها الطَّعام، وسَلَكُوا الطريقَ السَلِيمة، ووَصَلُوا بعدَ طُولِ جُهدٍ وعناء، وسَلَّمُوا البِضاعةَ واستلَمُوا الطّعام، فيكونون بذلك قد

حَقَّقُوا مُبْتَغَاهم، وهَمُّوا بالعَودةِ غَانِمين سالمين آمنين. وفجأةً. وبسبب ذِكْرِ الأخِ الأصغر، تتهاوَى كُلُّ المكاسِبِ، وينقلِبُ الفَرحُ إرباكاً، ويُسْحَبُ مِنهُم الكَيل، ويسْلُكُون أدراجَ العَوْدَة بلا مؤونة وقد عادَ كُلُّ الناسِ مِنْ مِصْرَ مُحَمَّلِينَ بالطعام، حتى إذا مَا وَصَلُوا إلى أبيهم، كان الإحباطُ والإعياءُ قد أَخَذَ مِنْهُمْ كُلّ مأخَذ، وقد استقَرّ حالُهم على أمرينِ اثنين:

الأول: نقلُ صُورةِ الفشلِ إلى أبيهم. فقالوا: ﴿**يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكَيل**﴾.

والثاني: التصميمُ على مُغَالبةِ الفشل، في الجُرأةِ على طَلبِ المَطْلَبِ الصّعْب، وهو آخرُ ما يُمْكِنُ أنْ يُطْلَبَ مِنْ يعقوبَ عليه السلام، وهم يَعْلَمُونَ أَنه مِنْ أصعبِ الصِّعابِ أنْ يُستجابَ لَهُمْ فيه. فقالوا: ﴿**فأرسِلْ معَنا أخانا..**﴾

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ قولِهم: ﴿**وإنَّا له لحَافِظُون**﴾.

سُبحانَ الله! لقد قَالُوا لأبيهم منذُ سنواتٍ عدّة، وهم يُحاوِلُونَ أخْذَ ابنه يوسفَ عليه السلام: ﴿**وإنّا له لحافِظون**﴾[1].

أمّا في حَقِّهم، فشتان بين الموقِفَيْن:

في الموقفِ الأول، لم يكونوا صَادِقين، لأنّهم كانُوا يُريدونَ سُوءاً بيوسفَ عليه السلام، أمّا هنا فهم صادِقون.

وفي الموقِف الأول، كانتْ سَبيلُ الإقناعِ أيْسَر، إذْ إنها كانَتْ بلا سَابِقة، أمّا هنا، فهي صعبةٌ جداً، نظراً للنتيجةِ المؤلمة الحاصلةِ مِنَ التجربةِ الأُولى.

وفي الموقفِ الأول، كان التوكيدُ في العبارة، إمعاناً في التصميم على الإبعاد، أمّا هنا، فإنّ التوكيدَ يفرِضُه واقعُ حالِهم، وحقيقةُ حاجَتِهم إلى الكَيلِ والطّعام.

---

(١) [سورة يوسف ، الآية: ٦٣].

أمّا في حقِّ يعقوبَ عليه السلام:

ففي الموقفِ الأول، كان خَوْفُه على يوسفَ عليه السلام، مِنْ بابِ الحيطةِ ودَفْعِ احتمالاتِ المَكَارِه. أمّا هنا. فحِرْصُه على الأخِ الأصغرِ يَنْبَعُ منْ ألمِ التجربةِ في فقْدِ يوسفَ عليه السلام..

وفي الموقفِ الأول، كانَ أبناؤه عِنْدَ مَطْلَبِهم، كُلُّهم بينَ يديه. أمّا هنا، فأحَبُّهم إلى قلبهِ مَفْقُود، والإجابةُ إلى المطلبِ قد تُفقِدُهُ مَحْبُوبَهُ الآخَر، وفي هذا قِمَّةُ الفَقْد.

وطبيعيٌ في مثلِ هذا الموقف، أنْ يَرْفُضَ يعقوبُ عليه السلامُ إجابةَ طلبِ الأبناء، وهي رَدَّةُ فعلِ كُلِّ أبٍ عاشَ تَجْرِبَةَ فقْدِ أعَزِّ أبنائِه إلى قلبِه. فما كانَ جوابُه؟

نُتابعُ معَ الآيةِ الأُخرى: **﴿قالَ هَلْ آمنُكُمْ عليه إلا كما أمِنْتُكُمْ على أخيهِ مِنْ قَبْل. فالله خَيرٌ حافظاً وَهُوَ أرْحَمُ الراحمين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُلِنا لهذا الأَدبِ الجَمِّ الذي يَحْمِلُه يعقوبُ عليه السلامُ في أُسلوبِ الخِطابِ، وأُسلوبِ الجَواب:

فلم يَنْهَرِ الأبناءَ ويصُبّ عليهم جَامّ غَضَبِه ولم يُفْصِحْ عَنْ عُمْقِ الجُرحِ الذي سبّبَهُ غِيابُ يوسفَ عليه السلام..

بل كَلّمهُمْ بخطابِ التَّعقُّلِ والمنطقِ والإقناع، وذلك بأنْ أحالَ عليهمُ الإجابةُ عَنْ سؤالِهم بسؤال، وهذا أبْلَغُ مِنَ الإجابةِ بجواب..

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لأُسلوبِ التّعْليم والتوجيهِ القُرآنيِّ لنَا مِنْ خلالِ القَصَص. ولنَا في أنبياءِ الله تعالى أُسوةٌ حسَنة:

فعلى الرُّغمِ مِنْ صُعوبةِ الموقفِ ودِقةِ الموضوعِ المُثارِ أمامَ يعقوبَ عليه

السلام. وهو الأكْثَرُ استفزازاً وتحريضاً على الغَضب. أظهرَ يعقوبُ عليه السلامُ أثر عُمقِ الإيمانِ في جوابِه إذْ قال: ﴿**فالله خيرٌ حَافِظاً وهو أرحمُ الراحمين**﴾.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عِنْد مشيئةِ الله تعالى، بامتحانِ صَبْرِ الأنبياء. وهُمْ قُدوتُنا في حياتِنا، فَلِئنْ رأَيْنا امتحانَ الله تعالى لأصفيائِه مِنْ خَلْقِه هانَتْ علينا مصائبُ الدُّنيا. وكُنّا أكْثَر قُوةً في مُواجِهَةِ الصِّعاب فَحتّى هذه اللحظةِ مِنَ القِصّة، كانَ مصيرُ يوسفَ عليه السلامُ مَجهولاً في حَقِّ يعقوبَ عليه السلام. والله تعالى فتَحَ له بعضَ أبوابِ المعرفة، وحَجَبَ عَنْهُ البَعضَ الآخرَ، ولقدِ ارتضَى بما قَسمَ الله تعالى له مِنَ الخير، وسَلَّم أمرَه إليه، وأعْمَلَ اجتهادَهُ فيما حُجِبَ عنه، فكانَتْ منه هذه الممانعةُ الأوّلِية، وسنَرَى في لاحقِ الآياتِ كيفَ سيكونُ جوابُه النِّهائي.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب ضبط النفس عند الغضب، والتعامل مع الأحداث بروية وهدوء وتعقل، إذ أن نتائج التعقل تكون دائماً أفضل بكثير من الإنفعال والغضب.

٢ - للدلالة على وجوب عدم اليأس من رحمة الله تعالى، حتى وإن كان ظاهر الحال يفيد باشتداد التأزم لا يُرى معه بصيص نور، فما من حال يبقى على ما هو عليه.

٣ - لحفظ عبارة: ﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾، واعتمادها آية حفظ ورعاية وعناية ربانية، حين نودّع أحبابنا وإخواننا، وتحفيظها لأبنائنا لتكون جزءاً من زادهم في دنياهم، تعبيراً منهم عن التصاقهم بالقرآن الكريم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٠]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ، أخي المؤمن، لتُغيِّرَ لون المشهدِ العام الذي كانَ سائداً خلالَ الآياتِ السابقةِ عليها، وقد رأَيْنا كيفَ أنه كان مشْحُوناً بالحُزنِ والقَلقِ والتَّوتُّر، وكان الإحصارُ قد بلَغَ مداه، سواءٌ لناحيةِ عدم نَجاح رِحْلَةِ الإخوةِ إلى مصر، أوْ لِناحيةِ جواب يعقوبَ عليه السلامُ على طلبهِم بأَخْذِ ابنِه الأصغرِ منه، فإذا بهذه الآيةِ تَحْمِلُ انفراجاً واسِعاً، وتتبدَّلُ معَها الوقائعُ لتَحْمِلَ طيْفَ الأحداث التي ستَتَوالَى تِبَاعاً كما سنَرَى في لاحقِ الآيات.

وأتوقَّفُ هِنَا قليلاً لأُقارِبَ هذا المبدأَ العامَ على كلِّ ظُروفِ حياتِنا: فإننا نمُرُّ بأَزماتٍ قد تبدو خانِقَة، ويتراءَى لنا أنّ جميعَ الطُّرقِ والأَبوابِ مسدودةٌ، وكُلَّ السُبلِ مقْفَلَة، فإذا بالفَرجِ يأْتي مِنْ حيثُ لا نَدْرِي، يُرْسِلُه الله تعالى تثبيتاً لقلُوبِنا، ومِصداقاً لقولِ الله تعالى: ﴿فإنّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً﴾(١).

يقولُ الله تعالى في الآية موضوعِ تأمُّلِنا اليوم: **﴿ولمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إليهم﴾**.

في هذا الشَطْرِ مِنَ الآيةِ لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا لتوقيتِ فَتْحِ المَتَاع:

لقد قَطَعُوا مسافةً بعيدةً جداً، سَارُوا خِلالَها حِيناً، وأَنَاخُوا واستراحُوا حِيناً

(١) [سورة الشرح، الآية: ٥].

آخَر، واستَعْمَلُوا مِنْ أدواتِ الرحلةِ ما يَحتاجُه المُسافِرُ عادةً، إلا أنَّ هذا كُلَّه، معَ حُضورِ الحواسِّ الخَمْسَة، عندَ الإخوةِ العشَرَة، لم يَكُنْ كافياً لمعرفةِ وُجُودِ البِضاعةِ في الرِّحال، طِيلة فترةِ السفرِ، وهذا أمرٌ مُذْهِشٌ حَقّاً، ويَستحِقُّ مِنّا التأمُّلَ والتَّساؤُلَ، إلا أنَّ دَهْشَتَنا تَزُولُ حينَ نُسَلِّمُ بمسألةِ التعْمِيَة. ومُفَادُها: وجودُ مشيئةٍ إلهيةٍ تقْضِي بإبقاءِ مسألةِ وُجودِ البِضاعةِ في الرِّحالِ خافيةً على الإخوة، حتى وُصولِهم إلى مَجْلس يعقوبَ عليه السلام.

وكانت أدواتُها تعطيلَ كُلِّ آلاتِ التعريفِ التي يتَمَتَّعُ بها كلُّ واحدٍ منهم، مِنْ نَظَرٍ، وسَمْعٍ ولَمْسٍ، وتحليلٍ عَقْلِي، واستنتاجٍ مَنْطِقي، ومُقارنةٍ حسية، وتساؤُلٍ داخلي عن تصَرُّفِ الدوابِّ وحالِها، وحِسِّ التحقُّقِ مِنْ عدَمِ نسيانِ أيِّ شيءٍ قَبْلَ المغادرةِ.. كُلُّ هذا، تعَطَّلَ لدى الإخوةِ لأمرٍ أرادَهُ الله تعالى، فتَسِيرُ خُطَّةُ يوسفَ عليه السلام، على النَّحْوِ الذي أراد.

اللطيفة الثانية: في وقُوفِنا عِنْدَ تصَرُّفِ الإخوةِ حالَ وصولِهم إلى دِيارِهم: أوَّلُ شيءٍ فَعَلُوه، هو أنَّهم أقْبَلُوا على أبيهم وسَلَّمُوا عليه، حتى قَبْلَ أنْ يَفْتَحُوا متَاعَهم.

وهنا نَلْحَظُ أدَبَ الأبناءِ معَ يعقوبَ عليه السلام، فلقد بَدَأُوا بالسلامِ عليه قبلَ أيِّ شيءٍ، ثم انْطَلَقُوا إلى حَلِ الرِّحال.

وهذه إشاراتٌ لطيفةٌ نتعَلَّمُ فيها مِنْ أدبِ القرآنِ الكريم، كيفَ نكونُ معَ آبائنا في احترامِهم وخطب وُدهم وطلب رضاهم.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ الأسلوبِ اللُّغويِّ الذي نَلْحَظُه في هذه الآية، والذي يتناسَبُ معَ جَوِّ الانفراجِ الذي تَحْمِلُه، فتَلْحَظُ سهولةَ انسيابِ العِبارةِ في إيجازٍ بديعٍ يَنقل معه إلى الذِهنِ الكثيرَ مِنَ الصُّورِ الحِسّيةِ والمَعْنَوِيّة:

فنرى الإخوةَ يفتحونَ الأمْتِعة، وقد رَفَعَ الله تعالى عَنْ أبصارِهُمُ الغُمّةَ، فرأوْا مشْهَداً جميلاً لم يتَوَقَّعُوه أبداً..

ونسْتَشْعِرُ معَهم فرَحَهُمْ برؤيةِ البِضاعةِ، وقد ظَنُّوا أنّ عزيزَ مِصْرَ احتفَظ بها، ونستَشْعِرُ مَعَهُم الدهشة والإرباكَ في مُحاولةِ فَهْمِ ما حصَل، وكيفَ حصَل، ونسْتَشْعِرُ معَهم تجدُّدَ الآمالِ في حَلِّ عُقْدَتِهم، وانتهاءِ مِحْنتِهم.

فتَدَافَعَتْ لديهم الأفكار، وانقلبَ الإحباطُ عزيمةً ونشاطاً، فهُرِعُوا إلى أَبيهم مِنْ جديد، أكْثَر جُرأةً وأعَزّ ثِقة، وعادُوا يَطْلُبونَ مِنْه إرسالَ أخيهم معهم.

نتابعُ معَ الآيةِ فنقرأ: ﴿**قالوا يا أَبانا ما نبغي هذه بِضاعتُنا رُدَّتْ إلينا ونَميرُ أهْلَنا ونَحْفَظُ أخَانَا ونَزْدَادُ كَيل بعير ذلك كيل يسير**﴾..

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدَّة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عِنْدَ الأسلوبِ الخِطَابِيِّ الذي يَعْتَمِدُه الإخوةُ في مُخاطبةِ يعقوبَ عليه السلام:

فمنذُ الآياتِ الأولى في هذه السورة، ومَع بَدْءِ كُلِّ حديثٍ يَجْرِي بينَ يعقوبَ عليه السلامُ وأبنائه، نسمعُ الإخوة يقولون:

﴿**قالُوا يا أَبانا مالَك لا تأمنا على يوسفَ وإنا له لناصِحون**﴾[(١)].

ثم عِنْدَ بَدْءِ مجلسٍ آخر نسْمَعهُم يقولون: ﴿**قالُوا يا أَبانا إنّا ذَهَبْنا نستَبِق**﴾[(٢)]. ثم عِنْدَ بَدْءِ المجلسِ الثالثِ نَسْمَعُهم يقولون: ﴿**قالوا يا أَبانا مُنِع مِنّا الكَيل**﴾[(٣)]. وها هُم في المجلسِ الرابعِ يقولون:

﴿**قالوا يا أبانا ما نَبْغي**﴾.

عِلْماً بأنّ المعنى يَكْتَمِلُ دونَ ذِكْرِ عبارةِ يا أَبانا.

---

(١) [سورة يوسف ، الآية: ١١].

(٢) [سورة يوسف ، الآية: ١٧].

(٣) [سورة يوسف، الآية: ٦٣].

وفي هذا، إشارةٌ أُخرى إلى الأدبِ القرآنيِّ في كيفيةِ التعامُلِ معَ الآباء.

اللطيفة الثانية: في مُلاحَظتِنا لهذا الزّخْمِ الكبيرِ الذي حَوَتْهُ الآيةُ الكريمة، يُظْهَرُ بوضوح، الإعجازُ القرآنيُّ في الإيجاز. ففي شَطْرِ آيةٍ واحدة، كان في خطابِ الأبناءِ إعلامٌ عن خَمْسَةِ مواضيع مُخْتَلِفَة. كُلُّ واحدٍ منها يحمل معْنى خاصاً في تسَلْسُلٍ منطقيٍ بديع:

فقالوا أولاً: ﴿يا أبانا ما نَبْغي﴾ وهُمْ بذلكَ يُشيرونَ إلى حل العُقَدِ التي تكاثَرتْ عليهم، الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى، في تأزُّم تصَاعدِي حتى بلغتِ الذُّرْوَة في الرفضِ المبدئيِّ ليعقوبَ عليه السلام، بإرسالِ ابنِهِ الأصغرِ معَهم، فكانَ في قولِهم ﴿ما نَبْغِي﴾، إيذانٌ بانفراجِ الموقفِ في جماليةٍ لُغويةٍ نادرة..

ثم قالوا ثانياً: ﴿هذه بِضاعَتُنا رُدَّتْ إلينا﴾ وهنا أساسُ الانفراجِ المادِيّ. الذي بمُوجَبِه سيكونُ لهُم القدرةُ على العَوْدَةِ ثانيةً إلى عزيزِ مصر، للحُصولِ على المؤَن.

ثم قالُوا ثالثاً: ﴿ونَميرُ أهْلَنا﴾ أي نُؤَمِّنُ لهُم الطَعامَ اللازَم في وقتٍ عَزّ الطعامُ في بقاعِ الأرض، وأصبَحَ تأمينِه أعْلَى أولويةٍ في اهتمامات الناس، فهم يُشيرونَ بذلك إلى مُوجِب المحافظةِ على الحياة..

ثم قالُوا رابعاً: ﴿ونَحْفَظُ أخانا﴾ أي إنَّ وجودَ البضاعةِ في الرِّحال، وهي بذلك بينَ أيدِينا، يَضْمَنُ لنا عِنْدَ اصطحابِ أخينا سلامتَه، لتوافِقَ حالِنا معَ شروطِ العزيز، في مبادلةِ البِضاعةِ بالطَّعام..

أمّا لو أخَذْنَا أخَانَا دونَ البِضاعة، فاحتمالُ الإرباكِ موجود.

ثم قالوا خامساً: ﴿ونَزْدَادُ كَيْلَ بعير﴾ وفي هذا إعمالٌ للفِكْرِ الرياضيِّ، في محاولةِ تكثيفِ المَنْفَعَةِ المُحَصَّلَة، إذْ إن فيها رَفْعاً لمستوى الطُّمأْنِينةِ الذاتية، بوجودِ كميةٍ أكْبَر مِنَ الطعام، لعدمِ وضوحِ مآلِ القَحْطِ في حَقِّهِم.

اللطيفة الثالثة: في مُلاحَظَتِنا للترتيب التَّصَاعُدِيِّ الذي اعتمدَهُ الإخوةُ في إقناعِ أبيهم بإرسالِ الأخِ الأصغرِ معَهم، وهذا يدُلُّ على ذكاءٍ عالٍ، نتعلم منه أسلوبَ الإقناعِ التصاعُدِيِّ التراكُمِيِّ:

فقد بدؤا بإحلالِ الطُّمأنِينةِ بذِكْرِهم لوجودِ البِضاعة: وهذا دليلٌ مادِيٌّ محسوس، تَحتاجُ إليه قاعدةُ الإقناع.

ثم ذَكَرُوا إشباعَ الحاجة، وفي هذا سَدُّ مصدرِ القَلَقِ في النفس.

ثم انْطَلَقُوا إلى التدليلِ على الحفظِ المادِيِّ للأخ، حالَ ذَهابِه معَهُمْ. إذ إنه بُنِيَ على دليلٍ مادي.

ثم رَفَعُوا مستوى الإقناع إلى أقْصاه، حينَ صَوّرُوا ازديادَ الرِّبْحِ بكيل بعيرٍ إضافي.

ثم أنهَوْا حِوارَهُمُ الإقناعيّ بعبارةٍ لطيفةٍ بقولهم: **﴿ذلك كيلٌ يسير﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الإقناع يحتاج عناصر ومقومات، وينبغي أن يبنى على أسلوب متين متماسك، ولقد سلك أبناء يعقوب هذا المسلك مستعملين كل عناصر الإقناع: تصوير جسامة المشكلة والواقع المعاش، وذكر الخيارات المفتوحة، والمفاضلة بينها، واحتساب مقدار الخسارة، إيضاح مقدار الربح وتبيين مدى المخاطرة، ثم الوصول إلى النتيجة المرجوة.

٢ - للدلالة على أن بر الوالدين مقدم على جلب المصالح والتلهي بالتحصيل المادي. ونأخذ المثال الصريح الواضح فيما فعله أبناء يعقوب عليه السلام، إذ أنهم أول ما فعلوه عند وصولهم أنهم أتوا ليسلموا على أبيهم، ثم التفتوا بعد ذلك لفتح متاعهم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥١]

توصلنا هذه الآية أخي المؤمن، إلى نتيجةِ ما قَرَّرَهُ نبي الله يعقوبُ عليه السلام، بشأنِ إرسالِ ابنه الأصغر، معَ الإخوة، وقد تأمَّلْنا في الآيةِ السابقةِ سعَةَ الانفراجِ الذي حَصَلَ بعدَ ضِيقٍ وإحصار، في تَتَابعِ هذا المشْهَدِ منَ الحوارِ بينَ يعقوبَ عليه السلام، وأبنائه، وهو حوارٌ، اتَّسَمَ في بدايتِهِ بالأدب، ثم بالطَّلَب، ثم بالرَّفْض، ثم بالدَّهْشَةِ والاستغراب، ثم بانتعاشِ الآمال، ثم بعودةِ الطَّلب.

يقولُ الله تعَالى في بدايةِ الآية حكايةً عن نبي الله يعقوب عليه السلام: **﴿قالَ لنْ أرسِلَهُ معكم حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً منَ الله لتأتنني به إلا أنْ يُحاطَ بكم﴾.**

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عندَ الأُسلوبِ البلاغِيّ الجميل، الذي اعتمَدَهُ يعقوبُ عليه السلامُ في إجابتِه لطلبِ أبنائه. فهو يقولُ: لنْ أُرسِلَهُ معَكُمْ ولسانُ حالِه يقول: سأُرسِلُه معكم.

إلا أنه اشترطَ للإرسالِ أمراً عظيماً، يَحْسَبُهُ الناسُ هيناً وهو عندَ الله عظيم: **﴿أنْ تُؤْتُونِ موثقاً منَ الله لتأْتُنَّني به﴾.**

فعلى الرُّغْمِ من التجربَةِ المريرةِ السابقة، بِفَقْدِ يوسفَ عليه السلام، لم يَفْقِدْ يعقوبُ عليه السلامُ ثِقَتَهُ بِعُمْقِ إيمانِ أبنائِه وخوْفِهم مِنَ الله تعالى، وهو على يقينٍ بأنَّ إعطاءَهُمْ المَوْثِقَ منَ الله تعالى، هو التزامٌ راسخٌ منهم بالمحافظةِ عليه.

وبملاحظتِنا لنوعيةِ الحوارِ الذي دارَ بينَ الأبناءِ ويعقوبَ عليه السلامُ منذُ سنواتٍ عديدة قبْلَ أخْذِهم يوسُفَ عليه السلام - لم يَشْتَرِطْ يعقوبُ عليه السلامُ عليهم الموثِقَ منَ الله تعالى، قبل أخذِ يوسفَ عليه السلام بإعادتِه، لعدمِ وجودِ السّابِقة. وفي هذا تعليمٌ قرآنيٌ لنا، بوجوبِ الإفادةِ مِنَ التجارِبِ السابقة، وعدمِ الوقوعِ في الأخطاء ذَاتِها مرة أخرى.

اللطيفة الثانية: لُغويّة، في استمتاعِنا بتناغُم العِبارةِ في قولِ الله تعالى على لسان يعقوبَ عليه السلام: ﴿**تُؤْتُونِ مَوْثِقاً من الله لتَأْتُنَّني بهِ**﴾. ومعنَى العبارة: تُعْطُوني مَوْثِقاً منَ الله تعالى، بأنكم ستَعُودُون بهِ، وشتّانَ بينَ جماليةِ الآيةِ القرآنية، وبينَ ما سُقْنا مِنْ معنًى مُرادِف.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لِعُمقِ إيمانِ يعقوبَ عليه السلام، الذي يَتبدّى في هذه اللحظاتِ العصيبة، عندَ اتخاذِ قرارِ الإرسال:

فإنّ أصْعَبَ شيءٍ عليه في الدُّنيا، في هذه اللحظات، هي إرسالُ ابنِه الأصغرِ بعيداً عنه، إلى حيثُ لا يَدْرِي، إلى بلدٍ بعيد، تحُفُّهُ المخاطِرُ مِنْ كُلِّ جهة.

وهو، رغبة منه بالحصولِ على المؤنِ، قِبلَ إرسالَه مُشترِطاً على أبنائه بَذْلَ كُلِّ الجُهْدِ في الحِفاظِ عليه والعودةِ به.

وهو رُغْمَ كُلِّ حِرْصِه على عودةِ الابنِ الأَصغر، ارْتَضى بعدمِ عَوْدَتِه إذا شاءَ الله تعالى عدمَ العودة، وهذه قمةُ التسليمِ المُطْلقِ بقضاءِ الله تعالى، إذْ نسْمَعُه يقولُ علَناً أمامَ الأبناء. مُعلّماً لنا شَجَاعةَ الجَهْرِ بالتسليمِ بقضاءِ الله تعالى: ﴿**إلاّ أَنْ يُحاطَ بِكُم**﴾.

وبيانُ قوله: رُغْم شِدّةِ تَعَلُّقي بوَلَدِي الأصْغَر، وهو الذي يُواسِي وحْدَتي

بعد ذَهابِ يوسفَ عليه السلام، ورُغْمَ حِرْصي على عدمِ ذهَابِه بعيداً عنّي، ورُغْمَ أنّي رَضِيْتُ مُرْغماً بذَهابِه معَكُم. في صَوْنِكُمْ ورِعايتكم وشديد حِرْصِكُم على العنايةِ بهِ، إلا أنّي أُسَلِّمُ بقضاء الله تعالى إذا ما قَضَى ألا يعُودَ إليَّ، راضياً قانِعاً قانتاً لله تعالى، مُسلّماً له في كُلّ ما أَمَر وَقضى.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَوهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ الله على ما نقولُ وكيل﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلنا لهذا الشعورِ الخَفِيِّ الذي يَغْمُرُنا حينَ نسْمَعُ قول الله تعالى، فَلمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهم، أنَّهم حقاً صَادقُون في وعْدِهم. ولم يَخامِر الشَكُّ إنساناً قَرَأَ هذه الآية في يومٍ منَ الأيام، إلا وَوَقَرَ في قَلْبِه أنَّهم صَادِقون، وهذا ما نُسَمِّيه بِسحْرِ بيانِ القرآنِ الكريم، وهذا سِرٌّ منْ أسرارِ الله تعالى في القرآن الكريم، إذْ تَتَضَمَّنُ الكلماتُ والعِباراتُ قوةَ إقناعٍ لا تُضاهَى، يطمئِنُ بها قلبُ المؤمنِ فتزيده إيماناً وثِقَة، ولو تجَرَّد كُلُّ البَشرِ منْ أحكامهم المُسَبقة على دينِ الإسلام، وانْعَتَقُوا لبرهةٍ وجيزةٍ منْ وسوسَةِ الشيطان، وقرأُوا آياتِ القرآنِ الكريم، لوَصَلُوا حَتْماً إلى نورِ الهداية.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لحالِ الأبناء، وهم يُعْطُونَ المَوْثِقَ لأبيهم بالمحافظةِ على أخيهم الأصغر:

فلقد أعادَهُمُ الموقفُ الحاليُّ إلى مَوْقِفِهمْ السابقِ، حينَ أخذوا يُوسُفَ عليه السلام، وكانَتْ نِيَّتُهم غيرَ سلِيمة، لكنَّ واقِعَ حالِ مَوْقفِهم في هذه اللحظاتِ مُخْتَلِفٌ تماماً:

فلقد أعطت نتيجةُ الرحلةِ وما رافَقَها منْ أحداثٍ زَخْماً عَالياً جَعَلَهُمْ في موقفِ الباحثِ عن حلٍ لمسألةِ الطعام.

وهُم الآنَ في موضعِ مُؤاخَذةٍ وإصلاحٍ لما تسَبَّبُوا به مِنْ ألمٍ وأذى لوالدِهم، وسيَبْذُلونَ قصَارَى جُهْدِهم لإثباتِ حُسْنِ نِيَّتِهم.

وهم بحاجةٍ حقاً لإجابةِ طلبِ العزيز، برؤيةِ أخيهمُ الأصغر، فقط ليس إلا في ظَنِّهِم، وستكونُ مسألةً سهلةً بسيطةً لا خَوْفَ فيها ولا خَطَر فيها.

اللطيفة الثالثة: في وقوفنا عِنْدَ دقة العبارةِ القرآنية، فيما أَجابَ يعقوبُ عليه السلامُ حينَ أعْطَوْهُ المَوْثِقَ إذْ قال: **﴿الله على ما نقولُ وكيل﴾**.

أمّا نحنُ، فلقد اعتَدْنَا، في مِثْلِ هذه المواقف، أنْ نسْمَعَ القائل: والله على ما نقولُ شهيد...

إلاّ أنّ قَوْلَ يعقوبَ عليه السلامُ هنا، وكيل، أبْلَغُ وقْعاً وأغْزَرُ معنى:

فهو طَلَبٌ ودُعاءٌ، في آنٍ واحدٍ، منَ الله تعالى بالمعونةِ والمساعدَةِ في إتْمامِ الأمر، وحينَ يقول وكيل، فهو يُعْلِنُ بذلك اشتراكَهُ معَ أوْلادِه في طلبِ المعونةِ منَ الله، وكأنّه يُصَوِّرُ لنا أنه يقِفُ معَهم في جهةٍ واحدة، يطْلُبونَ معاً النُصْرَة والمَعُونَة.

أمّا أنْ نسْمَعَهُ يقولُ شهيد. فهو تَعبيرٌ عَنْ إثباتِ معْرِفَةِ الله تعالى لما يَحْصُلُ منْ أمرِ المَوْثِق، ثم إيكالٌ لأمْرِ صِدْقِهم في حُسنِ النيةِ إلى الله تعالى، ويَبْقَى هو في طرف، والأبناءُ في طرفٍ آخر.

لقد أرَادَ يعقوبُ عليه السلامُ أنْ يُبْلِغَنا أنه فِعلاً صدَّقَهُمْ في قولِهم وأنه أوْكَل أمْرَهُ معَ أبنائه إلى الله تعالى، لتيسيرِ أمرِهم.

فانْظُرْ أخي المؤمن إلى دقةِ القرآنِ في المعاني والإشارات.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على مستوى التسليم المطلق بقضاء الله تعالى الذي يمكن أن يصل إليه الإنسان إذا ما أخلص عبادته لله تعالى. فهو بذلك يشعر أنه برعاية الله تعالى وتحت الطافه، وهو مستعد أن يتخلى عن أعز ما يملك، لعلمه بأن الله تعالى عليم بحاله، ولن يتخلى عنه وهكذا كان حال يعقوب عليه السلام حين قبل بتسليم ابنه الأصغر.

٢ - للدلالة على أن الخضوع لحكم الله تعالى، أعلى بكثير من كل الرغبات والأهواء، وكل حب نكنه لأبنائنا وأحبابنا، فيعقوب عليه السلام. رغم كل حرصه وحبه لابنه الأصغر، يرتضي مسبقاً بحكم الله تعالى إن كان هذا الحكم يقضي بعدم عودته إليه. وهكذا يجب أن نكون نحن أيضاً في تعاملنا مع طوارىء الحياة.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٢]

تحملُ لنا هذه الآيةُ، أخي المؤمن، على لسانِ يعقوبَ عليه السلام، مَنْهَجاً عامّاً في الحياة، يصْلُحُ للتطبيقِ في كُلِّ زمانٍ ومكان، ويُعَدُّ قاعدةً أساسيةً منْ قواعدِ عِلْمِ الاجتماع، كما أنَّ فيها مبدأً أساسياً مِنْ مبادىء العقيدة، معَ انسياقِ تطبيقِه على العلومِ البشريةِ كافة، وخصوصاً في مُعالجةِ أمراضِ النفسِ ومشاكلها.

نبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة.

يقولُ الله تعالى: **﴿وقالَ يا بنيَّ لا تَدْخُلوا مِنْ بابٍ واحدٍ وادْخُلُوا من أبوابٍ متفرقة﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في فَهمِنا للبُعدِ الذي رَمَى إليه يعقوبُ عليه السلام. فلقد سبَقَ للأبناءِ أنْ ذَهَبُوا إلى مصر في رِحْلَتِهم الأولى، التي باءَتْ بالفَشَل، ولم يَدْعُهُم في المرةِ الأُولى أنْ يَدْخُلُوا مِنْ أبوابٍ متفرّقة.

ولقد تفتَّحتْ أذْهَانهم وأعْيُنهم على حضارةٍ عظيمةٍ مُتقدِّمة، ورَأَوا المدنية والعُمرانَ، والأبنيةَ والأبراجَ والطُّرقات، ورَأَوْا أنّ المدينةَ يُدْخَلُ إليها مِنْ أبوابٍ عديدة، ولعَلّهُمْ نَقَلُوا ذلكَ إلى يعقوبَ عليه السلام، فإذا به الآن، وهو يُعِدُّ العُدّةَ لإرسالِ ابنه الأصغرِ معهم، يعْمَلُ على إفهامِهم بوجوبِ توخّي الحيطةِ والحَذَر، وذلك بشَحْذِهِمْ نفْسِيّاً بطريقةٍ تصاعُديّةٍ مُتَدرِّجة.

فإذا به يبدأُ بقولِه: **﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحدٍ وادْخُلوا مِنْ أبوابٍ مُتفرِّقة﴾** تنبيهاً إلى وُجوبِ عدمِ لفْتِ الأنظارِ إليهم، وذلك لِدَفْعِ الحسَدِ عَنْهُمْ مِنْ جِهَة، وإفهاماً لهم بأنَّ الرحلةَ هذه المرةَ ليستْ رحلةً عادية، بل على مستوىً عظيمٍ مِنَ الأَهميةِ والتوتُّر.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عند قولِه: **﴿يا بَنِيّ﴾** وهنا نَسْتَشْعِرُ الإيناسَ والرِّضى، وكأنّهُ بذلك يُعْلِمُهُمْ عنِ القبولِ والتَّجاوُبِ معَ مسْعَاهُمْ في تحصيلِ المُؤَن، وفي ذلك أيضاً، إشارةٌ ضِمنيةٌ إلى وجوبِ الاستماعِ إلى ما سيَلْحقُ هذه العبارةَ مِنْ نَصائحَ وتوجيه، فيكونُ وَقْعُ التوجيهِ أبْلَغَ في نفْسِ مَنْ أعْلَمْتَهُ مُسَبَّقاً بحُبِّكَ له وَوُدِّكَ.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفنا عِنْدَ دلائلِ ما يَحْمِلُه هذا التوجيهُ مِنْ معنى:

فلقد علِمْنَا أنّ يوسفَ عليه السلام، كانَ على درجةٍ عاليةٍ جداً مِنَ الجمال. ولا يَبْعُدُ أنْ يتمتَّع إخوتُه أيضاً بِقِسْطٍ وافرٍ مِنْه.

ولقد عَلِمْنَا أنَّ عدَد الإخوةِ عشَرَة، يُضَافُ إليهم الابنُ الأصغر، فصارَ العدد أحد عشَرَ رجلاً أصحاءَ أشِدّاءَ إخوة، حسان الوجوه، وهذا أمرٌ نادِرُ الحصولِ بينَ البَشَر، وأغلبُ النَّاس تتمنى أنْ تُرْزَقَ ذريةً تتمتَّعُ بهذه المواصَفات.

من هنا، جاءَ خوفُ يعقوبَ عليه السلامُ على أبنائه، إلا أنه ليس السبَب الأساسِيّ، على ما سنَرَى في الآيةِ اللاحقة.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلامُ مُتابعاً: **﴿وما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله مِنْ شيءٍ إن الحُكْمُ إلا لله عليه توكّلتُ وعليه فلْيتوكّلِ المتوكِّلُون﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لاستمرارِ الشَّحْنِ النفْسيِّ الذي اعتَمَدَهُ يعقوبُ عليه السلام لإفهامِ أبنائه دِقَّة وصُعوبة المرحلةِ القادِمَةِ عليهم في سَفَرِهم.

فبعد أنْ نصَحَهُمْ بالدخولِ مِنَ الأبوابِ المتفرقة، وهذه إشارةٌ أولى إلى وجوبِ أخْذِ الحِيطة والحَذَر.

أفْهَمهم أنه لا يستطيع مُساعَدَتَهم، إذ إنه بعيدٌ عنهم، حتى وإنْ كان نبياً من أنبياء الله تعالى، وأنه لا يُغْني عنهم منَ الله منْ شيء، وهذه إشارةٌ ثانيةٌ إلى وجوب أخْذِ الحيطة والحذر، بمستوىً أعلى، فيكون بذلك قد بلَّغَ الأبناء ضَعْفَ حيلتِه عَنْ قضاء الله تعالى وقدَرِه، مُمَهِّداً لإعلانِ التسليمِ والتوكُّل.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عِنْدَ قوة المعنى الذي يَحْمِلُه قولُه: **﴿إن الحُكْمُ إلا لله﴾**، وهذا أصلٌ منْ أُصولِ الدين، وجَبَ علينا الوقوفُ عِنْدَه وتأمُّله وإعماله في كُلِّ شأنٍ من شؤونِ حياتِنا.

ففي ظاهرِ الحال، نتمَتَّعُ في تنقُّلِنا وتقلُّبِنا في ساحاتِ الدُّنيا ومدارِجها بالقُدْرةِ، والقُوّةِ، ووسائلِ القَهرِ، وتذْليلِ المصاعِب: ويتَمَتَّعُ بعضُنا بأسبابِ القيادةِ والرياسةِ والسُلْطة، وأدواتِ التحكُّم بحركةِ مجموعاتٍ منَ الناس، ولقد يَدْفَعُ الغرورُ بعضَ هؤلاءِ القادة، للظَنّ بأنهم حقيقةً أصحابُ الأمرِ والنَّهْي المُطْلَق دُونَ حسِيبٍ أو رَقيب، فيسيؤن استعمالَ السُلْطَة، ويَدْفَعُهُم الغُرورُ إلى الكِبْر، ثُمّ عَمَى البَصَائر، فيَحْصُلُ نتيجةً لذلكَ الكثيرُ منَ الظُلْمِ والفَسادِ والإفْسَاد، ثم الإمعانُ في البطشِ والإفساد، وتُراقُ بذلك الكثيرُ منَ الدماء فيأتي قولَ يعقوبَ عليه السلامُ ليضَعَ الأُمورَ في نِصابِها، ويُوضِحَ الحقيقةَ الأبدِيَّةَ المُطْلَقة: إنِ الحُكْمُ إلا لله.

فإذا به يقولُ للظالم: ما أنتَ إلا شخْصٌ أخطأ التّقدير، وما تلك القُوةُ التي بَيْنَ يدَيْكَ إلا تمكينٌ مؤقّتٌ زائِل، مهْمَا طالَ فهو زَائِل، ويَبْقَى الحُكْمُ الحقُ لله العزيز الجبّار.

ثم تدورُ الدوائرُ على الظّالِم، فيرينا فيه الله تعالى قُوَّتَه، وتَطْويه الدنيا، فيتعظ بعضُ الخَلْق، ولا يتّعِظُ البعضُ الآخر، فيَسْلُكُ سُلوكَه فيَلْقَى مصيرَه، وهكذا إلى أنْ تَبْلُغَ البشريةُ يومَ الدين.

اللطيفة الثالثة: في الحِكْمَةِ البالغةِ التي أَطْلَقَها يعقوبُ عليه السلام، لتكونَ هي أيضاً مُعَلّماً أساسياً على مَرِّ التاريخ، يرشدنا إلى كيفية التعامل معَ قضاءِ الله تعالى الواقعِ على خَلْقِه، إذْ يقول: **﴿عليه توكّلْتُ وعليه فلْيتوكّلِ المتوكّلون﴾**.

فهو يَتبرَّأُ مِنْ حَوْلِه وقُوَّتِه، ومِنْ خِبرةِ السنين الطّويلة، ومِنْ عِلْمِه الواسعِ الذي أعْطَاهُ الله تعالى، ومِنْ حِرْصِهِ ومَحَبَّتِه لأولادِه، ومِنْ حُزْنِه على فَقْدِ أولادِه، ومِنْ مكانتِه في قَوْمِه وعشيرته، ومن سُلْطَتِه الأبويّة على أبنائه، يتبرأُ من كُلِّ ذلك، ويوكلُ أمْرَهُ إلى الله تعالى، مُعَلّماً أبناءَهُ وجوبَ التمثُّلِ به، فيتوكَّلُونَ على الله تعالى في حِلِّهِمْ وترْحَالِهِم، في فِعْلِهم وقصْدِهم، ويُعَلِمُنا نحن أيضاً

وجوبَ التوكُّلِ الكامِلِ المُطْلَقِ على الله تعالى، فيصِلُنا التعميمُ بقولِه: **﴿وعليه فلْيتوكّلِ المُتوكّلون﴾**.

ومن هذه العبارة، أرى انطلاق أعظم فَرْعٍ مِنْ فُروعِ علاجِ المشاكلِ النفسيةِ التي تُصيبُ الناس، وكَمْ تكاثَرتْ هذه المشاكلُ النفسيةُ في أيامِنا الحاضرة، والغالبيةُ العُظْمَى منها تَعودُ لعدمِ فَهْم وتطبيقِ الناسِ لمفهومِ التوكُّلِ على الله تعالى. فلو أحسنَ الناسُ التوكُّلَ، لزَالَتْ عنْهُمْ هذه الأمراضُ، ولعاشُوا بهناء طُمأنينَةٍ حِمَى الله تعالى، الذي لا يَنْسَى عِبادَه، ولا تأخُذُه سنةٌ ولا نوم.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب اتقاء الحسد وأعين الناس، وخصوصاً في الأبناء، وتبعاً فيما أعطى الله تعالى من رزق. فليس لنا أن نتباهى بعرض ما وهبنا الله تعالى على أعين الناس، وخصوصاً الحاسدين منهم، لأن العين حق، والأذى منها حاصل.

٢ - للدلالة على وجوب التوكل على الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة من أمور دنيانا، وهذا أمر رباني إلينا، ساقه القرآن الكريم على لسان يعقوب عليه السلام، ليكون إحدى القواعد الأساسية التي توجه تحركنا في حياتنا، ولقد جاءت العبارة بالنص العام بقوله: أن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٣]

تُتَابِعُ معَنا هذه الآيَةُ أخي المؤمن، قِصةَ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، في محاولتِهم الثانيةِ للحصولِ على المؤَنِ والغِذاء، وقد استطاعُوا تلبية مَطْلَبِ العزيزِ، بإحضارِ أخيهِم الأصغرِ معَهم، فلْنتأمَّلْ ما تَحْمِلُه لنا هذه الآيَةُ من جميلِ اللطائف.

يقولُ الله تعالى: **﴿ولمّا دَخَلُوا من حيثُ أمرَهم أبوهم ما كان يُغْنِي عنهُم منَ الله مِن شيء﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لحظنا لهذا الانتقالِ السريعِ للمشهد، دُون الحاجةِ إلى شرحٍ وتفْصِيل. إذْ إنَّ المستمعَ اعتادَ منذُ بدايةِ السورة، على المُشاركةِ الذِهنيةِ معَ السرد، في تكوينِ صُوَرِ المشاهدِ المُتَعَاقِبَة، ورَبْطِها فيما بينها، وملءِ الفتراتِ الزمنيةِ غيرِ المذكورةِ في سياق السَرْد.

فلقد كانوا في الآيةِ السابقة، على بعدِ آلاف الأميال في حضرةِ أبيهم، يتلقَّوْنَ الإرشاداتِ والأوامر. وما بينَ الآيةِ السابقةِ والآيةِ الحالية، وقتٌ وجُهد، وانتقالٌ وتخطيط، وتوافقٌ وتنفيذ.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عنْدَ الحالِ النفسيةِ للإخوة في هذه المرحلةِ منَ القِصة، وهي تتسِمُ بالهدوء، والانصياعِ والالتزامِ بتوجيهاتِ أبيهم، دُونَما اجتهادٍ أو مناقشة.

فلقد عَلِمْنَا أنهم أصحابُ رأْيٍ واجتهاد، ولقد أعْملوا رأيهم في السابِق فيما يُخالِفُ إرادَة أبيهم، وأبعَدُوا أخاهم يوسفَ عَنْ فِكْرٍ وتصْميم.

أمَّا هنا، فنَلْحَظُ هدوءَ التصرفِ منْ هدوءِ الآية، في سَرْدِها لواقعِ حالِهم: **﴿ولمّا دَخَلُوا مِن حيثُ أمَرَهُمْ أبوهم﴾**.

اللطيفة الثالثة: لُغوية، في وقُوفِنا عندَ قولِ الله تعالى: ﴿**ما كانَ يُغنِي عَنهُمْ منَ الله مِنْ شيء**﴾ وهي تُظْهِرُ لنا فَرادَة اللغةِ العربية، في الجمعِ بينَ الماضي والمستقبل، وذلك لبيانِ عَدمِ ترتبِ الغرضِ المقصودِ على التدبيرِ المعهود، معَ كونِه مَرْجُوَّ الوجود.

وتفسيرُه: أنّ يعقوبَ عليه السلام، أَخَذَ كافة الاحتياطات اللازمة، للعملِ على عودةِ أبنائِه جميعاً. وحينَ عَمِلُوا بهذه الاحتياطات، لم تحْصُلْ سلامَةُ العودة، عَلى ما سنَرَى في لاحقِ الآيات.

اللطيفة الرابعة: في تَأمُّلِنا لاستباقِ الإعلام تلْميحاً لا تصريحاً، في جَماليةِ قصصيّةٍ عاليةِ المستوى، بأنّ شيئاً ما، سيشُوبُ مُهِمّة الأَبناء، مما يَحمِلُ المُتَتبِّع لسياقِ القِصة، على تحَسُّبِ حُصولِ حَدَثٍ ما، يَضَعُ له في زاويةِ ذِهنِه مكاناً، يَدْفَعُه إلى ترقُّبِ الأحداث، مِمّا يُبْقِيهِ على حالٍ منَ الانشداد.

اللطيفة الخامسة: ما نَلْحَظُهُ منْ تكريمِ الله تعالى لنَبيِّه يعقوبَ عليه السلام، أمامَ كُلِّ مَنْ قَرأَ القرآنَ على مرِّ الدُّهور. فيعقوبُ عليه السلامُ قال في الآيةِ السابقة: ﴿**وما أُغنِي عنكُمْ منَ الله منْ شيء**﴾.

والله تعالى يقولُ في هذه الآية: ﴿**ما كانَ يُغنِي عنهم منَ الله منْ شيء**﴾. فلقد شاء الله تعالى أنْ يحْصُل تكْرَارٌ لفظيّ كاملٌ لما قالَ يعقوبُ عليه السلام. ولَسْتُ أرى تكريماً أعْلَى مِنْ هذا التكريم.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**إلاّ حاجةً في نفسِ يعقوبَ قَضاها وإنه لذو عِلْمٍ لما علّمْنَاهُ ولكنّ أكْثر النّاسِ لا يعْلَمُون**﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا لهذا الاستثناء الذي لا يُغيِّرُ شيئاً مِنْ قضاءِ الله

تعالى. ولقد أجازَهُ الله تعالى، بل أثنَى عليه بقولِه: ﴿وإنّه لذُو عِلْمٍ لِمَا علّمْنَاه﴾.

وفي هذا تعليمٌ لنا وإفهام: أنَّ التسليمَ بالقضاءِ لا يُغْنِي عنِ الحِيطةِ والأَخْذِ بالأسباب، وأَنَّ وَعْيَنا الكاملَ لحتمِيَّةِ حُصولِ ما قَضى الله تعالى علينا، لا يَدْفَعُنا إلى التواكُلِ والتخاذُلِ والركونِ إلى الأرض، وهذه حقيقةٌ غفَلَ عنها الكَثيرُ منَ الناس، وظَنُّوا أنَّ التسليمَ يَعْني التَّراخِيَ عنِ العَمل.

اللطيفة الثانية: في محاولةِ وقُوفِنا عِنْدَ بعضِ أوْجُهِ العِلْمِ التي لَحَظْنَاها في يعقوبَ عليه السلام، من خلالِ تأمُّلِنا لما سَلَفَ منَ الآيات.

فلقد أشارَ في أولِ السورةِ إلى احتمالِ ضَياعِ يوسفَ عليه السلامُ منه، مَعَ أنَّ ظَاهِرَ الحالِ في تلك اللَّحظاتِ، أنه في الحِفْظِ والصَوْنِ، فكانَ أنْ حَصَلَ الفَقْد.

ثم إنه أشارَ في الآياتِ السابقةِ إلى احتمالِ فَقْدِ الابنِ الأَصغرِ أيضاً، معَ عدَمِ وجودِ دَلائلَ على ذلك، إذْ إنَّ واقعَ الحالِ يُشيرُ إلى صِدْقِ الأبناء، وظُروفُ نَقْصِ الغِذاء، تُساعدُ على تَقويةِ دلائلِ الحِفْظ.

ثم إنه شدَّدَ على وجوبِ الحِرصِ والوعي والتَّيقُّظ، ورَسَم الخُطَطَ لِلحمايةِ والوِقاية، إلا أنه قالَ مُباشرةً بعدَ ذلك: ﴿وما أُغْنِي عَنكُم مِنَ الله مِن شيء﴾.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عِنْدَ قولِ الله تعالى: ﴿ولكنَّ أكثَر النّاسِ لا يَعْلَمون﴾ ونَرَى فِيها توجيهاً وإرشاداً، ينبغي لنا أنْ نَعْتَمِدَهُ قاعدةً في حياتِنا اليومية:

فهو تعليمٌ لنا بوجوبِ إبقاءِ فُسحةٍ في حَيِّزِ اليقين، الذي نَحْصُلُ عليه، مهما بَلَغَ بِنا الاقْتِنَاعُ بِصَوَابِيتِه، لاحتمالِ ألا نكونَ قد أحَطْنَا بكاملِ الحقيقة، وأَنَّ هناك إمكانيةَ وجودِ تفسيراتٍ أُخرى للأحداثِ ونكونَ حاضِرين لِتَقبُّلِها فيما لو غَيَّرَتْ

هذه الأحداثُ من النتائجِ المتوقَّعَةِ أوِ المرجُوّة وفي فَهْمِ هذه الحقيقة، تَقليلُ الكثيرِ منَ المشاكِلِ والمَشاحَناتِ والتوترِ الحاصلِ بينَ الناس، في تَشابُكِ مصالِحِهم فيما بينهم.

ومعلومٌ أنَّ الشيطانَ اللعين، يَلْعَبُ على أوتارِ هذه التَّغْشِيَة، وعَدَمِ وعَيِ هذه الحقيقة، ويستغِلُّها للإيقاعِ بينَ الناس، فحبَّذَا لو أَخَذْنَا بتوجيهِ القرآنِ الكريم.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن موجبات الحذر والحيطة يجب أن تؤخذ مع تمام التوكل على الله تعالى، وفي اتخاذها تطبيق لأمر الله تعالى، وهو يتمم حصول الأجر، وإن كانت لا تغني من الله من شيء، لأن قضاء الله تعالى واقع، لكن الأخذ بالأسباب واجب.

٢ - للدلالة على وجوب الطاعة للوالدين حتى وإن كان ظن الأبناء أن رأيهم أصوب من رأي والديهم، وذلك قربى إلى الله تعالى، إلا أن يحصل نقاش واقناع.

٣ - استعمال عبارة: حاجة في نفس يعقوب قضاها، للدلالة على أمر يريد فعله ولا يريد إعلام الآخرين به إلا تلميحاً، فالعبارة جميلة، وردها إلى أصلها في القرآن الكريم أجمل وآكد.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٤]

تنقُلُنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى مشهدٍ رائعٍ مِنْ مشاهدِ قصةِ يوسفَ عليه السلام، نجدُ فيها أنَّ يوسفَ عليه السلام، بدأ باستعادةِ أحبابِه، وها هي ذِي البدايةُ معَ وصولِ أَخيهِ الأصغر، تمهيداً لاجتماعِ شملِ العائلةِ بكاملها، على مَا سَنَرى في لاحقِ الآيات.

نبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة. يقول الله تعالى: **﴿ولمَّا دَخَلُوا على يوسفَ آوَى إليه أخاه﴾**.

في هذا الشطرِ مِنَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لجمالِ الأسلوبِ القرآنيِّ، في التدرُّجِ الهادىء في كلماتِ آياتِه، معَ ما تنقُلُه إلينا مِنْ أحداث، فنحن نَلْحَظُ هذا التَّكْرار المحبَّبِ لِعبارَة: **﴿ولمَّا دَخَلُوا﴾**: ففي الآية السابقة كانَ الافتتاح: **﴿ولمَّا دَخَلُوا من حيثُ أَمَرَهُم أبوهم﴾**(١).

وفي الآية الحالية: **﴿ولمّا دَخَلُوا على يوسف﴾**.

فإذا بنا نَلْحَظُ تَدَرُّجاً في الوصولِ إلى الهَدف: دخولٌ عامٌّ إلى المدينةِ في الآيةِ السابقة. ودخولٌ خاصٌّ إلى مقامِ يوسفَ عليه السلامُ في هذه الآية.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ المعاني التي تَحْمِلُها عبارة: **﴿آوَى إليه أخاه﴾** وهو تصويرٌ عامرٌ بالمشاعرِ والأحاسيس، يحمل معانيَ الضَمِّ والحُنُوِّ والرِّقةِ والرحمة، والمحبةِ العميقةِ الخالصة، وكأنَّ الآيةَ تُوضِحُ لنا، في إيجازٍ مُذهِش، مدى عُمقِ حُبِّ يوسفَ عليه السلامُ لأخيهِ الأَصغر، إذْ نَفْهَمُ من كلمةِ: **﴿آوى إليه أخاه﴾** التقريبَ والحِمايَة، ويتبادَرُ إلى ذِهْنِنا صورَةُ الطائرِ الذي يَضُمُّ تَحتَ جناحَيْهِ صغَارَه، حُنُوّاً وحِماية، حُبّاً ورِعَاية، ذَوداً وكِفاية.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٦٨]

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لكلمة ﴿**أخاه**﴾ في قولِه: ﴿**آوى إليه أخاه**﴾. ونتساءَل: أليسَ بقيةُ الإخوةِ إخوتَه؟ ولماذا فَهِمْنَا مباشرةً أنَّ المعنِيَّ هو الأخُ الأصغر؟

الجوابُ هو: أنَّ القرآنَ الكريم، يمْتَازُ بخصوصيةِ التَّخَاطُبِ المباشِر، مَعَ الحِس الإيمانيِّ الداخليّ، القابع في كلِّ واحدٍ منّا، فهو يسْمُو في أغلبِ سُورِهِ وآياتِه عن ذِكْرِ أسماءِ غيرِ الأنبياء، إلا فِيما نَدَر، وهذه إحدى خصائِصِ إعجازِه، إلا أنه لا يتْرُكُنَا أبداً في حَيْرَةٍ مِنْ أمْرِنا، ويُعْطِينا الإشاراتِ اللطيفَة في سياقِ تفاعُلِنا مَعَ قصَصِه.

فبالعودةِ إلى الآيةِ الثامنةِ في بِداياتِ السورة، نسْمَعُ الإخوةَ يقولون: ﴿**إذْ قالوا ليُوسُفُ وأخُوه أحبُّ إلى أبينَا مِنّا**﴾. وبذلك فلَقَدْ تَمَّ فصْلُه منذُ بدايةِ السُّورةِ عَنهم، وأصبحَ يُشارُ إليه على مدارِ السُّورةِ بهذِه التَّسْمِية: أخو يُوسف، فلا يَقَعُ بذلك لَبْسٌ أوْ إبْهام.

ثم تتابعُ الآيةُ الكريمةُ: ﴿**قال إني أنا أخوكَ فلا تَبتئس بما كانُوا يعملون**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنَا لصيغةِ التّوْكيدِ المُضَاعَفِ التي استَعْمَلَها يوسفُ عليه السلام، في إفْصَاحِهِ عن نفسِه لأخِيه، إذْ قال: ﴿**إني أنا أخوك**﴾ وهذا التوكيدُ يَتناسَبُ مَعَ خُطورِه الإعلامِ والتعريفِ الذي يَحْصُل، لصعوبةِ تصديقِ ذلك، مِنْ قِبَل الأخِ الأصغر.

وكأنّهُ يقول: إني أُؤَكّدُ لكَ وإعْلَمُكَ بأنّي أخوك.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عندَ مَرَاحِلِ التحضيرِ النفسيِّ التي بدأَهَا يوسفُ عليه السلام، منذُ لحظةِ وُصولِ الإخوة، ومَعَهُمُ الأخُ الأصغر، استعداداً لخُطَّةِ

جديدةٍ يَحتاجُ فيها لمساعدةِ أخيه، وذلك على أربعِ مراحل:

المرحلةُ الأولى: بالإيواء في قوله تعالى: ﴿**آوى إليه أخاه**﴾.

المرحلة الثانيةُ: بالتعريفِ إذْ قال: ﴿**إني أنا أخوك**﴾.

المرحلة الثالثةُ: بالضّمِّ إلى ذاتِ الموقعِ والجِهة. إذْ قال: ﴿**فلا تبتَئِسْ بما كانوا يَعْملون**﴾.

وستاتي المرحلةُ الرابعة: بالمشاركةِ العَمَلِيّةِ في تنفيذِ الخُطةِ على ما سنَرى في لاحق الآيات.

ونَلْحَظُ في قولِه: ﴿**فلا تَبْتَئِسْ بما كانُوا يَعْمَلُون**﴾ مواساةً وتذكيراً في آنٍ واحد:

فلقد أساءَ الإخوةُ في السّابقِ إلى يوسفَ عليه السلام، ورأَيْنا كيفَ أنَّهم ألْقَوْهُ في الجُبّ، وأبعدُوه عنْ أبيه.

ولقد أساؤُوا تبَعاً إلى أخيهِ الأصغر، حين قالُوا: ﴿**ليُوسُف وأَخُوهُ أحبُّ إلى أبينا مِنّا**﴾[١].

ولقد ترَكَتْ هذه الإساءةُ أبْلَغَ الأثرِ في حياةِ كُلٍّ مِنْهُما، وفي حياةِ أبيهم، الذي عاشَ حُزناً عمِيقاً على فِراقِ يوسفَ عليه السلام.

فإذا بيوسفَ بعدَ هذا التّذْكِير، يَدْعُو أخَاهُ للصَفحِ والعَفْوِ عَنْ بقِيَّةِ الإخوة، تَعْليماً لنا بوجوبِ العَفْوِ عِنْدَ المِقْدِرَة.

وجميلٌ مِنّا أنْ نَقِفَ عِنْدَ الحالِ النَّفْسِيَّةِ للأخِ الأصغرِ في هذه اللّحَظات، وهو يعيشُ كشْفَ حقيقةٍ مُذْهِلة، لم يَكُنْ يتَصَوَّرُ أبَداً حُصولَها:

فنحنُ منذُ بدايةِ القِصة، نَراهُ طَائِعاً جِداً، لما يُمْلِيهِ عليهِ أبوه معَ أنه رجلٌ راشِدٌ يُمْكِنُه أنْ يُدْلِيَ برأْيِه.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٨]

ثم إنَّه رَحَلَ إلى مِصْر، وقد أخَذُوا القرارَ نِيابةً عنه، ولم نَسمعْ له رأياً في كُلِّ ما جَرَى مِنْ حوارٍ بينَ يعقوبَ والأبناء، تدليلاً على قُوَّةِ طاعتِه لأبيه واحترامِه له.

ثم إنّه وصَلَ إلى مِصْر برفقةِ إخوتِه، مَعَ مُلاحظةٍ دقيقةٍ وهامّةٍ جداً هي المرةُ الأولى التي يَزُورُ فيها مِصْر، بينما هي ليستِ الأولى لإخوتِه، مِمَّا يُعْطِي شعوراً مُضَاعَفاً بالغُربَةِ والعُزْلة، وكُلُّنا يَخْتَبِرُ هذا الشعور، حينَ نكونُ برفقةِ مَنْ سَبَقَنا لزِيارةِ مكانٍ مجهولٍ لدينا.

ثم إنَّ عزيزَ مصرَ آواهُ إليه، وفي هذا تصاعُدُ الشعورِ بالدهشةِ والاستغراب، ممّا يَدْفَعُ النفسَ إلى التساؤُلِ في لَحظاتٍ سريعة: ماذَا يُريدُ مني عزيزُ مِصر، حتى يَرْفَعَني إلى هذا المَقامِ دُفعَةً واحِدة؟

ثم إنه عَرَّفَهُ بنفسِه: ﴿**إنّي أنا أخوك**﴾، فإذا بالقَلْبِ يَنْشَرِحُ بعدَ انْقِباض، وتَتحوَّلُ الدَّهْشَةُ إلى فرحٍ وإيناس.

ثم بَعْدَ الانشراحِ الهدوء، والتذاكُرُ معَ يوسفَ عليه السلامَ ما عانياه معاً مِنْ قَسْوةِ الإخوةِ عليهما.

ثم الصفحُ والعَفْوُ والسَّمَاح، بقولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**فلا تبتئس بما كانوا يعملون**﴾.

ثم متابعةُ يوسفَ عليه السلام، في إخْبَارِه عمّا اعتزَمَهُ مِنْ خُطَّةٍ سنَرى تفاصِيلَها في لاحقِ الآيات.

ثم الموافقةُ على مُشاركةِ يوسفَ خُطَّته، وإنْ كانَ فيها اتِّهامٌ ظاهِرٌ له، بأخْذِ ما ليسَ له.

قليلٌ منَ الناسِ مَنْ يحتملُ هذا التقلب السريعَ في المشاعِرِ والانفعالات، وتلكَ القلوبُ يُقَلِّبُها الله تعالى كيفَ يشاء.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الصفح عند المقدرة، حتى وإن كان الظلم أو القسوة متمادية مع الزمن، وغالباً ما يكون في هذا الصفح خير عميم يصل إلى من ظلم فتشرق نفسه من آثار العفو، وتصفو وتعود إلى فطرتها وخيريتها.

٢ - للدلالة على أن النفس البشرية لا تثبت على حال واحدة، فهي متقلبة متبدلة، تتفاعل مع محيطها، فتنقبض وتنبسط، وتبتهج وتحزن وتتأثر بالتوجيه الخارجي.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٥]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى فصلٍ جديدٍ من فصولِ قِصَّةِ يوسف عليه السلام، وقد بدأ مَعَها تنفيذَ خُطّتِه الجديدة، بموافقةِ ومُشاركةِ أخيه الأصغر، فلنتأمَّلْ معاً هذه الآيةَ الزَّاخِرة بالمعاني والمواقف، ولنتذوّق جمالَ القرآنِ الكريم، في سَرْدِ القَصَص.

يقولُ الله تعالى: **﴿فلمّا جَهَّزهم بجهازِهم جَعَل السقايَةَ في رَحْلِ أخيه﴾**.

في هذا الشَّطرِ منَ الآيةِ، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قولِه تعالى: **﴿فلمَّا جَهَزَهُم بجهازهم﴾**، ولقد سمِعْناه يقولُ عندَ مفصِلٍ أساسي سابقٍ منَ القِصَّة؛ في الآيةِ التاسعةِ والخمسين: **﴿ولمّا جَهَّزَهُمْ بِجهازِهم﴾** حين طالبَهم بإحضار الأخِ الأصغرِ معهم.

ونَرى في هذا التّكْرارِ لبَدْءِ المشهد، جماليةً قصَصِيَّةً نادِرة، تُهَيِّئنا للدخول نفسِيّاً في أحداثِ المشهدِ اللاحق، معَ كُلِّ ما يَحْمِلُه المشهدُ مِنْ عُقدٍ وتأزُّم، وشوقٍ إلى رُؤيةِ الحَلّ.

اللطيفة الثانية: في مُلاحَظتِنا لدقّة تصرُّفِ يوسَف عليه السلام، معَ حركةِ الأحْداث: فنحن نَلْحَظُ أنّ الله تعالى يقول: أن يوسف عليه السلام جعَلَ السِقاية في رَحْلِ أخيه. أي بنفسِه: لقد قامَ بوضعِ وعاءِ الكيلِ داخلَ رَحْلِ أخيه، ولم يُكَلِّفْ أحداً آخَرَ بِوضعِه فيه، في حين أننا نقرأُ في الآيةِ الثانيةِ والستينَ منَ السورة، وقدْ مَرَّتْ بنا: ﴿**وقالَ لفِتْيَانه اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُم في رحالِهم**﴾، هناكَ أَمَر فِتيانَه بالتنفيذ، أمّا هُنا، فنظراً لأهميةِ هذه الخَطْوة، قامَ بها بِنَفْسِه لضمانِ نجاحِ الخُطّة، وهَذا معلمٌ آخرُ مِنْ مَعالِم شخصيةِ يوسفَ عليه السلام: الإتقانُ في العمل..

اللطيفة الثالثة: في وقُوفِنا عندَ محورِ الحَدثِ في هذا المَشْهَد. عنيتُ بهِ السِقايَة. ولقد أوْضَحَ لنَا السادَةُ المفَسِّرون أنه عبارةٌ عَنْ وِعاءٍ أو إناءٍ خاصٍ بالمَلِك. ستُسَمِّيه الآياتُ اللاحقة: صُواعَ المَلِك، يَسْتَعْمِلُه يوسفُ عليه السلامُ في كَيْلِ المُؤَن، وهو نفيسٌ بَدَاهَةً، ولقد اختارَهُ يوسفُ عليه السلامُ، لأنه يحتاجُ إلى شيءٍ يتمتّعُ بالمواصفاتِ التالية:

أنْ يكونَ غاليَ الثمن، يَرْغَبُ الناسُ باقتنائِه.

وأنْ يكونَ صغيرَ الحجمَ يسْهُلُ إخفاؤُه.

وأنْ يكونَ قابلاً للوصولِ إليه.

وأن يكونَ مِمَّا يُمْكِنُ استعمَالُه أو بيعه لقيمتِه أو لما فيه مِنْ موادَّ قيّمَة.

فاجتَمَعَتْ كلُّ هذه المواصفاتِ في صُوَاعِ المِلك، فاخْتَارَهُ يوسُف عليه السلامُ أداةَ تنفيذِ الخُطّة.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿ثُمّ أَذَّنَ مؤذنٌ أيتُها العير إنكم لسارِقون﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا لِتوقيتِ يوسفَ عليه السلام، لبدءِ التحرُّكِ لتأزِيمِ المشهد، معَ ما يتَضَمَّنُ ذلكَ مِنْ إفصاحٍ عَنْ حُنْكَةٍ وحُسْنِ تصرُّف:

فلقد جَهَّزَهم بجهازِهم، ثم وضَعَ السِقايَة خِفْيةً عنهم، في رَحْلِ أخيهِ الأصغر، معَ علمِ الأخِ الأصغر بذلك.

ثم وَدَّعَهُمْ وتَرَكَهُمْ يتحرَّكُون، بحيثُ صارُوا في حُكْمِ المسافرين.

أي ثَبَتَ عليهم حُصُولُ اليقينِ بالمغادرة، وبالتالي ثَبَتَ تضَمُّنُ رِحالِهم لكلِ ما أخذوا مَعَهم، لحصولِ الانفصالِ الماديّ بالانتقال.

ولقد صبَر يوسفُ عليه السلام، وانتَظَر بَدْءَ تَحرُّكِهم حتى يُرْسِلَ الدَّاعِيَ بالإعلانِ عَنْ حُصولِ السَّرِقة.

ولو أنه عاجَلَهُمْ بالاتِّهامِ وَهُمْ لا يزالُونَ في أماكِنِهم، لكانَ أمْكَنَ لهم دَفْعُ الجُرْمِ عَنْ أنفُسِهم بظَنِّ حُصولِ الخطأ في وُقوعِه بينَ أوعيةِ الرّحْل.

أمّا أنَّ الرِحالَ قد حُزِمَتْ وانْطَلَقَتِ العِير، فهذا دليلٌ ثابتٌ على سَبْقِ الإصرار والتعمُّد.

اللطيفة الثانية: في مُلاحَظتِنا لعُلوِّ ذَكاءِ يوسفَ عليه السلام، وحُسْنِ إدارتِه لخُطتِه. إذْ نقرأ: ﴿**وأَذَّنَ مُؤَذِّن**﴾ فلقد أوْكَلَ أمرَ اكتشافِ مكانِ وجودِ السِقاية، إلى بعض أفرادِ حاشيته، بخِلافِ ما فَعَل حين وضَعَ السقايَةَ بنفْسِه في رَحْلِ أخيه. وسَيَنْهَجُ هذا المنهجَ في بقيةِ أحداثِ هذا المشهد، تعميقاً لثبوتِ حالِ المُخالفةِ في حقِّ الإخوة.

اللطيفة الثالثة: أيضاً عِنْدَ قولِ الله تعالى: **﴿وأذَّنَ مُؤَذِّن﴾**، وذلك لجعلِ الحَدَثِ معلوماً مِنْ جَميعِ الحاضِرين، مما يُوقِعُ الإخوةَ في موقفٍ علني لا يُحسدُونَ عليه، ويُضْعِفُ مَوْقِفَهم إلى أدنى حَدّ، ونحن نعرفُ الفَرْقَ بينَ كشْفِ الفِعلِ السيء في موقفٍ فَرْدِيّ، وكشْفِهِ على مسْمَعٍ ومرأىً مِنَ الناس، ويَحْضُرني هنا حالُ الناسِ يومَ الحشر، يَومَ العرضِ العظيم، حين تقِفُ البشريةُ كافةً، فتسمعُ وترَى ذُنوبَ كلِّ فردٍ منها، يَعْتَرِفُ بها بنفسِه على مسمعٍ ومرأىً منهم جميعاً، فأيُّ موقفٍ أصْعَبُ مِنْ هذا الموقف؟

اللطيفة الرابعة: في الجماليةِ اللُّغويّةِ في قولِ الله تعالى: **﴿وأذَّنَ مؤذِّنٌ﴾** ولم يقُل: ونادى مُنادٍ، إذْ إنَّ الوقعَ اللُّغَوِيّ في الأذُنِ أجمل. والصورةَ التي تَحمِلُها أرْقَى وأصْفى.

اللطيفة الخامسة: في وقوفنا عندَ قولِ المؤذِّن: **﴿أيتُها العِير﴾**.

وفي هذا تعميمٌ لا تخْصِيص، وهذا التعميمُ يتوافَقُ مَعَ أهدافِ خُطةِ يوسفَ عليه السلام، من ناحيتينِ اثنتين:

فمِنْ ناحيةٍ أوْلى، يدْفَعُ كلَّ واحدٍ مِنَ الإخوةِ إلى الشعورِ التضامنيِّ معَ جميعِ القافلة، فيما سيَرِدُ إليها مِنْ إعلامٍ أوِ اتهام.

ومن ناحيةٍ ثانية، فيه التعميةُ والتمويه، وإبعادُ الشُبْهَةِ عَنْ حُصولِ التوافُقِ بينَ يوسفَ عليه السلام، وأخيهِ الأصغر.

اللطيفة السادسة: في هذا الاتهامِ المباشِر، الذي ألقاهُ المُؤَذِّنُ على كامِلِ القافلة، بقولِه صَراحةً: **﴿إنكم لسارِقون﴾**.

فهو لم يَطْلُبْ مِنْهُمْ التمهُّل أو التوقُّف.

وهو لم يَطْرَحْ عليهم سؤالاً أو استفساراً.

وهو لم يَقُلْ لهم: إن خطأً قد يكونُ وقَعَ عندَ حَزْمِ الأمتعة. بل واجَهَهُمْ مباشرةً باتهامٍ خطير، وقَعَ عليهم وقْعاً صاعِقاً. إنما أرادَ يوسفُ عليه السلامِ، ليُحْدِثَ فيهم ما يُسمَّى بصَدمةِ الرفض، إذْ تتصاعَدُ لديهم فجأةً، وبصورةٍ قويةٍ وكُلِّية، حالةُ الإنكارِ الكاملِ للتُّهْمَة، ممّا سيَدْفعُهم لاحقاً لقَبولِ الحلولِ الجَذْرِيَّةِ القاسيةِ، فيما لو صَحّتِ التهمة، في تحدٍّ يَنْبُعُ من قوةِ يَقِينِهم بالبراءة.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن إحكام خطة ما بلحظ كافة تفاصيلها، تؤدي نتائجها المرجوة، شرط التدرج والتمهل في تنفيذها، وعدم التسرع أو تجاوز المراحل المعدة، والمقصود بهذا التوجيه، هي الخطط الخيرة التي تهدف إلى إصلاح ذات البين، أو فض النزاعات، أو تقريب وجهات النظر، والمؤسف أن أهل الشر والإفساد يقومون هم أيضاً بحبك الخطط والمكائد للإيقاع بين الناس، ويمكرون ويمكر الله، والحصيلة النهائية لعملهم، البوار والخسران المبين.

٢ - للدلالة على أن عنصر المفاجأة يستوجب الجرأة والسرعة في التنفيذ دون تردد أو إبطاء، فلقد تسارعت الأحداث فجأة في حق الأخوة مما أوقعهم في إرباك شديد، وهذا المبدأ إن حسن أعماله، يعطي أفضل الثمار، سواء في الحرب أو في السلم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٦]

نُتابع معاً أخي المؤمن، تأمُّلَ الحوارِ الذي جَرى بينَ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، وقد سرَّهُم أنَّهم تمكَّنُوا أخيراً مِنَ التجهُّزِ بالمؤنِ والغِذاء، وقد انْطَلَقُوا في سَيْرِهم إلى ديارِهم، وبينَ بعضِ حاشيةِ يوسفَ عليه السلام، وقد عَلِمْنَا في الآيةِ السابقة، أنَّهم استوقفُوهُمْ واتَّهَمُوهُمْ بالسَّرِقة، وكان اتِّهاماً صريحاً علنيّاً مُباشِراً، الأمر الذي لم يتوقَّعْهُ الإخوةُ إطلاقاً، فقد كانوا مُنْهَمِكِينَ بسُرعةِ العودةِ إلى أبيهم في سعادة، لتحَقُّقِ الهدفِ المزْدَوِج: تحصيلُ الطعام، والحفاظُ على الأَخِ الأصغرِ كما وعَدُوا أباهم، فإذا بهذا النداء البعيدِ يقْلِبُ الأمورَ رأْساً على عقِب. فلنتأمَّلِ الآيتين:

يقولُ الله تعالى: ﴿**قالوا وأقبَلُوا عليهم ماذا تفقِدون**﴾

في هذه الآيةِ لطائفُ عِدة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عندَ الصياغةِ الأدبية للآية. ونحن نعرفُ أنَّ عبارةَ: ﴿**وأقبلُوا عليهم**﴾ هي جملةٌ اعتراضِيَّة، وكانَ يُمكِنُ أنْ تردَ على ما اعْتَدْنَا على سماعِه وقولِه مِنْ بسيطِ العبارات: فأقبلوا عليهم وقالوا ماذا تفقدون.

إلا أننا، وبالعودةِ إلى سياقِ الحوارِ الذي يَبْدأُ معَ هذه الآية، ويمتدُّ إلى أربعِ آياتٍ مُتَوالِيات، يكونُ افتتاحَ الآيات الثلاثِ التالية حكماً بعبارة: ﴿**قالوا**﴾ فانْسِجاماً معَ تَناسُقِ التعبيرِ القرآني، جاءَ افتتاحِ الآيةِ الأُولى بعبارةِ ﴿**قالوا**﴾، معَ إعطاءِ الآيةِ قوةً جماليةً أعلى: ﴿**قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفْقِدُون**﴾

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عِندَ مغزَى إيرادِ الله تعالى لعبارة: ﴿**وأقبلُوا عليهم**﴾، والتي كما ذَكَرْنَا، جاءَتِ اعتراضيَّة في مَعْرِض السَّرْد، وهي تُشيرُ إلى أنَّ القافلة، كانت قدْ أدبرتْ عَنْ مِصْر، فإذا بهم لمَّا سَمِعُوا نداءَ المؤَذِّن، عَادُوا أدْرَاجهم.

لقد حملتِ الآيةُ الكريمةُ إشارتين اثنتين، على صدقِ الإخوةِ في تصرُّفهم حيالَ هذه المسألة، التي أتَتْ إليهم، ولم يَحْسُبوا لها حِساباً: أَنْ تقَع عليهم تُهمةُ السّرِقَة..

الإشارةُ الأُولى، حينَ عَادُوا أدراجَهم.

والإشارةُ الثانية، حينَ قالوا صادِقين: ﴿**ماذَا تفقِدون**﴾

ونحن إذْ نقرأ هذه الآياتِ الكريمة، نعْرِفُ حقيقةَ المسألة، ونعرفُ أنَّ الإخوةَ لا يَدَ لهمْ إطلاقاً في السرِقة، إلا أننا نتأمَّلُ موْقِفَهم منَ الاتهامِ الواقعِ عليهم. وهذه الظروفُ تتكَرّرُ كثيراً في الحياةِ الدُّنيا بينَ الناس. ويُصَوِّرُ لنا هذا المشهدُ مِنَ السورة، حالَ تفاعُلِ البشَرِ مَعَ الأحداث. وما إخوةُ يوسفَ إلا نموذجٌ للنّفسِ البشرية، تَتَكَرَّرُ على مَرِّ الأيامِ بألوانٍ وأساليبَ مُختلِفة.

اللطيفة الثالثة: في لَحْظِنا للأدبِ الذي تعامَلَ به الإخوةُ مَعَ الاتهامِ الموجَّهِ إليهم. فلقد قِيلَ لهم في الآيةِ السابقة: ﴿**أيتُها العِيرُ إنّكُم لسَارِقون**﴾ وقُلْنا إنه اتهامٌ خطيرٌ لا يقْبَلُه الإنسانُ بسهولة.

فكانَ جوابُهم على أعلى درجةٍ منَ الأدبِ والانضباط، إذْ قالوا: ﴿**ماذا تفقِدون**﴾

وتلكَ آثارُ التربيةِ الصالحةِ التي ربّاهُمْ عليها يعقوبُ عليه السلام.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ أفرادِ الحاشية: ﴿**قالوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الملِك ولِمَنْ جاءَ به حِمْلُ بعير وأنا بِهِ زعيم**﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لحظِنا لهدوء الوتيرة، في أُسلوبِ الكلامِ المستعْمَلِ مِنْ قِبَلِ الحَاشِيَة، وجاءَ هذا الهدوءُ استجابةً جيدةً ولطيفة، لِتساؤُلِ الإخوةِ الهادئِ

والرَّصين، وهذا سِرٌّ مِنْ أسرارِ التّخاطُبِ والحوار، حَبّذا لو استَخْلَصْنَا منه العِبَر: فإنَّ رَفْعَ وتيرةِ الحوارِ بينَ الطرفين، يُؤدِّي إلى عشَى الأبصار، وعَمَى البصائر، وغالباً ما تكونُ فُرصة الشيطان، للإيقاعِ بينَ المُتحاورِين، في الشَحنِ التّصاعُدِيِّ لوتيرةِ الحوار.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ التدرُّجِ المُسْتَحْسَنِ الذي اعتَمَدَهُ كبيرُ المتحدِّثين، في إقناعِ القافلة بِرَدِّ المفقود، ونراهُ في هذه الآيةِ على ثلاثِ مراحل:

المرحلةُ الأُولى، بالإعلامِ عَنْ طبيعةِ الشيءُ المفقود.

المرحلةُ الثانية، بالوعدِ بجائزةٍ لمن يُحْضِرُ الشيءَ المفقود.

المرحلةُ الثالثة، بإعطاءِ الضَمانةِ الشخصية، بتأمينِ الجائزة.

وهذا هو أسلوبُ الترغيبِ الذي يُقْنِعُ الحائزَ للمفقودِ أن يُعيدَه، أو يُقْنِعُ مَنْ يَعْرِفُ مكانَ وجودِه للدِّلالةِ عليه.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لنوعِ الجائزة: ﴿**حِمْلُ بعير**﴾، ولا عَجَب، فهذا أثْمَنُ ما يَطْلُبُه النّاسُ في هذا الوقتِ مِنَ القَحْطِ والجفَاف، وهي جائزةٌ مغريةٌ جداً، لا يقْدِرُ على الصمودِ أمامَها الحائز.

ونَفْهَمُ مِنْ هذا، أنَّ قيمةَ الصُّواعِ عاليةٌ جداً. ولعلّهُ كانَ مُرَصَّعاً بالجواهر، أو أنه مصْنُوعٌ مِنَ المعادنِ الثمينة.

ثم تَنْتَهِي الآيةُ بصيغةِ المفردِ بقولِه: ﴿**وأنا بِهِ زَعيم**﴾ وفي هذا انتقالٌ مِنَ العامِّ إلى الخَاصّ، لأنَّ التعهُّدَ والضّمانَ لا يُمْكِنُ أنْ يَصْدُرَ عَنْ مَجموعة، بل يَجبُ أَنْ يَبْلُغَ الإقناعُ بالتنفيذِ مَداه، فتعهَّدَ كبيرُ الحَاشِيَةِ بالتنفيذِ على مسؤوليته.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على مشروعية الحوافز ذات القيمة لحمل الناس على بذل مجهود أكبر لإتقان العمل وفي هذا مخاطبة لعوامل اليقظة والتنبيه في الإذهان، وهذا صنو التنافس المشروع الذي يؤدي إلى تحسين الإنتاج ومضاعفة الجودة.

٢ - للدلالة على أن ضمانة الإيفاء حال الوعد واجبة، وهنا أيضاً تظهر أهمية طمأنة الحال النفسية للموعود لكي يكون أداؤه على أحسن وجه.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾
قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ
جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٧]

نُتابعُ معاً أخي المؤمن، في تأمُّلِنا اليومَ لهذِه الآيات، بقيةَ الحوارِ الذي جرَى بينَ حاشيةِ يوسفَ عليه السلام، وقد أرسَلَهُمْ لاستردادِ صُواعِ الملِك، وبينَ الإخوةِ في دَهْشَتِهم ونَفْيِهم للتُّهمةِ المُوجَّهةِ إليهم.

وكنَّا قد لَحظْنَا أنّ الحوارَ بدأ بالترغيبِ بإعادةِ المفقودِ بالحُسْنَى، دونَ تفتيش، معَ وعدٍ بالمكافأة، فلمَّا كانَ جوابُ الإخوةِ الإنكار، تغيَّرتِ اللهجةُ على ما سنَرَى في الآيات، موضوعِ تأمُّلِنا.

يقولُ الله تعالى: **﴿قالوا تَالله لقد عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ في الأرضِ وما كُنّا سارِقين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ ابتداءِ كلامِ الإخوةِ في رَدِّهِم على الاتهام، بالقَسَمِ بالله تعالى، **﴿قالُوا تاللهِ﴾**.

يقولُ النَحْوِيُّون: لا يُقْسَمُ بالتاءِ إلا في الله خاصّة؛ وفي القَسَمِ بها مَعْنَى التعجُّب.

إنهم يتعجبون ويُقْسِمُونَ بالله تعالى.

ولقد عَلِمْنَا مِنْ سالفِ الآيات، أنّ أهلَ مِصْر في ذلك الزمان، وإنْ كانُوا على الشِرْك، فَهُمْ يَعْرِفُون الله تعالى، ونَذْكُرُ قولَ النِّسوةِ في المدينةِ أولَ السورة، حين رأَيْنَ يوسفَ عليه السلام، في بيتِ امرأةِ العزيز، في الآيةِ الحاديةِ والثلاثين: **﴿قُلْنَ حاشَ لله ما هذا بشراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم﴾**(١).

ولذلك، فإنَّ قَسَمَهُمْ بالله تعالى، مفهومٌ لدى الحاشية، والهدفُ منه، إثباتُ صِفةِ الصِدْقِ على قَوْلِهم، وهو في الوقتِ عينِه، جوابٌ بالنفيِ والإنكار، مما يُفْهَمُ فيه رفضُ الإخوةِ لعرض الحاشيةِ بالحصولِ على الجائزة، تأكيداً على بَرَاءَتِهم.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لدقةِ العبارةِ القرآنية، في قولِ الإخوة: **﴿لقد علِمْتُم﴾** فَهُمْ بذلك يُشهدونَ الحاشيةَ على حصولِ سَبْقِ العِلْمِ لديهم، إرتكازاً إلى ما استجمعَ لديهم مِنْ تصرفِ الإخوة، خلالَ إقامتهم في مِصْر، ولا تتكوّنُ المعلومةُ إلا بتضافرِ عناصرِ التثبيت لها، مِنْ مواقف مُتَمَيِّزَة، وتَكرارِ التصرُّفِ الحسَن، وحُسْنِ التعاملِ والأدبِ والعفةِ والأمانة، حتى اشتُهِرُوا بها، فحُقَّ لهم أنْ يقولوا: **﴿لقد عَلِمْتُم﴾**.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣١]

اللطيفة الثالثة: في العبارةِ التي ذَكَرَها الإخوةُ في دِفاعهم عنْ أنْفُسِهم إذْ قالُوا ابتداءً: ﴿**ما جِئْنَا لِنُفْسِدَ في الأرض**﴾.

والإفسادُ وِعاءٌ كبير، يَضُمُّ ما لا يَكَادُ يُحْصَى مِنَ الأعمالِ السيئة، ابتداءً مِنْ أذِيةِ الناسِ بالقَتْلِ والجَرْح، والتعدِّي على الحُرمات، وُصولاً إلى السَلْبِ والنَهْب، والسّرقةِ والتخريب، ثم الإساءةِ إلى العقولِ والأذهان، وبثِ الأفكارِ الهدامَة، والإرهابِ الفِكْري، وترويعِ الناس، وسَلْبِ الأمْنِ والطُمأنينة، ونشرِ أسبابِ الرذيلة، وهدمِ المجتمعات، والإساءةِ إلى ما خَلَقَ الله تعالى من حيوانٍ ونباتٍ وطبيعة، وما لم نَذْكُرْ أكْثَرُ بكثير.

لقد ذكرَ الإخوةُ أولاً، فِعلاً سيئاً واسعاً جداً، واستَهْجَنُوهُ ورَفَضُوه، ثم عادُوا إلى مسألةِ جزءٍ منه، فنَفَوْا عَنْ أنفسِهم تُهمةَ السرِقَة.

اللطيفة الرابعة: في لحظِنا لتوقيتِ نَفْيِ السرقةِ عَنْ أنفسِهم. لقد كانَتِ الكلمةُ الأُولى التي ذَكَرَها المؤذِّنُ في بَدء الحوار: ﴿**أيتُها العِيرُ إنكم لسَارِقُون**﴾ فما أجابوه مباشرةً، بل استفْهَمُوا عَنِ التهمة، وتركُوا المؤَذِّنَ يشْرَحُ لهم تفاصيلَ الحَدَث، وتركُوه يَعْرِضُ عَرْضَه، ثم أجابوا بأنَّهم مُسالِمون، لا يَبْغُونَ الفَسادَ في الأرض، إلى أنْ أجابوه في النهاية: وما كنَّا سارِقين.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿قالُوا فما جَزاؤُه إنْ كُنتم كاذِبين؟﴾

في هذه الآية لطيفتانِ اثنتان:

الأُولى: أننا نقفُ مُنْدَهِشينَ أمامَ سؤالِ الحاشية: فهم يتحدَّثُونَ نيابةً عنْ عزيزِ مصر، والموقفُ متوترٌ جداً: صُواعُ المَلِكِ مَفْقود، وإخوةُ يوسفَ مُتَّهَمُون، ورجالُ البحثِ في موقعِ قُوَّة، قوةِ السُلطةِ المُسْتَمدَّةِ مِنَ الحاكِم، ويُمْكِنُهم إملاءُ شروطِهِم في العِقاب، ويُمْكِنُهم الاحتكامُ إلى القواعدِ والقوانينِ المرعِيّةِ الإجراءِ لديهم، وهذا مَنْطِقيٌّ في عُرْفِ العدالةِ والقانون.

فإذا بهم يسألون المُتَّهَمينَ عن نوعِ العِقابِ الذي سيُعَاقَبُونَ بهِ فيما لو ثَبَتَتْ عليهِمُ التُهْمة، يُريدونَ بذلك مَعْرِفَة أحكامِ شريعتِهِم في مثلِ هذه الأحوال.

وتزولُ دَهشتُنا حين نعْلَمُ أنَّ هذا كُلَّه بتخطيطٍ وتوجيهٍ مِنْ يوسفَ عليه السلام: فهو يَعْرِفُ أنّ السارِقَ في شرعِ قومِه يعاقَبُ بالاسترقاق، فيصبحُ عَبْداً مَمْلُوكاً عِنْدَ مَنْ سرقَه، وما طَرْحُ السؤالِ بهذا الشكلِ إلا لحملِ الإخوةِ على لفظِ هذا الحُكْمِ بأنفُسِهم، وتلك قمةُ الذّكاءِ في توجيهِ المحاوَرِ في الاتجاهِ الذي تَبْغِيه، دونَ أنْ يُدْرِك إلى أيِّ مدىً ستُوصِلُه.

اللطيفة الثانية: في التحوُّلِ المفاجىءِ في الحوارِ مِنَ الترغيبِ إلى الترهيب، في انسيابِ لُغوِي جميل؛ وذلك ببدء ذكْرِ الجَزاءِ والعِقاب، وحضْرِ التفاوُضِ في نوعِ العِقاب، حالَ ثبوتِ التُهمة. ولم نَشعرْ بحِدَّةِ الانتقال، بسببِ انشغالِنا بواقعِ الاستفهامِ الذي جاءَتْ به الآية.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قالوا جزاؤُه مَنْ وُجِدَ في رَحْلِه فَهُوَ جزاؤُه كذلك نَجْزِي الظالمين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحَظَتِنا لأُسلوبِ الإجابةِ ودِقتِه اللُّغوية، حين نَسْمَعُ الإخوةَ يقولون: **﴿مَنْ وُجِدَ في رحلِه﴾** ترفُّعاً عَنْ قول: مَنْ سَرَقَ السِقاية، فهم، حتى في الاحتمالِ الجَدَلِيِّ يَرْفُضون نِسبةَ السَرِقَةِ إلى أحدِهم إطلاقاً.

اللطيفة الثانية: في وضوحِ وصَرَاحةِ الإخوةِ في إجابتهم عَنْ نوعِ العِقابِ الواقع في شريعتهم على السارق، بل أكّدُوا على وُجوبِ إيقاعِ العقابِ بالسارقِ بتَكْرَارِهم قول: **﴿فهو جَزاؤُه﴾**.

ذلك لِيقينِهم القَطْعِيِّ أنْ لا أحد منهم سَرَقَ الصُواع. ولو شَكَّ أحدٌ منهم ولو باحتمالٍ ضئيل، أنَّ أحَدَهم أخَذَ الصُّواع. لما كانَ الجوابُ بهذا الجَزْم

الصريح؛ فهم متأكِّدونَ مِنْ بَراءتِهم. ولم يَجِدُوا حَرَجاً في ذِكرِ نوعِ الجزاءِ المُعْتَمَدِ لديهم في شَرِيعتِهم.

اللطيفة الثالثة: في لَحْظِنا لهذا التدرّجِ التصاعُدِيِّ في جوابِ الإخوةِ الواثقِ والصريح، الخالي منْ أيِّ خَوْفٍ أو تَرَدُّد.

فلقد ذَكَرُوا أولاً: الجزاء - وهو الاسترقاق.

ثم أكَّدُوهُ بالتَكْرار.

ثم ارْتَقَوْا في تثبيتِ تأكيدِه بقولِهم: ﴿**وكذلك نَجْزِي الظَّالمينَ**﴾.

ولنا أنَّ نتأمَّلَ هذا المشهدَ مِنْ قِصةِ يوسفَ عليه السلام: فهو موقفٌ مُذْهِشٌ غيرُ مُعْتَاد:

فسائقُ الاتهام، يَعْرفُ أنّ أداةَ الجُرمِ موجودةٌ في حَوْزَةِ المتّهم، ويَدَّعِي عدمَ المعرفة، ويدَّعِي البحثَ عنها.

وهو يعرفُ أنَّ المُتَّهَم لا يَعْرِفُ بوجودِ أداةِ الجُرْمِ في حَوْزَتِه.

والمتهم، لا يَعْرِفُ أنَّ سائقَ الاتهامِ يَعْرِفُ أنه بريء.

والمتهمُ واثِقٌ مِنْ نفسِه ومِنْ براءَتِه، لأنه لم يَرْتَكِبْ جُرْمَ السَرِقَة، وهو يتحدَّثُ بعزةٍ وأنفَة.

وسائرُ الاتِّهام، يعرِفُ تماماً، أنّ التُهمةَ ستثْبُتُ على المُتَّهَم، نَظَراً لوجودِ أداةِ الجُرْمِ في حَوْزَتِه.

والمتهمُ واثِقٌ تَماماً أنَّ الحصيلةَ ستنتهي بتبرئته، وهو ينتظِرُ حُصولَ التفتيش لإثباتِ بَراءَتِه.

ذاكَ موقفٌ انقلبتْ فيه الأدوار، وهو غَاص، غنيٌ جداً بالمشاعرِ التي تعْتمِلُ في صَدْرِ كُلِّ واحدٍ منهم، وستتغيّرُ هذه المشاعِرُ معَ كلِّ مَرْحَلةٍ مِنْ مراحلِ هذا المشهد، على ما سنرى في لاحقِ الآيات.

مواطن الإسترشاد بالآيات في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب عدم التسرع بالجزم القاطع لأي أمر كان لإحتمال حصول عكسه، وإن كان الإحتمال ضئيلاً جداً يكاد يكون معدوماً. ذلك أن الإنسان لا يمكنه الإدعاء بالإحاطة الكاملة بكمال العلم، والحيطة تقضي بترك هامش تحرك بسيط لإحتمال انقلاب الأمور على عكس ما هي سائرة عليه.

٢ - للدلالة على أن الأمور تسير أحياناً في الظاهر بعكس حقيقتها في الباطن، كمثل حال المحقق والمتهمين في الآيات السالفة: فالمحقق يعرف أن المتهم بريء، والمتهم واثق من براءته وهو لا يدري أن التهمة تلبسه لبساً، وإذ يخدم هذا الحدث فعلاً خيراً. فكم وكم من الأحداث المشابهة تقع لتخدم تخطيط الظلم والعدوان.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٨]

نصلُ مع هذه الآيةِ أخي المؤمن، إلى مرحلةٍ دقيقةٍ جداً، من هذا المشهدِ من قصةِ يوسفَ عليه السلام، وقد وصَلَ التأزُّمُ إلى أقصاه، بإجراءِ الكشفِ الحسيِّ الماديِّ على أحمالِ القافلةِ، بحثاً عن صُواعِ المَلِك المفقود.

نبدأُ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة.

يقولُ الله تعالى: **﴿فبدأ بأوعيتِهم قَبْلَ وعاءِ أخيه، ثُمَّ استخرَجَها من وعاءِ أخيه﴾.**

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا أنَّ يوسفَ عليه السلام هو الذي قامَ بأعمالِ التفتيشِ بنفسِه، وهذا تدليلٌ على انتقالِ المشهدِ منْ موقعِ وجودِ القافلة، حيث أوْقَفَتْها الحاشية، وعادَتْ بها إلى قَصْرِ العزيز.

وكان لِزاماً في نَظَرِ يوسفَ عليه السلام، أنْ يكونَ هو مَنْ يَفْتَحُ الأوعية، حتى لا يحصُلَ خَلَلٌ في تنفيذِ الخُطَّة، ولاستدراكِ رَدّةِ فِعْلِ الإخوة، حين يَظْهَرُ الصُّواعُ في رَحْلِ الأخِ الأصغر.

وكُنّا قد عَلِمنا، أنَّ يوسفَ عليه السلام، في إدارتِه الحكيمةِ لمراحلِ خُطّتِه، يُوكِلُ تنفيذَ بعضِ أجزائها إلى الحاشيةِ، ويقومُ هو بنفسِه بتنفيذِ بعضِ المراحلِ الدقيقة، ضَماناً لنجاحِ التنفيذ، ونحن نَتعلَّمُ مِنْ يوسفَ عليه السلام، كيفية التعامُلِ معَ الأحداث، فلا نَرْكَنُ إلى مَنْ لا اختصاصَ ولا خِبرة له في تنفيذِ أعمالٍ تَتَطَلَّبُ الخِبرةَ والاختصاص.

اللطيفةَ الثانية: في وقوفِنا عندَ قولِ الله تعالى: **﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾**، وفي هذا إيضاحٌ لِمَعْلَم جديدٍ مِنْ معالمِ شخصيةِ يوسفَ عليه السلام، لم نَطَّلِعْ عليه قَبلاً وهو: دَفْعُ الشُّبْهَةِ بالتّعْمية:

وهذا دليلٌ على ذَكاءٍ شديدٍ حباهُ الله تعالى به.

فهو يعرفُ تماماً أينَ الصُّواع، وقد وَضَعَهُ بيدِه في رَحْلِ أخيه الصغير.

وهو أكْثرُ شوقاً مِنْ أيِّ شخصٍ حَضَر المجلس، لاستخراجِ الصُّواعِ مِنْ مكانِه.

إلا أنه أظْهَر انضباطاً وضبطاً للنفس، وقامَ بمجهودٍ بَدنيٍّ هام، بالبحثِ والتنقيبِ في أمتعةٍ يَعْرِفُ تماماً أنها خاليةٌ مِنْ مَطْلَبِه.

فأقَرَّ بذلك القناعةَ في نفوسِ الإخوة، أنه جادٌّ في البحثِ عَنْ مفقودٍ لا يُعْرَفُ مكانُه.

وعَمَد إلى حبسِ الأنفاس، وشَدِّ انتباهِ الجميع في لحظاتِ قلقٍ وتأزُّمٍ نفسي شديد، والكلُّ ينتظِرُ انتهاءَ التفتيش.

فيكونُ قد أعَدَّ الجوَّ الملائمَ في المجلس، لِتَقبُّل لحظةِ استخراجِ الصُّواعِ مِنْ أمتعةِ أخيه الأصغر.

اللطيفة الثالثة: في لَحْظِنا لعودةِ تأنيثِ المفقودِ في قولِ الله تعالى: **﴿ثُمَّ استَخْرَجها﴾** وبالعودةِ إلى الآياتِ السابقة، نُلاحِظُ أنَّ الله تعالى يقولُ:

في الآيةِ السبعين: **﴿جَعَل السِّقاية﴾** بالتأنيث.

وفي الآيةِ الثانيةِ والسبعين: **﴿قالوا نفْقِدُ صُواعَ الملك ولِمَنْ جاءَ به﴾** بالتذكير.

وفي الآيةِ الخامسةِ والسبعين: **﴿قالوا جَزاؤُه مَنْ وُجِدَ في رَحْلِه﴾**، بالتذكير فنُلاحِظُ أنها تُؤَنِّثُ في حقِ يوسفَ عليه السلام، وتُذَكِّرُ في حقِ الآخَرِين.

وتفسيرُه: أنّ مكانَةَ يوسفَ عليه السلام، في مرتبتِه الحاكِميّةِ العالية، تجعلُ من هذه الأداةِ القيمةِ المرتفعةِ الثمن، سِقايةً يَكيلُ بها الكَيْلَ للناس، فهي على أهميتِها، تضْعُفُ في يدِه.

أمّا في حقِ الناس، فهي تَبْقَى صُواعَ المِلك، الذي يَشْهَدُ أهميةً ليسَ فقط مِنْ قِيمتِه الماديّة، بل مِنْ رَهْبَةِ نِسْبَتِه إلى المَلِك.

فانْظُرْ أخي المؤمن، إلى دِقّةِ القرآنِ الكريمِ في التعبير.

ثـم يقولُ الله تعـالى: **﴿كـذلك كِدْنَا ليُوسُف ما كانَ ليأْخُذَ أخاهُ في دينِ المَلِك﴾**.

في هذا الشطر مِنَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ هذا التكريمِ الإلهيِّ ليوسفَ عليه السلام، في جماليةٍ لُغويةٍ فائقة.

يقولُ الله تعالى: ﴿**كذلك كِدْنَا ليوسف**﴾. أي: جَمَعْنَا الكَيْدَ له، وذلك باستجماعِ كافةِ العناصرِ الصَعبةِ التحقيق، حتى يصِلَ إلى هذه اللحظةِ الحاسِمة، بنجاحِ خُطَّتِه، فكانَ تيسيرُ الله تعالى هو الأساس، وما تَسَلْسُلُ الأحداثِ على النحوِ الذي رأَيْنا، إلا انصياعٌ لهذا الأساس:

فحَصَلَ القَبولُ والتوافُقُ مِنَ الأخِ الأصغرِ بدايةً، على التَعاوُنِ لوضعِ الصُّواعِ في رَحْلِه.

ثم تَيسيرُ الظروفِ لوضعِ السقايةِ في رحلِ أخيه، بعيداً عن الأعين.

ثم عدمُ انتباهِ الإخوة، وصرفُ أنظارِهم عنِ النظرِ في الرِّحال.

ثم قبول الأخوة للاحتكام إلى شريعتهم عند إصدار الحكم.

ثم استخراجُ الصُّواعِ مِنْ رَحْلِ أخيه الأصغر، على ما رَأَينا في الآيةِ.

اللطيفة الثانية: في لَحْظِنا، أنه حتى وإنْ كانَ فضلُ الله تعالى بالمعونةِ حاضراً. إلا أنه ليس مُطْلَقاً مِنْ غيرِ قيد، تثبيتاً لبشريةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ الكِرام، فهو يُعْطي ويَمْنَع، ويُعْطِي بمقْدار، ويسمحُ لِسُنَنِهِ الكونيةِ بالجري على أنبيائه ورُسُلِه، كمثلِ الألمِ والجوعِ والعطش، والتعرُّضِ للظُّلْمِ والسَجْن، وإغلاقِ الغيب ما خلا الكشفَ والإلهام: وفي قصة يوسفَ عليه السلام، نرى اثنين مِنْ أنبياءِ الله تعالى: يعقوبَ عليه السلام، ويوسفَ عليه السلام، يُعطِيهما الله تعالى مِنْ عِلْمِهِ بمقدار، ولا يَفْتَحُ لهما كُلَّ أَبوابِ الكشْفِ والغَيْب، ويُؤَيِّدُهما بالصبرِ والحكمة، والفِقهِ والدراية.

اللطيفة الثالثة: أنّ الله تعالى، أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ لنَا تفصيلاً وإيضاحاً، لماذا قامَ يوسفُ عليه السلام، بحملِ الإخوةِ على الاحتكامِ إلى شريعتِهم، بدلَ الاحتكامِ إلى شريعةِ مِصْرَ في ذلكَ الزمان:

ذاك أَنَّ القانونَ المعمولَ بهِ في مِصْر، يقْضِي بأَنْ يُغَرَّمَ السارِقُ مادِّياً، فيدفَعَ مبلغاً مُوازِياً لما سَرَق أو لقِيمتِه.

وهذا هو حِكْمُ دِينِ الملِك.

وبموجَبِ هذا الحُكْم، فهو لنْ يستطيعَ أن يحتفِظَ بأخيه، وهذا هو هَدَفُه من كلِّ هذه الواقعة.

أمَّا بموجَبِ إعمالِ حُكْمِ شريعةِ يعقوبَ عليه السلام، فحُكْمُ السارِقِ الاسترقاق، وهذا ما يُريدُهُ يوسفُ عليه السلام ظاهراً.

ولنْ يستطيعَ إعمالَ هذه الشريعة، إلا بطلبهم، ولقد طَلَبُوا.

فهذا معنى قولِ الله تعالى: **﴿ما كانَ ليأخُذَ أخاه في دينِ الملك﴾**.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿إلا أنْ يشاءَ الله نَرْفَعُ درجاتٍ منْ نشاء وفوقَ كُلِّ ذِي علمٍ عَليم﴾**.

في هذا الشطرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لحظِنا لهذا التكريمِ الثاني ليوسفَ عليه السلام، في الآيةِ الواحدة. فالله تعالى يقولُ عنه: **﴿نَرْفَعُ درجاتٍ مَنْ نشاء﴾**.

ونَسْمَعُ قولاً مُطابِقاً في الثناءِ على سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام، في سورةِ الأنعام، الآيةِ الثالثة والثمانين، إذْ يقولُ الله تعالى: **﴿وتِلْكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قَوْمِه نَرْفَعُ درجاتٍ مَن نشاء إنْ ربَّكَ حكيمٌ عليم﴾** [الأنعام: ٨٣].

وأيُّ شهادةٍ وتكريمٍ أعلى مِنْ هذه الشهادة؟

وتنْسَاقُ هذه الكرامَةُ على واقعِ حالِ الخَلْق، فالله تعالى يَرْفَعُ مَنْ يشاءُ مِنَ الخَلْق، ويَهَبُهم مِنَ العِلمِ ما لا يَهَبُ آخَرين، ومِنَ العِلْمِ ما هو مُكْتَسَبٌ بالتعلُّم. ومنه ما هو موهبةٌ وعطاءٌ منَ الله تعالى.

ومنَ الناسِ من يُحْسِنُ استخدامَ العِلْمِ بما يُرضي الله تعالى. ومنهم مَنْ يستعمِلُه في المعصيةِ والفَسادِ والإفساد، وهذا بابٌ واسعٌ منْ أبوابِ الوَسْوَسةِ والغِوايةِ الشيطانيةِ للإنسان، في استغلالِ ما فَتَحَ الله تعالى على الناسِ منْ فتوحِ العلم والتقدم، والاختراعاتِ والتِقْنِياتِ الحديثة. ونحن نَلْحَظُ باستغرابٍ ودَهْشَة، أنَّ الشيطانَ أخْزَاهُ الله تعالى، لم يَدَعْ فتحاً علمياً واحداً، مَهما كَبُرَ أو صغُر، إلا وأدلى فيه دَلْوَه، وذَرَّ فيه قَرْنَه، وجعَلَ فيه باباً لِمفْسَدةٍ أو مَعْصِية. والحديثُ في هذا البابِ يَطُول.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عند قولِ الله تعالى: ﴿**وفَوْقَ كُلِّ ذِي علم عليم**﴾ وفي هذا، إظهارٌ لعظمةِ الخَالِقِ سبحانَه وتعالى، وتذكيرٌ للنَّاسِ بضآلَةِ وضَحَالَةِ عِلْمِهم، فلا يُصيبُهم الغُرورُ بما آتاهُم الله تعالى مِنْ فَضْلِه عليهم بنِعْمَةِ العِلم، ولقد حَصَل، فاغتَرّ كثيرٌ مِنَ الناسِ بما نَالُوا مِنْ نصيبِ العِلم، وتعَالَوا على العِزةِ الإلهية، وظَنُّوا أنهم مَلَكُوا كاملَ العِلم، وكامِلَ الحقيقة، وبَلَغَ بهم الغُرورِ أنْ أنْكَرُوا وُجودَ الخالقِ سبحانَه وتعالى، فَعَمِيَتْ أبصارُهم عَنْ حقيقةِ جَهْلِهم، فقسَمَهُمُ الله تعالى وجَعَلَهُمْ أحاديث.

هكذا في القرونِ الغَابِرة، ومِثْلُهم في أيامِنا، وليس فيهم نبيهٌ واحدٌ ينْظُرُ قليلاً إلى الوراء، فيَرى العِبْرَة بغيرِه، فيَعْتبِر..

اللطيفة الثالثة: لُغوية، في وقوفِنا عِنْدَ جَمالِ وقْعِ الجِرْسِ في آذانِنا ونحن نقرأ: ﴿**وفَوْقَ كُلِّ ذِي علمٍ عليم**﴾ فقد جاءَتْ كلمةُ عليم، غيرَ مُعرفةٍ بأل التعريف، وإنْ تَكُنْ حقيقةً هي كذلك.

إذ إنّ المعنى هو: والله تعالى هو العليمُ فَوْقَ كلِّ ذِي علم، لكنّ الصِياغَةَ في الآيةِ أجملُ وأعلى.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب توسيد الأمر لأهل الإختصاص في المسائل الدقيقة التي تحتاج دقة وإتقاناً، ومن الخطأ التهاون في تنفيذ الأمور الصعبة وإيكالها إلى من لا خبرة أو اختصاص عندهم، فيكون الضرر الحاصل أشد وأعقد، ولو يستوجب إصلاحه جهداً أكبر وكلفة أعلى.

٢ - للدلالة بقولنا: «وفوق كل ذي علم عليم». على أن الإنسان، مهما أوغل في التقدم العلمي والفتوحات والإكتشافات والإختراعات فإن علمه يبقى قاصراً، لأنه لا يحصل على هذا العلم إلا بإذن من الله تعالى، وهو العليم الخبير الذي لا حدود لعلمه، فليدرك هذا الإنسان حدود علمه ومعرفته، وقصور ذهنه عن بلوغ ما لم يأذن به الله تعالى، وليتواضع لله وليشكره على ما آتاه، ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٩]

تُتابعُ معنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، هذا المشهدَ مِنْ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، وقد وصَلَتْ خُطَّتُهُ إلى غَايتِها، بأَنْ ظَهَر الصُّواعُ المفقود، وَوُجِدَ في رَحْلِ الأخِ الأصغر، وصارَ إخوةُ يوسفَ عليه السلام، محطَّ أنظارِ الجميع، وقد دفعوا عنْ أنفُسِهم تُهمة السرقةِ دَفْعاً شديداً في سابقِ الآيات، ما حَمَلَهُمْ على

إعلانِ استعدادِهم لتطبيقِ شريعتِهم على السارق، فيما لو كانَ مِنهم، والعقابُ في شريعتِهم، هو الاسترقاق.

فلنتأمَّلِ الآية الكريمة، ولنستمِعْ إلى جوَابِهم.

يقولُ الله تعالى: ﴿**قالوا إنْ يَسْرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ له مِنْ قَبْلُ**﴾.

في هذا الشطرِ مِنَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ ما صدَرَ منهم مِن اتهامٍ ليوسفَ عليه السلام، مِنْ سرقةٍ، معَ عدمِ الحاجةِ إلى هذا الاتهام، للخلاصِ من هذا الموقفِ الذي هُمْ فيه.

إلا أنّ أهمية هذا الإعلان، تنبُعُ مِنْ ضرورةِ إخراجِ مكامنِ السرائر، وهذا ما لا يحصُلُ إلا في مثلِ هذه المواقف.

وهذه حقيقةٌ علميةٌ نتوقّف عندَها قليلاً:

فلقد يُضمِرُ لكَ مُحَدِّثُكَ البُغْضَ وهو يُظْهِرُ لك الوُد، ويستطيعُ أنْ يستمِرَّ في إظهارِ الوُد، ما دامَ مُمْسِكاً بزمامِ حُضورِ وعيه، وكَبتِ مشاعِرِه..

أمَّا حالُ الغضب أو الإحصار، فيصبحُ الضَبطُ الواعي أضْعَفَ مِمَّا يسْمَحُ للمشاعِرِ المكبوتةِ الخفية، بالظهورِ إلى العَلَن: إمّا بكلماتٍ نُسَمِّيها زلةَ لسان، أو تصَرُّفٍ نابٍ، أو مجردِ إعراضٍ، أو تذمُرٍ أو زفرات..

وهذه أصدقُ بكثيرٍ من كلِ دِيباجاتِ الكلامِ المُنَمق.

ولقد سقطَ إخوةُ يوسفَ عليه السلامُ في هذا الامتحان.

فلقد أحْصِروا إحصاراً شديداً، أخرَجهم عنْ طَوْرِهم، فما استطاعوا كبْتَ مشاعِرِهم حِيال يوسفَ عليه السلام وأخيه، فكانَ أوّلَ ما قالُوا دِفاعاً عَنْ أنفسِهم: ﴿**إنْ يسْرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ له من قَبْلُ**﴾.

اللطيفة الثانية: في قولِهم: ﴿**أخ**﴾ بعدمِ التعريف، وذلك لظَنِّهم أن العزيزَ لا يَعْرفُ شيئاً عَنْ مسألةِ يوسفَ عليه السلام، ونَفْهَمُ منها التبعيد، وكأنَّهُمْ قصَدُوا بذلك إرضاءَ نُفوسِهم بالفصلِ التامِ ما بينَ مجموعتِهم المتضامنةِ كوَحْدَةٍ مُتفاهِمَة، تعملُ بتناسُقٍ تام، وبين يوسفَ عليه السلام، والأخِ الأصغر، مِنْ جهةٍ أُخرى، فتقعُ العبارةُ بدِلالةٍ عاليةٍ إذْ قالوا: ﴿**أَخٌ له**﴾.

اللطيفة الثالثة: في إجراءِ مُقارنةٍ بينَ هذا الموقف، والموقفِ السابقِ في الرحلةِ السابقة، حين جاؤا أولَ مرةٍ يطْلُبونَ المُؤَن.

ففي المرةِ السابقة، لم يَذْكُروا ابتداءَ وجودَ أخٍ أصغرَ لهم، ما زالَ عِنْدَ أبيهم، لم يَحْضُرْ معَهم.

فدفَعَهُمْ يوسفُ عليه السلام إلى الحديث عنه، فتحدَّثُوا عَنْه عرَضاً، ولم يَجْعَلُوا للحديثِ عنه أيَّ اهتمام.

فاستَمْسَك يوسفُ عليه السلامُ بمجردِ ذكرِه، وانقلبتِ الأُمورُ كلُّها، رَأْساً على عَقِب، وصارَتْ مسألةُ إحضارِهِ هي على رأْسِ الأمورِ أهمية.

وها هُمْ الآنَ يَذْكُرونَ يوسفَ عليه السلامُ عرَضاً بقولِهم: ﴿**إِنْ يسرِقْ فقد سَرَقَ أَخٌ له مِن قَبْل**﴾.

فلم يجِدُوا مِنَ العزيزِ أي اهتمامٍ بمعرفةِ التفاصيلِ عَنْ هذا الأخِ الجديد الذي يتحدَّثُونَ عنه.

وقد كان يَنْبَغِي للحاذِقِ فيهم، أنْ يتساءَل عَنْ سببِ عدمِ سؤال العزيزِ عَنْ هذا الأخِ الغائب، كما سألَ عنِ الأخِ الأصغر، في المرةِ السابقة.

لكنّ الله تعالى، شاءَ أنْ يصرِفَهم عَنْ هذا التساؤُل.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**فأسَرَّهَا يوسفُ في نفْسِه ولم يُبْدِها لَهُم قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مكانا والله أعلم بما تصِفُون**﴾.

في هذا الشطر الأخير منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في التقديمِ والتأخيرِ الذي نَلْحَظُهُ في العِبارة:

فحينَ نسمَعُ: ﴿**فأسَرَّهَا**﴾ ونَسْمَعُ: ﴿**ولم يُبْدِهَا لَهُم**﴾ ونَفْهَمُ أنَّ المقصودَ هي العبارةُ التالية، على الإسرارِ وعدَمِ الإبداء.

ويكونُ معنى الآية: فأسَرَّ يوسفُ الإجابةَ في نفسِه في ذلكَ الوقت، ولم يُبْدِها لهم في تلكَ الحالة، وأجَلَّ الحديثَ بها إلى وقتٍ آخر، لكنّه قالَها في نفسِه إذْ قال: ﴿**أنتم شرٌّ مكانا والله أعلمُ بما تصِفُون**﴾.

اللطيفة الثانية: في تعَرُّفِنا إلى مَعْلَمٍ جديدٍ من معَالِم شَخصيةِ يوسف عليه السلام:

فلقدِ اتّهمُوهُ علَناً بالسَرِقة، وهو مِنْها بريء.

وَهِياجُ النفسِ للدفاعِ عنْ حالِها، قريبٌ جداً عِنْدَ أغْلَبِ الناسِ وخصوصاً عندَ المقْدِرَة.

ويوسفُ عليه السلام، في حالٍ منَ القُوةِ والسلطة، تَسْمَحُ له بالاقتصاصِ مِنهم، إمّا علناً، أو دون إفصاحٍ عَنْ حقيقتِه..

إلا أنه آثَرَ الصَمْتَ العَلَنِيّ، وأعملَ ضَبْطَ النفس، ولم يُعَطِّلْ خُطَّته التي بدأ بها، ولم يَنْفَعِل، رَغْمَ تعَرُّضه للتحريض.

فهو بذلك، يُرينا جانبَ التعقُّلِ، والصبر والحِكمةِ العالية، في التعاطِي معَ الأحداث.

بخلافِ إخوتِه الذين سارَعُوا إلى الانفعال. فكالوا له الاتهامَ جُزَافا.

اللطيفة الثالثة: في قول يوسف عليه السلام: ﴿**والله أعْلَمُ بما تصفُون**﴾.

فهذا تعليمٌ لنا وإرشاد، وذلك بإيكال الأمرِ إلى الله تعالى، حالَ وقوعِ ظُلْم لا نستطيعُ دَفْعَه؛ ففيه تهدئةٌ للنفس، ويقين، بأنْ الله تعالى يَحْفَظُ حقوقَ المظلوم، حتى ولَوْ بعد حين، حتى ولو إلى يومِ الدين.

وتلك مِيزةٌ لا نَجِدُها إلا عندَ المؤمنين الصابرين، القانتين لله تعالى. وقد امتدَحهم الله تعالى في كتابِه العزيز إذْ قال: ﴿**وبَشِّر الصابرينَ ۝١٥٥ الذين إذا أصابَتهم مُصِيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ۝١٥٦**﴾[1].

وجميلٌ منا، في النهاية، أنْ نتأمَّل الحالَ النفسيةَ للإخوةِ في هذا المشهدِ منْ مشاهدِ القِصة:

فلقد تحوَّل شعورُهم منَ الحبُورِ عند ملء الكيل إلى الدهشةِ والاستغرابِ عند إيقافِهم ورَميهم بالسرقة.

ثم تحوَّلَتِ الدهشةُ إلى تفاعُلٍ معَ الحَدَث، وطلبِ تطبيقِ شريعَتِهم، حالَ وُجودِ الصُّواعِ في رَحْلِ أحدِهم.

ثم تحوَّل التفاعُل إلى يقين بالبراءة، واطمئنانٍ داخلي بأنَّ المسألة كُلَّها مجردُ ظنٍ وخطأ.

ثم انقلبَ اليقينُ إلى صدْمَةٍ حين استخرجَ العزيزُ الصُّواعَ منْ رحلِ الأخِ الأصغر.

ثم تحوّلتِ المشاعرُ عِنْدَ مرورِ الصَّدْمَة، وتبدَّلَتِ مِنَ العزةِ والرِفعةِ والأنفة، إلى الصَّغَارِ والضِّيقِ والإحصار.

ثم تصاعدَتْ هذه المشاعرُ لتتحوَّلَ إلى غضبٍ على الأخ الأصغر.

ثم توسَّعَتْ لتَشملَ مِنْ جديدٍ يوسفَ عليه السلام، رَغْمِ غيابه..

---

(١) [سورة البقرة ، الآية: ١٥٥-١٥٦].

ثم اتجهتْ مشاعِرُهم إلى تبْرِئةِ أنفسِهم علناً، بإعلان فضْلِ الأخِ الأصغر عنهم، وإلصاقِ التُّهَمِ بيوسفَ عليه السلام وأخيه.

إلى أنْ يصِلُوا إلى حالة الغَمِّ الشديد، على ما سنَرى في لاحق الآيات.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الأزمات تكشف ما في الصدور، وتفضَح المستور، فما أخفت الوجوه من مشاعر دفينة. تطفو على السطح عند الضيق والإحصار، ثم يعقبها الندم بعد انقشاع عاصفة الغضب. والأولى أن تكون القلوب في الأصل ناصعة بيضاء نقية سمحة، حتى إذا ما جاءت ثورة الإنفعال، كان الظاهر كالباطن، وما وجد الشيطان في النفوس إلا النقاء انكفأ خاسئاً مكسوراً على عقبيه.

٢ - للدلالة على وجوب ضبط النفس حال الإستفزاز، حتى وإن كان الإستفزاز غير محق، لما يستتبع ذلك من الغضب، مع تصاعد حال التوتر بين الطرفين، مما يؤدي إلى مستويات عالية جداً من الحنق قد ينتج عنها ذيول لا تحمد عقباها، غير متوازية إطلاقاً مع مسبب التوتر الأساسي، لكنها فرصة الشيطان اللعين للإيقاع بين الناس بدفعهم إلى مراحل متقدمة في التناحر والتنافر والخلاف، وهذه هي سعادته الكبرى.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٠]

ثم اتجهتْ مشاعِرُهم إلى تبْرِئةِ أنفسِهم علناً، بإعلان فضْلِ الأخِ الأصغر عنهم، وإلصاقِ التُّهَمِ بيوسفَ عليه السلام وأخيه.

إلى أنْ يصِلُوا إلى حالة الغَمِّ الشديد، على ما سنَرى في لاحق الآيات.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الأزمات تكشف ما في الصدور، وتفضَح المستور، فما أخفت الوجوه من مشاعر دفينة. تطفو على السطح عند الضيق والإحصار، ثم يعقبها الندم بعد انقشاع عاصفة الغضب. والأولى أن تكون القلوب في الأصل ناصعة بيضاء نقية سمحة، حتى إذا ما جاءت ثورة الإنفعال، كان الظاهر كالباطن، وما وجد الشيطان في النفوس إلا النقاء انكفأ خاسئاً مكسوراً على عقبيه.

٢ - للدلالة على وجوب ضبط النفس حال الإستفزاز، حتى وإن كان الإستفزاز غير محق، لما يستتبع ذلك من الغضب، مع تصاعد حال التوتر بين الطرفين، مما يؤدي إلى مستويات عالية جداً من الحنق قد ينتج عنها ذيول لا تحمد عقباها، غير متوازية إطلاقاً مع مسبب التوتر الأساسي، لكنها فرصة الشيطان اللعين للإيقاع بين الناس بدفعهم إلى مراحل متقدمة في التناحر والتنافر والخلاف، وهذه هي سعادته الكبرى.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٠]

نتابع معاً أخي المؤمن، هذا الحوارَ الذي يَجْرِي بينَ يوسفَ عليه السلام، وإخوتِه، وقد بَلَغَ الموقفُ القِمَّة في التأزُّم: فالأَخُ الأصغر، تمَّ ضَبطُهُ مُتَلَبِّساً بالسرقة، أمامَ أعينِ الجميع، والحكمُ كانَ قد صدَرَ مُسَبَّقاً مِنْ أفواهِ الإخوة، حين قضَوْا بالاسترقاق. ويوسفُ عليه السلام في طمأنينةٍ وسعادةٍ وحبور، إذ نجَحَت خُطَّته كل النجاح، والإخوةُ في إحصارٍ ما بعدَه إحصار.

فلنتأمَّل الآيتين.

يقولُ الله تعالى في الآيةِ الأولى:

﴿قالوا يا أيها العزيزُ إن له أباً شيخاً كبيراً فخُذْ أحدنا مكانَه إنّا نراكَ من المحسنين﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ افتتاحِ كلامِهم بقولِهم: **﴿يا أيها العزيز﴾** ومع هذه العبارة، نحن نَسْتَشْعِرُ علاماتِ الخضوعِ والذُّلِّ والاستمالة. فنحن لم نَسمَعْهُمْ أبداً، في كلِّ حِواراتِهم السابقة معه، يَفْتتِحون كلامَهم بقولِهم: **﴿يا أيها العزيز﴾**.

ومعلومٌ أنك حين تُخاطِبُ أحداً بمُناداتِه باسْمِه. أو بلقَبه العالي، تكونُ قد مَهَّدْتَ للإعلان عن الرُّضوخِ إنْ كُنتَ سائلاً، وبالوُدِّ إنْ كُنتَ نِدًّا.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قولِهم: **﴿إنّ له أباً شيخاً كبيراً﴾**، وهنا أيضاً، نَلْحَظُ إشارةً جديدةً في الاسترحامِ والاستعطاف.

ولقد استعمَلُوا أشدّ العِباراتِ تأثيراً في النفوس، فقالوا بدايةً: **﴿إنّ له أباً﴾**.

ونحن نعرِفُ معنى إقصاءِ الابنِ عن أبيه، وما في ذلك منْ توليدٍ لمشاعرِ الحرمانِ والفُرْقَة.

لقد وَجَدُوا أنفسَهم في موقعِ مَنْ تَرْتَدُّ إليه سِهامُه، وإنْ عادَتْ إليهم بعدَ وقتٍ طويلٍ مِنْ رميها، والأغربُ من ذلك، أنهم في حضرَةِ مَنْ أطْلَقُوا عليه السِهام وهم لا يَدْرُون: لقد أبعَدُوا يوسفَ عليه السلامُ عَنْ أبيهِ سابقاً، ولم تقُلْ لهُمْ أنفُسهم يومَها إنّ له أباً شيخاً كبيراً.

وها هُمْ اليومَ يطْلُبونَ مِنَ العزيزِ أنْ يشْعُر بما لم يشْعروا به، ويرأفَ بهم، وهم لم يرْأفُوا به.

فَسُبْحانَ الله العظيم، الذي يَرُدُّ كيدَ الكائدينَ في نحورهم، ولو بَعْدَ حين.

ثم إنهم قالوا تتِمّة: **﴿إنّ له أباً شيخاً﴾**.

وذلكَ لدفعِ حالةِ الاسترحامِ إلى مستوىً أعلى، إذ إن الأب الشيخ يَدْفَعُ إلى الرأفةِ والرحمة، أكْثَر منَ الأبِ الشاب.

ثم إنهم قالوا تثبيتاً: **﴿إنّ له أباً شيخاً كبيراً﴾**.

فاستَكْمَلُوا بذلك كلّ مشهدِ الاسترحام، عسى أن يستثيروا بذلكَ كُلّ مخازِن الرحمةِ والعَفْوِ في قلبِ العزيز.

اللطيفة الثالثة: في ملاحظتنا أنَّ الإخوةَ لم يَذْكُروا أنّ أباهُمْ نبي في معْرِض وصْفِهم له، فلقد ذَكَرُوا أنه شيخ، وأنه كبير، وذلك لأمرينِ اثنين:

الأول: لظَنّهم أنّ العزيزَ لا يُدْركُ معْنَى هذا المقام.

والثاني: لاعتقادِهم أنّ الحاجَةِ إلى شَحْذِ أسبابِ الرحمةِ في قلبِ العزيز، تستوجِبُ أوصافَ الضَعْفِ لا أوصافَ القُوّة.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ قولهم: **﴿فَخُذْ أحدَنا مكانَه﴾**.

وهذا قولٌ صعبٌ وجسيم، والوصولُ إليه يستوجِبُ قَطْعَ العديدِ من المراحلِ الصعبة، وسنُحاوِلُ تسَقُّطَها:

فالأخُ الأصغر، محكومٌ عليه بالاسترقاق، باليقينِ القَطْعِيّ.

والاسترقاقُ يَعْنِي أنْ يُصْبِحَ عبداً مملوكاً، يفْقِدُ معها حُرِّيَّته ويصبحُ أسيرَ الذُّلِ والهَوانِ دائماً وأبداً. لا يَمْلِكُ أنْ يتحرَّكَ بِملْءِ إرادتِه: إرادتُه مسلوبة، وعليه السَمْعُ والطّاعة، والعملُ الدائمُ الدؤوب، كيفما شاءَ سيِّدُه، وبالمقدارِ الذي يأمُرُه به.

وهذه حياةٌ صعبةٌ جداً على مَنْ كانَ حُراً سيِّداً.

وهم يُدْرِكُونَ تماماً هذه الحقيقة، إلا أنهم أمامَ حقيقةٍ أخرى أشدُّ مرارةً وصعوبة، ألا وهي حالُ أبيهم، حينَ يَعْرِفُ أنَّ ابنَه الأصغر، الذي بقيَ له مُواسِياً بعدَ فَقْدِ يوسفَ عليه السلام، وكان حريصاً على عدمِ إرسالِه معهم، وأخذَ عليهم العُهود والمواثيقَ بالحفاظِ عليه، واتخَذَ الاحتياطاتِ والإجراءاتِ الكاملة، لضمانِ سلامتِه. لن يعود إليه.

فاعتملتْ في أنفسِهم هذه المشاعر، وتصادَمَ شعورُ الرغبةِ بالحرية، وشعورُ إرضاءِ الأبِ بعودةِ ابنِه الأصغرِ إليه.

فكانَ أنْ غلَبَ لديهم الشعورُ بوجوبِ إرضاءِ الأب، والقَبول بالاسترقاق، ويُعتبرُ هذا سمواً وارتقاءً بالمشاعر لديهم. سينقلُهم مباشرةً إلى مكانةٍ أعلى وأرقى، أمامَ أنفُسِهم، وأمامَ يوسف عليه السلام، الذي سيتلقّى هذه الإشارةَ سعيداً مسْرُوراً، إلا أنه لنْ يُفْصح عنها إلا في حينها.

لقد بلغ الإخوةُ مرتبةً من الصفاءِ والنَّدَمِ، وتأنيبِ الضمير، والتكفيرِ عن أخطاءِ السابق، بأن ارتَضَوا أنْ يكونَ أحدُهم بديلاً في الرقِ عن الأخِ الأصغر، الذي لا يُحِبُّونَهُ أصلاً، مما يجعلُ التضحيةَ مُضاعَفة، كلُّ ذلك، من أجلِ إرضاء الأب، ومنعِ إيذائِه أكْثَر ممّا تأذّى.

اللطيفة الخامسة: في وقُوفنا عندَ قولِهم: **﴿إنّا نراكَ منَ المُحسنين﴾**.

وهذه إشارةٌ سادسةٌ في الآيةِ الواحدة، إلى حالِ الإخوةِ في الاستمالةِ واستدرارِ العَطْفِ والشفقة، حين يمتَدحون يوسفَ عليه السلامُ بقولِهم: إنّا نراكَ مِنَ المُحسنين.

وهذه الشهادةُ صحيحةٌ في حقِّ يوسفَ عليه السلام، ولقدْ قِيلت فيه سابقاً مِنْ نزيلي السجن، حين استفتياه في رُؤْياهما، إذ نسمَعُهما يقولان في الآيةِ السادسةِ والثلاثين من هذه السورة: **﴿نَبِّئنا بتأويله إنا نراكَ من المحسنين﴾**.

وحين نسمعُ التوصيف مِنْ مصدرينِ مُختلفين، لم يلتقيا قبلاً أبداً، ويكونُ مُتَطابقاً، فذاكَ أبْلَغُ برهانٍ على صِدْقِه.

ثم يقولَ الله تعالى في الآيةِ الثانية، موضوع تأمُّلِنا .

﴿قالَ معاذَ الله أنْ نأْخُذَ إلا مَنْ وَجَدْنَا متاعَنا عنده إنّا إذاً لَظَالمون﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ ردّةِ فعلِ يوسفَ عليه السلام، على عَرْضِهم الشديدِ الغرابة، البالغِ شأواً عالياً في التضحية:

لقد رفَضَ رَفْضاً جازِماً قاطِعاً، لا يقْبَل المناقَشة، توكيداً على إقفالِ كلِّ أبوابِ المحاولةِ اللاحقةِ معه. .

وكان هذا الرفضُ على مستوياتٍ ثلاثة:

المستوى الأول: في افتتاحِ عبارتِه بقولِه: **﴿معاذ الله﴾**.

المستوى الثاني: في إعطاءِ القرارِ النهائي **﴿معاذ الله أن نأْخُذ إلا مَنْ وجَدْنا متاعَنَا عِنْدَه﴾**.

المستوى الثالث: بتأكيد العَدْل ودَفْعِ الظُّلم: **﴿إنّا إذاً لظالمون﴾**.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا أنَّ يوسَف عليه السلام، استعاذَ بالله تعالى

وهذه ملاحظةٌ تسْتَوْجِبُ دهشة الإخوةِ الذين يظُنُّونَ أنّ العزيزَ على دينِ الملك، لكننا سبَقَ وأشَرْنا في موضعٍ آخرَ، أنّ الإخوةَ في هذه الأثناء، كانوا في حالٍ منَ الإغلاقِ، يحْجُبُ عنهمُ التساؤل.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ خُلاصة ما وَصَلَ إليه يوسُف عليه السلام، في هذه اللحظات، من نتائج في تحقيقِ خُطَّتِه:

فلقد تَمّتِ المراحلُ بالكامل، كما خَطَّط لها بدِقّة، وفي هذا سرورٌ وبهجة.

وحمَل الإخوةَ على اجتيازِ مرحلةِ الصراعِ النفسيِّ الشديد، والانتهاءِ إلى تغليبِ الإيثارِ على الأثَرَة.

فيكونُ بذلك، قد صَقَلَ نفوسَهم، ونَظَّفَها مما عَلِقَ بها من نَوازِع الحسَدِ والكُرْه، واستبدَلها بمشاعر التضحية..

فيمكِنُه بالتالي أنْ يبدأ مرحلةَ الاستعادةِ الكاملة، ولا يزالُ دُونَها بعضُ الوقت.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على سرعة انقلاب النفس الإنسانية، من حال الثبات والتمكن إلى حال الضعف والإهتزاز، خصوصاً إذا كانت قد اقترفت عملاً يخرج عن الإستقامة، وهذا هو حال الناس حين يفقدون سندهم المادي أو المعنوي، والعزة لا تكون إلا بالله تعالى فمن اعتز بالله تعالى فهو دائماً عزيز ولا يصيبه الهوان.

٢ - للدلالة على أن التوبة النصوح تطهر النفس وترفعها إلى إبعاد عالية من الصفاء والنقاء والإستعداد بالتضحية بأغلى ما تملك، إلا وهي الحرية، وهذه التوبة النصوح لا تحتاج غالباً إلى وقت وجهد وتفكر وتحليل، بل تحتاج إلى قرار رشيد سريع بالإنتقال من معسكر الشر إلى معسكر الخير، فتعمر في لحظات، بمشاعر الغبطة والسعادة والإيثار.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦١]

تُتابِعُ معنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، وصْفَ تَبَدُّلِ حال إخوةِ يوسفَ عليه السلام، بعدَ أنْ رفضَ يوسفُ عليه السلامُ عرْضَهم بأخْذِ أحدِهم بدلاً عنِ الأخِ الأصغر، وكنا قد عَلِمْنا كيف أنّ يوسفَ عليه السلام. بكلماتٍ وجيزة، وضَعَ الحدّ الفاصِلَ أمامَ مُحاولاتِهِمُ الحثيثة، بإقناعِه بقبولِ البدل.

فلنتأمَّلِ الآية الكريمةَ معاً.

يقولُ الله تعالى: **﴿فلمّا استيأسُوا منه خَلَصُوا نجِيًّا﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: لُغوية، في وقوفِنا عندَ كلمةِ: **﴿استيأسُوا﴾** أي أصابَهُم اليأسُ مِنْ إمكانية إقناعِ يوسفَ عليه السلام. وهي تحملُ المعنى المرادَ نفْسَهُ من كلمةِ يئِسُوا، إلا أنّ وُرودَهَا في الآيةِ بصيغةِ استيأسوا، أبلغُ وأدَقُّ معنى:

فزيادَةُ السينِ والتاء، جاءَتْ لإعطاءِ صيغةِ المُبَالغة، تماماً كما لحظْنَا عندَ وقوفِنا في أولِ السورة، عند قول الله تعالى، على لسانِ امرأةِ العزيز الذي تربى يوسفُ في بيته في الآية الثانية والثلاثين: **﴿ولقد راوَدْتُه عَنْ نفسِه فاستعصم﴾** أي بالَغَ في العِصمةِ والتّمنُّع.

وهنا نفْهَمُ أنَّ إخوةَ يوسفَ عليه السلام، أيقَنُوا أنه لا مجالَ إطلاقاً لإقناعِ العزيزِ بالاستبدال.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى **﴿خَلَصُوا نجِيّاً﴾**.

فنَلْحَظُ جماليّةً لُغويةً نادِرَة، وذلك بإيراد صيغة المفردِ لشرح حالِ الجَمْع: فالذين خلَصُوا هم إخوةُ يوسفَ عليه السلام، أي اختَلَوْا بأنفسِهم، وابتَعَدُوا عنِ الجَمْعِ، وانفردُوا عَنْهُم.

وحين نقولُ **﴿نجِيّاً﴾** أي ذَهَب بنفسِه إلى النَّجْوَى.

ولسانُ حالِ الآية: أنَّ إخوةَ يوسفَ ابتَعَدُوا عنِ الجمعِ ليتَنَاجَوْا فيما بينهم.

إلا أنّ اللغة العربية تَنفَرِدُ ببلاغتِها حينَ تسْمَحُ في سمو لُغوي، أنْ تأتِيَ صفةُ الجمعِ مُفْرَدَة. والأمثلةُ في القرآنِ الكريمِ عديدة:

فنحن نقرأُ في الآيةِ الرابعةِ من سُورةِ التحريم: **﴿والملائكةُ بعدَ ذلك ظهير﴾** ونَسْمَعُ قولَ إبراهيمَ عليه السلام، في الآيةِ السابعةِ والسبعين من سورةِ الشعراء: **﴿فإنَّهُمْ عدوٌ لي إلا ربَّ العالمين﴾**.

اللطيفة الثالثة: في وقُوفنا عندَ الإعجازِ القرآني في الإيجاز. ففي هذه العبارةِ الوجيزة: **﴿فلمّا استيأسُوا منه خَلَصُوا نجِيًا﴾** نلْحَظُ الغِنَى الشديد في المعاني، ونَفْهَمُ:

أنَّ إخوةَ يوسفَ عليه السلام، أصابَهُم اليأسُ والقُنوتُ والإحباط. وشعَرُوا أنفسَهم على كثرتِهم، عاجزينَ عنْ إقناعِ العزيزِ بخُطورةِ الموقفِ الذي هُمْ فيه.

فَعَمَدُوا إلى الابتعادِ عنِ المجلس، وأظْهَرُوا الرغبة بإيجادِ جو مؤاتٍ من الهدوءِ بعدَ تلكَ العاصِفةِ من الحقائقِ والمواقِفِ.

وأرادُوا منْ هذا الابتعادِ، عقْدَ جَلْسَةِ تشاوُرٍ وتباحُثٍ فيما بينهم، يتبادَلُون فيها الآراءَ والأفكار، عسى أنْ يَصِلُوا إلى حلٍّ لهذه المُعْضلة، التي تبْدُو بلا حَلّ.

وأنَّ يوسفَ عليه السلام، مَهَّدَ لَهُمْ سبيلَ عقْدِ مِثْلِ هذا المجلس وسنَلْحَظُ مُباشَرةً أنه ابتعدَ بسلاسَةٍ ويُسْرٍ عَنْ أحداثِ المشهدِ اللاحق، دونَ لفتِ انتباهِ القارىء أو المُسْتَمِع.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قال كبيرُهم ألم تعْلَمُوا أنّ أباكم قد أخَذَ عليكُم موْثِقاً مِنَ الله ومِنَ قبلُ ما فَرَّطْتُمْ في يوسُف﴾**.

في هذا الشطر مِنَ الآية، لطيفتانِ اثنتان:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا للأسلوبِ الذي اعتَمَدَهُ الأخُ الكبيرُ في تقييمه للوضع، فهو لم يَقْتَصِرْ على المشكلةِ الحالية، بل عادَ بِهم إلى الماضي البعيد، إذ أعَادَ تذْكِيرَهم بتفريطِهم بيوسفَ عليه السلام، وكأنّه بذلك يُجْري تقييماً شامِلاً لسُلوكِهم منذ ذلكَ الوقت، وكأنّه بذلكَ يتَعَمَّدُ مُحاسَبةَ نفْسِه، ومراجعةَ ذاتِه، وإيقاظَ ضَميرِه، ويُحدِّدُ مُوجباتِ التصرُّفِ حِيالَ ما التَزَمُوهُ مَعَ أبيهم، إذ عاهَدُوهُ وأعْطَوْهُ الموثِقَ مِنَ الله تعالى، وهو يَعْلَمُ أنَّ الضميرَ وإنْ نامَ عِنْدَهُم رَدْحاً طَويلاً، فَهُوَ لم يَمُت.

اللطيفة الثانية: في لَحْظِنا لأدبِ الحوارِ الذي يتَحلّى به الإخوة، وقد أخذُوهُ عَنْ يعقوبَ عليه السلام، فإذا ما تكَلَّمَ كبيرُهم، سَكَتَ الجميعُ وأنصتوا، وذلك تعليمٌ لنا وإرشاد.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ الأخِ الأكبر: **﴿فلن أبْرَحَ الأرضَ حتى يأذَنَ لي أبي أو يَحْكُمَ الله لي وهو خيرُ الحاكِمين﴾**.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في جَماليةِ الصُّورةِ التي تَحْمِلُها إلينا عِبارة: **﴿فَلَنْ أبْرَحَ الأرض﴾** وهي تُصَوِّرُ لنا ما اعتَزَمَ الأخُ الأكبرُ فِعْلَه. وقد حاكَمَ نفْسَه بنفسِه،

وأصْدَرَ على نفسِه الحُكْم بالإقامةِ الجبرية، كما نُسَمِّيها في أيامِنا الحالية، أو السَّجْنِ الذّاتي. ونتصوّرُهُ بذلك وقد حَرَمَ نفسَه مِنْ أثمنِ وأغْلَى ما يَسْعَى الإنسانُ إلى تحقيقِهِ في سعيِه الدُّنْيَوِيّ، ألا وهِيَ الحرية، وهذا مِنْ أغربِ ما سَمِعْنا مِنْ أحكام.. وتشتدُّ بنا الغَرابة، حينَ نتذَكَّرُ أنه لم يَرْتَكِبْ ذَنْباً في الواقعةِ الحالِيّة، إلا أنه تأْديبُ النّفسِ وتأْنيبُ الضمير، والرغبةُ بالتكفيرِ عنِ الإساءةِ إلى يوسفَ عليه السلام، في الماضي، وتطهير النفس ممّا عَلَقَ بها مِنْ شوائب.

اللطيفةُ الثانية: في وقوفِنا عندَ وُضوحِ الرُّؤيا التي أظْهَرها الأخُ الأكبر، عند هذه المرحلةِ مِنْ مَراحِلِ مِحْنَتِهِم: لقد أضْحَى يَرى الأُمورَ بشفافِيَّةٍ وجلاءٍ تام:

فهو يعلَمُ أنه أساءَ إلى أبيهِ في الماضي، حين انتَزعَ يوسفَ عليه السلامُ منه.

وهو يعلمُ أنه أساءَ إلى يوسفَ عليه السلام، حين أبعدَهُ وألقاهُ في الجُبّ.

وهو يعلمُ أنّ الإساءةَ إلى الأبِ ستكونُ أشدَّ حين يَعْلَمُ أنهم لنْ يعُودُوا بالأخِ الأصغر، وبالتالي فهذا نقضٌ للميثاق.

وحَدَّدَ أصحابَ الحق: أبوه، ويوسفُ الغائبُ عليه السلام.

والله تعالى هو وَلِيُّ يوسفَ عليه السلام، وهو وَلِيُّ المتقين.

فكان جوابُه: ﴿**لن أبْرَحَ الأرضَ حتى يأْذَنَ لي أبي**﴾ صاحبُ الحقِّ الأول، ﴿**أو يَحْكُم الله لي**﴾أي: وليُ صاحب الحقِ الثاني.

اللطيفة الثالثة: في قولِه: ﴿**وهو خيرُ الحاكمين**﴾.

وهو يُعَلِّمُنا بهذا كيفية التسليم المُطْلَقِ إلى الله تعالى، والتوكُّلِ عليه، حين يشتدُّ بنا المُصاب، وتعزُّ علينا الحلُول، ونفْقِدُ القُدرة على التصرف، فعندَ الله تعالى نجِدُ الملاذ، وهو وَلِيُّنا لا مَوْلَى لنا سواه..

ولنا أنْ نتساءَلَ في نهايةِ تأمُّلِنا لهذه الآية: أيُّ الحلولِ أفضلُ للإخوة، وما لهم أنْ يفعلوا في مثلِ هذا الموقف؟

فلو تصَرَّفُوا جميعاً كما قَرَّرَ كبيرُهم، وأجْرَوْا على أنفسِهم الحكم ذاتَه الذي قَرَّره كبيرُهم، بالإقامة الجبرية، لمَا عَادَ منهم أحدٌ إلى أبيهم، وفي هذا اشتداد الغَمِّ عليهِ بِفَقْدِهِم جميعاً.

ولو عادَ بعضُهم وبَقِيَ بعض، لحصَلَ الشتاتُ وضعُفَ الرأي والإرادة، وبَلَغَ الغَمُّ الأبَ مبْلَغاً عظيما.

يُضافُ إلى ذلك كُلِّه، أنَّ المُؤن لم تُحَصَّلْ بعد، وهُمْ إنْ عَادُوا على حالِهم تلك، فستكُونُ خسارَتُهم أعظمَ وأشدّ مِنَ الرحلةِ السابقة.

فكيفما كانتِ الخيارات، فأهونُها صَعْبٌ مُرُّ المَذَاق.

لكنَّ الله تعالى أعدّ لهم، عِنْدَ توبتهم، أفضلَ مِنْ كُلِّ هذه الخيارات.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب احترام الأخ الأكبر عند اجتماع الأخوة، وهو من الأدب القرآني الذي نتعلمه، ففي حضور الأب، يكون هو كبير المجلس، فلا يتقدم عليه بالكلام، وعند غيابه، يكون الأخ الأكبر هو كبير المجلس وهو يتقدم بالكلام.

٢ - للدلالة على أن الضمير في الإنسان لا يموت، حتى وإن طال سباته، وكم كثيرة هي الأحداث التي تقع بين الناس، يأكل بعضهم حقوق البعض، ثم يدور الزمان دورته، فلئن وجد هذا الضمير النائم ما يوقظه ويعيده إلى الحياة، نراه متأثراً بما فعل، نادماً تائباً مستغفراً: السعيد هو من يستطيع أن يعيد إلى صاحب الحق حقه في الدنيا، أو يستسمحه أن أعسر عليه الرد والخائب من غيبه الموت قبل يقظة ضميره، فعليه أن يواجده يوماً صعباً جداً بين يدي الله عز وجل، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ثم يقول الله تعالى:

﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٢]

نتابعُ معاً أخي المؤمن، تطَوُّر الأحداثِ في قصةِ يوسفَ عليه السلام. وقد وصلتِ الأُمورُ إلى قمةِ التأزُّمِ في حقِ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، إذ اشتدَّ الطَوْقُ حَوْلهم، ولم يتمكّنُوا مِنْ تحقيقِ شيءٍ مما جاؤُوا لأجلِه، بل على العكس، تعقَّدتِ الأُمورُ إلى مستوىً لم يظُنُّوا أبداً أنها ستصِلُ إليه:

فلا هُمْ حَصَّلُوا المُؤَنَ التي أتَوْا مِنْ أجْلِها.

ولا هم أوْفَوْا بمَواثيقِهم وعُهودِهم لأبيهم.

ولم يستطيعوا حِفْظَ أخيهم الأصغر.

ولم يستطيعوا إقناع العزيزِ بأخذِ أحدِهم مكانَه.

وهذا ما دَفَعَ الأخ الأكبر إلى اتخاذِ قرارِ المكوثِ في أرضِ مِصْر، كبادرةِ إعلان فقْدِ الحيلة، وخُلُوِّ جعبته منَ الحُلول، فأوْكَلَ أمره إلى الله تعالى، أو إلى ما يقْضِي به يعقوبُ عليه السلام، وها هُوَ ذَا يُملي على الإخوةِ الباقين كيفية التصرُّف.

فلْنتأمَّل الآية الكريمة.

يقولُ الله تعالى على لسانِ الأخِ الأكبر: **﴿ارجِعُوا إلى أَبيكم فقولوا يا أَبانا إنّ ابْنَكَ سرق وما شَهِدْنَا إلا بما عَلِمْنَا وما كُنا للغيبِ حَافِظين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في وُقوفِنا عندَ كلمة: ﴿**يا أبانا**﴾، وهي تكرارٌ لقولِه، ﴿**ارجِعُوا إلى أَبيكم**﴾، ولو قال: ارجعُوا إلى أبيكم فقولوا له إنّ ابْنَكَ سرَقَ، لتمّ المعنى، ونحن نعرفُ أَنَّ مِيزةَ آياتِ القرآنِ الكريم هي الإعجازُ في الإيجاز، فلماذا تَكَرَّرَ ذِكْرُ الأبِ في العِبارةِ الواحدة؟.

الجواب هو أنّ أدَب الخطابِ مُقَدَّمٌ على الإيجاز، فالأَخُ الكبير، حتى حالَ غِيابِ الأَبِ يعقوبَ عليه السلام، يتأدّبُ في إرسالِ الخطابِ إليه، وهو يُعَلّمُنا بذلك كيفيةَ التصرُّفِ معَ الآباء، سواءٌ كانوا حَاضِرين أم غائبين.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لدقةِ العبارةِ في قوله: ﴿**إنّ ابنَكَ سرق**﴾ ومعلومٌ أنّ هذا الابنَ المقصود، هو أحدُ أبناء يعقوبَ عليه السلام، وهو أحدُ الإخوة، فإذا بهم يُفْرِدُونَه وكأنهم يقولون: إنّ ابنَكَ الذي ميَّزْتَهُ عَنّا، فصَارَ يُشارُ إليه بالابن، قد سرَقَ.

والهدفُ من هذه العبارة، ذو دِلالةٍ عالية:

فلقد أرادَ الأخُ الكبير جَعْلَ محورِ الخطابِ - جُرمِ السرِقة - سبب عدمِ عودةِ الأخ الأصغر.

وهو لم يقُلْ: قُولوا يا أبانا إنَّ أخانا الأصغر لم يَعُد معَنا. بل لم يَذْكُرْ على الإطلاق عدمَ العودة.

وأحالَ على يعقوبَ عليه السلام، استنتاجَ عدمِ العودةِ التِلْقائيِّ، بسبب جُرْمِ السرقةِ الذي بَادَرُوا بِذِكْرِه، ولسانُ حالهم يقول: إنّ ابْنَكَ سرَقَ، وبطبيعةِ الحال هو لم يَعُدْ معَنا.

اللطيفة الثالثة: في ما نَلْحَظُه مِنَ تخفيفٍ لحدةِ الإعلامِ بقولِهم: ﴿**وما شهِدْنا إلا بما عَلِمْنا**﴾.

فبعد أنْ أوْصَلُوا الخبر الصَاعِقَ بحصُولِ السرقة منْ قِبل الابن الأصغر.

سارَعُوا إلى النّأي بأنفُسِهم عَنْ هذا الحَدَث، وأعلنُوا أَنهم ليسوا في هذه المسألة إلا مشاهدِين نَاقِلين، لا يَدَ لهُم فيها إطلاقاً.

وإنَّ هذا الذي يقولون، لا يتجاوَزُ ظاهِرَ الأُمور، مما يترُكُ البابَ مفتوحاً أمامَ وجودِ أملٍ بعدمِ إقدام الأخِ الأصغرِ على السرقةِ في نظَرِ أبيهم.

وهذا الأُسلوبُ التخفيفيُّ مندوبٌ في نَقْلِ الأخبارِ والإعلامِ بينَ الناس. وأصحابُ الحِسِّ المُرْهَف، والذوقِ السليم، يعرفون كيفَ يتعاملون به.

ولقد كانَ الأخُ الكبيرُ على هذا المستوى مِنَ الفَهمِ والوعي، فحينَ برَّأَ نفْسَهُ وإخوته مِنْ مسْألةِ عدم عودةِ الأخ الأصغر، بذِكْرِ ما حبَسَهُ عنِ المجيء. سارَعَ إلى التعقيبِ بأنَّهُمْ حَكَمُوا على ظاهر الأُمور، لعدمِ معْرِفَتِهم بكوامنها، وتَرَكُوا ليعقوبَ عليه السلامُ تقديرَ صحةِ المعلومةِ المنقولة..

اللطيفة الرابعة: لُغوية، في وقوفِنا عِنْدَ عبارة: ﴿**وما كُنّا للغيبِ حافظين**﴾.

وأصلُها: وما كُنّا حافِظينَ الغيب.

فَدَخَلتِ اللامُ على الغيبِ للتقوية، فأصبَحَتْ. وما كُنّا حَافِظِينَ للغيب.. ثم حَصَلَ تقديمٌ وتأخيرٌ فأصبَحَتْ: وما كُنَّا لِلغيبِ حافظين. وهذه أجْمَلُ وأبْهى.

اللطيفة الخامسة: في تأمُّلِنا لغنى المعنى الذي تسُوقُه عِبارة: ﴿**وما كُنّا للغيبِ حافِظِين**﴾.

فلقد ترَكَ الإخوةُ هذه العِبارَة مُعَلَّقةً ولم يَنْسبُوها إلى حَدَثٍ مُعيَّن. والحقيقةُ أنهم يقصِدُونَ كُلَّ الأحداث التي حصَلَتْ معَهم، وهم يُقِرُّونَ بالواقع، ويَدْهَشون مِنه:

وَلِسانُ حالِهم يقول:

لم نَكُنْ نَعرِفُ أنه سارِقٌ بالفِطْرة.

ولم نَكُنْ نعْرِفُ أنه سيسرِقُ صُواعَ الملِك.

ولم نَكُنْ نعْرِفُ حين أعطيناكَ الميثاق، أنه سَيَسْرِق.

ولم نَكُنْ نعرِفُ أنَّ الأُمُور ستسِيرُ على هذا المِنوال، حين أعطَيْنَا حُكْمَ الاسترقاقِ على مَنْ يُوجَد الصُّوَاعُ في رَحْلِه.

ولم نَكُنْ نعْرِفُ أنَّ الأُمورَ ستُؤدِّي إلى عدمِ مجيءَ الأخِ الأصغرِ معَنا، فتُصَابُ بهِ كما أُصِبتَ بيوسفَ عليه السلام.

كُلُّ هذا في حقِّهم، وصحيحٌ أنهم لا يعرفونَ الحقيقة، وستَنْجَلي لهُم لاحقاً.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ الأخِ الأكبر:

﴿واسأل القريةَ التي كُنّا فيها والعير التي أقْبَلْنا فيها وإنّا لصادقُونَ..﴾

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قولِه: **﴿واسأل القريةَ التي كُنَّا فيها..﴾** وفي هذه العبارة، إضمارٌ ومَجاز.

والمقصودُ بقولِه: وإذا أردْتَ التأكُّدَ مِنْ صِدْقِنا، فاسْأل أهلَ مِصْرَ حيثُ كُنّا، فَهُمْ شَهِدُوا حادِثَة السّرِقة، وهم يُؤَيِّدُون أقوالَنا بشهادَتِهم..

فَحَذَفُوا المسؤولَ عَنْه، لحصولِ العِلْمِ بهِ، وأعْمَلُوا المكانَ مجازاً، فارتَقَت العبارةُ بجماليةٍ لُغويةٍ لافِتة.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قولِه: **﴿والعير التي أقبَلْنا فيها﴾**.

أمّا هنا، فلا إضمارَ ولا مَجاز، ولكنْ إحالةٌ على موقعِ النُبوَّة.

وتفسيرُه:

يَقْبَلُ المنطِقُ أنْ يستَدِلَّ الإخوةُ بأهلِ مصر، لتثبيت صحةِ أقوالِهم. وإنْ تكُنْ هذه الإحالةُ افتراضِيَّة، لصعوبةِ تحقيقِها في حقِّ يعقوبَ عليه السلام. وهو على هذا البُعْدِ الشاسع عنْ مِصر، إلا أنها قابلةٌ للتحقيق.

إلا أنَّ العيرَ لا يُمْكِنُ سُؤالُها في واقِعِنا البشرِيّ، ولقد يُقال: قد يكونُ معَ العِير رجالٌ غيرَ إخوةِ يوسف. وإنما قَصَدَ الإخوةُ هؤلاءِ الرجال، فيقعُ مجازٌ وإضمارٌ كما الحالُ معَ القرية.

إلا أنَّ تتِمّة الآية، والآيةَ اللاحقة، تنفي هذا الاحتمال، لأنّ سؤالَ الرجالِ سهلٌ وفي مُتناوَل اليد، حالَ وُجودِهم.

إلا أنّ قولَ يعقوبَ عليه السلامُ في الآيةِ اللاحقة: **﴿بل سَوَّلَتْ لكُمْ أنفسكم أمراً﴾**، يُشِيرُ إلى عدمِ حصولِ التصديق، لانعدامِ وجودِ الشهودِ حقيقةً، فسَقَطَ احتمالُ وُجودِهم.

وبالتالي، فالمقصودُ بقولِهم: **﴿والعير التي أقْبَلْنا فيها﴾**:

أنه يا أبانا، وبحثاً مِنّا عنْ دليلٍ حسيٍ يُؤازِرُ قَوْلَنا ويُثبته، بإمكانِكَ بما فضَّلَكَ الله تعالى، بفضلِ النبوة، أنْ تسألَ الله تعالى، أنْ يَخرِقَ لك العادة، فيصِلَكَ عِلْمُ من هذه العيرِ التي شَهِدَتْ واقعةَ السّرقة، على صِدقِ حديثِنا.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ قولِهم: **﴿وإنّا لِصَادِقُون﴾**.

وفي هذا تاكيدٌ على صِحةِ ما جاؤوا به مِنْ أخبار، لحاجَتِهِمُ القُصْوَى إلى تصديقِ الأبِ لمقولتِهم، ولعِلْمِهِم بضَعْفِ أدِلَّتِهم، وهذا ما أشَرْنَا إليه آنفاً..

اللطيفة الرابعة: في لَحْظِنا لهذا الانتقالِ المُذْهِش، غيرِ المُعْلَنِ عنه، إلى مجلسِ الأبِ في هذه اللحظات، وقد انتقلتِ الآيةُ بالمشهدِ مِنْ مصرَ إلى مجلسِ الأب، دونَ انتباهٍ منّا، فإذا بنا نُتابعُ حديثَ الإخوة، وهم معَ أبيهم دونَ أنْ تُعْلِمَنَا كلماتُ الآياتِ بهذا الانتقال، بل سَنَكْتشِفُهُ نحنُ حينَ نسْمَعُ بَدْءُ الحوارِ معَ يعقوبَ عليه السلامُ مباشرةً، في الآيةِ التالية.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب تعليق الإخبار عن أمرٍ ما على صحة الرؤية وما وصل إلينا بموجب ما نملك من حواس وهذا هو التصرف الأنسب والأحوط، لعدم يقيننا بأن ما نخبر به هو عين الحقيقة، ولا حاجة بنا إلى التشبث بالحكم الجازم على صحة ما وصلنا، لإحتمال عدم مطابقته تماماً للحقيقة.

٢ - للدلالة على وجوب الأدب مع الوالدين، سواء في حضورهما، أو في غيابهما، أو بعد موتهما، وأبناء يعقوب يعطوننا المثال الجميل في التأدب بالخطاب مع أبيهم، وهو غائب عنهم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٣]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، لتصِفَ لنا حالَ يعقوبَ عليه السلام، بَعْدَ أنْ وصَلَتْهُ أخبارُ السّرِقَةِ، والاحتجاز، وما آلَ إليه أمرُ كبير أبنائه، بالبقاء في مِصْر، وها هُمُ الأبناءُ في حضرَته، وقَدْ ألْقَوْا معَاذِيرَهُم وهُمْ يَنْتَظِرُونَ قولَه وحُكْمَه..

فلْنستمعْ إلى الآية الكريمة، ولنتأمَّلْها .

يقولُ الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام: **﴿قال بل سَوّلَتْ لَكُمْ أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميل﴾**.

في هذا الشطر من الآية لطائفَ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ هذه العِبارةِ المفصَلِّيةِ الأساسية. التي سَبَقَ أنْ سمِعْنَاها منه حَرْفاً بحرف، حين جاءَهُ خبَرُ فَقْدِ يُوسفَ عليه السلام، في أوّلِ السورة. إذْ نقرأ في الآيةِ الثامِنَة عشْرة: **﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لكم أنفُسُكُمْ أمراً فصبرٌ جميل﴾**.

وهذا مِنْ جمالِ أُسلوبِ السَرْدِ القرآنيّ، تَطْمئِنُّ به نفْسُ القارىء والمستمع، وتَسْتَشْعِرُ بالتناسُقِ التامِّ بينَ آيِ القرآنِ الكريم، حتى قَبْلَ الانتباهِ إلى المعْنَى الذي تَحْمِلُه هذه الآيات.

اللطيفة الثانية: في إجرائنا لمُقَارَنَةٍ بينَ حالِ نبيِّ الله تعالى، يعقوبَ عليه السلام، في كِلا الموقفين. فنَجدُ ما يلي:

في الموقفِ الأوّل، يومَ فقْدِ يوسفَ عليه السلام:

لم يأتِه إعلامٌ منَ الله تعالى، رَغْمَ أنه نبي، تدليلاً على بشرِيتِه، وهذا ما لم يَفْهَمْهُ كثيرٌ مِنَ الخَلْق، في تعامُلِهم مَعَ أنبياءِ الله تعالى ورُسُلِه.

ولقد ساوَرَهُ الشَكُّ في صِدْقِ الأبناء، وكان شَكُّهُ صحيحاً واقِعاً في مكانِه.

ولقد جاؤُوه بأدِلّةٍ حسّيةٍ بإراقةِ الدمِ الكَذِب على قميصِ يوسفَ عليه السلام، أرادُوا منها شَاهِداً على صِدْقِهِم.

ولم يكُونُوا صادِقين في أقوالِهم، ودَعَمُوا كلامَهم بقولِهم: **﴿وما أنت**

بمُؤْمنٍ لنا ولو كُنّا صادِقين..﴾[١].

أمّا في الموقفِ الثاني، يومَ فقَدَ ابْنَه الأصغر:

فهنا أيضاً لم يأتِه إعلامٌ مِنَ الله تعالى عَنْ مصيرِه.

ولقد ساوَرَهُ الشكُّ في صِدْقِ الأبناء. وكان شَكُّهُ في غيرِ موْضِعِه.

ولقد صَدَقُوه حقاً، وأنّى له أنْ يُصَدِّقُهم حقّا.

وما استطَاعُوا أنْ يأْتُوا بالأدلةِ الحسيّةِ المُقنّعة.

إلا أنهم قالُوا هذه المرة: **﴿وإنّا لصَادِقُون﴾**.

اللطيفةُ الثالثة: في لحظِنا لقوةِ إيمانِ يعقوبَ عليه السلام بنُصرةِ الله تعالى له، ومتانَة هذا الإيمانِ في قَلْبه. فعلى الرغمِ مَنْ فَقْدِ يوسفَ عليه السلام، وما يُمَثِّلُهُ من أهميةٍ بالغةٍ في حياتِه قال: **﴿فصبرٌ جميل﴾**[٢] ولقد صَبَر حقّاً وصِدْقاً، ثم إنه لمّا جاءَهُ خبرُ فقْدِ ابنِه الأصغر، قال: **﴿فصبرٌ جميل﴾**.

كم نَجِدُ مثلَ يعقوبَ عليه السلام، في احتسابِه وصَبْرِه؟ قليلٌ جداً مِنَ الناسِ الصّبور.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام: **﴿عسَى الله أنْ يأتِيَنِي بهم جميعاً إنه هو العليمُ الحكيم﴾**.

في هذا الشطرِ مِنَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا لدقةِ العبارةِ القرآنية، فيما ذَكَرَهُ يعقوبُ عليه السلام وهو يخَاطِبُ أبناءَه إذْ قال: **﴿عَسَى الله﴾**.

وهذا أدَبٌ جَمٌّ معَ الله تعالى. فهو لم يَطْلُبْ مِنَ الله تعالى أنْ يُعيدَ إليه

(١) [سورة يوسف، الآية: ١٧].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ١٨].

أبناءَه، ولو شاءَ لفعلَ ذلكَ منذُ زمنٍ طويل، يومَ أنْ فَقَد يوسفَ عليه السلام، وقَبِلَ قضاءَ الله تعالى، صَابِراً مُحْتَسِباً.

ولمَّا اشتَدَّ عليه الغَمُّ مع هذه الواقعةِ الجديدة، تمنّى أنْ يَجْرِيَ قَضَاءُ الله تعالى مَجْرَاهُ في اتجاهِ عَوْدَةِ الأبناء، يَحْدُوهُ في ذلك نباهَتُه في التقاطِ الإشارات.

وأهمُّ هذه الإشارات، هي رُؤْيا يوسفَ عليه السلام، حينَ كانَ صغيراً، كما مَرَّ معَنا في أوّلِ السُّورة، وهو مؤمنٌ بِصِحَّتِها وصِدْقِها، وقد عَلِمْنَا أنَّ الله تعالى قد أنْعَمَ عليه بتأويلِ الرُّؤى، كما أنْعَمَ على يوسف عليه السلام.

ولقد رأى يوسفُ عليه السلامُ أحَد عشَر كَوكباً، والشمسَ والقَمَر رآهُم له سَاجِدِين. ولمّا لم تتَحَقَّقْ هذه الرؤيا بعد، فهو يَنْتَظِرَ تَحَقُّقَها.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قولِه: ﴿**جميعاً**﴾.

ولقد يتَبادَرُ إلى ذِهْنِنا أنَّ يعقوبَ عليه السلام، قَصَدَ بقولِه جميعاً، المفقودين: يوسفَ وأخاه الأصغَر، وإذاً لكانَ حصَلَ المعنى بقولِه: عسى الله أنْ يأتِيَني بهما، بالتثنيةِ لا بالجمع.

إلا أنّ يعقوبَ عليه السلام، كانَ أرْأفَ وأرْفَق، إذ إنه لم يَنْسَ ابنَهُ الأكبر، الذي لم يَعُدْ هُوَ أيضاً معَ إخوتِه، فكانَ مَعْنِيّاً هو أيضاً بقولِه: ﴿**عسى الله أنْ يأتِيَنِي بهم جميعاً**﴾.

ولَنَا أنْ نَسْأَلَ: أليسَ في غِيابِ الأخِ الأكبر، دليلٌ يُقَوّي ادِّعَاءَ الإخوة، ويَدْعَمُ صِدْقَهم في رِوايتِهم لِمَا حَدَثَ معَهم في مِصْر، وقَرارُ الأخِ الأكبرِ بالبقاءِ في مِصْر، تَعبيرٌ عَنْ تمَسُّكِه بالتزامِه بمِيثاقِه أمامَ أبيه، بالحفاظِ على أخيه.

فيأتِي الجواب: بَلْ هُوَ الدليلُ الحِسيُّ على عَدمِ صِدْقِ الأبناءِ فيما ذَكَرُوه عنْ مصير يوسفَ عليه السلامُ، في الماضي، حين ادَّعَوْا أنَّ الذِئْبَ قَدْ أكَلَه، ولقَدْ أعطى الله تعالى يعقوبَ عليه السلامُ مِنَ النجابةِ والنَّبَاهَة، ما مَكَّنَهُ مِنَ التقاطِ هذه الإشارة، وتعزيزِ آمالِه ببقاءِ يوسفَ عليه السلامُ حَيّاً. .

ما كانَ للابنِ الكبيرِ أنْ يَبْقَى في مِصْر، لولا تأنيبُ الضميرِ، الذي انتابه، وتَوْقُه إلى التوبة، وطَلَبُهُ للمغفرة، وهذا أصْدَقُ إنباءً مِنْ كلِّ كلامٍ سابقٍ ذَكَرُوه.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عِنْدَ ما ذَكَرَ يعقوبُ عليه السلام، مِنْ أسماءِ الله الحُسْنَى. فلقد قال: ﴿**إنه هو العليمُ الحكيم**﴾.

ولقد اعتَدْنَا على سماعِ خِتامِ الآياتِ المماثلة، بقولِ الله تعالى: إنه هو السميع العليم.

أمَّا هنا فنَقرأ: ﴿**إنه هو العليمُ الحكيم**﴾.

وتفصيلُه: أنَّ يعقوبَ عليه السلام، لم يَطْلُبْ مِنْ الله تعالى أنْ يفْتَح لَهُ الغيب، لمعرفةِ مَصيرِ أبنائه، بل سلَّم أمرَه كُلَّه إليه، ولم يتوَجَّهْ بالدعاءِ لِيَخْتِمَ بالقول: إنه هو السميعُ، بل توَجَّهَ بالتسليم والتَّوَكُّل، يُريدُ أنَّ الله تعالى يَعْلَمُ الغَيبَ كُلَّه، وله الحِكْمَةُ المُطْلَقَةُ في كلِّ ما يشاء، فكانَ قولُه: ﴿**إنه هو العليمُ الحكيم**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الصبر عند الصدمة الأولى، وها هوذا يعقوب عليه السلام، يعطينا المثال تلو المثال: فلقد صبر عند فقد عزيزه الأول يوسف عليه السلام، وها هو يصبر عند فقد عزيزه الآخر ابنه الأصغر، وهو مصاب جلل. ولنا في أبنياء الله تعالى أسوة حسنة وعلينا أن نتصرف بما يرضي الله تعالى عند حصول المصاب.

٢ - للدلالة على وجوب عدم قطع الأمل، أو اليأس من رحمة الله تعالى، مهما كانت الأحوال سيئة حال وقوع المصاب، فالله تعالى أدرى بما هو أفضل وأنسب، وما عنده في بطن الغيب لا يعلمه إلا هو وقد أمرنا بالصبر والإحتساب، وتوقع الفرج حتى وإن كنا لا نرى بصيصه.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٤]

تنقُلُنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى مشهدٍ عظيمٍ منْ مشاهِدِ الحُزْن، وإنها بحقٍ آيةُ الحُزْنِ في سُورةِ يوسف. نجدُ فيها يعقوبَ عليه السلام، وقد ضَاقَتْ عليه الدُّنيا بما رَحُبَت، وأظلَمتْ على ضيائها، ليس مِنْ ذنبٍ اقترفه فهو يُعاني منه مَرارَة النَدم، ولا مِنْ خطيئةٍ اجترحَها، فهي تأسِرُه في شباكِها، بل مِنْ توالي المِحَنِ عليه، وقد وفَدَتْ إليه وَفْداً، واستقرَّتْ في أرجاءِ قَلْبِه، تعْتمِلُ فيه عَصْراً.

فلنستمِعْ إلى كلامِ الله تعالى، في وصْفِ حالِه، ولنتأمَّلِ الآية.

يقولُ الله تعالى: **﴿وتولَّى عنهم وقال يا أسفا على يوسفَ وابْيَضَّتْ عيناهُ منَ الحُزْنِ فهو كظيم﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لهذا الوصفِ التصاعُدِيّ لحالِ الألمِ والحُزْن، الذي يُعانِيه يعقوبُ عليه السلام. والآيةُ تصفُ لنا ثلاث مراحل:

المرحلةُ الأولى بقولِه تعالى: **﴿وتولَّى عنهم﴾**.

المرحلةُ الثانيةُ بقولِه تعالى: **﴿وقال يا أسَفا على يوسف﴾**.

المرحلةُ الثالثةُ بقولِه تعالى: **﴿وابيَضَّتْ عيناه مِنَ الحُزْن﴾**.

وفي كلِّ مرحلةٍ منَ المراحل، وَصْفُ حالٍ يطُول.

ولقد شاءَ الله تعالى أنْ يكونَ الترتيبُ على ما جَاءَتْ به الآيةُ الكريمة، لأنها كذلك عِنْدَ النّاس، فهي تصِفُ واقِعَ الحُزنِ لديهم..

اللطيفة الثانية: في وقُوفِنا عندَ قولِه تعالى: **﴿وتولّى عنهم﴾** ونتساءل: ما الحاجةُ إلى أنْ يتولّى يعقوبُ عليه السلام، وهو رَبُّ الأُسْرة، وأبو العائلة، عَنْ أبنائه ومُحيطه.

الجوابُ هو: أنه إنسانٌ بشَر، تفيضُ به المشاعِر، فلا يَستطيعُ أنْ يُنْكِرَها، وهو في هذه اللحظات، في أشَدِّ حالاتِ الكَرْبِ والغَمّ.

والإنسانُ في مثلِ هذه الحال، يَنزِعُ إلى الاختلاء بنفسِه، ويطْلُبُ العُزْلَةَ عنِ الناس، ويحتاجُ إلى الهدوءِ والسَّكينة، يَرْغَبُ بالاستقرارِ والثَبات، والاقتصاد في التواصُلِ معَ العالمِ الخارجي. هي لحظاتٌ عاليةٌ جداً مِنَ الصفاء المشُوبِ بالألمِ الذي يَعْتَصِرُ الفؤادَ، والذي لا يستطيعُ حضورُ الناسِ إليه أنْ يُزيلُوا الألم، بل يُعَكِّرون الصفاءَ معَ بقاءِ الألم.

لقد اكتملتْ في نفسِه مُعطياتُ الإيلامِ كُلُّها: ألَمُ فِراقِ يوسفَ عليه السلام، على مدى سَنواتٍ طويلة، لا يَعْرِفُ عنه شيئاً، بل يَعْرِفُ في قرارةِ نفسِه، أنه لم يَمُتْ، وهذا أشَدُّ وأنْكى، يضاف إليه اختزانُ هذا الألم، في خَزَّانِ المشاعرِ الذي يجِدُ مُتَّسَعاً للمزيدِ فيركُمُ بعضُه بعضاً، حتى إذا ما بَلَغَ مَبْلَغاً عالياً، أصبحتِ النفسُ ناضجةً للتعبير، لا يَمْنَعُها عن ذلك إلاّ تقادُمُ السنينَ على الحدث.

فإذا ما حَصَلَ حَدَثٌ يُقارِبُ الحدَثَ الأول، كانَ بمثابةِ القَطْرةِ الأخيرةِ التي تُطْفِحُ الإناء، فيَفِيضُ على القلبِ براكينَ مِنَ الحُزنِ والكَمَد، تُغالِبُ قسْوَتَه، وتُذهِبُ تماسُكَه، فيُصْبِحُ طرياً نَديّاً لا يَقْوَى على المُقاومة، ثم يتَهاوَى مُعْلِناً الاستسلامَ لسُلْطانِ الحُزْن، فتتساوَى عندَه كُلُّ أحداثِ الحياة، وتفْقِدُ أضواءُ السعادةِ بريقَها، وتضيقُ زاويةُ المشاعِرِ حتى تَنْحَصِرَ بفيضِ الحُزنِ النَازل من مخازِنِ الحُزْن، فتَطْلُبُ النفسُ آنها العُزْلَةَ والبُعاد، والخَلْوَة والتَأْي. لهذا قالَ الله تعالى: **﴿وتولّى عَنهم﴾**.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ قولِه: ﴿**وقال يا أسفًا على يوسف**﴾ فإذا بنا نَلْحَظُه، وللمرةِ الأُولى منذُ بدايةِ السورة، ومنذُ أنْ أُبْعِدَ عنه يوسفُ عليه السلام، منذُ زمنٍ بعيدٍ جداً، وفي وقتِ إبعادِ ابنه الأصغرِ عنه، يذْكُرُ يوسفَ عليه السلام، ولا يَذْكُرُ الأخَ الأصغر.

وفي هذا دهشةٌ واستِغْراب.

ويَزُولُ استغرابُنا حينَ نَعْرِفُ أنَّ الكُلّ يستغرقُ الجُزء، والكُلُّ هو حُزْنُه على يوسفَ عليه السلام، هذا الحزنُ المتفاعِلُ المتقادِمُ الذي تمالَكَه كُلَّ هذه السنينَ الطِوال، وحينَ تمَلَّكَهُ الآن، لم يَمْلِكْ عَدَم ذِكْرِه، فذَكَرَهُ مُنْفَرِداً.

ولَنَا أنْ نُلاحِظَ أنه لم يَذْكُرْ أسفَه على يوسفَ عليه السلام، إلا بعدَ أنْ تولّى عَنْهم، وفي هذا أدَبٌ معَ الله تعالى. فهو لا يَشْكُو حُزْنَهُ إلى الناس. بل يَشْكُوه إلى الله تعالى. وتلك قِمّةُ الأدبِ في أصعبِ موقف.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ قولِه تعالى: ﴿**وابْيَضَّتْ عيناهُ مِنَ الحُزنِ**﴾ وليسَ لنا أن نَدْخُلَ في كيفية حصولِ ذلك. وإنْ كَثُرَ التأويل والتفسيرُ مما قد يُخرجُنا عن الموضوعيةِ في الفَهْمِ لآي القرآن الكريم. كلُّ ما لنَا أنْ نقُولَ: هو أنَّ هذا الحُزْن العميقَ قد تترْجَمَ مادِيّاً إلى العَلَن، بحصولِ البياضِ في العينين، وذَهابِ البَصَر، وتلك مِنْ أعظمِ مصائِبِ الفَقْدِ في الدُّنيا، وكأننا نصِلُ معَ يعقوبَ عليه السلام، إلى القمةِ في الإيلام، ولو وُجِدَ ايُّ إنسانٍ في مثلِ هذا الموقف، لكانَ في حالٍ منَ الثَوْرَةِ والهَيَجان، ما لا يُمْكِنُ ضَبْطُه، وكثيرٌ مِنَ الناسِ يَقَعُ في براثنِ الشيطانِ اللعين، في لحظاتِ الضَعْفِ تلك، فمنهُمْ مَنْ يَتمرَّدُ على قضاءِ الله تعالى. ومِنْهُمْ مَنْ يَكْفُرُ والعِياذُ بالله، وأقَلُّهُمْ انفعالاً تنْتَابَهُ حالٌ منَ الاستياء العارِم، الذي قد يُتَرْجَمُ صُراخاً أو عوِيلا..

وهذه أخْطَرُ اللّحظاتِ على الإنسان، وكثيرٌ منَ الناسِ مَنْ يسْقُطُ في

الامتحان، ونَسْمَعُ ونَرى العديدَ مِنْ حالاتِ الإقدامِ على الانتحارِ، أو محاولاتِ الانتحار، وذلك حصيلةُ ضَعْفِ الإيمانِ بينَ الناس. . أمّا يعقوبُ عليه السلام، فلقد أوكَل أمْرَهُ إلى الله تعالى، وطوَى كُلّ هذا الكَمّ الهائلَ منَ الحُزنِ في داخلِه، فكانَ أثرُه على عَينيه، حصول البياض وذَهابَ البصر، فلم تَزِدْهُ هذه المصيبةُ الجديدة إلا إيماناً وصَبْرا، فحقَّتْ له الشهادةُ منَ الله تعالى إذْ قال فيه في آخِرِ الآية: ﴿فهُوَ كَظِيم﴾.

أي يَكْظُمُ الغيظَ والحُزْنَ والألَمَ ويَكْتُمه.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الحزن على درجات متفاوتة، منها ما هو سطحي ينتج عن مسألة عابرة، ويبقى بدون عمق في القلب، ومنها ما هو أعمق بقليل، وهو يترك قبل ذهابه بعض الندوب، ومنها ما هو شديد العمق، حاداً قاسياً قارساً، ينكت في القلب نكتا ويحفر فيه الأخاديد، ولا يبارح النفس إيلاماً، لا يكاد يخبو حتى يعود إلى الهيجان والثوران، وهذا النوع بعيد الإيغال طويل المدى. لا يكاد يذهبه شيء، ولا حتى تقادم السنين.

٢ - للدلالة على أنه، حتى وإن اشتد الحزن وبلغ أقصى مداه، لا ينبغي على الإنسان أن يفقد ثقته بالله تعالى، أو أن يسمح للشيطان أن يكون له عليه سلطان، وهو أقرب منه في هذه اللحظات مما هو في غيرها، ويدفعه دفعاً إلى اليأس والقنوط، وحتى وإن أحس من نفسه الرغبة بإيذاء نفسه أو الآخرين، فليدرك تماماً أن هذا الشعور هو طارىء عليه دخيل، فليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم وليوكل أمره إلى الله تعالى، فهو حسبه، وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٥]

تُتابع معَنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، وصْفَ حالِ يعقوبَ عليه السلام، وقد أخَذَ منه الحزنُ كُلَّ مأخذ، حتى ابْيَضَّتْ عيناهُ وذَهَبَ بصَرُه، وها هم أُولاءِ أبناؤه وأهلُ بيتِه وعشيرتُه، يلْتفُّونَ حوْلَه وقد رأَوْا ما جَرى له مِنْ فَرْطِ حُزْنِه، فكانَ بينهم حوارٌ نستمِعُ إليه في هاتين الآيتين. يقولُ الله تعالى في الآيةِ الأُولى، موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿قالوا تالله تفتؤا تَذْكُر يوسفَ حتى تكونَ حرَضاً أو تكونَ مِن الهَالِكين﴾.

في هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قولِهم **﴿تالله﴾** وقد مرَّ معَنا في السورةِ أنَّ أبناءَ يعقوبَ عليه السلام، خَاطبُوا حاشِيَة العزيزِ بقولهم **﴿تالله﴾** وذَكَرْنا أنّ التاء للقسَم، ولا تكونُ إلا بالله تعالى، وحينَ ترِد، تَحْمِلُ معنَى التعجُّب.

لقد قصَدُوا افتتاحَ كلامِهم بالقَسَمِ التعجبيِّ بالله تعالى، لإعطاء الكلام صفةَ الحَزْمِ والأهمية، في محاولةٍ للتخفيف عَنْ يعقوبَ عليه السلام، وثَنْيِه عمّا به من حُزْن.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ كلمة: **﴿تفتَؤا﴾** وأصلُها ما فتِيءَ، أيْ لا تزالُ تذْكُرُ يوسف، وقد حُذِفَتْ «ما» لأنَّ المعنى لا يَلْتَبِسُ بالإثبات تخفيفاً لوقعِ الكلامِ في الأُذن، وإضفاءً لجماليةٍ لُغويةٍ أعْلَى على العِبارة.

وكأنهم يَدْعُونَه مِنْ خلالِ سُؤالِهم الإنكاريِّ بالتوقُّفِ عن ذكرِ يوسفَ عليه السلام، وأتْبعوا سؤالَهم بذِكْرِ العواقِب دَعْماً لقولِهم.

اللطيفة الثالثة: في قولِهم: ﴿**حتى تكونَ حرَضا**﴾.

وأصلُ الحَرَضِ في اللغة: الفَسَادُ في الجِسمِ أو العقل، منَ الحُزنِ أوِ العشقِ أو الهَرَم.

ولقد أجادوا في قولِهم، إذ وقَعتِ الكلمةُ في مَوْقعِها المناسبِ تماماً إذْ رأوْا بَدءَ الآثارِ الماديةِ لهذا الحُزنِ المتمادي، على جسدِ يعقوبَ عليه السلام، بحصولِ بياضِ العينين وذَهابِ البَصَر، وهم بالاستنتاج الطبيعي، يَرَوْنَ تفاقُم الضَعْفِ في الجسم، وخَافُوا عليه شِدّةَ الضَعْفِ فقالوا: ﴿**حتى تكونَ حرَضا**﴾.

اللطيفة الرابعة: في لحظنا لهذا التدرج في الإفصاح عن خوفهم على يعقوب عليه السلام، بطريقة تصاعدية:

فذَكَرُوا أولاً مسألة استمرارِ ذِكْرِ يعقوبَ عليه السلامُ ليوسف. واعتبروا ذلك غير منطقي، إذْ إنَّ يوسفَ عليه السلام، في ظَنِّهم غير موجود.

ثم ذَكَرُوا ضَعْفَ الجسمِ وتعطُّلَ أجْهِزَتِه، وهذا أدْعَى إلى الانصياع.

ثم ذَكَرُوا ما هو أصعبُ وأشَدّ: فقالوا: ﴿**أو تكونَ مِنَ الهالِكين**﴾. وهذا ما لا يَرضَاهُ يعقوبُ عليه السلام، بطبيعةِ الحال، وهو يعرفُ أنَّ قَتْلَ النفسِ حَرامٌ ولا يَجوز. وكأنهم بذلك يستثيرونَ فيه جانبَ الوَرَعِ، والنأيِ عن إهلاكِ النفس، إذا ما استمرّ على هذا النحوِ من الحُزْن.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانية، موضوعِ تأمُّلِنا اليوم:

﴿**قال إنما أشكو بَثي وحُزني إلى الله وأعلمُ منَ الله ما لا تَعْلَمُون**﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ كلمة: ﴿**بثي**﴾.

والبث لغةً: هو أصعبُ الهَمِّ الذي لا يصْبرُ عليه صاحِبُه، فيَبُثُّهُ إلى العَلَنِ ويَنْشُرُه.

ويعقوبُ عليه السلام، يَنْفِي أنْ يكونَ بحاجةٍ إلى الناسِ، لِينْشُرَ عليهم حُزْنَهُ وأسفَه، ولقد رأينا في الآيةِ قَبْلَ السابقة، أنه تولّى عنهم، أي نأى بنفسِه عنِ الحاضِرين، وأرادَ ألا يكونَ لأحدٍ من الناسِ حَظٌّ مِنْ شَكْوَاه، أمَا وقَدْ أحاطُوا بهِ، وأرادُوا ثنْيهُ عمّا هو فيه، أعْلَمَهُمْ علانِيةً، أنه يَشْكُو حُزْنَه إلى بَارِئه، جَلّ وعلا، فقال: ﴿**إنما أشْكُو بَثِّي وحُزنِي إلى الله**﴾.

اللطيفةُ الثانية: في وقوفِنا عندَ أهميةِ هذا التعليمِ والإرشاد لنا، بما جَرى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام، وهو نبيٌّ يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّه، يَحْمِلُنا على معرفةِ كيفيةِ التأدُّب معَ الله تعالى، وكيفيةِ التصرفِ معَ النّاس:

فإنّ أعلى النّاسِ مرتبةً في الإيمان، هو الذي لا يَطْلُبُ مِنَ الناسِ المَعُونَة والنُّصْرَة، بل يَطْلُبُ منَ الله تعالى وَحْدَه.

وأوسطُ الناسِ مرتبةً، هو الذي يَطْلُبُ منَ الله تعالى، ويَطْلُبُ منَ الناس.

وأدْنى النَّاسِ مرتبةً، هو الذي يَنْسى أنْ يَطْلُبَ مِنَ الله تعالى، ويطلبُ مِنَ الناسِ.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عنْدَ قولِه: ﴿**وأعْلَمُ منَ الله ما لا تَعْلَمُون**﴾ وهذا بحقٍّ، أفضلُ الأجوبةِ إسكاتاً وإقناعاً.

فصحيحٌ أنه لم يأتِه العِلْمُ الغيبيُّ منَ الله تعالى بمكانِ يوسفَ عليه السلام، وواقعِ حالِه ومآله بعد فقْده وإبعادِه، وهذا مما شاءَهُ الله تعالى في إجراءِ سُنَّتِهِ على خَلْقِه. ومِنْهم أنبياؤه ورسُلُه.

إنما جاءَهُ اليَقينُ بأَنَّ يوسفَ عليه السلام، لا يزالُ حيّاً. وذلك منْ خلالِ إشارتينِ اثنينِ سَبَقَ لنا ذِكْرُهما:

الأُولى: رُؤيا يوسفَ عليه السلامُ حينَ كانَ صغيراً، وقد أخبرَها أباه، وأوَّلَها الأَبُ كَدَراً يُعَكِّرُ صَفو اجتماعِهم بكيدِ إخوتِه له، يَعْقُبُه لقاءٌ يُتَرجِمُ سُجودَ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ الأَحَد عشَر، ليُوسفَ عليه السلام.

الثانية: تصَرُّف الابنِ الأكبرِ بالمكوثِ في مِصْرَ مِنْ غيرِ ما ذَنْبٍ اجترحَهُ في حقِ الابنِ الأصغر. مِمَّا يُعَزِّزُ آمَالَه بأنّ يوسفَ عليه السلام، لم يأْكُلْهُ الذئبُ كما قالُوا له سابقاً.

ولنْ يَكتَفِيَ يعقوبُ عليه السلامُ بقناعتِه الخاصة، بل سيُخْرِجُهَا إلى العَلن، على ما سنَرَى في لاحقِ الآيات.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن فرط الحزن قد يفضي إلى أضرار جسدية جسيمة غير متوقعة أصلاً، وقد أثبت العلم الحديث وجود هذا التواصل الدقيق بين النفس والجسد، وإن ارتداد حال التوتر على الجسم قد يتناول عدة أعضاء من الجسم، بل إلى كل الجسم إلى حيث تصل النهايات العصبية، ولقد يترجم هذا التفاعل مع حال الحزن تسرعاً في ضربات القلب، أو تضيقاً في النفس، أو إحساساً بالخدر والتنمل في الأطراف، أو وهناً وإعياءً في العضلات أو انعدام الشهية على الطعام، أو اضطراباً في النوم، أو حتى مستوى أعلى من الأذية، كحدوث شلل في أحد الأطراف أو ذهاب السمع أو البصر، أو مشاكل في الدورة الهرمونية المعقدة، أو ظهور أمراض عضوية، كمرض السكري أو تصلب الشرايين أو انسداد الأوعية الدموية.

٢ - للدلالة على أن الإنسان الحصيف، يمكنه أن يرى الإشارات من بين ظلال الأحداث، ويستنتج أموراً لا يراها غيره، ويمكنه أن يبني الفرضيات، ويتأمل تطورات في الأحداث، إذا ما حصلت فهي توكد صحة افتراضاته وتوثق صحة استنتاجه.

ثم يقول الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٦]

تحْمِلُ لنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، مَبْدأً إنسانياً عاماً، أجراه الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام، مَنْ عَمِلَ بهِ فَازَ في الدنيا والآخِرة، ومَنْ أغْفَلَهُ وأعْرَض عنه خَسِرَ خُسراناً مُبيناً، ولقد جَعَلَهُ يعقوبُ عليه السلامُ أساسَ حلِ أشدِّ الأزَمَاتِ تعقيداً، في حياةِ أبنائه، سيكونُ بها خلاصُهم مِنْ محنتهم الذَاتية، في صفاء قُلوبِهم وتنقيتها مِمَّا عَلَقَ بها مِنْ شوائِبِ سُوءِ تصَرُّفِهم، في حقِ يوسفَ عليه السلام.

يقول الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام: **﴿يا بَنيَّ اذْهَبُوا فتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسفَ وأخيه﴾**.

في هذا الشطرِ من الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا لخِطاب الوُدِّ الذي افْتَتَح بهِ يعقوبُ عليه السلامُ الآية بقولِه: **﴿يا بَنِيّ﴾** وفي هذا إيذانٌ بانتهاءِ مرحلةٍ وبَدْءِ مرحلةٍ جديدة، ونَفْهَمُ مِنْ قولِه:

إنَّ يعقوبَ عليه السلامُ، على الرُّغمِ مِنْ شِدّةِ حُزْنِه، يُدْرِكُ أنَّ الله تعالى معَه، وأنَّ الفَرَج آتٍ لا محَال، وأنَّ المِحَنَ التي مرَّتْ بأبنائِه غيَّرَتْ مِنْ طباعِهم، فصارُوا على مُستوى أعلى مِن الوَعْيِ والإدراك، وتغَيَّرَتْ نَظْرَتُهم إلى الحياة، وإلى مَعاني الحُبِّ والتّسَامُح.

وفي هذا الموقفُ بالذّات، يريدُ أنْ يُعبر لهم عَنْ مَعرفتِه بِتَغَيُّرِهم، فإذا به يُنادِيهم بالنِّداءِ المُحَبّب: ﴿يا بَنِيّ﴾.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عند غَزارةِ المعنى الذي تَحْمِلُه عبارة: ﴿فتَحَسّسُوا﴾ وكان يُمْكِنُه أنْ يقول: اذهبوا فابْحَثُوا عَنْ يُوسُفَ وأخيه، إلا أنْ كلمةَ: ﴿تَحَسّسُوا﴾ تَرْتَقِي إلى مُستوىً أعلى مِنْ مجردِ البحث. فالتحسُّسُ، هو استعمالُ كُلِّ أدواتِ الحِسِّ التي يَمْلِكُونَها وهي السَمْعُ، والبَصَرُ، واللَّمْسُ، والكَلامُ، والسُؤالُ، والملاحظةُ، والانتباه، والتحليلُ، والاستِدْلالُ، والاستنتاجُ، وبَثُّ العُيون..

كلُّ ذلكَ للإفادةِ مِمَّا يجمعونَهُ مِنْ معلوماتٍ تُفيدُهم في الوصولِ إلى يوسفَ عليه السلام، وهو المقصودُ حقيقةً بالعبارة، لِعِلْمِنا بأنَّ مكانَ الأخِ الأصغر، معروفٌ لديهم.

اللطيفة الثالثة: في تساؤُلِنا عَنْ سببِ وُرودِ حرفِ الجرِّ «مِنْ» بَدلَ «عَنْ» في عبارة: ﴿**فتحسسوا من يوسف وأخيه**﴾ ففي استعمالنا المُعْتَادِ في كلامِنا، نقول: تحسّسْ عن.

وهنا في الآيةِ إخفاءٌ وتبْعِيض.

والمعنى المراد: إذْهَبُوا وتَحَسّسُوا عَنْ بعضِ أخبارِ يوسفَ وأخيه. فاستُبْدِلَ حرفُ الجرِّ وصارَ مِنْ، وحُذِفَتْ عِبارَة: بعضُ أخبار، لما في ذلك مِنْ جماليةٍ لُغويةٍ فَريدة.

اللطيفة الرابعة: في مُلاحَظَتِنا أنَّ يعقوبَ عليه السلام، كانَ دقيقاً في كلامِه، مِمّا قد لا يَنْتَبِهُ إليه إلا القارئ المتأنّي: فلقد سَمِعْنَاهُ في الآيةِ الثالثة والثمانين يقول: ﴿**عَسى الله أنْ يَأْتِيَني بهم جميعاً**﴾ يقْصِدُ بذلك أولادَه الثلاثةَ البعيدين عنه: يوسفَ عليه السلام، والابنَ الأكبر، والابنَ الأصغر.

أمّا هنا فلا يَذْكُرُ إلا يوسفَ عليه السلام، والابنَ الأصغر. وبيانُه: أنَّ الابنَ الأكبَر حُرٌّ طَلِيق، ومعروفُ المكان، وقدْ تأخَّرَ عنِ العودةِ طائِعاً مُختاراً، وهو جاهزٌ للعودةِ فَوْرَ زَوالِ الشِدة، ولذلك، فلا حاجَة لتحسُّسِ الإخوةِ عنه، فأفردَه يعقوبُ عليه السلامُ عنهما، ولم يَذْكُرْهُ معَهما.

اللطيفة الخامسة: في مُلاحَظتِنا أنَّ يعقوبَ عليه السلام، يُفْصِحُ للمرةِ الأُولى، فيما أعطى مِنْ أوامِرَ لأبنائه، عَنْ يَقِينِه بأنّهُمْ لم يَصْدُقوه حينَ ادّعَوْا أنّ الذئبَ أكلَ يوسفَ عليه السلام، بل هو يأْمُرُهُم بالذهابِ للبحثِ عنه، ولم يُجِيبُوا باستحالةِ ذلك، وفي عدمِ جَوابِهم تكذيبٌ لهم في روايةِ أَكْلِ الذئبِ له، وهم بذلك يُعْلِنُونَ ضِمْناً أنك يا أبانا على حَقٍ في عدمِ تصْدِيقِنا في الماضي، وأنّ الذئبَ لم يأكُلْهُ حقّاً، فسَكَتُوا، ومَضَوْا إلى تنفيذِ أمرِ أبيهم، وهذا دليلٌ آخرُ على التبدُّلِ الإيجابيّ الحاصِلِ لدَيْهِم، والله تعالى أعْلَمُ بما في نفُوسِهم، فانْقَادُوا طَائعين، وانْطَلَقُوا مَرْضِيِّين.

اللطيفة السادسة: في تَساؤُلِنا عنِ الوِجْهَةِ التي يَنْبَغِي لهم أنْ يتّجِهُوا إليها للبحثِ عنِ المفقُودَين:

أمّا الابنُ الأصغر، فمعروفٌ أنه في مِصر، وقد تَركُوه هناكَ تحتَ إمرةِ عزيزِ مصر.

لكنّ، يوسفَ عليه السلام، كيف يَبْحثون، عنه، وأرضُ الله تعالى واسِعة، وهُم لا يَعْرِفُونَ شيئاً عَنْ مَصِيرِه، ولا مَنْ أخَذَه، ولا إلى أيِّ بلدٍ صَارَ مآلُه؟

الجوابُ يأتينا مِنْ نباهَةِ يعقوبَ عليه السلام، وعُلُوِّ ذَكائه:

لقد تتالتِ الأحداثُ وسارَعَتْ منذُ أنْ ذَهَبَ أولادُه في رِحْلتِهم الأُولى إلى مِصْر، وعَادُوا مِنْها بدونِ المُؤَن، ليُحرِّكُوا سُكُونَ الانتظارِ الذي طالَ أَمَدُه في حياةِ يعقوبَ عليه السلام، وهو يَنْتَظِرُ الإشاراتِ مِنَ الله تعالى، لدُنُوِّ أجلِ انتهاءِ المِحنة.

ثم إنه أدْرَكَ أنه ليس عَادِياً أنْ يَطْلُبَ عزيزُ مِصْرَ فتى عَادِياً لا يَعْرِفُه مِنْ بلدٍ بعيد، لكي يَراه. وتلكَ كانَتِ الإشارةُ الأُولى.

ثم رأَى أنَّ الأحداثَ تسيرُ في اتجاهِ التصوُّرِ الذي يَتَمَنَّاهُ أنْ يكونَ حقيقةً. وهو أنْ يكونَ عزيزُ مِصرَ هو يوسف عليه السلام. وذلكَ حينَ جاءَتْه أخبارُ سَرِقَةِ الصُّواع. ويعقوبُ عليه السلامُ يَعْرِفُ أبناءَه جيداً. ويعرِفُ أنّ ابْنَه الأصغَر لن يسْرِقَ أبداً.

رَبَطَ بينَ حاجَةِ يوسفَ عليه السلامُ إلى تأديبِ إخوتِه، وتَنْقَيتهم مِنْ سُوءِ صنيعِهم، وبينَ اشتدادِ المِحنةِ عليهم، وفصلِ الابن الأصغرِ عنهم، لعدمِ اشتراكِه معَهُمْ في الإساءة، وتلك كانَتِ الإشارةُ الثانية.

ثمّ إنَّ بقاءَ الابنِ الأكبرِ في مِصْر، جاءَ ليعطي يعقوبَ عليه السلامُ الدليلَ الثابِت على أنَّ يوسفَ عليه السلام، لم يأْكُلْهُ الذِئبُ، وتلكَ كانَتِ الإشارةُ الثالثة...

فالتقطَ كلَّ تلكَ الإشارات، وأَرسلَ أوْلادَهُ شَطْرَ مِصْر، طَامِعاً في أنْ يكونَ هذا العزيزُ الغريبُ الشأنِ ابنَهُ يوسفَ عليه السلام، دونَ أنْ يكونَ على يقينٍ مِنْ ذلك.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام، في تتمةِ الآية:

﴿ولا تيأسُوا مِنْ رَوْحِ الله إنه لا يَيْأسُ مِنْ رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون﴾.

وكم جميلٌ مِنّا أنْ نقِفَ عند هذا الأمر، لنَعْلَمَ أنَّ يعقوبَ عليه السلام، لم يتوجَّه بهِ إلى أبنائِه فقط، بل هو يُعَلِّمُنا كيفَ نسْلُكُ في دُروبِ الحياة، هو يبني لنا مَنْهَجاً شاءَهُ الله تعالى لعبادِه المؤمنين، سبيلَ الفلاحِ والنجاحِ والنّجاة، سبيلَ الوُصولِ إلى سعادةِ الدارين، تَجْعَلُنا نفْهَمُ مَدى حُبِّ الله تعالى لنا، وقُرْبه منا، فنَعْلَمُ بذلك أنّ فوقَ كُلِّ ذِي علمٍ عليم، وأنَّ أشَدَّ الأُمورِ صعوبةً، وأعْسَرَها

حَلاً، وأقسى المصائِب والمصَاعِب، ليستْ إلا ظاهِراً منَ الأمر، وأنّ الفَرَجَ آتٍ لا مَحَالة، وكلُّ شيءٍ إلى تبدُّلٍ وتَغيُّر، وأنّ معَ العُسرِ يُسرا، وأنّ كل عُتُلٍّ جواظٍ مُتَكَبِّرٍ، مصيرُه إلى الذُّلِ والهَوَان، وأنّ كُلَّ ظالمٍ مُسْتَبِدٍ مصِيرُه إلى الانكسارِ والانتكاس.

وفي ذلك، كمالُ السَكينةِ والطُّمأنِينةِ للمؤمنين، الذين يَعْلَمُونَ تماماً أنه مهما اشتَدَّتْ عليهم الأزَمَات، وعَصَفَتْ بِهم النوائب، فإنّ فَرَجَ الله تعالى آتٍ، نقُولُها لكلِ المَظْلُومينَ المُهَانين: إقْرَأوا هذه الآية وأيقنوا بفرجِ الله تعالى ونُصْرَتِه.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب إلغاء كلمة اليأس من قاموس المؤمنين وذلك لكي يكون هذا الإلغاء إشارة الإيمان وترجمته العملية في حياتهم، ومهما اشتدت النوائب، نعرف أن الله تعالى بها عليم، وأنه قادر على إزالتها في أقل من طرفة عين، وإن وجودها جزء من سنة الله تعالى في خلقه في الحياة الدنيا، لأنها دار امتحان وابتلاء، فمن صبر ظفر، ومن لم يصبر سقط في الإمتحان وجر أذيال سقوطه معه إلى الدار الآخرة.

٢ - لاعتماد عبارة ﴿ولا تيأسوا من روح الله أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾، شعاراً نعلمه لأبنائنا منذ نعومة أظفارهم، ليكون لهم رفيق درب الحياة، يشحذ هممهم ويجعلهم أقدر على مواجهة صعاب الحياة.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٧]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن إلى مشهدٍ جديدٍ من مشاهِدِ قِصّة يوسفَ عليه السلام، وقد بدأت ملامِحُ الحلحلةِ للتأزُّم بالظُّهورِ في حقِ يعقوبَ عليه السلام، في حينِ أنّ التأزُّمَ بَلَغَ أقْصَى مَداهُ في حقِّ إخوةِ يوسفَ عليه السلام.

فلْنبدأ بتأمُّلِ الآية.

يقولُ الله تعالى: **﴿فلمّا دَخَلُوا عليه قالُوا يا أيها العزيزُ مسَّنَا وأهْلَنا الضُّر وجِئْنا بِبِضَاعَةٍ مُزجاة﴾**.

في هذا الشطْرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا لأسلوبِ الفواصلِ عندَ بدءِ كلِّ مشهد، بما يَتناسَقُ ويتّصلُ بالفَاصِلِ الذي سَبَقَه.

فافتتاحُ المشهدِ الحاليّ، يبدأ بقولِ الله تعالى: **﴿فلمّا دَخَلُوا عليه﴾**، وافتتاحُ المشهدِ السابق، يبدأ بقولِ الله تعالى: **﴿ولمَّا دَخَلُوا على يوسف﴾**(١).

وافتتاحُ المشهدِ اللاحق، يَبْدأ بقولِ الله تعالى: **﴿فلمّا دَخَلُوا على يوسف﴾**(٢).

وهذا الافتتاحُ يَبْعَثُ في النفسِ الطُمأْنِينَة وتَذَوُّقَ جمالِ القصصِ القرآنيّ.

اللطيفة الثانية: في لَحْظِنا لهذا الانتقالِ السريعِ في المشهد، مِنْ مجلسِ يعقوبَ عليه السلام، إلى مجلسِ يوسفَ عليه السلام في مِصر. وقد عَوَّدَتْنا الآياتُ السابقةُ على هذا الانتقالِ السريع، بغيرِ إعلامٍ في السَرْد، لإيلافِ القارىء والمستمعِ لهذا الأُسلوب.

اللطيفة الثالثة: في دَهْشَتِنا واستغرابِنا لفحوى الخطابِ الذي خاطبَ به الإخوةُ يوسفَ عليه السلام:

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٦٩].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ٩٩].

فلقد أوْصَاهُمْ يعقوبُ عليه السلامُ في الآيةِ السابقة، أنْ يَذْهَبُوا ويتحسَّسُوا مِنْ يوسفَ عليه السلامُ وأَخيه.

وطالَبَهم بأنْ يَجعَلُوا كُلَّ جُهْدِهم مُنَصَّباً في هذا الاتجاه. وأرسَلَهُمْ إلى مِصرَ في رحلةٍ ثالثةٍ لهذا الغرض.

فإذا بهم حينَ دَخَلُوا على العزيز، لا يأْتُونَ على ذِكْر أخيهم الأصغر. ولا يُشِيرُونَ إلى طَلَبِهم الذي جَاؤُوا مِنْ أجْلِه.

ولا يَذْكُرون شيئاً عَنْ أبيهِ الشيخِ الكبير، كما فَعَلُوا في الرحلةِ السابقة.

وها هم يطْلُبونَ الغذاءَ والمُؤَنَ، عِلْماً بأنّ هذا المطلبَ تحوَّلَ مع تطوُّرِ الأحداثِ إلى اهتمامٍ ثانوي، على أهميتِه في هذا الزمنِ الصَعْب.

وتفسيرُه: أنه بَلَغَ بِهم الإحصارُ مَبْلَغاً وجَدُوا أنفُسَهُمْ مَدْفُوعِين معَهُ إلى بابِ العزيزِ دَفْعاً.

ولقد اعتمدُوا مبدأ التمهيدِ قَبْل الإفصاحِ عَنْ مطْلَبِهم، باستعادةِ أخيهم الأَصغر. فإذا بهم يَشْرَحُونَ واقعَ حَالِهِمْ للعزِيز.

وهذا المبدأ كثيرُ الشيوعِ والاستعمالِ في العديدِ منْ ميادِينِ الحياة: ومِنَ الأمثلة: يلجأ بعضُ الناسِ الذين عليهم دينٌ إلى لُبْسِ المسُوح، ثم الطلبِ مِنَ الدائنِ المعونة لسَدِّ الرَمَقِ، أو إطفاءِ الظمأ، عسى أنْ يرأفَ بِهم، ويُسْقِطَ عَنْهُم الدّيْن.

وفي واقعِ هذا المشهدِ من قِصةِ يوسفَ عليه السلام، صارَ يوسُف الخَصْمَ والحَكَمَ في آن، وصار الإخوةُ في أضعفِ موقفٍ لا يُحتسَدُونَ عليه.

اللطيفة الرابعة لُغوية: في وقوفِنا عندَ قولِهم: **﴿وجئنا ببضاعةٍ مُزَجاة﴾**. المزجاةُ في اللغة، مِنَ الإزجاء، ويعني الدَفْع قَليلاً قَليلا.

والمقصودُ في الآية، أنهم أتَوْا ببضاعةٍ ضَحْلَةٍ ضَئِيلة، بَخْسَةِ الثَمن، لا تَكَادُ تُساوِي شيئاً . .

ولنتأمّلْ غِنى اللغةِ العربية: فإنه يَكْفِي أنْ نُقَدِّمَ أو نُؤَخِّرَ حَرْفاً واحداً في كلمةٍ مُعَيّنة، حتى يَنْقَلِب المعنى إلى ضِدِّهِ تَماماً.

وحين نقولُ: بِضاعةٌ مُزْجاة: فهي البضاعةُ القليلةُ البَخْسَةُ الثمن.

وحين نقول: بِضاعَةٌ مُجْزاة: فهي البضاعةُ الكثيرةُ الغاليةُ الثمن.

فتأمَّلْ أخي المؤمن، غِنى لغةِ القرآنِ وتَذَوَّقْ.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ الإخوة، في تتمةِ الآيةِ الكريمة:

﴿فأوفِ لنَا الكيلَ وتصدّقْ علينا إنّ الله يَجْزِي المُتصدِّقين﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا من جديدٍ لهذا الترابُطِ والتماسكِ بين آياتِ القرآنِ الكريم، في المعاني والمباني.

فلقد سَمِعْنا يوسفَ عليه السلام، في الآيةِ التاسعةِ والخمسين يقول: **﴿ألا تَرَوْنَ أني أوْفي الكيلَ وأنا خيرُ المنزلين﴾**(١).

وها نحنذا نسْمَعُ صَدى قولِه، في قولِهم: فأوْفِ لنا الكيل. لقد عامَلَهمْ يوسفُ عليه السلامُ بما هو أهْلُهُ، مِنَ الكرمِ والإحسان. ولقد عَامَلُوه في السابقِ حينَ كانَ صغيراً، بالسُوءِ والإبعاد.

وها هم في ذُروةِ ضَعْفِهِم، يَطْلبُونَ منه أنْ يُعامِلَهُمْ بالإحسان.

ولكنْ، شتّانَ ما بينَ إخوةِ الأمسِ وإخوةِ اليوم: فهُم اليومَ في حالٍ منَ الندمِ والاستِغْفَارِ، وقد أدْرَكُوا أنّ الله تعالى لا يَسْمَحُ بدوامِ خفاءِ الحقائق، وإنْ طَالَ أمدُ إخفائها.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٥٩]

اللطيفة الثانية: في لَحْظِنا لهذا التدرُّجِ الذي ساقَهُ الإخوةُ في الإعلامِ عن شِدةِ ضَعْفهم، وغُلُوِّ إحْصَارِهم.

فكانَ ذلك على خَمْسِ مراحل:

المرحلةُ الأولى: في قولِهم: ﴿**يا أيها العزيزُ مَسَّنا وأهْلَنا الضُّر**﴾. وهم بذلك يُوضِحونَ أنَّهم، وأهليهم، معَ ما تَحْمِلُه صورةُ الأهلِ مِنَ النساء والأطفال، أصابَهم الضَعْفُ والوَهَن.

المرحلةُ الثانية: في قولِهم: ﴿**وجِئْنا بِبضاعةٍ مُزْجَاة**﴾، وهم بذلك يُضيفُون إلى صورةِ ضَعْفِ الأشخاص، قِلَّةَ الزادِ وضآلة الموارِد، فقالوا: إن بضَاعَتَهُمْ هزيلةٌ ضئيلةٌ بَخْسَةُ الثمن.

المرحلةُ الثالثةُ: في قولِهم، ﴿**فأوْفِ لنَا الكيل**﴾، وهم بذلك يُشْرِكُونَ مع ضَعْفِهم كَرَمَه، ومعَ هوانهم تمكُّنَه.

المرحلةُ الرابعةُ: بقولِهم: ﴿**وتصدّقْ علينا**﴾، وهم بذلكَ يدعون التلميحَ إلى التصريح، ويَسَلِّمُون ويُعْلِنُونَ صراحةً أنهم في أضْعَفِ حالٍ وأهونِ مآل، وهل أضْعَفَ مِنْ قَول: ﴿**وتصَدَّقْ علينا**﴾.

المرحلةُ الخامسة بقولِهم، ﴿**إنَّ الله يَجْزِي المُتصدِّقين**﴾، وهم بذلك يقْصَدُون استدرَار عطفِ العزيزِ وإلانة قلْبِه.

وهُم لا يَعْلَمُونَ أنّ قلبَ العزيزِ في حالٍ منَ العَطْفِ واللين، ما بَعْدَهُ عطفٌ ولا لين.

اللطيفة الثالثة: في مُحاولتِنا لمعرفةِ حالِ الإخوةِ النفسية، في هذه المرحلةِ مِنْ مراحِلِ القصة:

فهم لا يكادُونَ يخرجونَ مِنْ إحصارٍ حتى يقعُوا في إحصارٍ أشدّ منه.

ولقد تركوا وراءَهم أباً محزوناً على فِراقِ ولديه الأثيرين.

ولقد كانوا في الماضي سبباً في حُزنِه الأكبر.

وهم في هذه اللحظات، يستشعِرُونَ عِظَمَ ذَنْبِهم بما فعلُوه.

فكان كلامُهم تعبيراً صادِقاً على واقِع حالِهم.

فبَلَغُوا بذلك القِمة في الصفاءِ والاعترافِ بالذنب، ولقد تبَلَّغَ يوسفُ عليه السلامُ هذا الصفاء.

وسنعرفُ في الآيةِ اللاحقة، كيفَ كان جوابُ يوسفُ عليه السلام..

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على جواز إظهار الضعف الحاصل على حقيقته دون المغالاة والكذب، لاستدرار عطف من بيده السلطة والتمكن ولقد تمنع العزة والأنفة بعض الناس من التصريح بحقيقة حالهم، فأما المتعففون فأجرهم عند الله تعالى كبير، وهو الذي يتكفل بإيصال ضعف حالهم إلى من آتاه الفضل، وإما المتكبرون المتعجرفون الذين يتعالون عن ذكر حاجتهم صلفاً وتطاولاً، فاؤلئك الذين لا يحبهم الله تعالى ولا يحبهم العباد، وعقابهم شديد عند الله تعالى، ذلك أنهم إذا ما وصلت إليهم النعمة فهم يمنعونها الناس، ويظنون إنما حصلوها على علم ودراية منهم ويجحدون فضل الله تعالى عليهم.

٢ - للدلالة على أن التأديب في حق من ارتكب خطأ مندوب، وذلك لصقل نفسه وإعادتها إلى جادة الصواب، وهذا ما حصل مع أخوة يوسف عليه السلام، فلقد احتاجوا إلى هذه المرحلة الصعبة من الإحصار والإرباك والإضعاف حتى تصفو نفوسهم وترقى إلى أعلى الدرجات.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٨]

نصِلُ معَ هاتين الآيتين، أخي المؤمن، إلى نهايةِ التأزُّمِ الذي يعيشه إخوةُ يوسفَ عليه السلام، وكُنَّا قد رأَيْنا كَمْ بَلَغَ بهِم الإحصارُ في الآياتِ السابقة، وقد بَلَغُوا القِمَّة في طَلبِ العَطْفِ والتصدُّقُ مِنَ العَزيز، ويوسُف عليه السلامُ يَنْتَظِرُ مِنْهُم هذا الإقرار، لكي يُفْصِحَ عَنْ نفْسِه، ويُظْهِرَ لهُم فضْلَ الله تعالى عليه، فيستطيعوا بذلك أن يُقييمُوا فضْلَ الطّاعَةِ على هَوانِ المعصية.

يقولُ الله تعالى في الآيةِ الأُولى موضوعِ تأمُّلِنا بـ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا لترابُطِ آياتِ القُرآنِ الكريم فيما بَينِها، وإنْ بَدَتْ مُتباعِدَةً في الظّاهر، فبالعَوْدَةِ إلى الآيةِ الخامسةَ عشرة من هذه السورة يقولُ الله تعالى: ﴿**وأَوْحَينا إليه لِتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمرِهم هذا وهُمْ لا يشْعُرون**﴾.

وإذا بنا هُنا معَ هذه الآية، نجِدُ الرّبْطَ المُنتَظَر معَ تلكَ الآية، إذْ إنَّ يوسفَ عليه السلام، يُنَبِّؤهم بأمرِهم، وقد فَاجأَهُمْ بهذا الإعلامِ فهم لا يشْعُرون.

اللطيفة الثانية: في لحظِنا لجماليّةِ الأُسلوبِ الذي اعتَمَدَهُ يوسفَ عليه السلام في بدءِ الإعلام، وذلك بإبرازِ الاستفهامِ التقْريريِّ، حَمْلاً مِنْهُ لهم على المُشارِكةِ في كشْفِ الحقيقة. فما قالَ لهم مُباشرة: أنا يوسفُ الذي أسأْتُمْ إليه

في الماضي، أو الذي أرَدْتُمْ قَتْلَه والتخَلُّصَ مِنه، بل تَرَكَ لهُمْ هُم، أنْ يقولُوا لهُ أنتَ يوسف.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عِنْدَ هذا الأدَبِ الجَمِّ الذي يتَحلّى بهِ يُوسفُ عليه السلام، وهو في أعلى مراكِزِ السُلْطَةِ والقُوّةِ في الأَرض، وقَدْ تمكَّنَ مِمنْ أساءَ إليه، وجاءَ وقتُ تصفيةِ الحسابات، وله الخِياراتُ كلُّها، ولعَلّ أخفَّها وأكْثَرَها رأفة، هو التعنيف الكَلامِيّ، واللوم والعِتاب، وذِكْرُ المُعَاناةِ التي تسَبَّبُوا لهُ بها.

فماذا كانَ منه؟

لنَسْتَمِعْ إلى الآيَةِ ثانيةً، ونتأمَّلْها من هذه الزاوية:

﴿قالَ هل علمتُمْ ما فعَلْتُمْ بيوسفَ وأخيه إذ أنتم جَاهِلُون﴾.

وفي هذا الكلام، مِنَ التَّلطُّف، والحُنُوّ، والرأفةِ ما لا نَجدُ له نَظِيرا:

فلقد خاطَبَهُم أولاً بخطابٍ هيِّنٍ ليِّن، نَلْحَظُهُ مِنْ خلالِ الكلمات.

ثم إنه أخْفَى ما قَدْ يتَضَمَّنَهُ الكلامُ مِنْ قَسوة، كقولِنا: هل عَلِمْتُمْ ما فعَلْتُمْ بيوسفَ وأَخيه مِنْ فِعلٍ قَبيح.

ثم إنه وجَدَ لهُم العُذْرَ بقولِه لهم: **﴿إذْ أنتم جَاهِلُون﴾**، والجهلُ بالشيء هو عدمُ المعرفةِ به.

وفِعلُ القبيحِ على جهلٍ بمقدارِ قُبْحه، أسهلُ مِنْ فِعْلِه على علْم.

وهُمْ حتى لَوْ سَعَوْا في إيجاد الأعذارِ لأنفسِهم، لما استطاعُوا أنْ يَجِدُوا عُذْراً أفضَلَ ممّا أعْطَاهُم يوسفُ عليه السلام، في هذا الكلام.

وما أحْوَجَنا إلى تعلُّمِ اللَّبَاقَةِ واللِّيَاقَةِ في الكلام، وتلكَ علامةٌ مِنْ علاماتِ رُقِيِّ الأمم وذاك فضل الله تعالى على أنبيائه وأصفيائه.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانية، موضوعِ تأمُّلنا:

﴿قالُوا أإنك لأنت يوسف. قالَ أنا يوسفُ وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا إنَّه مَنْ يتّقِ ويَصْبِرْ فإنّ الله لا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسنين﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: لُغوية، في وقوفِنا عندَ عبارة: ﴿أإنَّك لأنْتَ﴾ ففيها استفهامٌ وتأكِيدان، وتلك نادِرَةٌ فريدةٌ في أُسلوبِ الكلام.

فالمقصودُ قولُه: أنت يوسف.

فجاءَ التوكيدُ الأول: إنكَ أنتَ يوسف.

ثم جاءَ التوكيدُ الثاني: إنَّك لأنتَ يوسف.

ثم جاءَ الاستفهام: أإنَّك لأنتَ يوسف.

اللطيفة الثانية: في استشعارنا لامتزاجِ الدهشةِ والفَرح، في رَدّةِ فِعلِ الإخوةِ على كلامِ يوسفَ عليه السلام:

فهم كما رأيْنا في أشَدِّ حَالاتِ الهَمّ والغَمّ.

وهم يتوقّعُون مِنَ العزيزِ بعضَ الشَّفقَةِ عليهم، فيُعطيهم شيئاً من المؤن.

ويَعْلَمُونَ أنهم سيجدونَ صُعوبةً شديدةً في إقناعِ العزيزِ بِرَدِّ أخِيهم الأَصغر، ولقد رفَضَ طَلَبَهُمْ في السابق.

وفي أحسنِ الأحوال، قدْ يقْبَلُ بِرَدِّه إليهم، فيكونون بذلك قد عادُوا إلى الحالةِ السابقةِ على تتالي المِحَنِ عليهم، ولا يكونون بذلك قد حَقَّقُوا إلا الشِقّ الأبسطَ مِنْ مُهِمّتهم.

وهم يتوقّعُونَ أشدّ الجُهدِ والعَنَاءِ في البحثِ عَنْ يُوسفَ عليه السلام. بعد هذه السِنينَ الطِّوال.

فإذا بهم فَجْأةً، أمَامَ كُبرياتِ الحُلولِ لكاملِ مشاكلهم وإحصارِهم، وانتهاءِ مُباغتِ لمعاناتهم، بكلمتين اثنتين من عزيز مصر، في مُفاجأةٍ أقلّ ما يُقالُ فيها، إنها أقْصَى ما كانُوا يتمنونه ولو في خيالِهم، فجاءَ قولُهم بهذه القوةِ والحُبور: ﴿أإنّكَ لأنتَ يُوسفُ﴾.

اللطيفة الثالثة: في مُلاحَظَتِنا لتَمَسُّك يوسفَ عليه السلام، بإدراجِ ذِكرِ أخيهِ الأصغر في النِقاش. ففي الآيةِ السابقة، قَرَنَ ذِكْرَ إساءَتِهم إليه بذِكْرِ الأخِ الأصغرِ فقال: ﴿هل عَلِمْتُم ما فعَلْتُم بيوسفَ وأخيه﴾.

وهنا في هذه الآيةِ يقول: ﴿أنا يوسف وهذا أخي﴾، علْماً بأنهم لم يسْألُوه مُباشَرةً عَنْ أخيه.

وهذه درجةٌ عاليةٌ منَ الحُبِّ والوفاء.

اللطيفة الرابعة: في مُتابَعتنا للأسلوبِ الدَّعَوِيِّ الذي عوَّدَنا عليه يوسفُ عليه السلام منذُ بدايةِ السورة، وقد احتجبَ بعضَ الشيء في حواراتِه، حِينَ ظهرَ بصفة عزيز مِصْر.

فنحن نَذْكُر أنه حتى حينَ كانَ في السِّجْن، كانَ داعِيَةً إلى الله تعالى، إذْ نسْمَعُه يقول: ﴿يا صاحبَي السجنِ أأربَابٌ مُتفرِّقُونَ خيرٌ أم الله الواحدُ القهار﴾(١).

وها نحنذا نسْمَعُه يقول: ﴿إنه مَنْ يتَّقِ ويصْبِرْ فإنَّ الله لا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنين﴾.

ولقد كانَ دَقيقاً في إجابتِه، فَذَكَر أمرينِ اثنين، وأعقَبُهما بصفةٍ ثالثة:

الأمرُ الأول: تقوى الله العظيم، مع كُلِّ ما تَتَضمّنُه هذه الصفةُ مِنَ القيامِ

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣٩].

بالطاعاتِ والعِبادات، والنأي عن معصية الله، واجتنابِ ما حرَّمَ الله تعالى.

الأمرُ الثاني: الصبر، مع كُلِّ ما تَتَضمَّنُه هذه العبارةُ مِنَ الصبر على البلاء، والصَبْرِ عن المَعْصِية، والصبرِ على الطاعة، والصبرِ على تأخُّرِ الفَرج، والصبر على قضاءِ الله تعالى، والصبر على أذى النّاس، والصبرِ على تأخُّرِ إجابةِ الدعاء إلى حين نفاذِ أمرِ الله تعالى.

أما الصفةُ، فهي صفةُ المحسنين، والإحسانُ أعلى مرتبةٍ منْ مراتبِ الإيمان، ولقد بَلَغَها يوسفُ عليه السلامُ منذُ بداية السُّورة، فقالَ عنه الله تعالى في الآيةِ الثانيةِ والعِشرين: **﴿وكذلك نَجْزِي المُحسنين﴾**. وقال له صاحِبا السِجْنِ في الآيةِ السادسةِ والثلاثين: **﴿إنّا نراك من المحسنين﴾**، ثم قال عنْهُ الله تعالى في الآية السادسةِ والخمسين: **﴿نُصيب برحمتنا مَنْ نشاء ولا نُضيعُ أجْرَ المحسنين﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب التواضع لله تعالى في كل مواقف الحياة، والتواضع مع الناس، خصوصاً حال التمكن: فنحن نفهم ونقر ببساطة تواضع المرؤوس أمام رئيسه، والعامل أمام صاحب العمل. أما أن نرى الرئيس والحاكم في حال من التواضع مع رعيته فتلك صفة زكية عالية جداً تدل على نفس زكية عالية، تم تأديبها أحسن تأديب.

٢ - للدلالة على وجوب العفو عند المقدرة، وخصوصاً حال التمكن وهذه من أصعب الأمور على النفس البشرية التي تحتاج إلى الكثير من التدريب والتهذيب والضبط حتى تتمكن من التعالي على رغباتها الدقيقة بالإقتصاص ممن أساء إليها.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٩]

نستشعرُ معاً أخي المؤمن، معَ هاتينِ الآيتين، هدوءَ وتيرةِ الأحداث، وانخفاض مستوى التأزُّمِ والتعقيد، وارتياح إخوةِ يوسفَ حين علِمُوا أنَّ كُلَّ الأزَمَات قد حُلَّتْ دُفعَةً واحدة. وأنهم في حضْرَةِ أَخيهم يوسف عليه السلام، وقد تحوَّلَ الموقفُ الآن مِنَ الدهشةِ والسرورِ إلى تأنيبِ الضَّمير، والاعترافِ بالذنب، ليكونَ هذا الاعترافُ العلنيُّ تتويج تنظيف نفوسِهم، وتطهيرها من آثارِ ذنوبِ الماضي، فيكونوا بذلك أهلاً لفضلِ الله تعالى اللاحق بهم، في تسميتهم بالأسباط، وإكرامهم بالنبوة.

فلنبدأ بتأمُّلِ الآيات.

يقولَ الله تعالى في الآيةِ الأُولى، موضوعِ تأمُّلِنا: **﴿قالُوا تالله لقد آثرَكَ الله علينا وإنْ كُنّا لخَاطئين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قولِهم: **﴿تالله﴾**، ونلاحِظُ أنها تَرِدُ في هذه السورةِ للمرةِ الثالثة، ولن تكونَ الأخيرة، ونُلاحِظُ أنها تردُ في الجُزءِ الأخيرِ مِنَ السورة، مباشرةً، بعدَ حادِثَةِ ضياع الصُّواع. وبالتتبُّع نَجِدُ:

أنها ورَدَتْ للمرةِ الأُولى في الآيةِ الثالثةِ والسبعين، مع قولِ الإخوة: **﴿قالوا تالله لقد عَلِمْتَ ما جِئْنا لنُفْسِدَ في الأرضِ وما كُنّا سارِقين﴾**.

ثم إنها ورَدت للمرةِ الثانيةِ في الآيةِ الخامسةِ والثمانين، معَ قولِ الإخوة:

﴿قالوا تالله تفتؤا تذكرُ يوسفَ حتى تكونَ حَرَضاً أو تكونَ من الهَالِكين﴾.

ثم إنها ورَدَتْ للمرةِ الثالثة، مع الآيةِ موضوعِ تأمُّلِنا على لسانِ الإخوةِ أيضاً: **﴿قالوا تالله لقد آثَرَك الله علينا وإنْ كُنَّا لخَاطِئين﴾**.

ثم إنها ستَرِدُ في المرةِ الرابعةِ على لسانِ أهلِ يعقوبَ عليه السلام، المحيطين به، من غيرِ الإخوة، في الآيةِ الخامسةِ والتسعينَ بقولِهم: **﴿قالُوا تالله إنّك لفي ضَلالِك القديم﴾**.

ونَرَى أَنها في كُلِّ مرةٍ تصْدُرُ إمّا للإعرابِ عن عدمِ العِلْم، أو الاعترافِ بالذنب، وفي كلِّ الأحوال. فهي تعبيرٌ عنْ خضوعٍ لله تعالى، وهذا لا يصْدُرُ إلا عَنْ قَلْبٍ مؤمنٍ بالله، وتلك هي حالُ آلِ يعقوبَ عليه السلام.

اللطيفة الثانية: في الإيجازِ الجميلِ الذي ساقَه الإخوةُ بقولِهم: **﴿لقد آثَرَك الله علينا﴾**.

ولسانُ حالِهم يقول: لقد آثَرَكَ الله علينا بالعِلمِ والحِلْمِ والعقْل والفضْل والصبرِ، والحُسنِ والإحسانِ والمُلْك.

إمّا العلم: فلقد علَّمَه الله تعالى من تأويلِ الأحاديث، ولم نسْمَعْ أنهم بلغُوا في تأويلِ الأحاديثِ علْماً.

أما الحِلْم، فلقد أعطاهُ الله تعالى مِنْ سعةِ الحِلْم، ما جعَلَهُ يضْبِطُ نفْسَهُ حينَ اتّهَمُوهُ بالسَرِقةِ أمامَه، وهم يظُنُّونَ أنه غائب، فلم يُجِبْهُم علناً.

أمّا العقْل، فلقد وَهَبَهُ الله تعالى مِنَ العقلِ ما مَكّنه منْ حبكِ مسائل الإرباكِ بدقةٍ مُتناهية، دونَ أنْ يشْعُرُوا بشيء منها.

أما الفضل، فلقد حبَاهُ الله تعالى بنِعْمَةِ الإكرام، حتى لمنْ أَساءَ إليه، وأراد له الموت، أو الإبعاد.

أمّا الصَبر، فلقد صَبَرَ على أذاهُمُ السنينَ الطِّوال، وثابَر على صَبْرِه عليهم، حتى بعدَ أن التقاهُم، وهو في عِزَّةٍ ومنعة.

أمّا الحُسْن، فهذا الذي مَنْ أجلِه أساؤوا إليه وأبْعدُوه عَنْ أبيه.

أمّا الإحسان، فلقد أجْزَل لهُم الكيْل، وأراهُم من آياتِه في الكَرَمِ والضِّيافةِ الشيءَ الكثير.

وأمّا المُلْك، فلقد رأَوْا عليه أُبَّهة الحُكْم، ومَهَابَة السُلْطة، وقد تَبَوّأَ أعْلَى منصبٍ في الدنيا في زمانِه.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ قوْلِهم: **﴿وإنْ كُنّا لخاطئين﴾**.

وفي هذا تثبيتُ الاعترافِ بالذَّنْب. حتى تكونَ المغفرةُ في أعْلَى مَدارِكِها. ولقد كانُوا على دَرَجةٍ عاليةٍ جِدّاً، مِنْ نَقْدِ الذات، فهم لم يلتَمِسُوا لأنفُسِهِم الأعذارَ فيما فَعَلُوا، بل إنّ يُوسفَ عليه السلامُ التَمَس لهُم العُذْرَ في الآية السابقةِ بقوله: **﴿إذْ أنتم جاهِلُون﴾**، فإذا بهم يُؤَكِّدونَ أنهم كانوا خاطئين، وهم يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله تعالى، ويَعْلَمُونَ أنّ إساءَتَهُمْ لم تَكُنْ بالإساءةِ العادِيّة:

فهُمْ أساؤُوا إلى نبيٍّ مِنْ أنبياءِ الله تعالى، بل إلى نبيين.

وكان أثرُ الإساءةِ ممتداً على سنواتٍ طويلة. وكان يُمْكِنُ في حقِّهم أنْ تكونَ دائمة.

ولقد أساؤُوا قانعينَ مُخْتَارِين، عَنْ سابقِ تصوُّرٍ وتصميم. لهذا جاءَتِ العبارةُ واضحةً صرِيحة: **﴿وإنْ كُنّا لخَاطِئين﴾**.

ولقد توقَّف أهلُ اللغةِ العربيةِ عِنْدَ قولِهم، وأشارُوا بتفصيلِ اللغةِ ما بينَ الخَاطِىء والمُخطِىء.

فالخاطىء هو الذي أقر بالخطيئة عَمْداً، وهذا حالُ إخوةِ يوسفَ عليه السلام.

والمُخْطِىء هو الذي يَجْتَهدُ عَنْ حُسنِ نيةٍ، فلا يُصيب.

فانظُر أخي المؤمن، إلى جَمالِ اللغةِ العربيةِ ودقّتِها. .

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانيةِ موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿قال لا تَثْرِيبَ عليكُمْ اليومَ يغفِرُ الله لكُمْ وهو أرحمُ الراحمين﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في جماليّةِ الاستعارةِ التي ساقَها يوسُف عليه السلامُ بقولِه: **﴿لا تثريب﴾**.

فالتثريب هو إزالةُ الثَّرب، أي الشحمِ الذي يُغطّي البَطْنَ. ويُقالُ تثريب، إستعارةً، لحال اللوم الذي يمزق الأعراض ويُذْهب بهاءَ الوَجْه، لأنه بإزالةِ الشحمِ يَبْدو الهُزَال. وكذلك باللوم تَظْهَرُ العيوبُ فقال: **﴿لا تَثريب عليكُم اليوم﴾**، أي لا توْبِيخَ عليكُم اليوم.

ولقد استَعْمَل رسولُ الله ﷺ العِبارةَ ذَاتَها، يومَ فَتْحِ مكّة، وقد اجتمعَ الناسُ حوْلَه ينْظُرون ماذا يَفْعل بهم إذْ قال: وأنا أقولُ كما قالَ أخي يوسف؛ لا تثريبَ عليكُم اليوم.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قولِه، **﴿يَغفِرُ الله لكم﴾**.

وهو استقبالٌ بمعنى الدعاء. أي أدْعُو الله تعالى أنْ يَغْفِرَ لكم.

وهو بهذا يُعَبِّرُ عنِ التَّنَازُلِ عنْ حقِّه الشخصي، بطلب الاقتصاص منهم، وهو يَعْفُو عنهم، ويَطْلُبُ مِنَ الله تعالى أنْ يَعْفُوَ عنهم.

وهذا ما تعَارَفَ عليه النّاسُ في أيَامِنا الحاضِرة، بحقوقِ العبادِ فيما بينَهم، وحقِّ الله تعالى على العِباد.

اللطيفة الثالثة: فيما أعطى يوسفُ عليه السلامُ إخوتَه من إشاراتٍ إيجابيةٍ فيما قالَه لهُم، إذْ قال في آخرِ الآية، **﴿وهو أرْحَمُ الراحمين﴾**.

ولقد يظُنُّ البعضُ أنَّ في الآيةِ تأكيدَ حُصولِ المغفرةِ، حينَ يَعْمدونَ إلى تعليق كلمةِ اليوم، بعبارةِ: ﴿**يغفرُ الله لكم**﴾.

وكأنّهم يقرؤون: قال لا تتريبَ عليكُم - ثم وقْف - اليومَ يغفرُ الله لكم.

وما هذا ما أشارتْ إليه الآية، بدليلِ أنهم بعدَ هذا الموقف. سيكونُ لهم موقفٌ آخرُ مع أبيهم يعقوبَ عليه السلام، يطْلُبُونَ منه أنْ يَدْعُوَ الله تعالى لهم بالمغفرة، في قولِهم في الآيةِ السابعةِ والتسعين: ﴿**قالوا يا أَبانا استغْفِرْ لنا ذُنوبَنا إنّا كُنّا خاطئين**﴾. وقولِه لهم في الآيةِ الثامنةِ والتسعين: ﴿**قالَ سوفَ أستغفرُ لكم ربي إنه هو الغفورُ الرحيم**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على مبلغ السعادة التي يصل إليها الإنسان حين يقر ويعترف بذنبه، وكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون والتوبة تقتضي شروطاً وعناصر: فأول شروطها الإعتراف بالذنب ثم العزم على عدم العودة إليه، ثم العزم على التكفير عما بدر منه، ثم السعي لإزالة الضرر الواقع على الآخرين جراء تصرفه، ثم استسماحهم، ثم حض الآخرين على عدم الوقوع فيما وقع فيه هو.

٢ - للدلالة على أن الله تعالى قريب من عباده، سميع مجيب الدعاء يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ولا يظن إنسان تفاقمت ذنوبه وتراكمت سيئاته أنه بعيد من الله تعالى، وأنه لن يُغفر له، وإن تكن وسوسة الشيطان له لصيقة بهذا المعنى، فعليه أن يعلم أن الله تعالى يغفر الذنب ويقبل التوبة عن عباده، وهذه فرصة سانحة نادرة لا يعلم متى يقفل بابها، وذاك بالموت، الغائب المنتظر، فليسارع إلى التوبة وطلب المغفرة، والله تعالى هو الغفور الرحيم.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٠]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى مرحلةِ الإجراء العملِيّ والتصرُّف المناسِب الذي اعتزَمَ يوسفُ عليه السلامُ إتمامَه، بجمعِ شَمْلِ العائلةِ كُلِّها، ولن يكونَ ذلك إلا بمجيء الجميع إلى مِصْر، ولن يكونَ حُضوراً بائساً، بل سيكونُ حُضوراً مُظَفَّراً بهيجاً.

فلنبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة: يقولُ الله تعالَى على لسانِ يوسفَ عليه السلام:

﴿اذهبوا بقميصي هذا فألْقُوهُ على وَجْهِ أبي يأتِ بصيراً وأتوني بأهلِكُمْ أجمعين﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في حضورِ ذِهْنِ يوسفَ عليه السلام وتوقُّدِ ذكائه. فقد كان منذُ لَحظاتٍ يدعو الله تعالى أنْ يَغْفِرَ لإخوتِه إساءَتَهم، ويُعْلِنُ لهم أنه سامَحَهُمْ وعَفَا عَنْهُم.

ولعلّهُمْ أخبروه بما كانَ مِنْ أمرِ أبيهم، وذَهَاب بَصَرِه حُزْناً عليه، ولعلّهُ جاءه عِلْمٌ غيبيٌ مِن عند الله تعالى، بما حصَلَ معَ أبيه، فإذا بهِ وبسرعةٍ، ينْتهزُ الفُرْصة لحلِّ جميعِ الأزَمَاتِ دُفْعَةً واحِدة، دونَ أنْ يُبْقِيَ شيئاً مِنْ آثارِ الماضي، يُعَكِّرُ صفْوَ اجتماعِهم المُنتظر.

ولعله جاءَهُ عِلْمٌ غيبيٌ آخر مِنْ عندَ الله تعالى، حوْلَ كيفيةِ بُرْء أبيه مما فيه مِنْ ذهابِ البَصَر، فكانَ أنْ عاجَلَهُمْ بقولِه: **﴿اذهبوا بقيمصي هذا﴾.**

اللطيفة الثانية: في وقُوفنا عندَ دِقّةِ الموقفِ الذي يقِفُهُ يوسفُ عليه السلام، في هذه اللحظات:

فلقَدْ كانَ بإمكانِه أنْ يُرسِلَ قَمِيصَهُ معَ أحدِ أفرادِ حاشِيَتِه، ويسْتَبْقِي إخوتَه عنْدَه، وهو سعيدٌ بمجيئهم، وهو يُريدُ إكرامَهم وبعضَ أماراتِ الإكرام، رَفْضُ العَنَتِ والجَهد.

فإذا به يأمُرُهم بالعودةِ إلى أبيهم، وتلك ستكونُ الرحلة الرابعةَ لهم، في سَفرٍ شَاقٍّ ما انْفكُّوا يَقْطَعُونَهُ جيئةً وذَهَاباً.

وكانَ بإمكانِه على أقَلِّ تقدير، أنْ يُرْسِلَ أحدَ الإخوةِ معَ أفرادِ الحاشية، إيناساً ودِلالةً لهم، وتأكيداً على صِدْقِ مقولتِهم.

إلا أنه أرَادَ مِنهم أنْ يَذْهَبُوا جميعاً، ليُقَدِّمُوا الاعتذارَ شَخْصِياً إلى أبيهم، عسَى أنْ يقْبَلَ مِنْهُم عُذْرَهم، كما قَبِلَهُ يوسفُ عليه السلام وأنْ يَدعُوَ الله تعالى لهم، أنْ يغْفِرَ لهم، كما فَعَلَ يوسفُ عليه السلام. فتصْفُو ذِمَمهم بالتالي مِنْ حُقُوقِ كُلِّ أصحابِ الحقوق، ويكونوا بذلك أهلاً حقّاً للحصولِ على صِفةِ الأسْبَاط. وبالتالي النبوة.

اللطيفة الثالثة: في تساؤلِنا عن سببِ إرسالِ القميصِ إلى الأب معَ العِلْم أنّ الخُطَة تقْضِي بمجيئه مع كُلِّ الأهل. وقد أمكنَ ليوسفَ عليه السلام، أَنْ ينتظِرَ مجيئَهُ حتى يُلْقِيَ عليه القميصَ فيرتَدَّ بصيرا.

الجوابُ هو أنَّ يوسفَ عليه السلام، أرَادَ أنْ يَرى أبَاهُ على أبْهَى حُلّةٍ وفي أجملِ صورة، وأرادَ أنْ يأتيَ الأبُ عَزِيزاً مُعَزَّزاً مُكَرّماً، بَصِيراً واعياً مُدْرِكاً، نَاظِراً إلى مِصْر حيثُ يوسفُ عليه السلام، بل حيثُ يَحْكُمُ يوسفُ عليه السلام.

ومعلومٌ أنّ هذا كُلَّه بفضلِ الله تعالى عليهم: فلقد أذْهَبَ الله تعالى بصرَهُ لحكمةٍ هو أدْرَى بها، وهو الذي يشاءُ أن يعيدُه إليه، وهو الذي أوْحَى إلى

يوسفَ عليه السلام، أَنْ أرسلِ القميصَ ليكونَ سبباً في عودةِ بصرِه، وفي هذا تعليمٌ لنا أنّ المِحَنَ تُصيبُ كُلّ الناس، حتى الأنبياءَ والمرسلين، فنجِدَ لأنفُسِنَا في محِنِنَا، وفي قَصصِهم عبرةً وعِظَةً وسلوى.

اللطيفة الرابعة: في وُقوفِنا عندَ قولِه: **﴿وأتوني بأهلِكم أجمعين﴾**.

يوسفُ عليه السلام يُخاطِبُ إخوتَه، فيأمرُهُم أنْ يُلْقُوا القميصَ على وجْهِ أبيهم، فيرتَدَّ إليه بَصَرَه: هذا هو الأمرُ الأول.

ثم إنه يأمُرُهم أنْ يأتُوا بأهْلِهم جميعاً: هذا هو الأمرُ الثاني.

ولم نلْحَظْهُ يطْلُبُ منهم أَنْ يُحْضِرُوا أباه.

وتلك قِمةُ التأدُّبِ معَ الأبِ يعقوبَ عليه السلام.

فإنَّ مكانَتَهُ ومهابَتَهُ أعلى مِنْ أنْ يُدْرَجَ معَ طلبِ إحضارِ الأهل. وقد سَمِعْنَاهُ يقول: **﴿وأتُوني بأهْلِكُم أجمعين﴾**.

أنَّ عُلُوّ مقامِ يعقوبَ عليه السلام، يُغني يوسفَ عليه السلام، عن مجردِ ذِكرِ مجيئه.

ونحن نَفْهَمُ مُباشرةً، دونَ الحاجةِ إلى ذِكرِ كلام، أنَّ يعقوبَ عليه السلام، هو المَعْنِيُّ الأوّلُ بالمجيء.

ويوسفُ عليه السلام، يَرْتَقِبُ تَحَقُّقَ رُؤْياهُ التي رأى في صِغَرِهِ. ولن يكونَ ذلك إلا بوجودِ أَبيهِ على رأسِ القادمين.

اللطيفة الخامسة: في وقوفِنا متأمِّلِينَ لواقعِ حالِ يوسفَ عليه السلام في هذه اللحظاتِ مِنَ القِصة:

فلم يَعُدْ مُلْزَماً بعناءِ إخفاءِ شَخْصِه، وَصارَ يتحدّثُ براحتِه وعلى سَجِيّته، فهو الآنَ الأخُ المفقودُ يوسف، الذي يُكَلِّمُ إخوتَه بسرورٍ وانشراح.

لكنّه الآن يوسفُ العزيزُ ولا يُمْكِنُه أنْ يَنْزِعَ رِداءَ المُلْكِ عَنْ نَفْسِه، فنراه يتحدّثُ بلهجةِ الآمر الواثق.

وهو الذي يُوَزِّعُ على إخوتِهِ الأدوارَ والواجبات، وقد رَفَعَهُ الله تعالى فَوْقَهم، ولقد أقَرُّوا بما رأَوْا إذْ قالوا: ﴿تالله لقد آثَرَكَ الله علينا﴾.

ولكنه يَبْقَى يوسفَ المتواضعَ لله تعالى، فلا يتَعَالَى عليهم، ولا يَحْقِدُ عليهم ولا يترفَّعُ عنهم، بل يجعلُ كُلَّ هَمِّهِ جَمْعَ العائلةِ من جديد. وقليلٌ مِنَ الناسِ مَنْ نَراهُ يصِلُ إلى هذه الدرجةِ مِنَ التَّسَامُحِ والعفوِ والتواضع.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الصبر على المصائب، واحتسابها عند الله تعالى، والتأسي بحال يعقوب عليه السلام، الذي صبر على ما أصابه، وهو نبي الله المرسل، وكما أن الله تعالى فرّج عنه بعد فترة من الزمن، فكذلك نأمل نحن أن تفرج كروبنا ولو بعد حين.

٢ - للدلالة على أن صلة الرحم يجب أن تشتمل على أفراد العائلة دون أن يكون هناك تفريق أو انتقاء، وعلى الواحد منها أن يسامح من أساء إليه من عائلته، فما من شيء يستحق أن تقطع الرحم من أجله، بل أن الوقت الضائع في قطيعة الرحم لا يعوض ولا ينفع معه الندم، خصوصاً إذا ما غيّب الموت أحد المتقاطعين قبل أن يتواصلا.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧١]

تقتربُ بنا هاتانِ الآيتانِ، أخي المؤمن، منَ انتهاءِ المِحنةِ في حق يعقوبَ عليه السلام، وهو آخرُ منْ سيَبْلُغه خبرُ بقاءِ يوسفَ عليه السلامُ حَيًّا، عِلماً بأنه الوحيدُ الذي كانَ لا يَزالُ مُوقِناً بأنّ يوسفَ عليه السلامُ حي، وكانَتْ في الماضي كُلُّ الجهودِ مُنصَبةً لإقناعِه بأنَّ يوسفَ عليه السلامُ ليسَ حياً.

فلنبدأ بتأمُّلِ الآيتين:

يقولُ الله تعالى: **﴿ولَمَّا فصَلَتِ العيرُ قالَ أبوهم إني لأجدُ ريحَ يوسف لولا أنْ تُفنِّدُون﴾**.

في هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفنا عند جمالِ العِبارةِ في قوله تعالى: **﴿ولمّا فصَلَتِ العير﴾** والمقصودُ بها: لمّا انفصلتِ القافلةُ عَنْ مِصرَ مُتَّجِهَةً صَوبَ يعقوب عليه السلام، إنفاذاً لأمرِ يوسفَ عليه السلام، كما رأينا في الآيةِ السابقة، ومُباشَرَةً عند تَرْكِ مِصْر، وهي لا تَزالُ بعيدةً جداً عنِ الوصول. وبتأمُّلِنا لهذه العِبارة، نُلاحظُ تَنوُعاً عَذْباً في التعبيرِ، لا نَجِد له مثيلاً في قَصَصِ القَاصِّين.

فبالعودةِ إلى الآيات القرآنيةِ المتتالية، الدالةِ على تحرُّكِ قوافِلِ إخوةِ يوسفَ منذُ أنْ يَمَّمُوا شَطْرَ مِصْرَ، نقرأُ:

عِنْدَ بدءِ الرحلةِ الأُولى: **﴿وجاءَ إخوةُ يوسف﴾**(١).

وعِند عودتِهم مِنْ رحلتهم الأُولى: **﴿فلمّا رَجَعُوا إلى أبيهم﴾**(٢).

ولمّا عادُوا في الرحلةِ الثانية، نقرأُ: **﴿ولما دَخَلُوا من حيثُ أمرَهم أبوهم﴾**(٣).

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٥٨].
(٢) [سورة يوسف، الآية: ٦٣].
(٣) [سورة يوسف، الآية: ٦٨].

ولمّا انْطَلَقُوا للعودةِ مِن رحلتِهِمْ الثانية نقرأ: ﴿فلمّا جَهَّزَهُمْ بِجهازِهم﴾[1].

ولمّا أرادُوا العودةَ في الرحلةِ الثالثةِ نقرأ: ﴿يا بَنِيَّ اذْهَبُوا﴾[2].

وها نحنُذا في هذه الآيةِ نقرأ: ﴿ولمّا فصَلَتِ العير﴾.

ومعَ بدءِ كُلِّ رحلةٍ، تعبيرٌ جديدٌ يَرْقَى بنا في تَذَوُّقِ الجماليَّةِ اللُّغويةِ لآيِ الذِكْرِ الحكيم.

اللطيفة الثانية: لُغويةٌ أيضاً، في قولِه تعالى: ﴿قال أبوهم إني لأَجِدُ رِيح يوسف﴾.

والمقصودُ: أني أشتَمُّ رائحةَ يوسفَ، فجاءَتِ العِبارةُ أشْمَلَ وأعَمّ. بل أقول: أعلى وأرفع، بما يتناسَبُ ومَقَامَ يعقوبَ عليه السلام، فنحن نعلمُ أنه في هذه اللحظات، فَاقِدٌ للبصَر، واتصالُه بالعالمِ الخارجيِّ يكونُ عَنْ طريقِ السَمْعِ واللَّمْسِ والذَّوْقِ والشَمّ.

ولئِنْ حصَرْنَا العِبارَةَ بقولِنا: إني أشُمُّ رائحةَ يوسف عليه السلام لكان المعنى هبَطَ إلى المستوى الحسيِّ المادِيّ.

أمَّا أن نسْمَعَهُ يقول: ﴿إني لأَجِدُ رِيحَ يوسف﴾، فكأنَّهُ يقولُ لهم: إني أستَشْعِرُ بكاملِ كيانِي فيما آتاني الله تعالى من طَاقَاتٍ ومَلَكَاتٍ، رائحةَ يوسف، بطبيعةٍ مُختَلِفةٍ عَنْ تِلْكَ التي تَعْرِفُونَ أنتم، بما تمْلِكُونَ مِنْ إمكانيةِ الشَمِّ المحدُودة.

اللطيفة الثالثة: في مُلاحَظَتِنا لمشيئةِ الله تعالى، بإظهارِ المُعجزةِ التي اختُصَّ بها يعقوبَ عليه السلام، بعدَ فترةٍ طويلةٍ مِنَ انقطاعِ الإعلام. فلقد عَلِمْنَا أنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام، يعيشُ حالةَ حُزنٍ وقلقٍ شديدين منذُ أنْ فَقَدَ يوسفَ عليه السلام.

ولقد مَكَثَ يوسفُ عليه السلامُ في مِصْرَ سنينَ طويلة، ولم يتَمَكّنْ يعقوبُ عليه السلامُ مِنَ الوصولِ إلى معرفةِ مكانِ وجودِه، ولم يُعْلِمْهُ الله تعالى عَنْ مَكانِ وجودِه.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٧٠].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ٨٧].

ولم يَطْلُبْ هُوَ منَ الله تعالى، أنْ يُعْلِمَهُ بمكانِ وجودِه، وهو نبيٌ مُرْسَل.

وإذا به الآن يشتمُّ رائحةَ يوسفَ عليه السلام، مِنْ مكانٍ بعيدٍ جداً، قد يكونُ عندَ أسوار المدينةِ في مِصْر.

وبالتالي، فهذا إعجازٌ وإكرامٌ مِنَ الله تعالى، ولم يَكُنِ الإذْنُ قد حَصَلَ قَبْلُ فلم تَتَمكّنْ أدواتُ الحِسِّ مِنَ التقاطِ المعرفة، وكلُّ شيءٍ بمقدار، والله تعالى هو المُعْطِي والمَانِع، وإنْ شاءَ أوجدَ في أدواتِ الحِسِّ ما شاءَ لها مِنَ وظائِف.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عند عبارة: ﴿**لولا أن تُفنِّدون**﴾.

وهنا إخفاءٌ وحَذْف. والمقصودُ بالعِبارة: لولا تَفنيدُكم إيايَ لصَدَّقْتُموني. أي لولا أنكم تتّهمونني بضَعْفِ الرأيِ مِنَ الهرمِ، لصَدّقْتُموني..

وما أَشَدّ ذَكاءَهُ وتَوَقُّدَ ذِهْنِه رَغْمَ هَرَمِه:

فيعقوبُ عليه السلام، يسوقُ واقعةً صحيحةً مُؤَكّدَةً في حَقِّه، ولو كانَ مُتَخَيّلاً، لكانَ تَخَيَّل غيرَها مُنذُ زمنٍ طويل، وعلى مَدَى السنين..

وهو يعرفُ مِنَ الله تعالى أنه اختَصَّهُ بهذِه الكَرامة، فخَرَقَ له العادة، ومَكَّنَهُ مِنَ الحِسِّ برائحةِ يوسفَ عليه السلام.

والذينَ مِنْ حولِه، يسترسِلُونَ في ثنيه عنِ التفكيرِ بيوسفَ عليه السلام حتى قَبْلَ هذا الإعلامِ الغيبي.

فكيفَ لهم أَنْ يُصَدِّقُوهُ الآن، وقَدْ ضَعُفَتْ لديهم وسائلُ التّصديق..

بلْ زَادَتْ لديهم مُقَوِّمَاتُ عَدمِ التصديقِ من كِبَرِ سِنٍّ، وَوَهَنِ عَظْمٍ وازديادِ حُزْن؟

فكانَ أن استبقَ وعَاجَلَهُمْ بذِكْرِ ما يُفَكِّرُونَ به فقال: ﴿**لولا أنْ تُفنِّدُون**﴾.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانيةِ، موضوعِ تأمُّلِنا اليوم: ﴿**قالوا تالله إنكَ لفي ضَلالِكَ القديم**﴾.

في هذه الآيةِ لطيفتانِ اثنتان:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ حالِ أهلِ يعقوبَ عليه السلام، وقد أحاطُوا به يُواسُونَهُ ويُخفِّفون عنه:

فهم بحُكْمِ إعمالِهم لجري العادةِ في أحوال الناس، مُتأكِّدون مُتَيَقنونَ بأنّ يوسفَ عليه السلام، قد ماتَ منذُ زمنٍ بعيد.

وهم يَرَوْنَ في إصرارِ يعقوبَ عليه السلام، على نفي مَوْتِه، خطأً وبُعداً عنِ الحقيقة.

وهم يَعْلَمُونَ أنه نبيٌّ مُرْسَل، ومِنْ هذا المنطلق، يَزدَادُ يقينُهم، إذْ، في اجتهادِهم لو كانَ ما زَالَ حَيّاً لجاءَهُ الإعلامُ الغيبيُّ منذُ زمنٍ بعيدٍ بذلك.

وهم يَسْمَعُونَ منه أنه يشتَمُّ رائحةَ يوسفَ عليه السلام. وهو يسوقُ بذلكَ دليلاً ماديّاً حسياً، يَمْلِكُونَ هم أنفُسُهم أدواتِ شَمٍّ مُشابِهة..

وهم لم يَشُمُّوا رائحةً كما يشتم معَ أنهم في غُرفةٍ واحدة، ومَوْقعٍ واحد.

وقد رأَوْا كِبَر سِنِّه وضَعْفَ جِسْمه.

فزادَ يقينُهم بأنّه يتَمَنَّى أنْ يجِدَ رِيحَ يوسفَ في داخِله ففنَّدُوه بقولِهم: **﴿تاللهِ إنّكَ لفي ضَلالِكَ القديم﴾**.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا بالمقابلِ عندَ حالِ يعقوبَ عليه السلام:

أمّا هو، فلقد تلَقَّى الإشاراتِ الثلاثَ السابقة، التي ذَكَرْنَاها في تأمُّلِنا للآياتِ السابقة.

وهو في حالةِ تَحَفُّزٍ وارتقاب، وقدِ انتعشَتْ آمالُه، واستمرَّ انتعاشُها في تصَاعُد.

وهذا ما حَمَلَهُ على التشديدِ على وجوب التحسُّسِ مِنْ يوسفَ عليه السلام، شَطْرَ مِصْر، وأرْسَلَ أبناءَه في رحلةٍ ضعيفةِ الآمالِ في نظرِهم..

إلى أنْ وصَلَتْه الريحُ ووَجَدَ رائحةَ يوسفَ عليه السلام.

فانقلبَ الأملُ إلى حقيقةٍ واقعة، وهو المؤمنُ الواثِقُ الشديدُ الإيمانِ بأنّ الله تعالى لا يُمْكِنُ أنْ يَخْذُلَه.

وكان يمكِنَه أنْ يَكتُمَ هذه الثقة وهذا اليقين إلى حينِ وصولِ البشير..

إلا أنه آثر أنْ يُظْهِر أثر رَحْمَةِ الله تعالى عليه، تعليماً لأهلِ بيتِه الحاضِرين معه، وتعبيراً عنْ عظيمِ فَرْحَتِه.

ولم يأبَهْ لاحتمالِ تفنيدِه.

وسيُكَرِّرُ عليهم لاحقاً ما قالَهُ لهُم قبلاً: ﴿**إني أعلمُ مِنَ الله ما لا تَعْلَمُون**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن ما وصلنا إليه اليوم بما فتح الله تعالى علينا من أبواب العلم الحديث في وسائل الإتصالات، ليس بفعل براعة الإنسان وحدة ذكائه واستقلاله بعلمه كما يظن أغلب علماء اليوم، بل هو بفعل إذن من الله تعالى وتسخير ما خلق في الكون من كهارب وذرات، وما وضع من قواعد الفيزياء والكيمياء، ثم علمها عباده، وما حال يعقوب عليه السلام، فيما خرق الله تعالى له من سنن العلم في عصره، إلا أبلغ دليل على أن ما نراه اليوم من تقنيات الصوتيات والمرئيات ليست إلا مما أذن الله تعالى للإنسان بمعرفته، من فيض علمه الذي لا ينتهي.

٢ - للدلالة على وجوب عدم الجزم بأمر لا نملك كامل المعلومة عنه، حتى وإن ظننا من أنفسنا يقين المعرفة به. والأمثلة في الحياة كثيرة، كأن يقطع أحدنا باستطاعته إنجاز مسألة ما، ثم يتبين له وجود عوائق تحول دون ذلك والحكمة تقتضي أن نعقب دائماً بقولنا: إن شاء الله.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٢]

تصلُ بنا هذه الآياتُ، أَخي المؤمن إِلى النهايةِ السعيدةِ لمحنةِ يعقوبَ عليه السلام، التي شاءَها اللّه تعالى له، بعودةِ بَصرِه، بعدَما فَقَدهُ مِنْ شِدَّةِ حُزْنِهِ على يوسفَ عليه السلام، وهذه معجزةٌ أَكْرَمَهُ الله تعالى بها، وهو القادرُ على كلّ شيء، يحيي العِظامِ وهي رَمِيم، يَبعثُ مَن في القُبورَ إلى يومِ النشور، يُدَبِّرُ الأَمرَ لا مُعقِّبَ لحكمِه.

فلنبدأ بتأمُّلِ الآيات.

يقولُ الله تعالى:

﴿فلمّا أن جاءَ البشيرُ أَلقاهُ على وَجْهِهِ فارتَدّ بصيراً قال أَلَمْ أَقُلْ لكم إِني أَعلمُ مِنَ الله ما لا تَعْلَمُون﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في إِخفَاءِ هَوِيّةِ الذي أَلْقَى القميصَ على وَجْهِ يعقوبَ عليه السلام، وهذا من سُموِّ القرآنِ الكريمِ على كلامِ البشر، وأَهلُ اللغةِ والأَدب، يَعْرِفُونَ ذلك ويفرّقون:

فاتجاهُ الناسِ في سردِهم للقَصَص، يَغْلِبُ عليه حُبُّ إِظهَارِ أَشخاصِ قَصَصِهم وتَعْرِيفِهم، وهذا دَاخِلٌ في طبيعةِ تكوينِ النفسِ البشرية.

أمّا في القرآنِ الكريم: فإنّ سُمُوَّ الآياتِ يرتقي فوقَ التفاصيل، ويأتي التركيزُ على إفادةِ القارئ والمستمعِ، من كُلِّ حرفٍ فيها، مع جماليةٍ لُغويّةٍ يتلاقَى فيها المبنَى مَعَ المعنى، في تَناسُقٍ تام.

فأَشارَ القرآنُ الكريمُ في هذا الآية، إلى حَاملِ القميصِ بكلمةِ: ﴿**البشير**﴾، فجاءَتْ جميلةً غنية.

فلمْ تَشغَل القارئَ بمعرفةِ هُوِيّةِ مَنْ حَمَل القَمِيص، والتفَتَ إلى النتيجةِ المُنْتَظرَةِ مِنْ فعلِ الإلقاء.

ولم تأتِ جَافَّةً كقولِنا: ولمّا جاءَ الرسولُ، أو المكلَّف، بل جاءَتْ بصيغةِ الترغيبِ والتيسيرِ والتفاؤل، فقال: ﴿**فلمّا أنْ جاءَ البشير**﴾.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ دِقّةِ العبارةِ القُرآنية، في دِلالاتِ التعبير:

فلقدِ استعملَ يوسفُ عليه السلامُ صِيغةَ الجمع، احتراماً منه لِمَقَامِ أَبيه، حين أرسَلَ قمِيصه إذْ قال: ﴿**اذهَبُوا بقميصِي هذا وأَلقُوه على وَجْهِ أَبي يأتِ بصيرا**﴾.

أمّا في الإِخبار، فجاءَتِ الصيغةُ بالمُفْرَد لشرحِ وَاقعِ الحال، وجاءَ الفعلُ بالارتداد لشرحِ واقعِ الحالِ أيضاً، فنسمعُ: ﴿**أَلقاه على وَجهِهِ فارتدَّ بصيرا**﴾.

فتأمّلْ أَخي المؤمن جَمالَ تَكَيُّفِ كلماتِ القرآنِ معَ مُناسَبةِ وُرودِها.

اللطيفة الثالثة: تأديبيةٌ تعليمية:

ذاكَ أنّ الحَدَث الحاصِلَ في هذه اللحظات معَ هذه الآية، حدثٌ عظيمٌ جلل:

فهو يَخْرِقُ المألوفَ في العادة.

وعودةُ البصرِ كرامةٌ كبرى، ومِنّةٌ عُظمَى.

ودليلٌ على عُلُوِّ مَكانةِ يعقوبَ عليه السلام، عندَ الله تعالى.

ولو حَصَلَ هذا الأمرُ معَ أيِّ إنسان، لانطلَقَ فَرِحاً مَسْرُوراً لا يَلْوِي على شيء..

لكنّ يعقوبَ عليه السلام لا يَفْقِدُ اتِّزَانَه، بل يَشْكُرُ الله تَعالى على عظيمِ كَرمِه، وَيُقْبِلُ على أَهلِهِ واعِظاً داعياً، مُعَلِّماً مؤدِّباً فيقولُ لهم:

﴿ألم أَقُلْ لكُم إني أَعْلَمُ مِنَ الله ما لا تَعْلَمُون﴾ وهو بذلك يُعَلِّمُنا نحن ويقولُ لنا:

لا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدنيا وزِينتُها، وتَظُنُّوا ظاهرَ الحالِ هو الحقَ واليقين.

ولا يُصَيبَنَّكُمُ القنوتُ واليأس، فإِنَّ قُدرةَ الله تعالى أَعْلى من كيدِ الظالمينَ ومَكْرِهم.

وإنّ الله تعالى بِكُلِّ شيءٍ عليم، وعلى كُلِّ شيءٍ قدير.

لَئِنْ رأيتُمْ غَلَبَةَ الباطِلِ في الظاهر، فإِنَّ أجلَ الله تعالى آت، ولقد انتظرَ أنبياءُ الله تعالى وأَصفياؤهُ مِنْ خَلْقِه، زَمَناً طويلاً قَبْلَ أَنْ يأتِيَهُمُ الفَرَج، فَلْيَكُونوا لنا أُسوةً في صَبْرِنا على مَصاعبِ الدنيا، وقَسْوَةِ الظّالمين.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانية، موضوعِ تأَمُّلنا:

﴿قالوا يا أَبانا استَغْفِرْ لنا ذُنوبَنا، إنّا كُنّا خاطِئين﴾.

في هذه الآيةِ لطيفتانِ اثنتان:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا لاستمرارِ سَعْيِ الإِخوةِ في تَنْقِيةِ سَرائرِهم، وطلبِ الصَفْحِ والمَغفرةِ من كُلِّ الذين أَساؤُوا إليهم.

ومَا طلبُهم من أَبيهم أَنْ يستغِفر لهم، إلا تعبيرٌ عَنْ طَلَبٍ مُزْدَوج، يتضَمَّنُ كبيرُه صغيرَه:

فهم يطلبونَ منه الصفحَ والعَفو والنزولَ عَنْ حَقِّهِ حِيالَهم.

بأنْ يَطْلُبوا منه أَنْ يَسْأَلَ الله تعالى أَنْ يَغْفِرَ لهم.

وتلك التفَاتَةٌ جميلة، تَدُلُّ على ذَكاءٍ وَصفاءِ سَرِيرة.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عندَ قولِهم: ﴿**ذُنوبَنا**﴾.

وهُمْ يُشيرونَ بذلكَ إلى أَنها أَكْثَرُ مِنْ ذَنْبٍ واحد، ونحن مِن خِلالِ قراءَتنا لآياتِ السورة، لم نَعْرِفْ عنهم إلا أَنهم أَذْنَبُوا ذَنباً واحداً: وهو إِلقاءُ يوسفَ عليه السلام في الجُبّ.

لكنَّ المدقِّقَ يَجدُ أَنهم فعلاً مُحِقُّونَ في تسميةِ ما فَعَلُوه ذنوباً:

➢**فكانَ أَولُ الذنوبِ**: أنهم تآمروا على يوسفَ عليه السلامُ فيما بينهم يومَ أَنْ تَنَادُوا لإِبعَادِه.

➢**وثاني الذنوب**: أَنهم أَظْهَرُوا محبةَ يوسفَ عليه السلامُ، أَمامَ أَبيهم، بينما هُمْ له كَارهُون.

➢**وثالثُ الذنوب**: أَنهم أَخذُوا يوسفَ مُدَّعِينَ له الحِفْظ، بينما كانَتْ نيتهُمُ الإِهدَار.

➢**ورابعُ ذُنوبِهم**: أَنهم أَلْقُوا طِفلاً صغيراً ضَعيفاً في غَيابَاتِ جُبٍ في أَرضٍ مُقْفِرة.

➢**وخامسُ ذُنوبِهِم**: أَنهم جاؤُوا على قميصِه بدمٍ كَذِب.

➢**وسَادسُ ذُنوبِهِم**: أَنهم كذبوا على أبيهم حين ادّعَوْا أنّ الذئبَ أَكلَه.

➢**وسابعُ ذُنوبِهِم**: أَنهم ادّعَوْا أمامَ العزيز، أنّ يوسف عليه السلامُ سَرق.

➤**وثامنُ ذُنوبهِم:** وأَشَدُّها هو ما خَلَّفوهُ مِنْ حُزنٍ شديدٍ في نفسِ أَبيهم، أدى إلى ذَهَابِ بَصَرِه.

فحَقُّ لهم أن يقولوا: **﴿يا أبانا استَغفِرْ لنا ذُنوبَنا...﴾**

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثالثةِ موضوعِ تَأَمُّلِنا:

﴿قال سوفَ أستغفِرُ لكُم رَبِّي إنه هو الغفورُ الرحيم﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وُقوفِنا عندَ دِقَّةِ العِبارة، فيما ذَكَر يعقوبُ عليه السلام، إذْ قال: **﴿سوفَ أستغفرُ لكُم رَبِّي﴾.**

ونعودُ فنتذكَّرُ ماذَا كانَ موقفُ يوسفَ عليه السلام، إذْ طَلَبُوا منه العَفْوَ إذْ قال: **﴿يَغفِرُ الله لكُم..﴾.**

ونتساءَل: لماذا أَجلَّ يعقوبُ عليه السلامُ طَلَبَ المغفرةِ مِنَ الله تعالى لهم؟

هَلْ ما زَالَ في نفسِه عليهِم مِنْ وَجد؟

ونجتهدُ مَعَ المُفَسِّرينَ بالتعليل:

لقَد كانَتْ أَذِيَّتُهُم ليعقوبَ عليه السلام، أَكْبَرَ منها ليوسف عليه السلام، وأَذِيةُ النفسِ أشَدُّ مِن إيلامِ الجِسْم.

ومعلومٌ أنّ رحمةَ الأَبِ بابنهِ أَشدُّ وأَقْوَى مِنْ رحمةِ الأَخ بأخيه.

ورغبةُ يعقوبَ عليه السلام، بحصُولِ المغفرةِ لأبنائه، تتجاوزُ مجردَ الطلبِ، وتصلُ إلى مَرْتبةِ التضَرُّعِ والاشتغالِ به.

وهو يرغَبُ بأنْ يكون في حالِ صفاءٍ وسكينة، وقيل: إنه انتظَر وَقْتَ السحر، لأنّ الدعاءَ فيه مُسْتَجاب.

فكانَ له ما كان، ونَعْلَمُ مِنْ موضعٍ آخرَ في القرآن الكريم، في سورةِ الأعراف، أنّ الله تعالى استجابَ له، فغفرَ لهم، ورَفعَهُم إلى مرتبةِ الأنبياءُ.

اللطيفة الثانية: في معرفتِنا مباشرةً، أنه تنَازَلَ عَنْ حَقِّهِ الشخصي، وعَفا عنهم، بتعبيرٍ جميل، وإشارةٍ غيرِ مُباشِرة، إذْ قال: ﴿**إنه هو الغفورُ الرحيم**﴾، وكأنه يقولُ لهم:

كيفَ لي ألا أعفُوَ عنكم، وأنا أطْلُبُ مِنَ الله تعالى في أحسَنِ ظروفِ دُعائي وتَضرُّعي، أنْ يَغْفِرَ لكم ويرْحَمَكُم.

والله تعالى هو الغفورُ الرحيم، ونحن نعرفُ أنه يُجيبُ المُضْطَرَّ إذَا دعاه، ويعفوَا عنِ السيئات.

ونُعَقِّبُ بقولِنا: يكفيكَ أيها الإنسانُ الخاطىءُ أَنْ تُحْسِنَ التوبةَ إلى الله تعالى، وتَدْعُوَهُ صَادِقاً مُسْتَغفِراً عَاقِداً العزمَ على عدمِ العود إلى ذَنبِكَ حتى تجدَ الله تعالى قريباً منك.

ألم تسْمَعْ قولَ الله تعالى في الآية الخامسةِ والعشرين من سورة الشورى: ﴿**وهو الذي يَقْبَلُ التوبةَ عَنْ عبادِه ويعفو عن السيئات**﴾.

اللطيفة الثالثة: في استشعارِنا لحالِ السكينةِ والطُمَأْنينة، التي يَعِيشُها يعقوبُ عليه السلام في كلمةٍ واحدةٍ قالَها، وهو كلمةُ ﴿**رَبِّي**﴾ في قوله: ﴿**سوفَ أستغفِرُ لكُمْ رَبِّي**﴾، وهو تعبيرٌ عن ثقتهِ بالله تعالى، وشُعورِهِ بقُربه منه، ونحن بدورِنا نشعرُ بالغِبْطَةِ لهذه السكينةِ والطُمَأْنينة، ونسألُ الله تعالى أنْ يُبَلِّغَنا إيّاها، آمين.

مواطن الإسترشاد بالآيات في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الله تعالى قريب مجيب الدعاء، وإن على الإنسان أن لا يكتفي بالدعاء إلى الله تعالى له بالعفو والمغفرة، بل عليه أن يستسمح من أساء إليه، وأن يطلب منه أيضاً الدعاء إلى الله تعالى أن يغفر له، ونصل هنا إلى معنى جديد رائع من معاني صفاء القلوب بين العباد: أن تطلب ممن كان خصمك أن يكون حليفك في الدعاء إلى الله تعالى أن يظللكما معاً برحمته وعفوه ومغفرته.

٢ - للدلالة على أن حب الأب لأبنائه متأصل متجذر منغرس في أعماقه، وهذا سر من أسرار الله تعالى: فمهما كانت قسوة الأبناء على الآباء شديدة ومتمادية، فليس أسرع من قلب الآباء صفحاً وعفواً، ولو أدرك الأبناء عظمة هذا السر لما وقع ولد في جرم العقوق.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٣]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن إلى مَشهدٍ جديدٍ منْ مشاهدِ قصةِ يوسفَ عليه السلام، وهذا المشهدُ سيكونُ المشهدَ الأَخير، يَحْصُلُ فيه جمع شَمْلِ العائلة، وتَحقُّقُ رؤيا يوسف عليه السلام التي بها بدأتِ القصة، فتكونُ بذلك قد استدارَتْ على ما حَوَتْ منْ عظيمِ الأَحداثِ والتقلُّبَاتِ والتأَزُّمَات، وهذا هو الأسلوبُ الأَجملُ في السرد.

يقول الله تعالى:

﴿فلمّا دَخَلُوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا من جديد لهذا الانتقالِ السريعِ إلى مِصْر، دونَ الحاجةِ إلى الإعلامِ بحصُولِ السفر، وهذا ما اعتَدْنَا عليه في تنَقُّلِ إخوةِ يوسفَ عليه السلامُ في رِحْلاتِهِمُ المُتَكَرِّرَة، وهذه رابعُ رحلةٍ تَحْصُلُ منذُ بدءِ القَحْط، وأُسلوبُ السردِ القرآنيُّ يَسْمَحُ لنا بمتابعةِ التنقُّلِ معَهم دونَ عناء، وفي هذا مُشَارَكَةٌ ذهنية من القارىءِ والمستمعِ لأحداثِ القصة، تُكَرِّسُ تفَاعُلَه، وتَجْعَلُه في قَلْبِ الحدث..

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لافتتاحِ المشهدِ بقولِ الله تعالى: **﴿فلمّا دَخلُوا﴾** وكُنّا قد أشرْنَا إلى تَرابُطِ مَشاهدِ القصةِ بعلاماتٍ مُمَيّزَة: بالغةِ الأَهمية، تُعطي الأُسلوبَ القرآنيّ في السردِ جماليةً فريدة وما تَكْرَارُ عِبارةِ: **﴿فلمّا دَخلُوا﴾** عند بَدْءِ كُلِّ مشهد، إلا تكريسٌ لهذا المبدأ..

اللطيفة الثالثة: في متابَعَتِنا للأُسلوب القرآنيّ في إيلافِ السَمْع، ففي الآية التاسعةِ والستين، أرادَ يوسفُ عليه السلام، أَنْ يُكْرِمَ أخاه الأَصغر، فجاءتِ الآيةُ تقول: **﴿ولمّا دَخَلُوا على يوسفَ آوى إليه أَخاه﴾** فارتاحتِ الأُذُنُ لهذا التعبير، لِمَا في كلمةِ آوى مِنْ معَاني الاحتضانِ والضَمِّ والحُنوِّ والعَطْف.

ثم إنه في الآية، موضوعِ تأمُّلِنا، أرادَ يوسفُ عليه السلامُ أَنْ يُكْرِمَ أَباه، ولحاجةِ نفسِ المستمعِ والقارىءِ إلى المحافظةِ على المستوى ذاته مِنْ راحةِ الأُذن، جاءَتِ الآيةُ تقول: **﴿ولمّا دَخَلُوا على يوسفَ آوى إليه أبويه﴾.**

ثم يقولُ الله تعالى في الشطرِ الثاني مِنَ الآية:

﴿وقالَ ادخُلُوا مِصْرَ إن شاءَ الله آمنين﴾.

في هذا الشطر منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تساؤلنا عن سببِ تَكْرَارِ عِبارةِ الدُّخول، وكُنَّا قَدْ سَمِعْنَا في بدايةِ الآية: **﴿فلمّا دَخَلُوا على يوسف﴾.**

وجوابه:

السببُ الأولُ: للضَّرورةِ الُّلغوية، وجماليةِ أُسلوبِ السردِ كَما ذَكَرْنا بإتمامِ افتتاحِ المشهدِ بما يتناسَقُ وتعابيرِ افتتاحِ المشاهدِ السابقةِ.

السبب الثاني: هو أنّ الدخولَ الأوّلَ حَصَل على مجلسِ يوسفَ عليه السلام، وقد ذكَرَ المُفَسِّرون أنّ يوسفَ عليه السلام، إكراماً لقدومِ أبيه، وإعلاءً لِقَدْرِهِ، وأَدباً وتواضعاً، انطلقَ إلى خراجِ المدينة، واصطَنَعَ لِنَفْسِهِ مَجْلساً، فلمّا وَصلَ الأَبُ وأَفرَادُ العائلة، دَخَلُوا على يوسفَ عليه السلام، فاستقبَلَهُمْ وأَحْسَنَ استقبالَهم، وضَمَّهُمْ إليه، ثم قالَ لهم: **﴿ادخُلُوا مِصر﴾.**

السبب الثالث: هو أنّ دُخولَهم على يوسفَ عليه السلام، كانَ دخولَ وَفْدٍ على مُضِيف، كما يَدْخُلُ الزائرُ على صَاحبِ الدار، وهذا هو المقصودُ بالدُّخولِ الأوَّلِ بقولِهِ تعالى: **﴿ولمّا دَخَلُوا على يوسف﴾.**

أمّا وقَدْ حصَلَ هذا المجلس، وهو مجلسُ الاستقبالِ، فإنّ دعوةَ يوسُفَ عليه السلامُ، أهْلَهُ بالدُّخولِ إلى مِصْر، هي دعوةُ مُكُوثٍ واستقرار، فجاءَ الدخُولُ الثاني بمعنى الإقامةِ والثَّبات.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لدِقة العبارةِ في قولِ يوسفَ عليه السلام: **﴿ادخُلوا مِصْرَ إنْ شاءَ الله آمنين﴾**.

لقد علَّقَ حصولَ الأَمنِ على مَشِيئَةِ الله تعالى.

والنّاظرُ إلى واقعِ الحالِ في هذا الوقت، يَسْتَغْرِبُ هذا التعليق:

فيوسفُ عليه السلام، هو عزيزُ مِصْر، وهو الآمرُ والناهي، وسيُنْزِلُ أهلَه منزلةً عزيزةً كريمة، يَضْمَنُ لهم فيها رَغَدَ العيشِ وطُمَأْنينَةَ البال، وراحَةَ المنزلِ، وكريمَ الحياة وطَيِّبَ الطّعَامَ، ووثير الفِراش، والأمنَ من الخوفِ والجوعِ والعطش.

ولنْ يكونَ من يُقْلِقُ عليهم راحَتَهم، وكُلُّ مَنْ في مِصْرَ يَطْلُبُ رِضى العزيز..

لكنَّه مَنْهَجُ الأَنبياءِ والرُّسلِ الكِرام، في دَوامِ مُراقَبَتِهم لقضاء الله تعالى وقَدَرِه. والمسألةُ على جانبٍ عظيمٍ من الأَهميةِ، نتوقفُ عِنْدَها لِنتعلَمَ مِنها:

لم يَدَعْ يوسفُ عليه السلام، ما وَصَلَ إليه مِنْ عِزٍ وَجاهٍ ورِفعَةٍ وسُؤدَد، يُؤَثرُ على يقينهِ بقَضَاءِ الله تعالى، في إنفاذِ أَمرهِ على مَرِّ الأيام، من تَقَلُّبِ الأحوالِ على الخَلْق، بينَ صعودٍ وهُبوط، وغنىً وفَقْر، وقوةٍ وضَعْف وهو يَعْلَمُ أَنه حتى وإنْ كان في مَرْتَبَةِ النُّبوة، فإنّ أحكامَ الله تعالى تَجْري على كُلِّ الخَلْق، حتى على المؤمنين الصالحين الطائعين، حتى على الأنبياءِ والمُرْسَلِين، فلم يَضْمَنْ لَهُمُ الأَمنَ لا في حياتهِ ولا بعد مماته مِنْ بَعْدِهِ، لذلك قال لهم: **﴿ادخُلوا مِصْرَ إن شاءَ الله آمنين﴾**.

ولقد صدَقَ ظَنُّه وكان مُصِيباً في عدمِ ضَمانِه، ونحن نَعْرِفُ الآنَ مِنْ مَجرياتِ التاريخ، أنّ بني إسرائيلَ لم يَدُمْ لهُمُ الأَمنُ في مِصْرَ زَمناً طويلاً بعدَ يوسفَ عليه السلام، ولقد تَعَرّضُوا في مِصْرَ على أيدي الفراعنة إلى أشَدّ أنواعِ

العذابِ والتنكيل، واستُعْبِدُوا وأُوذُوا حتى بَعَثَ الله تعالى فيهِم مُوْسى عليه السلام، لِيُخْرِجَهم من أَرضِ مِصْرَ..

وقد مرَّ معنا في تأَمُّلنا لآياتِ هذه السورة قولُ يعقوبَ عليه السلامُ لأبنائِهِ حينَ أرسلَ معَهُم ابنَهُ الأصغر، وأَوْصَاهُم بالحِرْصِ والاحتياطِ والحَذر، إِذْ قالَ مُعَقِّباً: **﴿وما أُغني عَنكُم مِنَ الله مِنْ شيءٍ﴾**.

ولقد أوضَح لنا الله تعالى المنهجَ العَام لِنَسْلُكَهُ في حياتِنا وآمالِنا وتَخْطِيطِنا في الآيتين الثالثةِ والعشرين، والرابعة والعشرين مِنْ سورةِ الكهف إِذْ نَقرأ: **﴿ولا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فاعلٌ ذلك غداً ﴿٢٣﴾ إلا أَنْ يشَاءَ الله واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ وقُلْ عسى أَنْ يهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾**.

وكم جميلٌ مِنّا أَنْ نتوَّقَف لِنتأَمَّلَ مَوْقِعَنَا مما حَمَلَتْهُ إلينا الآيَةُ الكريمة.

فالقرآنُ الكريمُ نَزَلَ بعدَ زمنٍ طويلٍ جداً على حصُولِ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، وهو يُخْبِرُنا بما قالَ يوسفُ عليه السلام: **﴿ادْخُلوا مِصرَ إن شاءَ الله آمنين﴾**.

وقبلَ نُزولِ القرآنِ الكريمِ بزمنٍ طويلٍ جداً أيضاً، حَصَلَ تَبَدُّل حالِ بني إسرائيلَ في مِصْرَ منَ الأمنِ إلى الاضْطِهاد، وقد أَخبرنَا القرآنُ الكريمُ عن هذا الواقعِ أيضاً.

ولقد شاءَ الله تعالى أَنْ يُثْبِتَ قولَ يوسفَ عليه السلام بالدّعاءِ بالأمنِ لأهلِهِ، تعليماً لنا وإرشاداً بأَنّ الله تعالى سَنّ سُنَنَه في الكونِ وَأَرْسَاها، وقَضَى قَضَاءَه وقَدّرَه، وتَرَكَ الخَلْقَ يَتقلّبُونَ في الأرض وأجّلَ لهُمُ الحِسابَ إلى يومِ الدِين، وهو يَعْلَمُ المُفسدَ مِنَ المصْلحِ، ويُخْبِرُنا عَنْ صَلاحِ الصَالح، وفَسادِ الفاسد.

ونحن في مَحطةٍ مِنْ مَحطَّاتِ الزمن، نتأَمّلُ أُمنيةَ يوسفَ عليه السلام، بدوامِ الأَمنِ لقومهِ في مِصْرَ، ونَعْلَمُ أَنَّ الأَمنَ لم يَدُمْ لَهُمْ طويلاً، ونُدْرِكُ أَنَّ قضاءَ الله تعالى ماضٍ كما شَاءَهُ الله تعالى، لا يُغَيِّرُه شيءٌ، فَنسُوقُ هذه الحقيقةَ

على واقِعنا المُعَاش، ونُدْرِكُ أنَّ هذه المِحَنَ المتتالية علينا، بعضٌ مِنْ قضاءِ الله تعالى، وأنّ دوام الحال من المحال وكُلّ حالٍ إلى زَوال، وستَزولُ الشِدَّةُ بإذنِ الله تعالى.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لهذا التغييرِ الشديد، الذي سَيَطرَأُ على حياةِ يعقوبَ عليه السلامُ وأولادِه بانتقالِهم إلى مِصْر:

فهم يَتْرُكُونَ بيئةً بَدَوِيّةٍ مَعَ كُلِّ ما تُمَثِّلُهُ مِنَ ارتباطٍ بالأرضِ، وقُربٍ مِنَ الطبيعةِ، والاهتمامِ بالأنْعَامِ، وعدمِ الثباتِ في موقعٍ واحد، والشعورِ الدائمِ بالحرية.

ويستقبلونَ حياةَ المدنية مَعَ كُلِّ ما تُمثِّله من انجذابٍ إلى الموقعِ الواحد، وبُعْدٍ عنِ الطبيعة، وتغييرٍ في نمطِ الحياةِ، والتعرفِ إلى طبائعَ جديدة، ووسائلَ مَعِيشَةٍ مختلفة، وبيوتٍ مبنيةٍ، وشوارعَ وطرقاتٍ وأَزِقّة.

وسَيشيرُ يوسفُ عليه السلام إلى هذا الأمرِ في لاحقِ الآيات.

مواطن الإستدلال بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الأحوال تتبدل على الناس، أما صعوداً وأما نزولاً. فكم من صاحب مال ونفوذ، دارت به الأيام فسحبت ما بين يديه من مال وتركته فقيراً معدماً، وكم من معدم فتح الله تعالى عليه من بركة فضله، فأقبلت عليه الدنيا ضاحكة مستبشرة، وليعلم هذا وذاك، أن هذه الحال لن تدوم عليه طويلاً فليخشى الله تعالى فيما آتاه، وليرض بما قسمه له، وليقنع بما قدره عليه.

٢ - للدلالة على أن أمنية الإنسان بدوام الأمن لا ترقى إلى درجة اليقين أبداً. ذاك أن سنة الله تعالى في الناس في الحياة الدنيا أنها دار امتحان وابتلاء، وما هي دار قرار، والتاريخ يقول لنا أنه ما نعمت أمة بالأمن دائماً أبداً.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٤]

نصلُ معَ هذه الآيةِ أخي المؤمن إلى النهايةِ السعيدةِ التي طَالَ انتظارُها وفيها صَدَقَ الله تعالى نبيّه يوسفَ عليه السلام الرؤيا، وحَقَّقَ له ما وَعَدَهُ فيها مِنْ إعلاءِ الشأنِ، واجتماعِ الأُسرةِ في كَنَفِه..

فلنبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة:

يقولُ الله تعالى: **﴿ورَفَعَ أَبويهِ على العرشِ وخَرُّوا له سُجداً وقال يا أَبتِ هذا تأويلُ رُؤيَايَ مِنْ قبلُ قَدْ جعَلَها رَبِّي حَقًّا﴾ في هذه الشَطرِ مِنَ الآية، لطائفُ عدة:**

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قولِهِ: **﴿ورَفَعَ أبويه﴾**.

ونحن، على مَدارِ القِصة، لم نَسْمَعْ شيئاً عنْ أُمِّه، وقد تُصِيبُنا الدَّهشَةُ إذْ نتساءَل: لِئَنْ كانَ الأَسَى والحزنُ الذي عصَفَ بيعقوبَ عليه السلام على فَقْد يوسفَ عليه السلامُ بهذا الكَمِّ الهائل، فالأَوْلَى به أَنْ يكونَ بمقدارِ إضعَافِه في قَلْبِ أمِّه، ولم تَظْهَر إطلاقاً في أيِّ مِنْ مشاهِدِ القِصّة؟

الجوابُ هو أنّ أُمَّهُ التي وَلدَتْهُ كانَتْ قد توفِّيتْ منذُ زَمنٍ بعيدٍ بإجماع المفسرين حتى قبل أن ينتَزِعُوهُ مِنْ أبيه، والمعنية والمشار إليها في الآيَة الكريمة، هي خالتُه زَوْجُ أبيهِ التي تُنَزَّلُ تُنزِلَة الأُمِّ في حَقِّ يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عندَ تَصرُّفِ يوسفَ عليه السلام، برفعِ أَبويه على العرشِ، وهو يُعَلِّمُنا كيفَ يكونُ الابنُ بارّاً بوالديهِ.

فعرشُ المُلْكِ هو المكانُ الذي أعَدّهُ إجماعُ الناسِ في قَناعَاتِهم لرفعِ مَلِيكِهم فوقَ مُسْتَوَاهُم، تعبيراً منهم عنْ عُلُوِّ مَكَانتِه عليهم، وخُضوعاً لأوامرِهِ ونَواهِيهِ في تَصْرِيفِ أَعمالِ حياتِهم.

ولئن جلسَ عليه يوسف عليه السلام، فذاكَ لأنه حَظِي بالمكانةِ اللائقةِ لهذا المَنصِب، وارتَضَى الناسُ بِرفْعِهِ عليهم.

فإذا به يَرْفَعُ أَبويهِ على العرش ويُجْلِسُهما مَكَانَه، وهو بذلك يقومُ بالتعبيرِ الماديّ، الحسيِّ الملموس عَنْ عَميقِ حُبِّهِ لهما، واحترامِه لهما، رافعاً إيّاهُما فوقَ كُلِّ ما وصَلَ إليه مِنْ رِفْعَةٍ وسُؤدَد، ولنا في أنبياءِ الله تعالى ورُسلِه خيرُ أُسوة، فعلى كُلِّ واحدٍ منا أنْ يُكْرِمَ أَبويه بمقدارِ ما أعطاهُ الله تعالى مِنْ تَمَكُّن.

اللطيفة الثالثة: في تَساؤُلِنا عَنْ مَعْنَى وسببِ السُجودِ ليوسفَ عليه السلام. ونقولُ بدايةً، وبإجماعِ المُفَسِّرين قاطِبَةً، لم يَكُنِ السُجُود ليوسفَ عليه السلام سجُودَ عِبادةٍ إطلاقاً، حاشَا وكلا.

لكنّه كان انحناءَ تحيةٍ وتقدير.

ولنا أنْ نتوَقف قليلاً عندَ هذه النُّقطة:

يقولُ رسولُ الله ﷺ: «**إنما الأعمالُ بالنيات**».

قد نَرى تصرُّفاً أوْ نَسْمَعُ قولاً من شخصٍ يبدو لنا فيه شُبهةُ خروجٍ عَنْ مَنْهَجِ الدِّين، فليس لنا أَنْ نُسارِعَ باتهامِه بقَصدِ الخروجِ عَنْ مَنهجِ الدين، بل نُسارِعُ إلى الاستفهامِ منه عَنْ قَصْدِهِ، وننبهه إلى وجوبِ تصويبِ قولِهِ وإيضاحِهِ، وتبديلِ تَصرُّفِهِ وتَحْسِينِه مُلْتَمسين له العُذْر، باحثِينَ له ولنا عَنْ أفضلِ التصرُّف وأفضلِ الكلام، بمحبةٍ ووُدٍّ وأُلفَة، راجينَ له الخيرَ كُلَّه، داعينَ له بالسَداد والصّواب.

اللطيفة الرابعة: في مُلاحظتِنا لأُسلوبِ الكلامِ الجميلِ العَذْبِ الذي اعتَمَدَهُ

يوسفُ عليه السلام بمخاطبةِ أبيه يعقوبَ عليه السلام: ونَادَاهُ بقوله: ﴿يا أَبتِ﴾ والمعنى يَتِمُّ بدونِها، وهذا مستوىً ثانٍ في الآيةِ الواحدةِ في بِرِّ الوالدين.

اللطيفة الخامسة: في مُلاحظتِنا لتطابُقِ قَضاءِ الله تعالى معَ الأَعمالِ التصرفيةِ الإراديةِ التي يقومُ بها العِباد، في سِرٍّ خَفِيٍّ يَصْعُبُ علينا إدراكُ كُنْهِه حقاً:

فلقدْ قضَى الله تعالى منذُ الأزَل، أنّ الإخوةَ مع الأَبوين سيخِرُّونَ سُجداً ليوسفَ عليه السلام في هذا الموضع بالذّات وفي هذا التوقيتِ بالذات.

ولقد أُعْلِمَ يوسفُ عليه السلام منذُ أنْ كان صغيراً، بحصولِ هذه الواقعةِ مُسْتَقْبلاً في حقِّه، بمُوجَبِ رُؤيا ثابتة قَصّها على أبيه يعقوبَ عليه السلام.

وحينَ اجتمعَ يوسفُ عليه السلام مع أبويه وإخوتهِ، وحينَ رفَعَ أَبَويهِ على العرش، قامَ الجميعُ بتصرُّفٍ إرادي جَمَاعيٍّ دون طلب منه بالإنحناء إكباراً وتقديراً، فتطابق الفعل الإرادي مع القضاء، وفي هذا إيذانٌ وإعلامٌ عن خُضوعِ كُلِّ ما في الكونِ لمشيئةِ الله تعالى وسُنَنهِ التي أَجْرَى على خَلْقِهِ.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام:

﴿وقد أحسنَ بي إِذْ أَخرجَني مِنَ السِجْنِ وجاءَ بكم من البَدْو بعدَ أنْ نَزَغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي، إِنْ ربي لطيفٌ لما يشاء، إنه هو العليمُ الحكيم﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في متابعتِنا لأُسلوبِ المناجاةِ العلنية، والشُكرِ الهادىءِ من يوسفَ عليه السلام وهو في أَعلى حالاتِ الحُبورِ والثناءِ في انتقاءِ جميلٍ وفريدٍ للعبارات فنسمعُه يقول: **﴿وقد أحسنَ بي﴾**، ويقولُ: **﴿وجاءَ بكمْ﴾**، ويقولُ: **﴿إنّ ربي لطيفٌ لما يشاء﴾**.

هذا الكلامُ اللطيفُ الرائعُ الراقي، لا نَسْمَعُه اليومَ منْ حُكّامِ اليوم في شكرِ الله تعالى والثناءِ عليه، ونحن وَهُم في أمسِّ الحاجةِ إليه.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لتوقُّدِ ذكاءِ يوسفَ عليه السلام، إِذْ اعتَمَدَ أُسلوبَ: لكل مقامٍ مقال.

وبتتبُّعِ كلامِهِ في هذه الآية، نَجِدُ أنه عليه السلام ذَكَرَ فضائِلَ الإخوة، ولم يَذْكُر مثالبَهُم، فتجاوَزَ في سَرْدِه كُلّ الإساءاتِ التي فَعَلوا مِنْ نَزْعِه مِن أبيه في صِغْرِهِ وإلقائِهِ في الجُبّ وتَرْكِه في العراء.

بل توسَّعَ في تَجَاوُزِهِ للإساءَاتِ، فلم يذْكُر إساءَةَ امرأَةِ العزيز له.

أكثَرُ من ذلك: لم يَعْتَبِر إساءَةَ الإخوةِ له من صُنْعِهِم، بل لم يَعْتَبِرْ أنّ إساءَتَهم له جاءَت نتيجةَ قَبولِهم لوَسْوَسَةِ الشيطانِ لهم، وهذا مُستوىً أعلَى في إيجادِ العُذْرِ لهم.

وإنما ارتَقَى إلى مُسْتَوىً أَعلى في مُواساتِهم إِذْ اعتبَرَ أنّ نَزْغَ الشيطانِ وقَفَ حائِلاً بينَه وبينَ إخوتِهِ، وهو الذي أدَّى إلى حصولِ الإساءةِ.

لا أجدُ مثالاً أجملَ من هذا المِثالِ في العفوِ والصفحِ عندَ المقدرةِ.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لجمالِ المعنى الواردِ في قَولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**إنّ ربّي لطيفٌ لما يشاء**﴾.

وهو بذلك، يختَصِرُ كُلّ التساؤُلاتِ عن كيفيةِ مسارِ الأَحْدَاثِ حتى وصلت إلى نهايتِها السعيدةِ تلك.

والمقصودُ: أنّ الله تعالى عالمٌ بخفايا الأُمورِ كُلِّها، وهو المدِّبرُ لها، المُسَهِّلُ لِصِعَابِها، فإذا شاءَ أن تَنفُذَ مَشِيئتُه، أرسلَ لُطْفَهُ على الأَشياءِ والأَحداثِ والأشخاصِ، فتلينُ الصعاب، وتُحلُّ العُقَد، وتهونُ المصائب، وينقَطِعُ دابِرُ النّزْغِ، وتَصفُو القُلوب، وتزُولُ الضغائن.

نسأَلُ الله تعالى اللُّطْفَ في كلِّ الأُمور.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١- للدلالة على وجوب تكريم الأبوين أعلى تكريم ممكن بحسب القدرة والإستطاعة: فمن كان قليل المال ضعيف المؤونة، أكرمهما بجهده البدني والكلمة السمحة الطيبة، ومن كان كثير المال واسع النفوذ، أكرمهما بأن يجعل حياتهما هانئة رغيدة، وأن يقوم على راحتهما ويتطوع لخدمتهما بنفسه، فهو لن يجد أفضل منهما في هذه الدنيا، بعد رضى الله تعالى، رضى يطلبه.

٢ - للدلالة على أن كل شيء بقدر، فلا حركة ولا سكون، إلا بأمر الله تكون، ولقد ننتظر حدثاً ما، أياماً طويلة، وهو مكتوب مؤجل للأجل الذي أقته الله تعالى له، فليس لنا أن نلجّ ونستعجل حصول الأحداث، بل نتيقن بأن الأمور كلها سائرة إلى ما قدّر الله تعالى.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٥]

تأخُذُنا هذه الآيةُ أخي المؤمن إلى قِمَّةِ التسليم والتوكُّلِ والاعترافِ بفضلِ الله تعالى، وإنها بحقّ آيةُ الولاءِ المُطْلَقِ لله تعالى، أجْراها الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام، لِتَبْقَى نابِضَةً على مَدى الأزمانِ والدهور، وهي لسانُ حالِ كُلِّ المؤمنينَ المُعْتَرفينَ بفضلِ الله تعالى ونِعْمَتِهِ عليهم، مهما تفاوتَتْ دَرجاتُ الفضل والنِّعمة، فعلينا أَنْ نتعلَّمَها ونَحْفَظَها، ونُعَلِّمَها أبناءَنا، ونتَدَبَّرَها ونعملَ بها.

فلنبدأ بتأمُّل الآيةِ الكريمة.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام:

﴿رَبِّ قد آتيتني مِنَ المُلْكِ وعلمْتَنِي من تأويلِ الأحاديث﴾.

في هذا الشطر منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلنا لِوَاقِع حالِ يوسفَ عليه السلام في هذه اللحظاتِ مِنَ القصة، إذْ وقَفَ يدعُو الله تعالى:

فلقدِ انطلَقَ مِنْ غَياهِبِ السِجنِ بصفةِ فتى العزيزِ المُشْتَرَى، فأخرَجَهُ الله تعالى منَ السِجْنِ، ورفَعَهُ فوقَ النَّاس، وأَوْصَلَهُ إلى أَرْفعِ مَنْصِبِ في زَمانِه مع شِدّةِ حاجةِ الناسِ إليه، مما يُضَاعِفُ أهميةَ المكانةَ المرموقةِ التي وصَلَ إليها..

إلا أنه كان لا يزالُ في نفسِه وَجْدٌ على فِراقِ أَبيه، وأَحوالِ إخوتهِ في المسلكِ الوَعِرِ الذي سَلَكُوه معه..

فكانَ أنْ أَتَمَّ الله تعالى عليه الفضلَ، بأنْ جَمَعَهُ بأبيه، وأَصلَحَ له إخوتَهُ، فاجتمعَ له كلُّ ما يُريدُ مِنَ الهناء.

فامتلأتْ نفسُه رِضىً وطُمأنينة، وأرادَ أنْ يُعَبِّرَ عن امتنانِه لله تعالى وشُكْرِهِ له، فبدأَ بِتَعْدَادِ فضْلِ الله تعالى عليه..

وفي هذا تعليمٌ لنا وإرشاد.

اللطيفة الثانية: في مُلاحظتِنا لتواضُعِ يوسفَ عليه السلام إِذْ قالَ على سبيلِ التبعيض: **﴿آتيتني مِنَ المُلْك وعَلّمْتَني مِنْ تأْويلِ الأحاديث﴾.**

وهو بذلك يُعْلِنُ أنه لم يُحصِّلْ كُلَّ أسبابِ المُلك، أو أَنه، وإنْ مُلِّكَ على مِصْر، أَهمّ بلدٍ في زمنه، فإنه لم يُمَّلك على كُلِّ الأمصار..

وهو بذلك يُرَبِّي نَفْسَهُ على التواضعِ لله تعالى.

وكذلك قولُه: ﴿**علمتني من تأويلِ الأحاديث**﴾.

وتأويلُ الأحاديثِ بابٌ واسعٌ جداً، وأصنافُ التأويلِ عديدة، نذكُر منها:

معرفةُ تعبيرِ الرُّؤى.

وتفهيمُ غَوامِض أسرارِ الكُتبِ الإلهيةِ.

وتفهيمُ دقائقِ سُنَنِ الأَولياء.

وفهمُ أسرارِ الإشاراتِ.

وإدراكِ كُنْهِ الكراماتِ.

ولقد آتاهُ الله تعالى بعضاً منها، وهي معرفةُ تعبيرِ الرُّؤى، ونجدُه عليه السلام، يُتابعُ دِقَّة أبيهِ يعقوبَ عليه السلام في الكلام.

وقد سمعناه يقولُ في أَولِ السورةِ في الآيةِ السادسة: ﴿**وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديث**﴾.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ مغْزَى تفصيل النِّعْمَتين بهذا الأُسلوب الذي ورَدَ في الآية.

فلقد قال: ﴿**ربِّ قد آتيتني مِنَ المُلْك**﴾: وهي النِّعمةُ الأُولى.

﴿**وعلمتني من تأويلِ الأحاديثِ**﴾: وهي النعمةُ الثانية.

أما النعمةُ الأُولى: فتأتي في بابِ الإكرامِ الماديِّ الدُّنيوي، وهذا ما يَطْمَحُ إليه الناسُ في دُنياهِم، لكنّ يوسفَ عليه السلام، يُعطينا المِثالَ الرائعَ حَوْلَ كيفيةِ التعامُلِ معَ هذه النِعمة، بأن أخَذَها تكليفاً، وأَدّاها حقّها بأمانةٍ وصِدقٍ وعدلٍ وإحسان، وخوفٍ ورَجاء..

وما أحوجَ أَهلَ الحكمِ على مَرِّ التاريخ أنْ يتعلّموا مِنْ يوسفَ عليه السلامُ كيفَ يكونُ الحاكم.

وأما النعمةُ الثانية: فهي نعمةٌ ذِهنيةٌ عقليةٌ معنوية، لا تَمُتُّ إلى الواقع الماديّ الدنيويِّ بصلَةٍ مُباشرة، وهنا أيضاً أحسَنَ يوسفُ عليه السلامُ استعمالَها، فما أَعملها إلا في الخير، وما أَفادَ مِنها إلا للخير، وعلى مِثالِها نَسوقُ فضلَ الله تعالى، بما يُعطِي عِبادَه من مواهبَ عقليةٍ ذِهنيةٍ أو ذوقيةٍ، أو مهاراتٍ صوتيةٍ أو حِرْفِيّة..

وعلى هؤلاء أنْ يَقْتَدُوا بيوسفَ عليه السلام، في حسنِ استعمالِ مواهبِهم، وأنْ يَشْكُروا خَالِقَهُمْ على ما أعطاهُمْ منْ مَوَاهِبَ وفَضَّلَهُم على إخوانهم، فلا يجعلُوا مِنْ هذه المواهبِ سبباً للمعصية وباباً يَلِجُونَ منه إلى المَفَاسِدِ والمُحَرَّمات فيفتحون بذلك على أنفسِهم باباً إلى النار..

ثم يقولُ الله تعالى في الشطرِ الثاني من الآية على لسانِ يوسفَ عليه السلام:

﴿فاطرَ السمواتِ والأرض أنتَ وليي في الدنيا والآخرة توَفني مُسلماً وأَلحِقْني بالصالحين..﴾.

في هذا الشطر من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لتصاعُدِ وتيرةِ الدعاء، وذلك على أربعِ مراحل:

المرحلة الأولى: بذِكْرِ فضلِ الله تعالى الماديِّ عليه بقولِهِ: **﴿رَبِّ قد آتيتني من المُلْك﴾**.

المرحلة الثانية: بذِكْرِ فَضْلِ الله تعالى المعنويِّ الذهنيِّ عليه وهذه مرتبةٌ أَعْلى وأرقى بقوله: **﴿وعَلَّمْتَنِي مِنْ تأويلِ الأحاديث..﴾**

المرحلة الثالثة: بالانطلاقِ مِنَ الخَاصِّ إلى العامِّ بقوله: ﴿**فاطرَ السمواتِ والأرض**﴾.

المرحلة الرابعة: بالوصولِ إلى درجةِ التسليم المطلقِ، العامِ والشاملِ في كلِّ الكِيانِ والتصرُّفِ والمآلِ بقوله: ﴿**أنتَ وَليِّي في الدنيا والآخرةِ**﴾.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لِغنى المعنى الذي سَاقَتْهُ عِبارَة: ﴿**أنتَ وَليي في الدنيا والآخرة**﴾:

فهو بهذا يتبرَّأُ تبرؤاً كاملاً من حولِه وقوتِهِ إلى حولِ الله تعالى وقوتِهِ ويُعْلِنُ للإنسانيةِ جمعاء، مُعَلِّماً مُهَذِّباً، أنه مَهْمَا بَلَغَت به السُلطةُ والقوةُ والمَنَعَةَ، وإمكانيةُ التحكُّمِ في أرزاقِ الناس، وإعطاءِ مَنْ يشاء ومَنْعِ القوتِ عمن يشاء:

أنه حتى وإن صارَ في أَعلى موقعٍ في الدنيا، وفي هذا دَفْعُ احتمالاتِ التمكُّنِ إلى أَقْصَى مدىً يحتاجهُ إعطاءُ المثل؛

أنه حتى وإن حقَّقَ كُلَّ ما تصبو إليه نفسُه، وإن حقَّقَ كُلَّ أحلامِهِ؛

أنه حتى وإن صارَ أَغْنَى الناسِ على وجهِ الأرض، ولقد حصَلَ له ذلك ضاماً إلى المثلِ فئاتٍ أُخرى مِنَ المتمكني؛

أنه حتى وإنْ بلَغَ مِنَ العِلْمِ مَبْلَغاً عالياً جداً، يفوقُ قُدْرَةَ الأقرانِ على مجاراتِه، في أَيِّ بابٍ من أَبوابِ العلْمِ كان؛

فهو عبدٌ طائعٌ مؤمنٌ بالله، مُسلِّمٌ أَمرَه إليه، متوكِّلٌ عليه، يَرْجُو منه القَبول، لا تأْخُذُه الدُّنيا بِبَهْرَجِها، ولا يَرْكَنُ إليها.

وعلى كلِّ ما أنعمَ الله تعالى عليه بنعمةٍ عالية، أنْ يقرأَ قِصةَ يوسفَ عليه السلام، ويتأمل قولَه: ﴿**أنتَ وَليِّي في الدنيا والآخرة توفني مُسْلِماً وألحقْنِي بالصَّالحين**﴾.

اللطيفة الثالثة: في مُلاحظتِنا لقولِه: ﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِماً**﴾.

وكَمْ نشعرُ بالسعادةِ إِذْ نسمَعُ يوسفَ عليه السلام ابنَ يعقوبَ عليه السلام، والذي اسْمُه إسرائِيلُ يقول: ﴿**توفَّني مُسْلِماً**﴾، لكي نُدْرِكَ فَضْلَ الله تعالى علينا، إنْ أَكْرَمَنا بالإسلام، وجَعَلَه الدِّينَ الحَقّ عندَهُ يَكمّم بقوله أفواهَ الكَذَبة، قَتلَةِ الأنبياء، إِذْ يَدْعُونَ أنه كانَ يهودياً، لا والله بل كان حنيفاً مسلماً، مثلَ آبائه يعقوبَ وإسحاقَ وإبراهيمَ عليهمُ السلام، ونحن نَرْفَعُ رُؤُوسَنا عالياً ونقول: إنّ الدينَ عِندَ الله الإِسلام.

مواطن الإستدلال بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الإعتراف بفضل الله تعالى، على كل من مكنه الله تعالى إما بالسلطة فصار حاكماً، وإما بالمال فصار غنياً، وإما بالعلم فصار عالماً، وإما بالموهبة فصار مقصوداً، وإما بالذرية فصار وجيهاً؛ فعلى كل هؤلاء أن يتواضعوا لله تعالى فلن يصل أي واحد منهم إلى ما وصل إليه يوسف عليه السلام الذي قال: أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

٢ - للدلالة على أن الدين عند الله الإسلام، وإن كل الأنبياء والمرسلين إنما جاؤوا بدين الإسلام، ولقد أسمانا سيدنا إبراهيم عليه السلام من قبل مسلمين، وكل أنبياء الله تعالى ورسله أخوة، وما جاء رسول أو نبي من عند الله تعالى إلا بدين الإسلام، ويشرّفنا أن نسمع يوسف عليه السلام ابن يعقوب عليه السلام، الذي اسمه إسرائيل يقول: توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

ثم يقول الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٦]

تعودُ بنا هذه الآياتُ أخي المؤمن إلى وقتِ نزولِ السورة، وقدِ انتهتْ قصةُ يوسفَ عليه السلام، ولم تَنْتهِ السورة بعدُ، ومعَ هذه الآيات، وحتى نهاية السورة، نتابعُ حدثاً لا يَقِلُّ أهميةً عن أَحداثِ قِصة يوسفَ عليه السلام ألا وهو تأكيدُ نُبوّةِ خاتَمِ الأنبياءِ والمرسلين، وتثبيتِ الإعجازِ القرآنيّ بتحديّ المُعاندِين والمُكابرين، وإرساءُ قواعدِ حُجّةِ القرآنِ الكريم على كُلِّ مَنْ أرادَ التشكيكَ بِصدْقِ الرسولِ الكريم.

وقبلَ أن نبدأَ بتأمُّلِ الآياتِ الكريمة، نعودُ فنستذكرُ ما كُنّا قد أشرنا إليه في بدايةِ تأمُّلنا لهذه السورة من حيثُ توقيتُ نزولِها والظروفُ المحيطةُ برسولِ الله ﷺ آنها:

فالسورة مكية، أي نزلَتْ قبلَ الهجرة، ولم يَكُنِ الرسولُ الأكرمُ ﷺ في منأىً عَنْ أذيّةِ قريشٍ له، ولم تَكُنْ قد نشأَتْ مؤسسةٌ تحتَضِنُ الدعوةَ الفَتِيّةَ فترُدُّ عنها الأذى، خصوصاً وأنْ أغلبَ الأوائلِ مِنَ المؤمنين كانوا إمّا فُقراءَ أو ضِعافاً في قومِهم؛ ثم تكاثرتِ المِحَن، فتوفي عَمُّ رسولِ الله ﷺ، وكانَ يَرُدُّ عنه سفاهةَ قُريشٍ وَجَهْلِهَا، ثم توفيت زَوجَهُ السيدةُ خديجةُ بنتُ خويلد رَضِيَ الله عنها.

فكان ذلك العام، عامَ الحُزْن، ورسولُ الله ﷺ صابرٌ محتسِبٌ متابعٌ دعوةَ الناسِ إلى الإسلام.

ثم جاءَهُ اليهودُ وقد استمعُوا لما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وآيِ الذِكْرِ الحكيم، وتآمَرُوا معَ المُشْرِكِين في مكة، لتكذيب رسولِ الله ﷺ، وقَدْ عَرفُوا أنه أُميٌ لا يَقرأُ ولا يَكْتُب، فوجُدُوها فرصةً سانِحَةً بالطلب إليه بإعلامِهِم بما لم يَعْلَم مِنْ قَصَصِ السالفين، وخَصُّوه بالسؤال عن يوسفَ عليه السلام فكانَ أنْ أَكْرَمَهُ الله تعالى بسورةِ يوسف، وكانَ فيها منَ الخيراتِ ما لا يُمْكِنُنا إحصاؤه:

فلقد جاءَتْ سورةً كاملةً بقصةٍ كاملة، بأُسلوبٍ هادئٍ يختلفُ عمّا اعتدْنَا سمَاعَه في السُور المكيّة مِنْ جزيلِ العبارة وقوةِ الكلمة، وغلبة التهديدِ والوعيد على القوم الكافرين.

ولقد جاءَتْ لرسولِ الله ﷺ سلوى وعزاءً مما هو فيه مِنَ الحُزْنِ.

ولقد جاءَت لردِّ كيدِ المشركينَ وأعدائِهم اليهود، بإظهارِ صدْقِ رسولِ الله ﷺ، بإخبارِهِ عَنْ رَبِّه، أصدقَ الأَخبارِ وأَصَحَّها، بل أظهرتْ كَذِبَ اليهودِ في تحريفِهِم للتوراةِ في بعضِ مَشاهدِ القِصة، وجاءَت مُتكاملةً مُتناسِقَةً مُترابطةً مُتَراصةً مُتوافِقَةً مع المنطقِ والحِسِّ والذّوق، غزيرةَ المعاني رفيعة المباني.

ولقد جاءتْ لتُخَاطِبَ عَقْلَ وقَلْبَ المستمعِ والقارىءِ على مَرِّ الزمان، تترُكَ له مَجالَ إعمالِ الفِكْرِ للتّحقُّقِ المنطقيِّ في أَبوابِ الإعجازِ التي جاءَتْ فيها، فيدفعُ بذلك عَنْ نفسهِ وسَاوِسَ الشيطان في الشكِ والتشكُّك.

نبدأُ بتأمُّلِ الآيات:

يقولُ الله تعالى: **﴿ذلك مِنْ أنباءِ الغيبِ نُوحيهِ إليك وما كُنتُ لديهم إذْ اجمعُوا أمرَهم وهم يمكرُون﴾**.

في هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ كلمة: **﴿ذلك﴾**، فنجدُ أنها تَختِمُ القِصةَ بسلاسَةٍ ويُسْر، وتَنَقُلُنا إلى زمنِ الرسولِ الكريمِ عليه أفضلُ الصلاةِ وأَتمُّ

التسليم، وتُعيدُنا إلى بدايةِ القِصةِ في قولِ الله تعالى: ﴿نحن نَقُصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآن وإنْ كُنتَ مِنْ قبلِهِ لِمَن الغافلين﴾.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لاكتمالِ الوِعاءِ الأكبرِ، بعدَ اكتمالِ الوعاءِ الأَصغرِ في السورة:

فلقدْ افْتُتِحَ الوعاءُ الأَكبَرُ بقولِ الله تعالى: ﴿نحن نقُصُّ عليك أحسنَ القَصَص﴾[١].

ثُمَّ افْتُتِحَ الوعاءُ الأصغرُ بقولِ الله تعالى: ﴿إذْ قالَ يوسفُ لأبيهِ يا أبتِ إنّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي سَاجِدينَ﴾[٢].

ثُمَّ اخْتُتِمَ الوعاءُ الأصغرُ بقولِ الله تعالى: ﴿وقال يا أبتِ هذا تأويلُ رُؤيايَ من قبلُ قدْ جَعلها رَبِّي حَقًّا﴾[٣].

وهنا يكتملُ الوعاءُ الأكبرُ بقولِ الله تعالى: ﴿ذلك مِنْ أنباءِ الغيبِ نُوحيهِ إليك﴾.

اللطيفة الثالثة: في ملاحظتِنا لِترابُطِ آياتِ القرآنِ الكريمِ كُلِّها في تثبيتِ صِدْقِ الرسولِ الكريمِ فيما يُبَلِّغُ عَنِ الله تعالى مِنْ أمورِ الغيب.

فإذا كُنّا نقرأُ في هذه الآية: ﴿وما كُنتَ لديهم إذْ أجمعُوا أمرَهم﴾.

فإننا نجدُ مِثْلَهُ في قولِ الله تعالى: ﴿وما كُنتَ لديهم إذْ يُلْقُونَ أقلامَهم﴾[٤].

وفي قولِ الله تعالى: ﴿وما كُنتَ بجانبِ الغربيِّ إذْ قَضَينَا إلى مُوسى﴾[٥].

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣].
(٢) [سورة يوسف، الآية: ٤].
(٣) [سورة يوسف، الآية: ١٠٠].
(٤) [سورة آل عمران، الآية: ٤٤].
(٥) [سورة القصص، الآية: ٤٤].

وفي قولِ الله تعالى: ﴿وما كُنتَ بجانبِ الطُّورِ إذْ نَادَيْنا﴾[١].

وفي قولِ الله تعالى: ﴿ما كُنتَ تَعلَمُها أنتَ ولا قَوْمُكَ مِن قَبْل﴾[٢] في سورة هود.

وهذه إشاراتُ تثبيتٍ ومحجةٍ وتأييدٍ ودحض.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانية، موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿وما أكْثَرُ الناسِ ولو حَرَصْتَ بمؤمنين﴾.

في الآية لطيفتان اثنتان:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لترابُطِ أسلوبِ الصياغةِ معَ مُناسبةِ ورودِ الآيةِ الكريمة:

فرسولُ الله ﷺ في أشدِّ حالاتِ المِحنةِ والضِّيقِ، رَحَلَ مُناصِرُه وفَقَدْ مُواسِيَتَه، وكَذَّبَهُ قومُه، ثم جاءَ اليهودُ يتحدَّوْنَهُ في قَصَص الغَيب.

فجعلَ الله تعالى مِنْ تناسُبِ الفُرَصِ فيما قَدَّر لأسبابِ نزولِ هذه السورة من اجتماعِ الحُزنِ في حياةِ الرسولِ الكريم، وتألُّبِ ساداتِ قريشٍ ضِدّهُ، وتَحدِّي اليهودِ له، فأنزلَها بكُلِّ ما فيها من إعجازٍ لغويّ، وإعجازٍ قَصَصِي، وإعجازٍ تاريخي وتسلية قلبِ رسولِه ﷺ بمعرفةِ حالِ يوسفَ عليه السلام،وما مرَّ به مِنْ مِحَن، وما جاءَه بعدَ ذلك مِنْ فرجٍ وسيادةٍ وهي من الإشارَاتِ الإلهية له ، لتثبيتِ الفؤادِ وإيذانٌ بقربِ الفرجِ.

فمضى قضاءُ الله تعالى، ونَزلَتِ السُورةُ في هذا الوقت العصيب، هادئةً مترابطة، كأنها نزلَتْ في أهنأ وأهدأِ الأوقاتِ.

---

(١) [سورة القصص، الآية: ٤٦]. (٢) [سورة هود، الآية: ٤٩].

وبقيتْ لنا، حتى بعد أن آمنَتْ قريشٌ وَغُلِبَتِ اليهودُ في تَحدِّيها، نتمتَّعُ بقراءَتها، ونفتخِرُ باقتنائها، ونُبارِزُ المعانِدينَ بأنْ نَترَكهُم في تخبُّطِهم يتأمَلُونَ ويحْصُونَ ويناقشون، ويبحثُون عَنِ الثُغراتِ، ولن يجدُوا أبداً.

اللطيفة الثانية: في إدراكِنا للبُعدِ العميقِ الذي أشارَتْ إليه الآيةُ الكريمةُ بعدمِ إيمانِ أكثرِ الناس حتى ولو حَرَصَ رسولُ الله ﷺ.

وذلك على مستويينِ اثنين:

المستوى الأول: زمنُ بدايةِ الدعوة حين يكونُ الإعراضُ بسببِ تَجذُّرِ المُعْتَقَداتِ الفَاسِدَة في النفوس، وصعوبةِ نَزْعِها، وكَثْرَةِ أعدادِ أَتباعِ الباطل على قِلَّةِ أَعدادِ أَتباعِ الحق.

والمستوى الثاني: بعد حصولِ النجاحِ في نَشْرِ الدعوةِ وانطلاقِها في الأمصار ثم رُكُونِ الناس بعدَ اندفاعٍ، فيعودُ الشيطانُ اللعينُ إلى إغواءِ أبنائِهم وأَبناءِ أبنائهم، فيتركُونَ المنهجَ السَّليم، ويُصيبُهُم الضّياعُ...

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثالثة موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿وما تسألُهم عليه من أجر إن هو إلا ذِكرٌ للعالمين﴾.

في هذه الآيةُ لطيفتان اثنتان:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا للبُعد النفسيِّ الذي رمَتْ إليه الآيةُ الكريمة، وذلك بدفعِ الناسِ إلى التساؤلِ عَنْ سِرِّ حِرْصِ رسولِ الله ﷺ على تبليغِ الدعوة:

فهو يعيشُ عِيشةً هانئةً طيبةً كريمة، وهو مُكَرَّمٌ في قومِهِ وقَدْ لَقَّبُوهُ بالأمين.

ولم يُظْلَمْ فيخرجُ لتحصيلِ حَقِّه.

ولم يَكُن طامِعاً في مَركزٍ أو رياسةٍ أو سيادة.

والذي يَقضُّ مضَاجِعَهم، ويجعَلُهم في حالٍ من الدهشة، والاستغرابِ هو ما أشارَتْ إليه الآيةُ الكريمةُ: ﴿**وما تسألُهم عليه من أجر إنْ هو إلا ذِكرٌ للعالمِينَ**﴾.

اللطيفة الثانية: في تأمُلِنا لقوله تعالى: ﴿**إنْ هو إلا ذِكرٌ للعالمينَ**﴾.

وهي تحملُ إلينا معَانِي الرحمةِ الإلهيةِ بالعباد، ورِفْقِهِ بهم، وقد أَسْمَى القرآنَ الكريم «ذِكْراً» أي تَفَكُّراً وتَدَبُّراً، وجعلَه للعالمينَ، ولم يَخُصَّ به قوماً أو فئة، وفي ذلك إيذانٌ منَ الله تعالى لرسولِه الكريم بقُربِ انتهاءِ الزمنِ الصّعبِ في الدعوة.

مواطن الإسترشاد بالآيات الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الذي يصل إلى مرتبة الإيمان، هو ممن بلغ مرتبة عالية جداً في الإنسانية، وقلة هم المؤمنون حقاً، الذي يستطيعون أن يغالبوا نوازع نفوسهم بالركون إلى الأرض، ولا يتركون لشهواتهم العنان بالإنطلاق على ما تهوى دون ضابط أو رادع، والذين يقدرون الله تعالى حق قدره ويخافونه بالغيب، فإذا ما رأى الواحد منا، آثار غلبة الشيطان على الناس، وبهذه الكثرة، فلا ييتئس ويظن أنه ضعيف مستضعف، بل هو العزيز بتأييد الله تعالى.

٢ - للدلالة على أن القرآن الكريم هو كتاب للعالمين كافة، وليس فقط لأهل الجزيرة العربية، بل أن بركته تمتد لتشمل الكرة الأرضية بكاملها. وعلى من وصلهم، فقرأوه، وتدبروه أن يكونوا أحرص على إيصال هذه الكرامة العليا إلى كل الناس، وأن يكونوا دعاة إلى الله تعالى في كل المجالات، حتى في مجال أعمالهم المتفرقة، أن يدلوا الآخرين على هذا الخير العميم الذي اكتشفوه بالقرآن الكريم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٧]

تُعِيدُنا هذه الآياتُ أخي المؤمن إلى واقعِ رسولِ الله ﷺ في مكة، قبل الهِجْرَة، وهو والمؤمنون الأوائلُ في حالٍ من الإحصارِ والضِيقِ والعُزْلة، وقومُه يُعاندُونَ ويُصِرُّونَ على الإشراكِ مع مَعْرِفَتهم بالله تعالى، ونعودُ مع هذه الآيات، فنتذكّرُ أسبابَ نزُولِ سورة يوسف عليه السلام، وقد لحظْنَا أنها سورةٌ قصصية، تَحْمِلُ في داخِلها كلَّ تَقَلُّباتِ النفسِ الإنسانية، مِنْ وَفاءٍ وتسامحٍ، وغيرَةٍ وتآمر، وسُمُوٍّ ورِفعةٍ، وتضحيةٍ وإخلاصٍ، وضَعْفِ نفسٍ وانصياعٍ للشهوات، وقوةِ عزيمة، ورفضِ انصياعٍ للشهوات، وحِكْمَةٍ وتَدَبُّر، وظُلمٍ وعَفْو، وإحصارٍ وانفراجٍ، وخيبة.

وَعلِمْنا أنها جاءَت لطُمَأنينة نفسِ الرسولِ الكريمِ عليه أفضلُ الصلاةِ وأَتَمِّ التسليم، وتثبيتاً لفؤادِه وتقويةً لعزيمتهِ، ورَدّاً على المكذبينَ بصدقِ بَعْثَتِه وإجابةً عن السؤالِ الخبيثِ الذي سأله المشركون بتحريضٍ من علماءِ اليهود إذْ قالُوا: سَلُوا محمداً لِمَ انتقَل آلُ يعقوبَ منَ الشامِ إلى مصْر، وعن كيفيةِ قِصةِ يوسف، وهم يَعْلَمُونَ أنه لا يقرأُ ولا يكتُبُ ولم تَصِلْهُ أخبارُ الأُممِ السالفة، فكانَ أنْ أثْلَجَ الله تعالى صَدْرِه، وأنزَلَ على قَلْبِه سورةَ يوسفَ بهذه الجماليّةِ الفائقةِ، وكأنها نزلَتْ على أهدأِ حال وأهنأِ بال.

وتأتي الآياتُ الأخيرةُ من السورة، لِتَضَعَ الإنسانَ المعانِدَ في أضيقِ زاوية، وتُظْهِرَ ضَعْفَ مقولتِه، ووهي حُجّتِهِ، وتَرْسُمَ معالِمَ أحوالِ المشركين في قُصورِ عقولِهم عنْ رُؤيَةِ نُورِ الحَقِّ الذي يُحيطُ بهم مِنْ كُلِّ جانبٍ، بل هو في ذاتِ

كِيانِهِم وتَكوينِهم، وهذا الخطابُ لا يَبْلَى على مَرِّ الزمان، فلنتأمّل الآيات معاً.

يقولُ الله تعالى: **﴿وكأيِّن من آيةٍ في السماواتِ والأرضِ يَمرونَ عليها وهُمْ عنها مُعرِضُون﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: لُغوية في وُقوفِنا عندَ كلمة **﴿كأيِّن﴾**.

قال الخليل وسيبويه: أصلُ الكلمةِ: أي بمعنى الاستفهام، ثم دخلَتْ عليها كافُ التشبيه وبُنِيَتْ معها، فصَارَ الكلامُ بمعنى: كم وفي وُرُودِها بهذا الشكل الكثيرُ مِنَ المعاني:

ففيها دَفْعٌ لإعمالِ الفِكْرِ بحثاً عنْ جوابِ السؤالِ اللاحق.

وفيها استنطاقٌ واستجوابٌ.

وفيها تَحدٍ وإظهارُ ضَعْفِ المسؤول.

وفيها معنى اللاحصْر والتَّكْثير.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ غَزارةِ المعاني التي ساقَتْها الآيةُ الكريمة في النظرِ إلى آياتِ الله تعالى الباهرات في هذا الكون، ولن يسَعَنا هذا المقَامِ إلا أنْ نطُوفُ طوفاً سريعاً خفيفاً على بعضِ هذه الآيات تقريباً للأذهانِ، واستحثاثاً لكلِّ ذِي عقلٍ أنْ يتوسَّعَ في التأمُّل، فيصلَ إلى تقديرِ الله تعالى حَقَّ قَدْرِه:

فإنّ الناظِرَ في السماء يَرى الكواكبَ والنجومَ السائرَة في نظام بديع في تناسُقٍ وتوازنٍ تام، لا يَقْبَلُ العقلُ إطلاقاً أن يَنْسُبَ إليه الفوضى، ولا يَقْبَلُ إلا أَنْ ينسُبَ إليه الإحكامَ والخضُوعَ للأحكام..

فإذا نظَرَ إلى الشمسِ فوقَه رأى فيها نِعْمَةَ الإنارةِ والدِفْءِ والطاقةِ والحرارة والإنباتِ والإنضاجِ.

وإذا نظَرَ إلى القمر، رأى في تأمُّلِه البهاءَ والجمالَ والسكينة..

وإذا أمعَنَ النظَر في الفضاء، رأى الأجرامَ السماويةَ وعلِمَ بوجودِ الأعدادِ الهائلةِ مِنَ النجومِ والكواكب، ودقةِ تَوازُنِها، وعَلِمَ أنّ هذا بعضاً مِنْ قَدْرةِ الله تعالى فيما خلَقَ في السماوات، واتسعَتْ مَعرفَتُه الآن، فصارَ يعرِفُ أنّ هناكَ أفلاكاً ومجرّاتٍ وشموساً أكبَرَ بكثيرٍ مما كان يظن.

فإذا ما ارتدّ بصرُه إلى الأرضِ وما يحيطُ بها مِنْ أغلفةٍ وأجواءٍ تَحْفَظُ الحياةَ عليها بأمرِ الله تعالى، وتَمعنَّ فيما حوت هذه الأجواءُ مِنْ طبقاتٍ ومِنْ موادّ، ونظَرَ إلى آيةِ الهواءِ، والسحابِ والرياحِ والبَرْقِ والرّعْدِ والمطرِ والثلوجِ وطبقاتِ الأُوزون.

وإذا ما نظرَ إلى ما يَحْتَويهِ بَطْنُ الأرضِ مِنْ مَعادنَ، أودعَ الله تعالى فيها مِنَ الخصائصِ المُذهِشة، بنسَبٍ مُتَبَاينة، لكل مَعْدَنٍ مِنها محاسِنُه وفوائدُه،وخصائِصُه واستعمالاتهُ، ما لا يكادُ يُحْصَى يترَاوَحُ مِنَ الترابِ والرّماد إلى موادِّ القنابلِ الذَريّةِ والانشِطَارِيّة، مُروراً بأصنافِ الحديدِ والفولاذِ ولو شاء الله تعالى لجعلَها كُلّها صنفاً واحداً.

ثم إذا ما نظَرَ إلى عجائب البحر، وما خلَقَ الله تعالى فيه منَ الأسماكِ والمخلوقاتِ المائية التي تُعَدُّ عالماً عجيباً فريداً، حيثُ الدهشةُ والعَجَبُ من تَناغُمِ الكائناتِ فيما بينها، وتناسقِ حياتِها، وبهاءِ ألوانِها، وجمالِ انسيابِها والتزامِها بدقةِ ما أعطاها الله تعالى مِنْ خصائصَ في التحرك والتنقُّلِ والهِجْرَةِ والتوالد.

وإذا ما نظَرَ إلى عجائبِ البرّ، وما فيه مِنْ أصنافِ المخلوقاتِ الحية، والحيواناتِ الأليفة،وغيرِ الأليفة بالأحجامِ والألوانِ المتفرقةِ البهية، وطُرقِ مَعاشِها وأساليبِ حياتها، وما تتمتّعُ به من غرائز وقُدراتٍ مُبْهِرَة، تخضعُ لقوانينَ دقيقةٍ جداً، لا نعرِفُ عنها الكثير، في تأقْلُمٍ مدهشٍ مع ظرُوفِ الحياة، تتغَلّبُ

بمراحلَ على مخترعاتِ الإنسانِ واكتشافاتِه في ميادِينِ الكيمياءِ والفيزياءِ، والضّوئياتِ والصوتياتِ، وقوانينِ التوازُن وأحكامِ الطيرانِ وقُدراتِ الحواس.

وهي تعيشُ جنباً إلى جنبٍ مع النباتَاتِ، وهنا أيضاً عالمٌ قائمٌ ضخْمٌ مُستقلٌ، خصّهُ الله تعالى بخصائصَ فريدة في استكانةٍ قد تدومُ قروناً حتى إذا ما لامسَتِ الماء، وبَثَّ فيها الحياة، وانطلقَتْ جُذوراً وجُذوعاً وفروعاً وأغصاناً وأوراقاً وثماراً بألوانٍ بهيجةٍ زاهية ونكهَاتٍ مختلفةٍ متنَوّعَةٍ، طيبةِ الطَعْمِ، حُلوَةِ المذاقِ كلُّها نبتتْ من أرضٍ واحدة، وسُقيتْ من ماءٍ واحد، سَخَّرها الله تعالى لمخلوقاتهِ الحية، تأكلُ منها وتحفظُ نَسْلها.

وأعظمُ آياتِ الله تعالى المرئية، هو الإنسانُ بذاتِه، وما جعلَ الله تعالى فيه من دلائلِ عظمتِه وقُدرتِهِ فتوَّجَهُ بالعقلِ، وأكرمَهُ بالحواس، وتفضَّلَ عليه بضبطِ نُمُوِّهِ، وخوَّلَه السُلطَة على بقيةِ المخلوقاتِ الحيةِ منها والسّاكنَة، وجعلَ فيه خاصِيَّةَ المقارنةِ والتمييزِ والاستذكار، وعَلَّمَهُ القِراءَةَ والكِتابة، فراكمَ نجاحاتِ استنتاجِهِ وتجاربِهِ، وسَمَحَ له بالتعرُّفِ إلى خصائصِ المخلوقاتِ الحيةِ والساكنة، فاستعانَ بها للوصول إلى مَدارِكَ أعلى في فَهْمِه للقوانينِ الكُونية التي أَوْدَعَها الله تعالى في مخلوقاتهِ.

ومِنْ أعظمِ آياتِ الله تعالى في الإنسان، أصغرُ شيءٍ فيه، وهي الخليةُ الحَيّةُ التي لا تُرى بالعينِ المُجَرّدة وهي عالمٌ هائلٌ مُتسِعٌ مُترَامي الأطراف، يَعُجُّ بكلِّ أصنافِ الحياة، ويحتوي على أضخَمِ المعاملِ والمصانعِ والمستودَعاتِ والمخازنِ والخزائن، ومعاملِ حَرْقِ النُّفايات، ومصانعِ توليدِ الطاقة، وجيوشِ الحراسة، وأرتالِ سُعاةِ البريد، وأَعقد التركيبات الكيميائيةِ، وأوثَقِ الشِفراتِ الوِراثية، وكَمْ لا يُحْصَى مِنَ المعلوماتِ والوثائقِ الهامّة.

وفوقَ هذا كُلّه، تأكلُ وتَشْرَبُ وتعملُ عملاً مُنتجاً هادِفاً، وتحفظُ في داخلها كُلّ هُويةِ الإنسانِ التي هي فيه.

﴿وكأينِ من آيةٍ في السماواتِ والأرضِ يَمُرُّونَ عليها وهم عنها مُعْرِضون﴾.

فإذا أعرضُوا عَن كلِّ هذه الآيات، فهم في محنةِ عقلٍ شديدة، عواقِبُها وخيمة.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ دِقّةِ العِبارَةِ القُرآنيةِ في قولِ الله تعالى: **﴿وهم مُعْرِضُون﴾**.

ولم يَقُلِ الله تعالى: وهم غافلون.

والإعراضُ أشدُّ مِنَ الغَفْلَةِ: إِذْ إن جُرْمَ الغافلِ لا يتَعَدَّى مَسْأَلَةَ عدمِ إعمالِ الحواسِ، العملَ اللازمَ لاستقبالِ المعلومةِ المعروضةِ عليه، فينعدِمُ بذلك سُوءُ النية.

أمّا الإعراضُ فهو تَرْكُ استقبالِ المعلومةِ المعروضةِ عَنْ سابقِ تَصوُّرٍ وتصميم، جُحوداً وعِناداً ورَفْضاً.

والله تعالى، أعلَمُ بما في نفُوسِ خَلْقِه، فهو بذلكَ يَكْشِفُ سَرائِرَ المُشرِكين، وفي هذا تمهيدٌ للآيةِ التالية:

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿وما يُؤمِنُ أكْثَرُهُمْ بالله إلا وهُمْ مُشْرِكُون﴾**.

ولنا أنْ نتساءَلَ هنا: لِمَ هذا الإصرارُ على الإشراكِ بالله تعالى من قِبلِ أَكْثَرِ الناس، وهُم يُؤْمنونَ بالله تعالى، ويُقِرُّونَ بأنه الخالقُ الواحدُ البارىء؟

الحقيقةُ أنّ الجوابَ عَنْ هذا التساؤل واسعٌ مُتَشعِّب يحتاجُ حَيِّزاً أوسعَ مما تَسمَحُ به اللطائفُ، إلا أنه يُمكِنُ إيجازُها بالقول: إنها غلَبَةُ الشيطانِ في تزيينِ الباطل، ورَفْعِ الأهواءِ درجةً أعلى مِنْ تحكيمِ العقلِ في المعروض وعدمِ قَبولِ عرضِ المُسَلّماتِ على ميزانِ الحِكمَةِ والمنطقِ. المؤسفُ أنَّ عواقِبَ هذه الغَلَبَة، هي أشدُّ تأثيراً من أيةِ مُصيبةٍ أخرى، قد يُصَابُ بها هذا المغلوب في عَلْقِه، مهما بَلَغَتْ، بل لا تُقارِبُها أيةُ مُصِيبةٍ على الإطلاق!

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على عظمة الخالق عز وجل فيما خلق، وما ساقته اللطائف من إشارات، ليست إلا غيض من فيض آيات الله تعالى في الكون ويجب على كل واحد منا، في إطار عمله وعلمه واختصاصه ومهنته، أن يكوّن في داخله، زاداً واسعاً من علامات عظمة الله تعالى في خلقه وأن يحدّث بها من هم في محيطه، بل أن يتذاكر مع أهل الإختصاص الآخرين، ما وصلوا إليه هم من تأملهم في خلق الله وآياته، فتتسع فرحتهم ويزداد يقينهم.

٢ - للدلالة على أن المشرك يعرف الله تعالى، لكنه يجحد وحدانيته، ويمكن الإستدلال بالآية في معرض الإشارة إلى قصور عقول المشركين عن بلوغ كمال التمتع بخصائص العقل العالية التي لا تقبل الإشراك أبداً. وحبَّذا لو ترك أهل الإشراك، ولو لفترة وجيزة جداً، تمسكهم بالحدود الدنيا التي وصلت إليها عقولهم، وسمحوا للحق والنور بالدخول إلى أبعد ما وضعوا الحواجز عنده، وتركوا للميزان الصالح الصادق الذي تضمه قلوبهم أن يعمل لأدركوا جسامة الفوات الذي يفوتهم

ثم يقول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٨]

تُتابعُ معنا هاتانِ الآيتان، أخي المؤمن ما كُنَا قد لَحظْنَاهُ مِنْ إيضاحِ مَنهجِ الدعوةِ إلى الله تعالى الذي اخْتَطَّهُ الرُّسلُ عليهِمُ السلام على مَرِّ الأزمان، يُنِيرُون

للناسِ طريقَ الحقِّ والخلاصِ، ويُحَذِّرُونَهم منَ الوقوعِ في حبائلِ الشيطان، ويُنَبِّهُونَهم إلى ضَعْفِ قُوَّتِهم وقِلّةِ حِيلتِهم أمامَ قُوّةِ الله العظيمِ وقُدْرَتِه.

يقولُ الله تعالى: ﴿**أفأَمِنُوا أن تأْتِيَهُم غاشِيَةٌ مِن عذابِ الله..**﴾

في هذا الشطر منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في أسلوبِ الخِطابِ المُوجَّهِ إلى الناسِ كافَة على مَرِّ الأزمانِ في قولِهِ تعالى: ﴿**أفأَمِنُوا**﴾.

وهو الاستفهامُ الإنكاريُّ الذي يأْتِي بمعنى إِيضاحِ ضَعْفِ قوةِ النّاس وحِيلتِهم، خصوصاً الأقوياءَ منهم، الذين يَظُنُّونَ أنفُسَهم بما مَلَكَتْ أَيدِيهم من أَدواتِ القَهْرِ والبَطْشِ، قد أصبحُوا في عِزّةٍ ومَنَعَةٍ ومأْمَن.

وفي المعنى زَجْرٌ ووَعِيد: أي إنّ الله تعالى حينَ يسْأَلَهُم هَلْ أصبحُوا في مأمَن، فإنه يُنَبِّهُهُم في الوقتِ عينِهِ، أنهم ليسُوا في مَأْمَن، وإِذْ يَذْكُرُ لهُمُ الغاشية من عذابِ الله، فإنه يُذَكِّرُهُم بأنّ غيرَهُم مِمّنْ سَبَقَهُم قد أصابَتْه غَاشِيَةٌ حينَ طَغَى وبَغَى وتَكَبَّرَ وتَجبَّر، وعلى أُولي الألبابِ أنْ يَتّعِظُوا ويَعْتَبِرُوا.

اللطيفة الثانية: في لَحْظِنَا لدقَةِ التعبيرِ القُرآنيِّ في قولِ الله تعالى:

﴿**أنْ تأْتِيَهُمْ غاشيةٌ مِنْ عذابِ الله**﴾.

فحيثُ أنّ المقصُودَ منَ الآيةِ هو الزّجْرُ والوعيد، فقد جاءَ حرفُ الجَرِّ «من» للتبعيض، ونفهمُ أنَّ الغاشيةَ هي بعضٌ مِنْ عذابِ الله تعالى.

وقد أعَدَّ الله تعالى للكافرينَ المعاندين في جَهَنّمَ مِنَ العذابِ ما لا يُحْصُونَ شِدَّتَه، فويلٌ لهم مما قدَّمَتْ أَيدِيهِم لأَنفسِهم مِنَ الشِدّة.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لبعضِ ما نراهُ حَوْلَنا مِنْ قوةِ الله تعالى وحَوْلِه في

ما أجرَى مِنْ آياتٍ نَراها بينَ حينٍ وآخر، ومنها نُدْرِكُ أنّ الله تعالى إنْ شاءَ لم يُبْقِ على الأرضِ منَ الكافرينَ ديَّارًا، وإنْ شاءَ لاستَبْدَلَنا جميعاً بخَلْقٍ آخرينَ:

فمِنْ مَعَالمِ قُدرةِ الله تعالى تَسخيرُ الرِياح، التي تنقَلِبُ فَجْأَةً إلى زَوَابعَ وأَعاصير، لا يصْمُدُ في وَجْهِها شيء، وتصبحُ الكُتَلُ الصَخْرِيّةُ الضَخْمَة وكأنّها رِيشٌ تَذْرُوهُ الرِياح، وتأخُذُ في طريقِها البيوتَ والقُرَى، ولا تُوجَدُ أيةُ قوةٍ على وَجْهِ الأرض، تَقِفُ في وَجْهِها. .

ومِنْ معالم قُدرةِ الله تعالى في الأرض، ثَوَرانُ البراكينِ بعدَ طُولِ رُقَادٍ، فتَقْذِفُ الحِمَمَ واللّهَبَ إلى أماكنَ بعيدةٍ جداً، وتَصْهَرُ الصَخْرَ والجبال، وتُحَوِّلُها أنهاراً مِنَ النار، تَلتَهِمُ في طريقِها كُلَّ شيء، وتَمسَحُ عنْ وجْهِ الأرضِ قُرىً بكامِلِهَا في لحظَات، ولا يستطيعون أمامها فِعلَ أيِّ شيءٍ على الإطلاق.

ومِنْ معالم قُدرة الله تعالى في الأرض، حدوثُ الزَّلازِل والهزَّات؛ وكَمْ رأيْنَا ونَرى أنّ ثانيةً واحدةً مِنَ الزلزال، تترُكُ خَلْفَها عَشراتِ الأُلوف منَ النَّاسِ صَرْعَى، وقد تَحوَّلَتْ قُراهُمْ إلى رُكامٍ وأَنقاض. .

ومِنْ معالِمِ قُدرةِ الله تعالى في الأَرض، أنْ يجعلَ إنْ شاءَ الغيثَ الذي يُغاثُ به الناس، ومِنْهُ يَشرَبُونَ وبه يسْقُون ويَزرَعُون، سُيولاً جارفةً ذات قُوّةٍ هائلة، تأخُذُ مَعَها كُلّ ما تَمرُّ عليه في طريقها، ولا ينفعُ مَعَها سُدودٌ ولا حَواجِزُ ولا سَوَاتِر.

هذا بعضٌ مما تَرى أَعيُنُنا وتسمَعُ آذانُنا في مشارقِ الأَرضِ ومَغَارِبها، فكيفَ نحنُ بما أُخبِرْنا به ولم نَرَهُ مِنَ النّوازِلِ التي نَزَلَتْ بِمَنْ سَبقَ قَبْلَنا مِنَ الأُممِ التي عَصَتْ رَبّها، فأنزلَ عليها مِنْ أصنافِ العذابِ ما لم تَحْتَسِبْ له، فَسُحِقَتْ عن وَجْهِ الأرضِ في لَمْحِ البَصَر، وبقيتْ آثارُها شاهدةً على أَنّ أُمماً قَبْلَنا قَدْ سَلَكَتْ مَسْلَكَ المَعْصِيةِ، فأتاها العَذاب، ولم تَكُنْ بمأمَن.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿أو تأتِيهِمُ الساعةُ بَغتةً وهُمْ لا يَشْعُرون﴾**.

أمّا مَجيءُ الساعة، فذاكَ هو الوعدُ الحَقُّ الذي لنْ يَفِرَّ منه مَخْلُوق، وذاك يومُ الفَصْلِ الذي يُفرَقُ فيه كُلُّ أَمْر، وهو سَيَطَالُ الكُرةَ الأَرضيةَ بكامِلِها. وسيُصيبُ البَشريَة بأكْمَلِها أكْثَرُ من ذلك، سيجتمعُ كُلُّ طُغاةِ الأرضِ منْ أوَّلِ البشريةِ إلى آخرِها في صعيدٍ واحد معَ كُلِّ الناس في محشرٍ واحد، ويَأْخُذُ كُلُّ واحدٍ منهم صَحيفةَ أعمالِه ويَقْرَأُها: الجبارون، والمتكبرون، والكافرون، والمشركون، والمعاندون، والمبارزون، والكاذبون، والمكذِّبون: كُلُّ واحدٍ منهم يأتي وحيداً راجِفاً ذَليلاً يقرأُ سِجِلَّ حَياتِه على مَسْمَعٍ مِنَ الناسِ ومَرْأى، فسبحانَ الله العادِلِ الذي لا يُضِيعُ مِثقالَ ذَرةٍ في الأرضِ ولا في السماء، وهو الحكيمُ الخبير.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانيةِ، موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿قل هذه سبيلي أَدْعُوا إلى الله على بصيرةٍ أنا ومَنِ اتبعني وسُبحانَ الله وما أنا مِنَ المشركين﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: لُغوية، في وقوفِنا عندَ كلمةِ **﴿سَبيلي﴾**، وقد جاءَت في هذه الآية مُؤَنَّثَة، وهذه مِنْ طَواعيةِ الُّلغةِ العربيةِ ومُرونَتِها، وتأْتي أيضاً بصيغةِ المُذَكَّر، وتؤدِّي المعنى ذاته، ويُحَدِّدُ سِياقُ العِبارةِ التذكيرَ أو التأْنيث، ونحن نقرأُ في الآيةِ السادسةِ والأربعينَ بعدَ المائةِ من سورة الأَعراف، قَوْلَ الله تعالى: **﴿وإنْ يَرَوا سَبيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوه سبيلاً وإنْ يَرَوا سبيلَ الغَيِّ يَتَخِذُوهُ سبيلا﴾**.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عند كلمةِ بصيرة، ونتساءَلُ عَنْ مَعْنَى وُرُودِها في وَصْفِ الدعوةِ إلى الله تعالى.

فالبصرُ هو النظرُ الذي يُمَكِّنُنا مِنْ إدراكِ كُنْهِ المحسُوسَاتِ القابلةِ لعكسِ موجاتِ الضوء، ضِمْنَ حَيِّزِ الالتقاطِ المغرُوسِ في عُيونِنا.

والبصيرةُ هي إدراكُ معنى الأُمورُ الحِسّيَةِ والمعنوية، المرئيةِ أو المسموعةِ أو المعقولةِ، ثم عَرْضُها على مِيزَانِ القَبولِ أو الرفض، إمّا تَطَابُقاً وإما تَضَادّاً، ثم صَبْغُها بلونِ الاستحسانِ أو الاستهجان، وهي بالتالي مسألةٌ بالغةُ الدِّقة، فإذا جاءَتْ في الآيةِ الكريمةِ لِتكونَ الصِيغَةِ المختارة للدعوة إلى الله تعالى، فإنها تجعلُ مِنْ هذه الدعوةِ أمراً ذا شأنٍ عالٍ، لا يَقْتَصِرُ عُلُوُّ شأْنِهِ على الرسولِ الكريمِ عليه أفضلُ الصلاةِ وأَتمُّ التسليم، بل تَنْسَاقُ على كُلِّ الدُّعاةِ مِمّنْ تَبِعه لقولِه تعالى: **﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتبعَنِي﴾**، وهي تستَحِقُّ مِنْ كلِّ الدُّعاةِ الانتباهِ الشديدَ إلى أنّ الدعوةَ إلى الله تعالى، يجبُ أنْ تكونَ على بصيرة.

ومِنْ أركانِها: القُدرةُ على رُؤْيةِ الواقعِ الذي يَدْعُو فيه إلى الله تعالى، بوضوحٍ ونَقَاءٍ وتَجرُّد.

ومِنْ أركانِها: القُدرةُ على ضبطِ النفس حتى تَسْمَعَ مِنَ الآخرينَ كُلّ ما يَشاؤُون قولَه، دونَ اضطرابٍ أو هِيَاج.

ومِن أركانِها: أسلوبُ حوارٍ مُقْنِع، يُرَقِّقُ أسوارَ الرفضِ عِنْدَ المدعُوّ حتى تتهاوَى وتَذْوِي..

ومِنْ أركانِها: الصبرُ حتى يحصُلَ القَبول، والصَبرُ على الأَذى حتى لا تَتُوقَ النفس إلى الثأرِ لِذَاتِها.

ومِنْ أركانِها: حُبُّ الناس، وإرادةُ تَخْلِيصهم مِنْ سوءِ المآل بعدَ الحسابِ.

فَلْيَعْلَمِ الدُّعاةُ أنّ عليهم مهمة بناءِ أنفسِهم قبلَ أنْ يتوجَّهُوا إلى الناس.

اللطيفة الثالثة: في ملاحظتِنا أنّ الآيةَ الكريمة، جاءَتْ لِتُشَدِّدَ الوعيدَ على المشركين، حتى لا يُظَنَّ أنّ الإشراكَ أَقَلُّ جُرماً مِنَ التكذيبِ والإلحادِ وتأتي مباشرةً بعدَ قولِ الله تعالى: ﴿**وما يُؤمِنُ أكثرُهم بالله إلا وهُمْ مُشرِكُون**﴾.

فتَدَرَّجَتْ في توكيدِ المعنى على ثلاثِ دَرَجات:

الدرجةُ الأُولى: في إيضاحِ مَنْهَجِ الدعوةِ إلى الله تعالى على بصيرة..

والدرجةُ الثانية: في قوله: ﴿**وسُبحانَ الله**﴾، لِبيَانِ مَعنى أنّي أُنَزِّهُهُ سبحانَه وتعالى، تَنْزِيهاً مُطْلَقاً مِنَ الشركاء.

والدرجةُ الثالثة: التعبيرُ اللَّفظِيُّ في قوله: ﴿**وما أنا مِنَ المُشرِكِين**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن عذاب الله تعالى ليس ببعيد عن الناس في دنياهم، وأن قضاءه واقع ومكتوب منذ الأزل وأن هذه المعرفة يجب أن تقودهم إلى حال من اليقظة والحذر والإستعداد الدائم للإنتقال المفاجىء من حال الكسب والتحصيل إلى حال انقطاع العمل والإستعداد للحساب.

٢ - للدلالة على وجوب انتهاج منهج علمي سليم للدعوة إلى الله تعالى. وهذا علم شامل كامل، يجب على الداعية معرفته واتقانه قبل النزول إلى ساحة الدعوة، فلا تنجح دعوة مبنية على الإندفاع وقد أغفلت البصيرة، وهو علم دقيق يحتاج صبراً، وتهذيباً وأدباً وتعمقاً في فهم النفس البشرية، ويا حبذا، لو تكون هناك مناهج علمية، وامتحانات دقيقة ومباريات صعبة ولجان فاحصة، حتى يكون الداعية حقاً، نوراً يسعى على الأرض.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٩]

تَخْتَصِرُ هاتانِ الآيتانِ، أخي المؤمن، صِفاتِ المرسلَينَ الكِرام عليهِم الصلاةُ والسلام، وتَحْكِي لنا قِصَّةَ الرِسالةِ بكامِلها، مِنْ أَوَّلِ نبيٍّ مُرسلٍ إلى خاتمِ الأَنبياءِ والمرسلين، محمدٍ عليه أفضلُ الصلاةِ وأَتمُّ التسليم.

فلْنتأمَّلِ الآيتين.

يقولُ الله تعالى: ﴿**وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلا رجالاً نُوحي إليهم من أهلِ القُرى أَفلم يَسيرُوا في الأرضِ فينظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلِهم ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين اتَّقَوا أفلا تَعْقِلُون**﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لحظِنا لأداةِ الحَصْرِ والاستثناءِ في قولهِ تعالى:

﴿**وما أرسَلْنا مِنْ قَبْلِك إلا رجالاً**﴾.

ونَفْهَمُ مِنْ هذا الأسلوبِ اللُّغويّ أنّ الله سبحانه وتعالى قد وَضَعَ قواعدَ الرسالةِ وصفاتِ المُرْسَلِينَ، وهي تتلَّخصُ بالتالي:

الرسولُ رَجُل اخْتَارَهُ الله تعالى مِنْ بني البَشر مِنْ بينِ قومِه، ولَمْ يُرْسِلْ للنّاسِ ملائكة، أو مِنْ أهلِ الجِنّ، مَنْ يُعَلِّمُونَهم أُمورَ دِينهِم، والغريبُ في

الأمر، أنّ بعضَ الناسِ طَلَبُوا هذا المطلب، فقالوا كما في الآيةِ الثامنةِ من سورةِ الأَنعام:

﴿وقالوا لولا أُنزِلَ عليه مَلَك ولو أَنزَلْنا مَلَكاً لَقُضِي الأمرُ ثم لا ينظَرون﴾، وكذلك في الآيةِ الحاديةِ والعشرينَ من سورةِ الفُرقان: **﴿وقال الذينَ لا يَرْجُونَ لقاءَنا لولا أُنزِلَ علينا الملائكة أو نَرى رَبَّنا لقدِ اسْتَكْبَرُوا في أَنفسهم وعتو عتواً كبيراً﴾**.

ثم إنَّ الرسولَ يتلقى العِلْمَ عنِ الله تعالى بالوحي، وتلكَ خَاصَّةٌ فريدةٌ يَتميزُ بها عن بقيةِ الخَلْقِ في التلقّي، وتتجَاوَزُ المعروفَ والمُعتادَ بينَ الناس في أَساليبِ المعرفة، وما يُمَيِّزُها هو خُلُوُّها مِنْ عيوبِ وسائلِ التلقّي، المعروفة، مِنْ سَمْعٍ وبَصَرٍ وَلمسٍ وشَمٍ وذَوق، وكلُّها عُرضَةٌ لحصولِ الخَطأِ أو الظَنّ، أو تعدد احتمالاتِ الحقيقة. أما في الوحي، فهي الحقيقةُ المُطلَقة، الخاليةُ مِنَ الشوائبِ، الواضحةِ النّاصِعَةِ الجَليّة، وقد تَكَفَّلَ الله تعالى بقُدْرتِهِ العَلِيّة أنْ يحفظَ الوحيَ مِنْ طَوارىء سُنَّتِه في خَلْقِهِ، فمَنَعَ عَنِ الرسولِ الخطأَ أو النسيانَ فيما يتعلَّقُ بالوحي، إلا أنّه أجرى عليه سُنَّتَهُ فيما سِوَى ذلك على ما سنرى في الآيةِ الثانية، موضوعِ تأمُّلِنا اليومَ..

ثم إنّ الله تعالى شاءَ أنْ يكونَ الرسولُ مِنْ أهلِ القُرى، أي مِمّنْ أقامُوا في أماكنَ ثابتة، لِمَا في الثّباتِ مِنْ هدوءٍ واستقرار..

وتكونَ مصدرَ انطلاقٍ للدعوة، ومكان استقطابٍ للوافدين مِنَ الأَمصار، ولِمَا لأَهلِ القُرى والمدنِ مِنْ مُواصفاتِ المُجْتَمَعِ المَدَنِيِّ المتكامل مِنْ أنظمةٍ ثابتة، ومصادرِ مَعِيشَةٍ ثابتة، ونزوعٍ نحوَ التقدُّمِ والرُّقي، ورغبةٍ في تجميعِ مُكْتَسَباتِ الحَضارةِ وتَدوِينِها.

اللطيفة الثانية: في لَحظِنا لعودةِ أُسلوبِ الاستفهامِ الإنكارِيِّ في الآية مَعَ

قولِ الله تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَسيرُوا في الأرضِ فينظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلِهم﴾**.

ويعودُ هذا الاستفهامِ ليَرْفَعُ مِنْ مسْتَوى التحفيزِ الذِهنيِّ والإعمالِ الفِكرِيِّ للقارىءِ والمستمعِ بعدَ أن كانَ ارتفعَ إليه معَ قولِ الله تعالى في الآياتِ السابقة: **﴿أفأَمِنُوا أن تأتِيهم غاشيةٌ مِنْ عذابِ الله أو تأتِيَهُمُ الساعةُ بَغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرون﴾**.

وهذا الأسلوبُ في هذه الآيات الأخيرةِ يُعيدُنا إلى الأجواءِ المَكيّةِ التي نزَلَتْ فيها السورة، حَمْلاً للمُشركينَ على إعمالِ العَقْلِ وتغليبِ المَنْطِق على انجذابِ العَصبيةِ والعَاطِفةِ والانفعالِ، وينقُلُنا نحنُ إلى مُستوىً أرقى في التعامُلِ معَ القناعاتِ والمعَتقدات، وعَرضِها دائماً على ميزانِ العقلِ والمَنْطِق.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ قولِ الله تعالى: **﴿أفلم يَسيرُوا في الأرضِ فيَنظُروا﴾**.

إنها دعوةٌ للناسِ للبحثِ والتنقيبِ وفيها إرساءٌ لِعلْمِ الآثار، بل أقولُ لكثيرٍ مِنَ العُلومِ الحديثة، كعِلمِ الأنتربولوجيا، وعلم تاريخِ القرونِ الغَابِرة التي تقومُ على الإفادَةِ مِنْ بقايا ما تَرَكَهُ الأقدمون للتعرُّفِ على أَحوالِهم بالاستقصاءِ والبحث، والتنقيبِ والاستنتاج معَ غيابِ الآثارِ المُدَوَّنة.

ولقد أعْلَمَنا الله تعالى عَنْ هذه الأُمَمِ الغابِرَةِ في القرآن الكريم، وإن كنّا قد بدأنا نكتشِفُ آثارَها حديثاً، لتأتِي هذه الاكتشافاتُ لِتُؤكِدَ صِدْقَ بيانِ القرآنِ الكريم عن أُمورٍ غيبيةٍ ما شَهِدْناها..

ومن الأمثلة: حالُ فِرعونَ معَ قومِهِ وحالُ نبيِّ الله نُوحٍ عليه السلامُ معَ قَوْمِه، وحالُ عادٍ معَ نَبِيِّهم هودٍ عليه السلام، وحالُ ثمودٍ معَ نبيِّهم صالحٍ عليه السلام، وحالُ نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام معَ قومِه وحالُ إبراهيمَ عليه السلام معَ

قومِه، وحالُ موسى عليه السلامُ معَ قومِه، وكثيرٌ منَ الأنبياءِ والرُّسُل الكرام الذين قَصَّ علينا القرآن الكريمُ منْ قَصَصِهم، وذَكَر لنا أحوالِهم عِظةً وعِبرةً، فإذا ما جَاءَتِ العلومُ الحديثة، بكُلِّ وَسائِلها وأجهزةِ الاكتشافِ الضوئيةِ والإلكترونيةِ الفائقةِ الدقة، ومِجَسَّاتِ المَسحِ الجيولوجي، وكاسحاتِ الطّبقاتِ الأرضية، وأدواتِ الرصدِ الذّريّةِ، إنمّا جَاءَتْ كلُّها لِتُرْضِيَ حُبَّ المعرفةِ، والاستكشافِ الذي غَرَسَهُ الله تعالى فينا في قوله لنا: ﴿**أفلَمْ يَسِيروا في الأرضِ فَينظُروا**﴾.

اللطيفة الرابعة: في مُلاحظتِنا للقَاعدةِ القُرآنيةِ التي أَرستها الآيةُ الكريمة، ومُفَادُها: أنّ كُلَّ عملٍ يَجِبُ أنْ يَهْدِفَ إلى غايةٍ تَعْقُبُه، ولا يُقبَلُ عَملٌ أُنجِزَ هَدْراً، فإذا حَثَّتِ الآيةُ الكريمةُ النّاسِ على إعمالِ الفِكرِ والعقلِ والجُهْدِ لمعرفةِ أحوالِ الأُممِ السابقة فإنما ذلك يَهْدِفُ إلى استخلاصِ العِبَرِ مِنْ مصيرِ الأُممِ البائدة: لقد كانَتْ عاقبةُ الأُممِ العاصية وخيمةً وَبِيلةً، فأصابَ الغَرَقُ والطُّوفانُ قومَ نوحٍ عليه السلام، وأصابَ قومَ هودٍ عليه السلام الرِجسُ والغضَب، وأصابَ قومَ صالحٍ عليه السلامُ الرّجْفَة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، وأصابَ قومَ لوطٍ عليه السلامُ مَطَرُ السَوْءِ فأُغرِقُوا، وأصابَ قومَ شُعيبٍ عليه السلامُ الرّجْفَةُ ومَوْتُ الفُجأة، فما نجا مِنهم من أَحد، ولقد عَلِمنا ما كان حالَ فرعونَ إذ تكَبَّرَ وتعالى في الأرض، فأَخْرَجَهُ الله تعالى مِنَ النعيم الذي عاشَه، وأَغرَقَهُ في اليمِّ شَرَّ مِيتة.

ولا تترُكنا الآيةُ الكريمةُ مِنْ غيرِ ما إرشاد، فهي تنتهي بقولِ الله تعالى: ﴿**ولدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين اتقَوا أفلا تَعقِلُون**﴾.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**حتى إذا استيأَسَ الرُسُلُ وظَنُّوا أنّهم قد كُذِبُوا جاءَهُم نَصْرُنا فنُجِّي من نشاء ولا يُرَدُّ بأسُنا عنِ القَومِ المُجرِمين**﴾.

في هذه الآيةِ لطائف عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفنا عند كلمة ﴿**استيأَسَ الرُسُل**﴾، وهي زَاخِرةٌ بالمعاني:

فهي تُوضِحُ لنا إنسانيةَ الرُسُل حتى وإنْ كانُوا ممَنْ اصطَفَى الله تعالى مِنَ الخَلْقِ.

وهم، وإن جاءَهُمْ عِلْمُ الشَرْعِ بالوحي، فإنْ ذلك لم يمنَعْ عَنْهُمْ أن يشْعُرُوا بِما يَشْعُرُ به النّاس مِنْ جُوعٍ وظَمأً، من ألمٍ وأذِيَّةٍ، مِنْ أملٍ واستبشار، وإحباطٍ وحُزنٍ، وهُم كما وصَفَهُمُ الله تعالى، يأكلُونَ الطعامَ ويَمْشُونَ في الأسواق.

فإذا حَمَلُوا الرسالةَ وطافُوا على الناسِ يُبَلِّغُونَهُم، فَهُم لم يَضْمَنُوا سُرعَةَ الاستجابة، ولا يقينَ القَبول، ولم يُؤخَذُوا بالإحضان، بل رُجِمُوا بالحجارةِ فصَبَرُوا وجَالَدُوا وجَاهَدُوا وتَحمّلُوا كُلَّ أصْنافِ الرّفْضِ والإذلالِ والعَذاب.

ولأنَهُم بشَر، فلقدْ أجرى الله تعالى عليهم سُنّتَهُ في القُدرةِ على الاحتمالِ لذلك جاءَتْ العِبارةُ بصيغةِ المبالغة، في قولِ الله تعالى، ﴿**استيأس الرُسُل**﴾.

اللطيفة الثانية: في فَهمِنا للإشارةِ اللطيفة المُرْسَلَةِ لرسول الله ﷺ، إيناساً وتَطْميناً في هذا الظرفِ الصّعبِ مِنْ مُعانَدةِ قومِه، ورَفْضِهِمُ الإيمانَ والتّصديق، وقد بلَغَ به الإحصارُ مَبْلَغاً عالياً في قولِ الله تعالى: ﴿**وظَنّوا أنهم قد كُذِبُوا جاءَهُم نَصْرُنا**﴾.

ولقد صَدقَ الله تعالى رسولَه، وإن كانَ في هذه اللحظات، لا يَرى النَّصر، وإنما رأى في الإشارَةِ القُرآنيةِ تَثبيتاً لِقَلْبِهِ وأنه سيكونُ له ما كان للرُسُلِ مِنْ قَبْلِهِ.

اللطيفة الثالثة: في عُمقِ المعنى الذي حَمَلتهُ عِبارة: ﴿**ولا يُرَدُّ بأسُنا عَنِ القَومِ المُجرمين**﴾.

فهي تحملُ القولَ الفصلَ الحاسِمَ والجازم في انعدامِ حيلةِ القومِ المُجرمينَ مَهْمَا اشْتَدَّتْ وتَعَالَتْ، وهذا تدليلٌ على قصور عُقولِ المُعَانِدِين، حتى وَلو بَلَغوا شأواً عالياً في العِلْم، حتى ولو بَلَغتْ بِهمُ القُوةُ والمَنَعَةُ إلى حُدودِ الخيالِ، فهم ضُعفاءُ أذِلاّء، وقد سَبقَ ورَأيْنا كيف أنّ بعضَ آياتِ الله تعالى في الأَرض، لو شاءَ أنْ يُرْسِلَها على الناس، لغَدَتْ دِفَاعَاتُهم وحَصونُهم أوْهَى مِنْ بيتِ العنكبوت.

ومن جميلِ الصُّورِ التي يُعْلِمُنا بها القرآنُ الكريم إجتهادُ ولَدِ نُوحِ الذي رَفَضَ أنْ يُؤمِنَ بالله تعالى، ودَعاهُ نوحٌ عليه السلام إلى النّجاةِ في الفُلْك، إذْ قال: **﴿سآوِي إلى جبلٍ يَعْصِمُني مِنَ الماء قال لا عَاصِمَ اليومَ مِنْ أمرِ الله إلا مَنْ رَحِم وحالَ بينهُما الموجُ فكانَ مِنَ المُغْرَقِين﴾**(١).

مواطن الإسترشاد بالآيات في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب أخذ العبرة من أحوال الأمم السابقة، بل وجوب التعرف، ولو جزئياً على ما كان منهم، وما كان مآلهم، وجميل منا أن نُبَسّط علوم الآثار، لتدعم أساس معرفتنا القرآنية عن أحوال الأمم الغابرة، وكيف كان عقابها حين بغت وتكبرت وظنت أنها بلغت أوج القوة، وهي في الحقيقة في أضعف حال، حتى تدرك أن ظاهر القوة التي نراها في الأمم المتكبرة المتجبرة في عصرنا، لا يختلف عما كانت عليه سالفتها، وقد قسمها الله تعالى وهدّ جبروتها، فتكون لنا تهذيباً وعظة وعبرة.

٢ - للدلالة على أن نصر الله تعالى للمستضعفين من المؤمنين آتٍ لا محالة، شرط أن يكونوا حقاً جديرين بهذا النصر، وهو أن يحققوا في أنفسهم شرط الصلاح والتقى، وأن يكونوا حقاً مخلصين لله تعالى، وقد أسقطوا عنهم كل أسباب الركون إلى الأرض، وقد طهروا أنفسهم من الحرام والربا، وأصلحوا العلاقة مع الله تعالى، في سرهم وجهرهم.

(١) [سورة هود، الآية: ٤٣].

ثم يقول الله تعالى في آخر آية من السورة:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٨٠]

تَصِلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن إلى نهايةِ سُورةِ يوسفَ عليه السلام، وهي تحملُ وصفاً جامعاً شاملاً للقرآن الكريم تَنْطَلِقُ مِنْ جُزئيةِ القَصَصِ الواردِ فيه إلى كُليةِ الهُدى والرحمة، وهي بذلك تَنْدَرِجُ ضمنَ الآياتِ الكُليةِ في القرآن الكريم.

فلنبدأ بتأمُّل الآيةِ الكريمة.

يقولُ الله تعالى: **﴿لقد كانَ في قَصصِهم عِبرةٌ لأولي الألباب﴾**.

في هذا الشَطْرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لهذا التناسُقِ التامِّ بينَ آيات السُّورةِ الواحدة، ثم التّناسُقِ التامِّ في كُلِّ سُوَرِ القرآن الكريم، فبالعودةِ إلى بدايةِ سُورةِ يُوسُف، نقرأُ في الآيةِ الثالثة: **﴿نَحنُ نَقُصُّ عليكَ أحْسَنَ القَصَصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآن﴾**[1].

وفي آخر السورةِ نقرأ: **﴿لقد كانَ في قَصَصِهم عِبرةٌ لأُولي الألباب﴾**، فإذا بميزانِ التّوازُنُ يَكْتَمِلُ ما بينَ بدايةِ السُورةِ ونهايتِها، وكُنّا قد رَأينا كيفَ أنّ الوِعاءَ الكبيرَ قدِ اكتَمَلَ بعدَ أن اكتَمَل الوِعاءُ الأصغرُ.

فسبحانَ الله العظيمِ الذي جعلَ في القرآنِ الكريم الآيةَ الكُبرى لمَنْ كانَ له قلبٌ أو أَلقى السَمْعَ وهو شهيد.

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣].

اللطيفةُ الثانية: في وقُوفِنا عندَ كلمةِ ﴿قَصَصِهِم﴾: فما وَرَدَ معَنا على مَدارِ السُّورة، هي قِصَّةٌ واحدة، قِصةُ يوسفُ عليه السلام، لكنّ هذه القِصة، بما تَحْويهِ مِنْ وَصْفٍ دقيقٍ لِتَقَلُّباتِ حالِ النّفسِ الإنسانية، مَلأى بالقِصَصِ الفرعية، كلُّ قصةٍ مِنْها تُظْهِرُ جانباً مِنْ جوانبِ حياةِ الإنسانِ، وتفاعُلَهُ معَ الأحداث، وكم وَقَفْنا مِنْ وَقَفاتٍ معَ يعقوبَ عليه السلام، وهو يُقاوِمُ رَغبَةَ أبنائه بانتزاعِ ابنهِ منه، ثم يبينُ شعورَه، بعدَ فقدِه، ثم صَبْرَه على الفَقْد، ثم انشغالَه بتأمينِ القُوت، ثم رَفْضَهُ تَكْرارَ التجربَةِ مع الابنِ الأَصغر، ثم اشتدادَ الضّغطِ عليه، ثم قبولَ الانتزاعِ الثاني، ثم اشتدادَ الأزمةِ بِفقْدِ الابنِ الثاني، ثم تَجدُّدَ الأَملِ بعودةِ الغائبينَ، ثم مجيءَ البشير بقميصِ يوسفَ عليه السلام، ثم اجتماعَ الشَمْل.

هذه قصةٌ أُولى تُواكِبُها قِصةُ الأبناءِ في تَقَلُّبهم وتَغَيُّرِ أحوالِهم ونَراهُمْ يأْتمِرونَ بيوسفَ عليه السلام، ثم يَنْطَلِقُونَ في تَصرُّفٍ عَمَلِي يَتماشَى معَ تبييتِ نِيَّةٍ وإظهارِ عَكْسِها، ثم يتصاعَدُ فِعْلُهم بتركِ يوسفَ عليه السلامُ في غَيابَاتِ الجُبّ، ثم مَشْهَدُ التمثيلِ وإظهارِ الحُزْنِ، ثم بقاءُ أمرِ مَصيرِ يوسفَ عليه السلامُ مُعَلَّقاً في حَقِّهم، ثمَّ إحصارُ ضِيقِ القُوت، ثم السعيُ إلى مِصْرَ لإحضارِ الطعام، ثم سُقُوطُهم في خُيوطِ خُطَّةِ يوسفَ عليه السلام، ثم تفاعُلُهم دونَ مَعرفةٍ منهم معَ خُطَّتِه، ثم شِدَّةُ تَعَلُّقِهم بتنفيذِ خُطَّتِه بإحضارِ الأَخِ الأصغر، ثم تَلَبُّسُهم بحُكْمِ استرقاقِ السَارِقِ، ثم وقوعِ هذا الحُكْمُ بهم، ثم اشتدادُ الضِّيقِ والإحصارِ عليهم، ثم بَدْءُ التحوُّلِ الجَذْرِيِّ في قواعدِ تَصرُّفِهم، ثم الارتقاءُ إلى مرتبةِ التضحِية، ثم عناءُ الانتقالِ المَكُّوكِيِّ، ثم شعورُ الانكسار، والاعترافُ بين يديَ يوسفَ عليه السلام، ثم سعادةُ اجتماع شَمْلِ العائلة.

وبالتوازِي معَ هاتين القِصَّتين، كُنّا نَسيرُ مع قصَّةِ يوسفَ عليه السلام حينَ

كانَ فتىً غَضّاً طَرِيّاً وقد انتُزِعَ بقَسوةٍ مِنْ حِضْنِ وحنانِ وعاطفةِ أبيه، وأُلقي في غَياباتِ جُبٍّ مُظلم، في صحراءَ مُوْحِشَة، ثم تَنَقُّلُهُ بينَ أيدي التُّجَار، ثم اختلاطُه مع العبيد في أسواقِ العبيد، ثم انتقالُه إلى بيتِ عزيزِ مِصْر، ثم الفِتنةِ واتهامُ الظُلْم، ثم اشتدادُ طَوْقِ الفِتنة ثم سِجْنُ الظُلم، ثم تأويلُ الرُّؤى، ثم اللَّبْثُ في السِجْنِ بِضْعَ سِنينَ مَنسِيّا، ثم تَحرُّكُ الأحداثِ بسرعةٍ مع رؤيا الملك، ثم الاندفاعُ الهائلُ نحوَ القمّة، ثم حياةُ السياسة والدِّرايَةِ والحُنْكَةِ والاقتصاد، ثم تَرصُّدُ مجيء الإخوة، ثم إطلاقُ الخُطّةِ الصعبةِ المُعَقّدةِ المُحْكَمَةِ، ثمّ الرِّضى بحُسنِ سَيْرِها، ثم لقاءُ الأخِ الأصغرِ، ثم إرسالُ الإشارات إلى الأبُ الحزين، ثم الصَبْرُ حتى يَبْلُغَ الإخوةُ كاملَ النّقاءِ والصّفاءِ الذي يَرْجُو، ثم إرسالُ البشيرِ إلى الأب، إيذاناً ببدءِ انتهاءِ المِحنةِ، ثم اجتماعُ الشمل أخيراً.

الآن نفهمُ معنى قولِ الله تعالى: ﴿**لقد كانَ في قَصَصِهم عِبْرَةٌ لأُولي الألباب**﴾.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لقولِ الله تعالى: ﴿**لأُولي الألباب**﴾، وما أجملَ التعبيرَ القرآنيّ في مُخاطبةِ الإنسان مع ما يَحْمِلَهُ هذا التعبير مِنْ غزيرِ المعاني:

فهو يقولُ لنا: إن شَرَف تأمُّلِ وتَدَبُّرِ آي القرآن الكريم، يَحُوزُهُ مَنِ ارتقى إلى درجةٍ رفيعةٍ في الإنسانية، وحَصَّلَ لَقَبَ أُولي الألباب.

وهو إذ يُشَرِّفُنا بِحَمْلِ هذا اللّقب، يَحُثُّنا على العمل به، فنعملُ العقلَ في الفَهْمِ والوعي، ومراكزِ العَرْضِ في المُقارَنةِ والمُقابلة، ومراكزِ الذّاكرة في الاسترجاعِ والتّعقُّب، ومراكزِ العاطفةِ في التّمتُّع والتذوُّق،ومراكزِ الحِفْظِ في الترتيبِ والتنسيق، ومراكزِ الحواسِّ في الالتقاطِ وجَمْعِ المعلومات، ثم نَسْكُبُ كُلَّ ذلك على القَلْب، حتى تُلَيِّنَ قَسْوَتَه، وتُذْهِبَ بأسَهُ، وتَرْفَعَ مِنْ درجةِ إيمانِهِ.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿ما كانَ حديثاً يُفتَرى ولكنْ تَصدِيقَ الذي بينَ يديهِ وتَفْصيلَ كُلِّ شيءٍ وهُدَىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لهذا التدَرُّج الرائعِ في وَصْفِ القرآنِ الكريم، **وذلك على خَمسِ مراحل:**

المرحلةُ الأولى: في إثباتِ أنه مِنْ عندِ الله تعالى.

المرحلةُ الثانية: في أنه ما جاءَ لِيَنْقُضَ الكُتُبَ والرِسالاتِ الإلهيةِ السابقةِ عليه، بل جاءَ لِيُؤَكِّدُها.

المرحلةُ الثالثة: أنه الكتابُ الجامعُ الشامِل.

المرحلةُ الرابعة: أنّ فيه الهُدَى إلى الصراطِ المستقيم.

المرحلةُ الخامسة: أنه الرحمةُ مِنَ الله تعالى إلى النَّاسِ.

اللطيفة الثانية: في لَحظِنا لهذا الإعجازِ في الإيجازِ، بقولِهِ تعالى:

﴿ما كانَ حديثاً يُفتَرى ولكنْ تَصْدِيقَ الذي بينَ يديه﴾.

وقد عَلِمْنا أنّ المُشرِكينَ في مكة، كانُوا قد تَألّبُوا مع اليهودِ ضِدّ أشرف الخلق وحبيب الحق رَسولِ الله ﷺ في صراعٍ مريرٍ يائس يُحاوِلُونَ بكُلِّ وسائلِ المَكْرِ والتكذيب، صَدّ النَّاس عَنْ نورِ الهِدَاية.

فقالَ المشركون: إنه شاعرٌ مجنون، وقالُوا: أصابَه مَسّ، وقالوا: هو يُصْرَعُ فيَهْرِف، وقالوا: تُعَلِّمهُ الجِنّ، وقالوا: طامعٌ بالرياسة، طامحٌ للسيادة، وقالوا: طَموحٌ يُحِبُّ المالَ وهو فقير.

وقال اليهود: إنما جاءَ لِينْقُضَ التوراةَ والإنجيل، وكُلّ الكُتبِ والرِسالاتِ الإلهية، ليأتِي بشيءٍ مِنْ عِندِه لا يتوافَقُ مع هذه الكُتبِ والرِسالاتِ.

فأتتْ هذه الكلماتُ الوجيزة في هذه الآيةِ لِتَكُمَّ أفواهَهم وتُظْهِرَ كَذِبَهم، وتفْضَحَ تَحْرِيفَهُم، وتُؤَكِّدَ على وَحدَةِ الرسالة على مَرِّ الأزمان، وعلى أُخُوَّةِ الأنبياءِ والمُرْسَلين الكِرام.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ جماليَّةِ وَصْفِ القرآنِ الكريم، الذي معَهُ تنْتَهِي سُورةُ يوسف، بقولِ الله تعالى:

﴿وتفصيلَ كُلِّ شيءٍ وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾.

وكم نَشْعُرُ بالسعادةِ والحُبور، حين نَعْرِفُ أنّ القرآن الكريم جاءَ لنا سَكَناً وطُمَأنِينةً وسلاماً، وحين نَسْمَعُ أنه تَفْصيلٌ لكلِ شيء.

فلم يَدَعِ الله تعالى لنا أمراً مُعَلَّقاً أو مُبْهَماً، وجاءَ الدِّينُ كاملاً مُكَمَّلاً، نَقِياً واضحاً سَلِساً يَسِيراً، مُرْشِداً مُنْجياً.

فكان هدى ونوراً، وعلماً وعملاً، راشداً مرشداً.

وهو فوقَ كُلِّ شيء: **﴿رحمةً لقومٍ يؤمنون﴾.**

فأيَّ خيرٍ يَرْجُو مَنْ أَعرضَ عَنه ونأى؟

أسألُ الله العظيم، ربي وربَّ كُلِّ شيء، أن يَجْعَلَ القرآن الكريم ربيعَ صُدُورِنا وأن يَجْعَلَهُ لنا إماماً ونُوراً وهُدىً ورحمة.

وأسألَهُ أنْ يجعلَ عَملي هذا خَالصاً لوجهِ الكريم، وأنْ ينفَعَ به كُلّ مَنِ استمعَ وقرأ هذه اللطائفَ منْ سورةِ يوسف.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الإسلام حوى كل الشرائع، بما فيها شريعة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ولم يأتِ لينقض الشرائع السابقة بل دعا الناس جميعاً إلى التنعم بتمام الدين وكمال الشرع في الإسلام وهو الذي يجعل اتباعه أقوياء أعزاء بدعوتهم لجميع الخلق للإنظمام إليه، فهو يحب الجميع، ويريدهم جميعاً معه إلى الفلاح والنجاة، والأسف كل الأسف على من تخلف عن اللحاق بركب الخلاص، ولن ينفعه الندم حين يرى الحقيقة.

٢ - للدلالة على أن القرآن الكريم حول كل العلوم وفصّل كل شيء وهو الكتاب الوحيد الباقي إلى يوم الدين، بحر من الكنوز والمعارف والعلوم والفنون، والشرع والفقه، والعبر والقصص، وأخبار الأمم الغابرة، والأنباء عن أحوال الآخرة، وأنه لنعمة كبرى، أنعما الله تعالى علينا، والسعيد حقاً هو من أدرك عِظَم هذه النعمة.

فالحمد والشكر والثناء لله تعالى العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *